

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY



32101 027925518

Princeton University Library

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

--	--

al-Armanāzī, Najīb

al-Siyāsah al-duwalīyah

السياسة الدولية

وأشهر رجالها

القسم الثاني

أقطاب المناهج السياسية

تأليف

الدكتور نجيب الأرمنازي

دمشق ١٩٥٠



تقديم

إذا عدد رجال الدول الذين ابقوا من بعدهم مناهج سياسية ومذاهب مقلدة وخططاً متبعة فانه يأتي في المقدمة مكيفلى ورشليو وتليران ومترنيخ وكانور وبهرستن وبسمرك من اقطاب السياسة التقليدية والواقعية ، اما السياسة المثالية فلا نجد اسماً يقترب منها احدر من الرئيس ولسن الذي اراد ان يقيم في العالم مبادئ جديدة ومناهج حديثة ، يطبق فيها الآراء والقواعد التي يدعو اليها عالماً فيلسوفاً واستاذاً مفكراً وهو رئيس دولة وقائداً ، بدلاً من السياسة القديمة ، القائمة على الدهاء والكيد والقهر والفتح والشدة والعنف ، وكل ما يحتوي عليه الامر الواقع من اكراه وغلبة

على ان الطريقة التي اتبعناها لا يقصد بها الحصر ، اذ لا يقتصر تاريخ السياسة الباهر على هؤلاء وحدهم ، وان كانوا يذكرون بما احدثوه من سنن وتقاليد ، ولجميع الدول سياسيون مشهورون ، وقد عرفت هولندة غروسيوس مؤسس الشرع الدولي وصاحب الكتاب الكبير (حق الحرب والسلم) الذي ألفه في فرنسا وقدمه للويس الثالث عشر ، وقد غلبت عليه الناحية الشرعية اكثر من الناحية السياسية ، وامتاز في انكتره بيت وكانغ وذرثيلي ، وقام في النمسة عدا مترنيخ واندراسي وسواهما من الذين جعلوا السياسة الدولة المثناة شهرة ذائعة ، وقد عد غورشاكوف في روسية مناظراً لبسمرك ، وانجبت لها ثورة ١٩١٧ نمطاً جديداً من الدهاء الذين خلعوا على سياستهم الواقعية برود المثالية الشيوعية .

2264

15

386

٧٠٢

ولم يدع العالم الجديد للعالم القديم ان يتفرد برجال السياسة الذين تقدموا على سواهم وسارت في الخافقين آثارهم ، فقد ظهر في الولايات المتحدة انداد لهم واكفاء مثل واشنطن وفرنكلين ولنكن ، الذين تابعوا بجهد وعناء تكوين الجمهورية الكبرى وانشاء وحدتها والدفاع عن كيائها ، وحملوا المشعل المضيء في تلك الارحاء النائبة ، وكانت شهرتهم السياسية مشرقة بالفضائل الرفيعة ، التي هي فخر الانسانية الخالد .

نجيب الارمنازي

حزيران سنة ١٩٥٠

الفصل الاول

مكفى مؤسسية الحديث

١ — السياسة التقليدية

قد يكون مكفى ابعاد رجال الدولة اثرًا في معالجة صناعة السياسة والغوص على دقائقها ، وانه ليصح ان يقال ان المكيفية هي اسلوب ، اكثر مما هي مذهباً او طريقة ، لان صاحبها لم يقرر المبادئ والقواعد ، بل كان يتتبع احداث زمانه وما جرى من قبلها ، ويستخرج منها اسساً تنطبق على كل زمان مهما كان عوامل الاختلاف ، فالرجال هم الرجال والاشياء هي الاشياء ، والسياسة هي الصناعة التي تقاد فيها الرجال الاشياء والاشياء للرجال ، وتوجه الوسائل لتحقيق الغايات .

وكان صنع مكفى في المرحلة التي انتهت اليها سياسة القرون الوسطى وبدأت السياسة الحديثه ان وضع الاساس الاول لدرس المشكلات السياسية ، درساً مجرداً قائماً على التحرر من كل فكرة دينية واخلاقية ، وكان الدين في القرون الوسطى لايفصل عن الاخلاق ، والسلطة الدينية تتطلب باسم الاخلاق السيادة ، فلما غلبت في النضال ، جرت وراءها الاخلاق ، وبقيت السياسة وحدها متقادة الى اضعف مبادئها ، وليس فيها الاعلم التغلب بالحيلة والتسلط بالقوة ، من غير ان تدعن لزاجر او تخضع لوازع ، والدين الذي كان كل شيء في القرون الوسطى وغاية الغايات للدولة ، لم يكن عند مكفى الاوسيلة سياسية تستخدم للمحافظة على الدولة وتوسيعها ، واداة تستعين بها الحكومة لتحقيق غاياتها .

وجملة الآراء التي أبدتها مكيفلى في كتبه المختلفة ترمي الى ادخال الفلسفة العملية والتجارب المشهورة في السياسة ، وهو يستند بها الى منطق الحوادث كما هي كائنة ، لا كما يراد ان تكون ، او كما يريد اصحاب الاحلام ، وقد اعرب فيما كتبه عن آراء معاصريه ، فكان مرآة افكارهم وترجمان خواطرهم ، واصبح من بعد مؤسساً لعلم السياسة الحديثة بما ادخل عليه من البحث الحر والانتقاد الصحيح وقواعد المشاهدة والتتبع ، والاعتماد في كل ذلك على الحقائق الثابتة والطبائع الخالدة والمصالح الباقية والشواهد التاريخية .

والسياسة في كل زمان ومكان هي الفن الذي يؤلف بين الرجال والاشياء ، ويعهد السبل ويذل الصعاب وطبيعة الانسان لا تتغير في قواعدها واسسها وان تغيرت ببعض مظاهرها ، وهي عنصر السياسة الدائم ، ولذلك فان المكيفلية انما تستخرج بقاءها ودوامها من هذه الطبيعة ، وهي في القرن العشرين كما كانت في القرن السادس عشر ، تعتمد على مراعاة الظروف والفوارق ، والسبب الاكبر في ذلك ان الرجل لا يزال هو هو ، وان السياسة تعمل مع الرجل وفي الرجل وللرجل ، واذا كان هنالك ما يؤسف له في عمل مكيفلى ، فهو طريقة البحث الجديدة في تأييد مذهب مكروه ، توفر حظه من الجنايات والاثام التي ارتكبت باسمه ، واذا كانت تبعه ما انشأه في كتبه تلحق اهل زمانه ، فليس ذلك كافياً في التماس العذر له ، لان الخداع والعنف قادران بقوتها على احراز ما يبغيانه من الشأن في العالم ، بدون ان يدهما العلم بحججه وبراهينه .

٢ - الاخلاق والسياسة

لم يكن ميكفلي يجهل الاخلاق وينكرها ، ولكن كان يميز بين الاخلاق والسياسة ، ويرى ان السياسة لا تتخرج كثيراً في خدمة الدولة ومصالحها ومقتضيات شؤونها ، والمكيفية التي هي قائمة على حق الدولة وغايتها ليست خاصة بشكل من اشكال الحكومات ووضع من اوضاعها ، ولكنها توافق الاستبداد اكثر مما توافق سواه ، وقد تكون في الدول الديمقراطية كما تكون في الدول التي تسيطر عليها بعض الجماعات والأسر . وقد شرح فكرته في كتاب الامير بقوله : وصف بعض المؤلفين جمهوريات وحكومات لم يشاهد مثلها وهي تفتقر الى اشياء كثيرة حتى تكون حقيقة ، وثمة فرق عظيم بين الطريقة التي يعيش الناس عليها وبين الطريقة التي يجب ان يعيشوا بحسبها ، والذي يدع العمل بما هو كائن ، ويعمل لما يجب ان يكون ، يسير الى فناء لا بد منه ، كان الرجل الذي يريد ان يكون صالحاً كل الصلاح في مجتمع ليس كذلك يعرض نفسه للأخطار .

فهذه الجملة تحوى شيئاً كثيراً من فلسفة ميكفلي التي ليست بعيدة الغور ، ولكنها تنطبق على قواعد عامة واصول خشنة ، واكثر الرجال ليسوا بفلاسفة حتى ينشئوا المذاهب لتقرير اهوائهم ومصالحهم ، واذا كان الضمير يوحى اليهم وجوب التمييز بين العدل والجور فان الهوى يمنهم من التفريق ، وهم يعترفون بانهم لا يعملون بما يفكرون ، بل يقولون انهم يكونون مخدوعين بسواهم اذا عملوا غير ذلك ، فعُضبت فريق يسبب ضعف آخرين ، وجميع الوسائل حسنة اذا اعانت على بلوغ الغاية ، كما هو مقرر في الفلسفة العملية العامة ، فاذا نقلنا ذلك الى الفلسفة السياسية وجدنا اسس السياسة المكيفية التي هي قائمة على قاعدة الاستخفاف بالوسائل في سبيل الغاية السياسية ، ولم يكن يغيب عن

مكيفلى ما في هذه القاعدة من فساد ولكنه يلتمس لها العذر بقوله : لاشك ان اميراً من الامراء يكون مشرق الجذ ، سعيد الطالع ، اذا تيسر له ان يجمع اشبات الفضائل ، ولكن طبيعتنا لا تحتمل مثل هذا الكمال ، والامير بحاجة للحيلة والحذر ، حتى يصون نفسه من الرذائل التي قد تؤثر به ، وعليه ان لا يخشى لائماً اذا لجأ الى اي وسيلة كانت لتأييد بلاده وتعزيزها ، ومهما تكن بعض الفضائل محدودة فقد تقود صاحبها الى الهلاك ، ومهما تكن بعض الرذائل مستنكرة مذمومة فقد تحمل الى صاحبها الامان والرخاء .

ولم يخل بعض كلام مكيفلى من ناحية انسانية اذ يقول : ما ابعد عن الفضل الرجل الذي يفتك بمواطنيه ويسلم اصدقاءه ، ولا يكون مخاض السريرة صاحب دين وتقوى ، وهو قد ينال ما يريد من السلطة ولكنه لا يبلغ منازل الحق ، وليس هنالك شيء يحول دونه ودون الشهرة التي يتمتع بها كبار القواد ، ولكن قسوته وشدة وغلظ كبده وقلة رحمته يحول دونه ودون ان يكون من كبار الرجال .

وقد ناظر مكيفلى بين الامراء الذين استطاعوا ان يعيشوا بسلام هم ورعاياهم من غير ان يخلعوا عليهم ، وبين الامراء الذين لم يستطيعوا ان يدركوا ذلك بسبب التجائهم الى القسوة في توطيد ملكهم في السلم او في الحرب ، وقال : انهم قد يحسنون او يسيئون وضع القسوة في موضعها ، والقسوة تكون حسنة - اذا صحت تسمية القبيح بالحسن - ان استعملت مرة واحدة وقضت بها ضرورة تعزيز السلطان وخير الامة ، اما القسوة التي تكون سيئة فهي التي تتسع وتنتشر بدلاً من ان يضيق نطاقها ويكفكف من شدتها . وقد فضل مكيفلى الامراء الذين يصلحون رعاياهم ويحتنبون اعمال القسوة والعنف في سياستهم ، وهو بذلك اميل الى جانب الاخلاق .

٣ - التآمر والنكث والغدر

كانت المؤامرات تغلب على مكيافلي وتغلق خاطره ، وقد عزيت اليه فيها اقوال كثيرة لم تصدر عنه ، غير انه كتب فصلاً عن المؤامرات هو من اشهر ما كتبه وما عرف من مناخه ، وغايته من هذا الفصل ان ييث فكرة التحرر والتحفظ لان الدول تضعيع بالمؤامرات اكثر مما تضعيع بالحروب الخارجية ، وان يحض على القنائة بما هو كائن . وهو يرى ان اخطار المؤامرات اما ان تكون في اثناء القأهب او في اثناء التنفيذ او بعد ذلك ، وقليل ما هم الرجال الذين يصممون على الذهاب الى موت محتم ، ولولا امل السلامة لقل الاقدام على التآمر ، واذا كثر العدد لا يبق السر مكتوناً ، وقد يكتشف بالدلائل والقرائن ، ومن واجبات الحذر ان لا يباح سر الخطة المؤتمرين ، وان يحافظ على كتابها الى ساعة التنفيذ ولا يوجد خطر اشد من الاضطرار الى تبديل الخطة في الساعة الاخيرة ، وربما تخون الرجل شجاعته في وقت التنفيذ .

واذا دبرت مؤامرة لاصابة بعض الاغراض فانها تنقلب احياناً على اصحابها ، ومتى عرف امرهم فانهم حينئذ لا يبالون بشيء اذ لا يبق لديهم ما يصونونه ، وقد يرى الأمير فائدة من مداراة المؤتمرين مؤقتاً ريثما يطش بهم ، واذا كانوا ضعافاً فعليه ان يسرع بهلاكهم بدون ابقاء ولا مبالاة .

والمؤامرات التي يبحث عنها مكيافلي ، ويعتمد اصحابها على السيف والسم لا يتعرض فيها مطلقاً للناحية الاخلاقية ، ولا يذكر كلمة الاخلاق ، واكثه يبحث بصورة مجردة عن المؤامرات وعن وسائلها وعن غاياتها وثمراتها وعن محاذيرها وعماعبها من المصاعب ويقف في سبيلها من المخاطر ، وينجم عنها من خير او شر للذين يفعلونها ، او للذين يتصلون بهم ويقاسون احياناً جرائر ما لم يجنوه .

M 729- 42

TITLE AL-SIYASAH AL-DUWALIYAH WA-ASHHAR RIJALIHA.					
PRINT TITLE / AUTHOR AL-ARMANAZI					
CALL # 2264 .15 .386 v.2					
TITLE #	MATERIAL COLOR 99	PRINT COLOR W	FREQ.	FOR BINDERY USE ONLY	
PATTERN CODE BV8	LIBRARY USE		JOB #		BOOK # 121
SPECIAL INSTRUCTIONS BTF			HEIGHT 9 1/8		WIDTH 1 1/8
NOTES PAPERCOVERS: Bind-in Front & Back			THICKNESS 3		CLOTH SIZE H
VARIABLE INFORMATION					

2-BINDERY COPY

FORM 401 (7/91)

والرذائل التي كان ينصح بها مكيفلي ويعتبرها من حاجات الدول ترجع في اصولها الى القسوة وسوء النية ، ولا يذهل مكيفلي عن تأثير الامثال في النفوس ، وان كان ذلك لا يستطيع التغلب على الحق او اضعاف شأنه ، اذا نظر اليه من وجهة النفع العام وسلامة الدولة ، وقد غني بانتخاب امثاله من الرجال الذين تخلع عليهم الامارة والمفزة الدينية ثقة متناهية في نفوس الجماهير ، وهما البابا اسكندر السادس وقيصر بورجيا اللذين لم يسكن لهما نظير في مساويء الاخلاق في القرن الخامس عشر . وكان يعجب مكيفلي بقيصر بورجيا ويشيد بوقائعه الدامية التي اعانته على تأسيس ملكه ، وان كانت اشبه باعمال قطاع السابلة وادني الى حوادث الاغتيال التي يلجأ اليها السفاكون المائثون .

اما نقض العهود فلن المرء يستصعب ان يتصور كيف يبحث مكيفلي فيه بجرأة وسهولة ، من غير ان يتقيد بالاستباحة في الحال الاستثنائية ، ولا ان يعترف بانه من الامور المحمودة ان يكون المرء وفيا بعهده ، وقد قال انه ندر بين الرجال الذين قاموا باعمال عظيمة من اهتم بالوفاء وبالعهد ، ومن تردد بخديعة الذين كانوا يعتمدون على الصدق والاخلاص . والوفاء بالوعود والعبود والعقود من فضائل الدول التي لم يعرفها العالم ولم تعرفها الحياة ، اذ على الامير اليقظ ان يجتنب الوفاء بالعهود التي تكون مغايرة لمنافعه ، وكيف يتقيد الامير بعهوده وسائر الرجال لا يهتمهم الوفاء بالعهد ؟

والسبب الاكبر بل السبب الوحيد الذي يدلى به مكيفلي للدفاع عن وجهته هو ما عرف به الرجال من الخبث وفساد الطوية ، ورأيه بالجمتمع البشري يحمله على اتخاذ الخداع قاعدة للسياسة ، وهو يحتج بالسهولة التي يجدها الخادع في التغير بالآخرين الذين يقومون بدون عناء في حباله ويخدعون به ، وكثيراً ما هم ، ولذلك فانه تضرب الامثال للغدر وتعمل النفوس بنجاح الخديعة وتروي الاحاديث فيما عرف من ان

النصر يكون للذي هو اذق مدخلا والطف مخرجا واكثر انتباهاً واشد يقظة في خداعة غيره وصيانة نفسه .

والفضيلة في نظر مكيافلي ليست الا كالدين وسيلة من وسائل الحكومة ، وهي حسنة مادامت مفيدة ، ومرغوب عنها مادامت مضرّة . وقناع يجب وضعه عند الحاجة ونزعه عند الحاجة ، والامير الكامل يشبه الرجل الجائر الذي يقول افلاطون عنه بانه يظهر بجميع مظاهر العدل ، ويحقق في نفسه حقائق الجور ، وهو يجعل انفسه سمعة حسنة بالطيب والرحمة ، والوفاء بالعهدة ، والتمسك بالعدل ، والتجلى بالصفات الحمودة كلها ، ولكن عليه ان يكون متكاملاً من نفسه بحيث يقوم باضدادها اذا اقتضى ذلك . ولا يرى مكيافلي اميراً ، ولا سيما اذا كان حديث عهد بالامارة يستطيع ان يتصف بالفضائل من غير ان يصيبه ضرر ، لان غاية الدفاع عن نفسه وعن كيانه تلزمه احياناً بالخروج على قوانين الانسانية واصول الدين وقواعد الاحسان ، والحفاظة على النفوذ والمكانة هي الغاية ، واما الوسائل فانه يحكم دائماً بانها شريفة ومحمودة ، والرجل العامي يؤخذ دائماً بالمظاهر ولا يحكم الا بما يقع تحت بصره ، والعقلاء لا يحكمون على رجل عظيم الخطر بانه لجأ الى وسيلة غير مألوفة في جاري المادة ، اذا كان المقصد جليلاً كت تنظيم مملكة او تأسيس جمهورية ، والنتيجة الحسنة تمهد سبيل العذر للجريمة ، والعنف لا يكون محموقاً الا اذا وضع في خدمة الشر لافي خدمة الخير .

وقد ضرب مكيافلي امثلة عديدة حسن فيها الجرائم الكبيرة التي ترتكب في سبيل غاية سياسية ، ولكنه مع ذلك كان يألم ضميره في بعض الاحيان ، ويتكلم بكلمات شريفة في تقبيح الجرائم واستنكار الاساليب القاسية التي هي مفسدة الاخلاق ومغايرة الانسانية ، وخير للمرء ان يجتنبها ويختار العزلة والانفراد من ان يؤسس مملكة بسفك الدماء ، ولكن هذه الكلمات النبيلة الفادرة التي

صدرت عن قلب مكيفلى واعربت عن شعور انساني لم يدم اثرها طويلاً ، فهو لا يلبث ان يرجع ويقول : ان الذي لا يستطيع ان يحافظ على سلطانه الا بالالتجاء الى تلك الوسائل العنيفة عليه ان يسلك طريقها اذا كان مضطراً اليه ولم يجد طريقاً غيره . واستشهد مكيفلى في غير كتاب الامير بسيرة القدماء من الفرس والرومان الذين اعتمدوا على الخداع في سبيل النجاة ، اذ الامير الذي يريد ان يدرك الاغراض الرفيعة يجب ان يتعلم فن الخداع ، لذلك كان مكيفلى يعتمد في سياسته على الغدر ، وينصح بمصانعة العدو والتظاهر بمودته ، حتى يطمئن كل الطمأنية ويكون الانتقام منه سهلاً .

واذا قيل في صدد الدفاع عن مكيفلى انه يشير بالغدر والقسوة والخيانة ونقض العهد عندما تقتضي الضرورة لدى تأسيس اماره جديدة ، فلماذا يباح الظلم لامير جديد ولا يباح لأمير وارث ، واذا كان مذهب مكيفلى لا ينطبق على جميع الاوضاع السياسية والاشكال الحكومية فانه يكون مذهباً سخيفاً محدوداً فضلاً عن مناهج الغدر التي فيه .

٤ - اصول الحكم

كان السياسيون الاولون يميزون بين احراز الملك عن طريق العنف او بموافقة الشعب او بانتقاله من وارث الى وارث ، غير ان مكيفلى لم يكن يأبه الى هذا التقسيم ، وهو يرى ان هنالك طريقتين : الدهاء والشجاعة ، او الحظ ومعونة الآخرين ، وهو كذلك يميز بين وسيلتين لاحراز السلطان : الجريمة وموافقة الشعب .

والحرية عند مكيفلى لاتنال في دولة اذا لم تكن هناك مساواة ، ولا بد لادراك هذه الغاية من القضاء على ما بين الناس من تفاوت ، وضرب لذلك مثلاً

ازدهار المدن الالمانية الجمهورية ، ورد هذا الازدهار الى ضعف شأن النبلاء ، ولذلك فانه كان يستحسن القضاء على الاشراف ، ويرى في عدم المساواة تمهيد السبيل للفساد والرشوة واستئصال الحرية ، ويدعو الى اقامة حكم الارهاب ، والقضاء على النبلاء ، والتخلص من الاعداء بكل وسيلة ، واحراز السلطة العليا احياناً بالتغلب لنيل الحرية والمساواة .

وكان مكيفلي يفضل نسق حكومة اسبارطة ورومة على سواهما ، ورسائله في هذا الباب ترد لما كتبه الاقدمون ، وقد وصف في الغالب حكومتين : الجمهورية والمستبدة ، وهو ما كان يحده في ايطالية التي كانت تشابه بلاد اليونان في اتساعها وتفرقها وتشعبها الى مدن متخاصمة ، وقد استطاع مكيفلي ان يتعلم السياسة في هذه الارحاء ، ووجد فيها ميدانا فسيحا لتبعااته وملاحظاته . وقارن مكيفلي بين الحكومات الشعبية والحكومات المطلقة فكان ترجيحه للاولى ، ومع ان الوهم الغالب هو تأييد الامراء وان انتقاد الشعب هين على الانسان اكثر من انتقاد الامراء ، فان مكيفلي لم يكن يخفى اعجابه بالشعب ، ويرى ان اعمال الشعب الفاسد كأعمال الامير الفاسد واعمال الشعب الصالح كاعمال الامير الصالح ، وكذلك فان نكران الجميل كثير عند الامراء قليل عند الشعوب ، وهو ينشأ من الخوف والبخل ، اما الخوف فانه سبب يعتذر منه ، لان الرجل اذا اصبغ رفيع القدر عظيم الشأن بحيث يخشاه الامير على سلطانه والشعب على حريته ، فحينئذ يشترك في نكران الجميل الامراء والشعوب بدون تفریق ، وكان الرومانيون لا يشكرون احسان محسن اكثر من سائر الشعوب ، ومن ذلك ما صنعوه بيسيديون الا فريق ، حتى قالوا ان جمهورية لاتفاخر بانها حرة اذا كان القضاء يخشون احد ابنائها ، واما البخل فانه يلبس صاحبه العار ، وعدم مقابلة الصنيع بمثله الناسى عن البخل خطأ لاسبيل الى غفرانه ، وهو كثير عند الامراء قليل

عند الشعوب . والجمهوريات تتمسك بالعهود وتقوم بحقوق المحالفات اكثر من الامراء لان المنفعة تمنع الامير من الوفاء بما عاهد عليه ، وذلك صعب على الجمهوريات التي تحتاج الى اسباب كبرى حتى تلجأ الى مثل ذلك ، بل ان الاسباب الكبرى نفسها لا تستطيع احياناً ان تحمل الجمهوريات على النكث بالمواثيق .

ويرى مكيفلى سببين آخرين لتفضيل الجمهورية على الملكية ، وهما انتخاب الرجال القادرين على الحكم ، ومسايرة الزمان في تطوره ، والامران صعبان في الممالك الموروثة ، على ان الامراء افضل لانشاء الممالك ، والجمهوريات افضل لحافظتها والابقاء عليها ، والتأسيس يحتاج الى فرد يقبض على ناصية الامور بكفى يديه ولا يشاركه في ذلك احد ، ولكن فرداً يهدم ما بناء فرد آخر ، وهذا لا يقع في الجمهورية . واذا كان في هذا القول كثير من الحقيقة ، فلا يمكن ان يقال انه الحقيقة كلها ، وقد جدت جمهوريات مستبدة وممالك دستورية ، وكانت الثانية خيراً من الاولى ، فلم تؤيد الوقائع راي مكيفلى على اطلاقه .

٥ — مكيفلى بين انصاره وخصومه

والحكم في مذهبه

لا شك في ان عبقرية كمبقرية مكيفلى لا تذهب بدون ان تبقى اثرأ بعيد المدى ، وقد ابقى مكيفلى هذا الاثر من الوجهة العامة ومن الوجهة الخاصة ، وسار ذكره في جمهورية فلورنسة التي نمت فيها وفي جمهورية البندقية العلوم السياسية نمواً حسناً ، وفاق جميع منافسيه ونظرائه ، واثار اسمه الخلاف والجدل ، وكان دعاة يختلفون من حيث المذهب والاسلوب ويجمعون في عقيدة واحدة وهي استباحة الكذب والحيلة في السياسة ، على ان الذين انكروا اقواله وطعنوا بها لم يستطيعوا الاتيان باعتراضات قاطعة ، لان ذلك لم يكن هيناً ، فالى جانب الضمير

ومقتضيات الوجدان تقوم الغاية والواسطة والنية الحسنة والنية السيئة ، ولا بدع اذا التبتت الامور ، وتعذر حل الخلاف ، وظل اصحاب الرأي منقسمين بين ما دح وذام .

وقد استمر النضال قائماً مدة ثلاثة عصور حول الطريقة المكيڤلية ، ويمكن القول ان هذه الطريقة مرت بمرحلتين : ففي المرحلة الاولى لم يكن نقاد مكيڤلى الا انصاراً متعصبين او اعداء متشددين ، فريق يدافع عن سياسة داهية فلورنسة وآرائه دفاعاً اعمى ، وفريق يحمل عليه وينعته باقبح النعوت ويجرده من كل دهاء وعبقريه ، فلا يمكن ان يسمى هذا العهد الا عهد نضال ، يتبارى فيه المدافعون والمهاجمون بدون روية ولا انصاف في الحائزين ، فالمدافعون لا يفهمونه والمهاجمون لا يعرفونه .

اما في المرحلة الثانية فقد اصبح مكيڤلى يجد انصاراً اكثر براءة او نقاداً اقل خصومة ، فلم يتعصب الاولون لآراء مكيڤلى وانكسروا اخذوا يحالونها ويؤولونها ، وهم يستحيون من التمسك بنصوصها من غير ان يتحروا معانيها ، فاعدوا اليه منزله شيئاً فشيئاً ، واستعانوا على ذلك بما احدثته العلوم الفلسفية في النفوس من الميل الى العدل والانصاف ، على ان فريقاً من الكتاب الذين عرفوا بسمو المبادئ وشرف الاخلاق لم يغالوا في اعلاء شأنه ورفع قدره ، وما برحت ضمائرهم تحتج على قواعده ولا تقبل ادنى هواده فيه ، واستمروا على محاربة اغلاطه من غير ان ينكروا عبقريته او يغمضوا عيونهم عن محاسن ما كتبه . وقد حجب جان جاك روسو مكيڤلى للناس بما كتب عنه ، فقال عن كتاب الامير انه كتاب الجمهوريين وعن مكيڤلى انه رجل شريف ومواطن كريم ، وكانت الصلة بينه وبين اسرة مديتشي تضطره الى اخفاء حبه للحريه والتفاضي عما تفاسيه بلاده من اضطهاد فلوحي اليه وضع كتاب الامير هوى بلاده ورغبته في ان يراها مستقلة ، وقد دل هذا الكتاب ولا سيما فصله الاخير الذي يتدفق فصاحة على انه يجب وطنه

حياً جماً ، وكان ذلك احسن ختام لما كتبه . ومع ذلك فانه لم يبرح في راي فريق كاتباً ثائراً يدعو الى الاستبداد ويرجو من وراء ذلك الوصول الى اقامة صرح المساواة والحرية .

وعلى كثرة الامراء ورجال السياسة في فرنسا وانكلترا والمانية وروسية وايطالية حتى بلغارية من الذين وصفوا بانهم تلاميذ مكيفلى ومريديه ، فقد الف الامراء ورجال السياسة ان يطعنوا بمكيفلى وبعدم تقيدده بالاخلاق ، كما كان يصنع فردريك ومترنيخ ، ولكن العالم الذي وجد ان نابليون لا يدع من يده كتاب الامير ، وان دولتين اتحدتا واجتمعتا في ظلال المبادي التي وضعها مكيفلى : ايطالية في ايام كافور والمانية في ايام بسمرك ، لا يرى مجالاً للطعن فيه لان الاسس التي استخرجها تدل على ماهو متمكن في طبيعة الانسان من الحقائق السياسية الخالدة ، ففي البلاد التي تحميها جبال الالب ، وفي البلاد التي يحدها نهر الرين ، ارتفع الصوت الذي يدفع الشعوب ويبعثها من سباتها ، ونهض الرجل المنتظر كانه ينفذ عنه غبار الرقاد ، الرجل الذي هو كما وصفه مكيفلى ، كثير الخداع عظيم الدهاء ، يظهر غير ما يبطن ، ويبطن غير ما يظهر ، شديد المعرفة بانهماز الفرص ، يشارك العناية بحسن تصرفه ، ويغير الحظ بجراته ، يتمسك بالحيلة ويحل القوة ، فطوراً يشابه الليث وطوراً يشابه الثعلب .

ولم تقتصر الخطط المكيفلية على ما شهدناه من آثارها في تكوين الشعوب بل ان كثيراً ما يلجأ اليها في الامور السياسية الطارئة والحوادث الجارية ، ولا تكاد تبدل الا تبديلاً يسيراً بما يطرأ عليها من التجديد والتغير ، ولكنها تبقى كما هي برغم التقلبات التي مرت عليها ، فالامير هو الرجل الذي ينتظر والرجل الذي يريد ان يبلغ مداه ، وهو في الماضي رئيس عصابة واليوم رئيس حزب ، وايس الفرق بينهما عظيماً من حيث الغاية والمسمى ، على ان تبدل البيئة وتبدل

الحال مما يقضي بالحذر والحيلة حتى تؤدي الوسائل نفسها الى نفس النتائج واذا كان في الوسائل ما هو حسن وما هو سيء ، وما هو اخلاقي وما هو غير اخلاقي ، فالعبرة عند مكيڤلي بالنجاح الذي لا يتقيد بالصفة الاخلاقية ولا بحسنها او بسوءها ولذلك فانه فرق بين السياسة وبين الاخلاق وهو لم يقل في مكان : انه من الخير ان يفعل كذا ، ولكنه قال : يجب ان يفعل كذا وقال كذلك بغير مخادعة ولا تغريز : ان هذا الامر يحتاج الى الدم ، وهذا يحتاج الى الحديد .

وقد اشتبكت المكيڤلية بالمذاهب الجديدة الفلسفية والسياسية وكان في رجالها من يتنصر لها او يخاصمها . فذهب دكارت مؤسس الفلسفة الحديثة واحد اصحاب المدارك الكبرى في اقرن السابع عشر مذهباً يقارب المكيڤلية . وكان في محاربه اياها يكاد يكون ادنى الى تأييدها ، فيينا ينتقد القواعد التي سننها مكيڤلي ويعدها ظلمة تخيفة ويوصى باتباع ما يناقضها ، تراه يقرر قواعد مشابهة لها كقوله : ينبغي ان نعتبر جميع الوسائل التي يتخذها الامير لاجل استقرار مملكة عادلة ، وان نعتبر جميع الامراء عادلين وما يعملونه عدلا ، لان حدود العدل عند الامراء ليست كحدوده عند سائر الناس ، وكأن الله يمنح الحق الذي يمنحه القوة . فهذا المبدأ لا يختلف بشيء عن المكيڤلية ، بل ان دكارت ذهب ابعد منها بقوله : انه يكاد يستباح كل شيء في مقاتلة العدو وجميع الذين هم ايسوا باصدقاء ولا حلفاء فانهم اعداء ، يجب ان يحاربوا اذا كان في الحرب خير يرجي ، ويجب اجتنابهم اذا كانت تحوم حولهم الشبهات وكانوا يثيرون المخاوف : ففي هذه الآراء التي ابداه دكارت نجد قوة المكيڤلية بلغت اقصى ما نريده ، فانغارت حتى على الذين ارادوا نقضها وافسدت عليهم امرهم .

وقد خيل للناس في منتصف القرن السابع عشر ان المكيڤلية سائرة الى الزوال وانها تضاءلت قواعدها وادغمت في مذاهب اخرى حتى امكن القول ان مذاهب السياسة اصبحت اميل الى التحسن ، والبرهان على ذلك ماورد في وصية رشلو السياسية التي نرى فيها قليلا من السياسة المكيڤلية ممتزجة بعبقرية

رشليو المستبدة ، ذلك الوزير الكبير الذي لا يعد غير جري في اعماله ، ولا يظهر التردد والتخرج في مبادئه لولم يكن قد دخل في سياسة عصره ، عصر السلطة المطلقة ، ماهو اسمى وانبل من الآراء ، ومع ذلك فان المبادئ التي وضعها دلت على رسوخها وبقائها فلم يخل من آثارها ما كتبه رشليو في وصيته ، ولا سيما في بحشه عن عدل الدولة ، فقد اشار بان القتل يجب ان يبدأ به احياناً قبل كل شيء سواء ولكنه يشترط لمثل هذه الوسائل المفرطة ان لا يلجأ اليها الا عند اقصى الحاجة ، وانه يجب الاقتصاد على الابعاد والحبس فيما دون ذلك .

وبرغم ما احتواه هذا المبدأ واشباهه من الاساليب المكييفية ، فانه لم يحكم كاتب سياسي بطريقة اشد واقوى من رشليو على قلة الوفاء بالعهود فقال : يجب على الملوك ان يبذلوا قصارى جهدهم في المحافظة على العهود التي قطعوها ، كما يحافظون على العقيدة والدين . واني لاجهل ان كثيراً من رجال السياسة يدعون الى غير هذا المذهب ، ويسلكونه على مافي من عوج ومغايرة الدين وفقدان للشرف الذي هو اشد من فقدان الروح ، وعلى الامير ان يخطر بنفسه وبمصلحة بلاده ولكن لا يجوز ان يخيس بعهده وان يضع حسن سمعته ويضيع بذلك اعظم قوة عنده .

فلايستطاع بعد هذه الشهادة الصادرة عن رجل له مثل ذلك الشأن تجديد القواعد التي وضعها مكيفلي في نقض العهود ولا المدافعة عنها ، واذا كان يهون نقض العهود ، فلم يبق احد يستطيع ان يقرر للحنث بها مذهباً تستند اليه ، وكلام رشليو هو اعظم قوة من كل صاحب مذهب ، لان الامر الذي يكون رأياً وفكرة عند صاحب الفلسفة له قيمة حكم اذا صدر عن رجل من اكبر رجال الدولة في تاريخ العالم .

واذا كانت المكييفية قد اتخذت غرضاً للسهم في بعض الاجيال ، فقد عادت في السنين الاخيرة الى المنزل الرفيعة التي قلما نالت مثلها في الايام الخالية بعد ان

كشفت السياسة الدولية القناع عن وجهها الصحيح ، فكتب موسوليني مقدمة لطبعة جديدة بالفرنسية لكتاب الامير ، صرح فيها مفخراً بان عمله انما يستمد قوته من آراء مكيفلي ثم تساءل قائلاً ماذا بقى من كتاب الامير بعد اربعة قرون ؟ وهل تفيد نصائح مكيفلي شيئاً لرجال الدول الحديثة ؟ ام انقضى عهد هذه النصائح بانقضاء الوقت الذي وضعت فيه ، وانها عامة خالدة لم تذهب فائدتها في هذه الايام ؟

وقد اجاب على هذا التساؤل بقوله : ان مبادئ مكيفلي مفيدة في هذه الايام اكثر منها قبل اربعة قرون ، لانه اذا كانت قد تغيرت المظاهر الخارجية فان افكار الرجال والشعوب لم تتغير الا قليلاً . وقال : اذا كانت السياسة هي فن حكم الرجال وتوجيههم والاستفادة منهم وتربية ميولهم وانانياتهم والتأليف بين مصالحهم الخاصة والمصالح العامة التي تتجاوز حياة الفرد لان هما في المستقبل ، فلا شك ان الرجل هو العنصر الاساسي الذي نعتمد عليه في عملنا كله .

ويعد هتلر نفسه من اكبر مریدی مكيفلي ، ويقول انه قرأ ثم قرأ كتاب الامير الذي الفه الفلورنسي الكبير ، وهو يرى انه ضروري لكل رجل من رجال السياسة وانه لم يعرف كنه السياسة الا بعد قراءة هذا الكتاب الذي يهدف الحس ويوقظ الذهن ، ولذلك فانه ينحى باللائمة على السياسيين الالمان وعلى وزارة الخارجية التي ليست الاتقاليد بالية واياها ضائعة واوراقاً وصيغاً لا فائدة منها ، كما ينتقد تقارير السفراء ووسائلهم في استطلاع الاخبار التي لا تخرج عما تنشره الصحف ، اما تقاريرهم التي عليها صبغة علمية فليست الاحجة تتخذ لاقامة البرهان على استحقاقهم مائة اضعافه من رواتب ضخمة ويتمتعون به من الجالوس على الارائك الموثيرة .

وقد ذكر هتلر في صدد بحثه عن مكيفلي انه يهتم باقامة « مصالحة سرية » من الاختصاصيين في امور الجاسوسية ، ولكن ايس على النمط الماضي من اعمال

الجواسيس ومحاربة بعضهم لبعض ، بل على النمط الانكليزي من رجال ينفذون مهمتهم بهوى وولوع ، وهو يرى ان يستخدم لاغراضه السياسية كبريات النساء بدلا من اقامتهن في عظمة محلة ، كما انه لا يحجم عن الاستعانة حتى بالمغامرين والاشخاص الشاذين في طبائعهم واطوارهم .

وغرور السياسيين في رأيه — يتجاوز كل حد ، وهم يبالغون في تقدير صناعتهم والاحتفاظ بأسرارها ، والسفير الذي ينتدبه ينبغي له ان يمدل جميع الوسائل لادراك غايته ، فيؤلف الاضبارات لرجال السياسة الذين يهيمونه من اصحاب النفوذ عند الدول ، ويتعرف احوالهم فيما اذا كانوا يشرون بالمال اوبشيء غيره ؟ وما هي مواطن ضعفهم ودخائل امورهم ، وحياتهم وسيرتهم واخلاقهم وشهواتهم ؟ ويرمي هتلر بذلك الى بسط نفوذه في البلاد التي يدخلها عن طريق اكتساب الرجال وادبائهم ، فذلك افضل بكثير من بث الدعوة التي يراد منها استمالة الجماهير والتي ببائع في تقدير فائدتها . وهو يعتمد على سلطان الكبرياء وحب المال واهواء النفوس وحكم القوة ، ولا يتردد في استباحة الوسائل ، ولا يكثر فيما سنه العرف والعادة ، ولا يبالي بما يدعي من مخادعته ومؤاربه ونقضه المواثيق وانكاره العهود ، اذا كان في ذلك تحقيق لما يريد ، ومن الآراء الفاسدة عنده ما يقال من ان الحرب الدامية هي اخف شرأ من هذه الاساليب الخريبة الخفية ، وهل الحرب الاحيلة وخديعة وتمبئة وهجوم ومفاجأة ؟ وهل انشئت الامبراطوريات واستت الممالك بالعهود ام بالغلبة والاجتياح والغارة ؟ واذا كان تاريخ المدن الايطالية التي وضعت فيها تلك القواعد السياسية واقتبست اساليبها لا يدل على انها طويلة المدى ، فان هتلر لا يريد من التمسك بها الا تحقيق غاية تخفف عن بلاده اعباء الحروب الدامية وتفتح ثغرة في السور التي اقيم حولها . والسياسة في نظره لا تقبل اي دستور اخلاقي فهي عمل يتغير ويتبدل ويتقبل جميع الخيل والاساليب على حسب براعة اللاعب ، ولا يهم المستشار الانساني مايتهم به من انه سفاك للدماء ، مستبجح للحرم ، طاغية من الطغاة ، لان

السلطة لا يمكن انتزاعها من ايدي الآخرين بدون عنف ، والعنف مصدر كل حكم
واساس كل سلطان ، ولا يهيمه ايضاً ما يقال من انه محاط باحباب المطامع ، فهو لا يريد
ان يعترض سبيل الذين يعملون كل شيء لاجله واجل وطنهم ، ولا يحاول اصلاح
الانسانية ومعالجة ادوائها .

اما ما يتعلق باليهود والمواثيق فقد كان هتلر يكشف ثقافته بانه لا يابى توقيع كل
اتفاق يراد منه اذا اطلقت يده في تجهيز بلاده بالسلاح ، وبقي حراً في متابعة
السياسة التي يريد ، وان تنازل في سبيلها عن كثير من الحقوق ، وهو يري من
البلاهة ان يحجم عن توقيع ميثاق خشية من ان يضطر ذات يوم الى انتهاكه ، اذ
لا يوجد ميثاق مهما كان عظيماً لم ينقض ولم يبدل ، اما الذين يضطرون الى محاسبة
ضمايرهم قبل توقيع اي ميثاق فلا ينبغي لهم مزاوله السياسة بل يجب ان يتخلوا عنها
ويتركوها وشأنها وماذا يضره توقيع يسر خصمه اذا كان يمزقه لخدمة بلاده .

فالكتيبة الخامسة وما يقال عنها ، وارسال الجنود في لباس الاسفار ،
والمؤامرات الداخلية ، واثارة الفتن والقتل ، ومحاولة ايقاع الخوف والرعب ،
وعقد المواثيق حين الحاجة اليها ، ونقضها عند الاستغناء عنها ، ومحاربة الخصم ثم
مصافاته ، واستباحة جميع الوسائل لبلوغ الغاية ، كل ذلك تطبيق لما دونه مكيڤلي
من القواعد ، وما اثبتته من الخطط السياسية التي استخرجها من طبيعه الاشياء
وحقيقة الرجال ، وكانت هي الفسادة في كل جيل وقبيل ، حية في نفوس الذين
يتولون قيادة الشعوب ، فطوراً تكشف قناعها وتصرح عن ناجذها ، وطوراً
تختفي في حجب من الرياء والكتان .

وجملة القول في مكيڤلي ومذهبه انه لم يبذ اقترانه بالآراء السياسية المجردة
ولا الاساليب الكلامية الجدلية ولكن علكعبه يظهر في المشكلات السياسية العملية .
وابحائه امثلة تحتذي في معرفة النفس السياسية والمناهج الدولية ، وهو بذلك يتكلم
عن خبرة وتجربة فقد عرف هؤلاء الامراء والشعوب وادرك اطماعهم ، وخدم

جمهوريته وفأوض الامراء والملوك واستفاد كثيراً من الذين تقدموه ولا سيما تاريخ الرومان واستشهد بما كان يجري عندهم وطبقه على الحوادث والمسائل التي عرضت له في الشؤون المختلفة وهو يبدي في كتاباته حكمة ودقة وقوة لاجباري ، فلا يستغرب ما كان في القرون المتوالية من الاعجاب بكتبه ومؤلفاته وآرائه . وقد كان شأن المكيفلية يتراءى للناس احياناً انه يتضائل ويضمحل في حركة الزمان الكبرى ولكنه لا يلبث ان يعود فيقيم البرهان على قوته وشدة مراسه وتغلغله في النفوس ، ولما أصبحت المناقشة البالغة للسياسة الجديدة قاعة على مناقشة الحرية والسلطة المطلقة كان مكيفلي يتكلم عن الحرية كرجل لا يزال قلبه مشرباً بالآراء القديمة التي لا يتسع صدرها للحديث ، وهو لم يتوقع الاضطرابات والقلاقل التي ستحدث بين الملوك والشعوب ، ولكن الزمن لم يكن بعيداً عن تلك الحوادث الكبرى التي ستمزل بنيان الدول العظيمة في اوربة .

ومها بالغ المادحون في حسنات المكيفلية لانها تنطبق على روح الزمان وتستمد قوتها منه فلا مرأى في انها تذيق الاعم العذاب الشديد في سبيل اهوائها ومآربها ، ويمكن ان يستبدل بها ما هو خير منها ، فيصح حينئذ القول ان السياسة الشريفة هي خير ما تعتمد عليه الحكومات وتقره الدول ، وقد حفلت صحائف التاريخ السياسي بانباء الرجال الذين وثقوا الصلات البسيطة بين الاشياء وبين الاعمال ، وفرقوا كثيراً بين المصلحة الخاصة والطمع والشهوة وبين المصلحة العامة والغايات الوطنية ، وبين الاسباب الرفيعة وبين الاسباب الدنيئة ، وانشأوا تقاليد ماثورة في البراعة السياسية تعذر معها ادراك النجاح بالوسائل المألوفة والاساليب الصريحة وبالحفاظ على الصدق والاخلاص في سياسة الدول وتدير الممالك ، ولكنه قام كذلك الى جانبهم رجال ابقوا لانفسهم احدث طيبة ، وسمعة ذائعة بالفضيلة والاستقامة ، واثروا اثرأ بعيداً في شؤون زمانهم وسياسة بلادهم ، وامثلة هؤلاء كثيرة واخصها بالذكر عند المحدثين وشنتن ، ومهما كانت الاوهام السائدة ، فانه عند ظهور رجل من هؤلاء الرجال الموصوفين بالاخلاق القويمة ،

كان يحاط بالاجلال العام الشامل ، وكانت سلطة الفضيلة عنده تقوم مقام الدهاء والفتنة ، علانه لا يقال ان الفضيلة معناها الاستخفاف بالبراعة والاستهانة بالمجاملة ، وعدم الاكتراث بمقتضيات الظروف ومسيرة الحوادث ، والذي جعل الفضيلة ضعيفة الشأن في السياسة حرمانها احيانا من الذكاء والتجربة اللذين هما اساس النجاح ، واللذين لا يستطيع الفضيلة ان تستخف بهما او ان تقوم مقامهما ، وعلاوة على ذلك فان الفضيلة لم تكن دائما في المكانة الرفيعة والمنزلة الجليلة التي تخضع لها الدسيسة وتطاطي الخيلة ، وتتضاءل في جانبها وجوه الرياء وتضمحل المصاعب والعقبات ، فتصمد للسياسة وشباكها واحايلها بعزيمة صادقة فخورة ، ونفس كبيرة مطمئنة ، اما الفضيلة الضعيفة فانها تسلم وتذعن ، وهي لا تريد الشر ولكن ليس لها قوة على ارادة الخير ، وهي تثير الغضب بتردها وتمسكها اكثر من ان تعتز بحزمها وامانتها ، وضعف الفضيلة يفسدها ويجري عليها الرذيلة ، ويعطى المكي فيلية اكثر حججها وبراهينها ويعد سبيل العذر لها .

٦ — طائفة من آراء مكي في

في كتاب الامير وتيت ليف

الرجل القوي : ان الرجل القوي ينظر الى العالم كما هو والى الرجال كما هم ، ولا يهتم كيف يكون الامر ولكن يهتم الامر نفسه ، والمنافسون غير الصالحين هم الذين افسدوه ، لان سوء الطبع الذي جبل عليه الانسان حال دونه ودون التمسك بمحاسن الخلال .

رجل الدولة : على رجل الدولة ان يجتهد في اجتناب المساويء التي تضعف الدولة ، فلا يجوز ان يكون بطيئا في ادراكه متقاعسا في حركته ، ولا يجوز ان يركن في الثقة الى حد الاضاعة ولا في الرية الى حد الاملال : ويجب ان يدرك في صميم لبه اذا كان يجب ان تملأ القلوب محبته او ان يكون مخوفا جانبه ، واذا

لم يستطع ان يكون الاثنين معاً فخير له ان يبعث الخوف في النفوس من ان يبعث الحب لان عامل الخوف يتوقف عليه ، وعامل الحب يتوقف على سواء .

صفات الامير : يجب على الامير ان لا يستنيم بالثقة الى غيره ، وان يعلم انه من الخير له ان يقوم بحق ما حالف عليه ، ولكن كثيراً من الذين لم يعبثوا بحلفهم فازوا على الذين اوفوا بعهودهم وحافظوا عليها ، ولو ان الرجال كانوا كلهم صالحين لكانت هذه القواعد غير محمودة ، ولكنهم لما كانوا في كثيرهم فاسدين لا يكثرثون بغيرهم فلا ينبغي الاكثرث بهم ، وعلى الامير ان لا ينصرف عن الخير اذا استطاع اليه السبيل ، وان يعود على الشر اذا لم يجد حيلة في اجتنابه ، والظهور بمظهر الرجل المتخلق بالفضائل هو غير المتخلق الحقيقي بها ، والفضائل في ذاتها قد تكون ضارة اما الادعاء بها فلا يكون الا نافعا ، وجماع ما في الامر المحافظة على الدولة وتوسيع نطاقها ، ولاجل الوصول الى هذه الغاية فما من وسيلة لاتمد شريفة وعامة الناس لا ترى غير الظواهر ، والعالم لا يتألف الا من العامة ، وليس هنالك الا الحقيقة الواقعة والانانية وتقدير الامور وعدم الاكثرث للخير والشر والحق والباطل والقيام بالعهد او النكوص عنه ، فينبغي عقد العزيمة واعداد الشعور وتوجيه العاطفة وخلق رجل مصطنع فوق الطبيعة ، لا يبالى بوسائل النجاح ولكن بالنجاح نفسه ، ولا يهمه الا ان يكون كبيراً مع الظهور بالمظهر الحسن وان تجرد في عمله من الضمير والشعور والاخلاق وازاد اليها بعض الرذائل والجرائم

الامراء الحديثون : يستولى الفلق على جميع الامراء الحديثين بعد استيلائهم على مقاليد الامور . لان الدول التي يعدون ايديهم اليها ويتمكنون منها لا تستند الى اساس ، فهم يشعرون انهم مهددون في كل ساعة وان دولتهم غير ثابتة ، وقد لا يكون اكثرهم في بدء امره شيئاً مذكوراً فهم يخشون ان يعودوا الى ما كانوا عليه ، ولا سيما اذا شهدوا في يوم من ايامهم ضياع الفرصة وذاقوا وبال امرهم ، ولكن من الذي يعلم الى متى يدوم الحظ الذي هو في الغالب سريع التقلب سريع

الزوال ، تسقط ثمرة قبل نضجها ، فالتغلب على الامر محاط بالاخطار ، لا بدوق طعم الهناء والراحة ، ولا يبرح مرهفاً سمعه ومحدقا بصره .

واذا بلغ شخص من العامة منزلة الامراء فانه لا ينال ذلك الا بجده ومساعدة الحظ له ، وكبار الرجال تؤاتيمهم المقادير بالفرص السانحة ، والفرصة هي المسادة التي يسبغ عليها الرجل صبغتها ، وحسن انتهاز الفرص من اسس الفضائل ، اما الذي ينال الامارة بعزيمته وفضل قوته فانه يركب الصعاب حتى ينالها ، ولكن لا يصعب عليه الاحتفاظ بها ، وطبيعة الشعوب متبدلة ، وقد يسهل اقناعها ، ولكن من الصعب بقاؤها فيما تقنع به ، والذين تصل اليهم الامارة عن طريق سواهم ، فانه من السهل وصولهم اليها ، ومن الصعب بقاؤهم فيها ، الا اذا كان الذي بلغ الامارة رجلاً مقدماً في رأيه موصوفاً بالحكمة وسعة العقل .

والامير الجديد يراقب في عمله اكثر من الامير الذي يرث الامارة ، وكثير ما هم الذين يعتقدون ان امور هذا العالم تحكم بالحظ وبالعبادة اكثر مما تحكم بتعب الرجال وعنائهم ، وقد يرافق الحظ بعض الامراء ، ولكن اذا اعتمدوا عليه وحده اصابهم الدمار عندما يتخلى عنهم فعملهم ان يحسنوا مسيرة الزمان حتي يجتنبوا عواقب الجذود المواتر .

مخاوف الامير ومطامعه : الامير مهديد في ملكه بامير جديد او جار طامع وهو لا يرعي عهداً ولا ذمة ولا مودة ولا حلفاً ولا رابطة ولا صهرًا ولا قرابة الا اذا كانت هنالك مصلحة له . وفي الداخل فالامير المستبد هو اقل طمأنينة واذا كان مزوداً بالسلاح وكان الجند تحت امره فانه مع ذلك يخشى من هو اعظم منه واشد من ان تحدته نفسه بانتراع ملكة واستئصاله وعلى الامير الحازم ان يتقي الاخطار وان يستعد لدفعها والدهر موات ، واذا دنت منه فقد ذهب او ان معالجتها ، ولا يجوز السكون الى المثل القائل : يجب التنعم بحسنات الزمان الذي نحن فيه فان الزمان يسوق امامه كل شيء : الخير كالشر والشر كالخير .

وقد يهاجم الامير غيره خوفاً اكثر مما يهاجمه حقداً وطمعاً ومخدوع من يظن ان حسنات الحاضر تنسى سيئات الماضي عند كبار الرجال ، وفي الدول القديمة والدول الحديثة يعتمد في البقاء على القوانين الصالحة والاساحة الماضية . وقد يعمل بعض الامراء في سبيل الاحتفاظ بدولتهم على نزع سلاح رعاياهم وآخرون على بث التفرقة وغرس الاحقاد ويعمل بعض الامراء على استئالة الذين يرتابون منهم ويقرّبون انهم . وبعضهم يشيد الحصون وبعضهم يقوضها . وسلامة المملكة لا تتوقف على ان يكون فيها امير يحسن تدبير شؤونها ولكن بان يكون فيها امير اذا مات تبقى المملكة ثابتة . واذا توالى اميران ضعيفان في مملكة قضيا على الملك مالم تكن قواعد الدولة مكيّنة واركائها ثابتة .

الصدق والخداع : ما اكثر ما يكون الامير محموداً اذا ايد ملكه بالصدق ولم يفتقر الى الخداع . غير ان التجارب تدل على ان كثيراً من الامراء الذين لجأوا الى الخداع قد استطاعوا مغالبة الاحداث وزادوا في ملكهم وسلطانهم واستطالوا على الذين جعلوا الصدق رائداً لهم .

الامير الاخرق المحتقر : على الامير ان يعني باجتنب ما يجعله اخرق او يسبب احتقاره ؛ اما ان يكون اخرق فذلك اذا كان نها با يطمع في اموال الرعية ويتطلع الى نساءها ، وهذا ما يتم اجتنابه ، وهو يكون محتقراً اذا كان كثير التبذل ماجنا متخنياً جبباً نامترداً ضعيف الرأي خوار العزيمة ، ويجب ان يعرف عنه كبر النفس والجرأة ورباطة الجأش والقوة ، وانه اذا قضى امراً فلا يردده شيء عنه ولا يستطيع احد ان يغلبه على رأيه او يتمكن من السيطرة عليه ، ولا يكفي الامير ان تكون لديه الصفات السايية اي ان يجتنب المساويء بل ان هنالك من المحاسن ما يتحتم عليه الانصاف به ، وعلى كل حال فانه يجب محاذرة احتقار الاجانب فانها تثير الاحقاد والامور التي تجعل الرئيس محمقاً في الشعب حرمانه اياه من النفع وتكبره عليه وغروره ويجب ان يكون الامير آمناً في شعب آمن .

المؤامرات : قديكون الامبر عرضة للمؤامرات وهو ما يدفع اليه الخوف والحسد او خشية العقاب ، فعليه ان يقاومها بسمو نفسه وحسن سياسته ووقور عقله وكال تدبيره وصلاح قوانينه والدفاع عن اصدقائه وحماية اوضاع الدولة ، واذا اضاف الى ذلك محبة الشعب له وعطفه عليه فمن المستحيل ان يجد من يتجرأ على مقاومته وفي ضد ذلك فانه يخشى كل واحد من اعدائه الذين يتجرأون عليه . واذا كان الشعب يبعض الامير فان المعامل والحصون وحدها لا تنفذه . وعليه ان يضيف الى ذلك محبة الشعب واخلاصه وولاءه .

اصدقاء الدولة وخصوصها : قديجد بعض الامراء صدقا واخلاصاً في بدء دولتهم عند الذين يرتابون بهم اكثر من الذين يوحون اليهم بثقتهم وهم يبدلون جهدهم لازالة ما في نفس الامير منهم او ما كان سبق لهم عمله ، وقد يجد المتتبع في شواهد التاريخ ما يدل على انه في كثير من الاحيان يسهل على الامير ان يستميل خصومه من ان يستبقى اصدقائه الذين سبقت معونتهم له : ولا يجوز ان يساء الى احدهم يولى عملاً كبيراً في الدولة واذا عرف الامير انه صديق او عدو غشيت العيون مهايته واذا عرف انه لا هذا ولا ذاك اقتحمته العيون ، والامير المتردد ينقاد الى خطة المياد بين الاعداء والاصدقاء وذلك ما يقضى عليه ، ومن المهم حسن اختيار الامير لوزرائه فاذا كانوا من اصحاب الكفاية والوفاء عدرجلاً حكيماً ، واذا كانوا بضد ذلك فهذا الاختيار هو اول خطأ ارتكبه ، ولا يجوز ان تكافأ الاغلاط في دولة ، كما انه لا بد في التجديد والاصلاح من التمسك بمقايي الماضي ، والامير الحذر يفر من المخادعين ويثق بمن يقول له الصدق فيما يسأله ويستشيريه والمشورة لازمة ولكن عندما يريد الامير ، واذا كان فاسداً فانه لا يستفيد من نصيح او استشارة الا ما كان من قبل الصدفة والرجال ينصحون ويخلصون اذا لم تكن هنالك اسباب تدعو لغير ذلك .

الحرب : ليس المال بعصب الحرب كما يظن غالباً ، ومن السهل الابتداء بحرب ولكن من الصعب الانتهاء منها كما يريد الباديء ، فيجب ان يعرف قوته

ويفكر في العواقب ، والقتال لا يكون بالذهب ولكن بالحديد ، والذهب لا يكفي لحشد الجيوش وتعبئتها .

والهجوم والدفاع في القتال يتوقفان على حالة البلاد العسكرية او الجغرافية على ان المهاجم اكثر حماسة وهو يسلب خصمه موارد ثروته ووسائل حربه ويطرح الضرائب ويغنم الغنائم ويتغلب على المقاومة ، اما المدافع فخير له ان ينتظر وهو يعرف البلاد ويتصرف بقواه ويستطيع ان يستعملها كلها من غير ان يخاطر بجميع ماله في خارج بلاده .

والمرء يخدع نفسه اذا ظن انه يدفع العدو المستكبر بالخضوع له ، فالخضوع لا يجز نفعا ولكنه يؤدي ويضر ، وعلى الامير ان يحتفظ بشأنه ومنزلاته وخير له اذا كان لا بد من التسليم ان يدع للقوة سبيل انتزاعه ، واذا كان التسليم ينشأ عن الخوف من الحرب وعن الرغبة في اجتناب احوالها فان الحرب مع ذلك لا تجتنب ، واكثر الدول شقاء التي تطلب السلم ولا تناله ، كما انها لا تستطيع المثابرة على القتال ، والحرب التي تبدأ بدون خوف تستمر بدون خطر وتنتهي بدون خسران .

وحسب الدول ان تقنع بالنصر ، واذا طمعت في غيره فانها تضعه ، واكبر خطأ تقع فيه الدول المهاجمة هو في رفض كل صلح يعرض عليها اذا كانت القوى المهاجمة اكثر منها واعظم ، ولكن الرجال في الغالب يسبحون في فضاء واسع من الآمال يعتمدون عليها ويهاكون فيها ، والخديعة من مفاخر الحروب والتخلي عن الاصدقاء المهاجمين كالتخلي عن معقل بعد احتلاله بدون الدفاع عنه .

الجنود والقادة : ايها افضل جيش صالح قائده فاسد ام جيش فاسد قائده صالح ؟ يقول يوليوس قيصر : ان كليهما جدير ان لا يعتمد عليه ولا يركن بالثقة اليه ، ومع ذلك فانه يسهل على الجيش ان يجد قائداً اكثر مما يسهل على القائد ان يجد جيشا وان كان لا ينكر الخطر من وجود جيش بدون قائد ، والفخر مضاعف للقائد الذي يجمع الجيش المتفرق ويحارب به العدو وينتصر عليه ، والتبديل الذي

يقع في المعارك وانتشار الاراجيف يبعث الفوضى في الجيش غير المنظم اكثر مما يبعثها في الجيش المنظم ، والتنظيم يجري احيانا لاجل الاحراز و احيانا لاجل الاحتفاظ ورئيس واحد في جيش افضل من وجود رئيسين قديرين يتنازعا السلطة ويختلفان على النفوذ ، واسوأ الدفاع الذي تسوده الفوضى ، واذا اريد ان يقتصر الجيش في الحرب فينبغي ان يثق بنفسه ويثق بقائده ، ولا شيء يفيد القائد كمعرفة خطط العدو .

وكان الرومان في تقاليدهم القديمة يجتنبون معاقبة القادة اذا ارتكبوا خطأ وساروا بجمالة على خطة تضر بالدولة ويرون انه يكفيهم ما اضاعوه من النصر حتى يضيفوا الى ذلك النكال والعقاب .

الاضاع السياسية : تتشابه الاوضاع السياسية في الشعوب لان الرغبات واحدة والاهواء واحدة ، ويدب الفناء في الدول عندما تفسد القوانين والاخلاق والعادات ، ويجب التبديل عند تبدل الزمان حتى يكون الحظ مساعفاً ، وفي الغالب ان الجهود تنشئ الرجال في الاوقات التي تحتاج اليها فتحفظ بحظها ولكنها تغير ببطء فيكون ذلك سبباً في اسراع الدمار اليها . والمنفعة او الحرص يجعل افساد الرجال هيناً ، فعلى واضعي القوانين ان يحولوا دون ذلك وان يمنعوا الاطماع من ان يطلق لها العنان بدون زاجر ، لان الانسان يذهب من طمع الى طمع وهو يبدأ بدفع ما يؤذيه ثم يعمل على اذية سواء

سلامة الوطن : ينبغي ان يدافع عن الوطن بكل وسيلة ، واذا كانت سلامة الوطن في خطر فلا يجوز الوقوف عند اي اعتبار او علة او وجهة نظر في الظلم والعدل والقسوة او الرحمة والممدوح او المذموم ، لان الواجب كل الواجب في سلوك الخطة التي فيها سلامته وصيانة حريته ، والمواطن الصالح لا يهتم بما يصيبه في سبيل وطنه .

كلمات شتى : لا يعمل الرجل عملاً صالحاً إلا لحاجة ، والمرء في الغالب يكون بين الصلاح والفساد .

الزمان يلد كل حقيقة .

لا يجوز ان يغامر المرء بكل حفظه ما لم يبذل كل قوته .

لا يجوز التمسك بالوعود التي تمنح بتأثير القوة .

يتحمل المرء الجرح الذي يصنعه بنفسه اكثر من الجرح الذي يصنعه

به غيره .

لا يجوز الانتقال من حال الى حال تناقضها بدون توسط .

الفصل الثاني

رشيلى وتفالىد فرنسية

١ — سياسة فرنسة الخارجية

منذ بدأت المملكة الفرنسية تتألف وتجتمع اخذ الخلاف يدب ديبه بينها وبين المانية بسبب الارزاء الفاصلة بين الدولتين والتي تدعى بها كلتاها وتريدان تبسط فيها سلطانها ، فكانت حروب الفتىح ضرورياً وحروب المقاومة عنيفة ، وقد ملاء هذا النضال صحائف التاريخ الاوربي ، وتطور باطوار مختلفة تأتلف مع الزمان الذي كان يقع فيه ، وكذلك شأن الحجاج التي يدافع بها كل فريق عن حقه ، فقد كانت تتبدل قواعد الحق العام ، ولكن الغاية كانت تبقى ثابتة لا تتغير معها تغيرت الوسائل، وهذا الدوام على رأي واحد ، والثبات في متابعة غاية واحدة برغم جميع الثورات والتقلبات التي حدثت في الافكار والاشياء، تشرحه الحوادث والظروف التي تنشأ عنها التقاليد الكبرى للشعوب والدول ، وقد ظهرت منذ ايام فرنسة الاولى هذه العلائق الغربية التي ترافق تكون الشعوب وتؤلف قوانين التاريخ .

ان السياسة الفرنسية قررتمها الجغرافية ، ودعا اليها الشعور الوطني قبل ان يحض عليها حق الدولة ، وهي مؤسسة على قاعدة امبراطورية شرلمان . ومبدأ هذه القضية الكبرى في تاريخ الدولة الفرنسية هو الخلاف الذي لم تتم تسويته حول هذه العوامل والمؤثرات ، ومنه كان يستمد الملوك اسباب اطاعهم ورغائبهم ويستمد المتشرعون مصادر براهينهم واحتجاجاتهم وتستمد التقاليد الشعبية قوتها التي كانت تقود الملوك الى ادعائهم والمتشرعين الى البحث عن نواحي الحق وحججه.

وما كادت المملكة تخرج من الظلمات حتى اخذ المؤرخون والشعراء يذكرون الملوك بما كان لاسلافهم من جد صاعد وعز باهر، واصبح المثل الاعلى الذي ينشدونه ويتطلعون اليه ملك شرمان الكبير، هذا الملك الذي كان عظيما في داخل فرنسا وفي خارجها، والذي كانت تستخرج السياسة قواعدها من قواعده واساليبها من اساليبه، وبقيت كذلك في اصولها وفي حقيقتها في ايام جميع الملوك الطامعين، اما الغاية فهي الفتوح واما الوسائل فهي التقاليد واما الاداة فهم المتشرعون .

وقد نشأ الى جانب الملوك طائفة من رجال السياسة، وطائفة من رجال الكنيسة خاصة، فكان منهم المفاوضون واصحاب الاصول وواضعو القوانين ومهدو السبل ومهيئو الحجج، أعدتهم الفطرة وغذت ملكاتهم التربة الصالحة وخرجوا من اعماق المدن وتقدموا على حين غرة في ميدان السياسة فهم يقترحون ويناقشون ويعرفون اوروبا وامراءها كما يعرفون فرنسا وسادتها، وهم الشهود الباقون للتقاليد التي نشأت في الشعب، ولولا هذه التقاليد لما عرف شيء من امرهم.

وفي مقدمة الملوك الذين عرفتهم فرنسا وادوا لها اجل الخدمات بسياستهم ودهائهم هنري الرابع، وكان وزيره سولي واضع الخطط الكبرى في زمانه. وقد امتاز هذا الوزير بحرصه الشديد على نمو بلاده واتساع سلطانه وعظمة ملكها، وكان شديد التمسك بخططها وتقاليدها، يطمح الى ان تسود فرنسا اوروبا كلها وذلك بالقضاء على بيت النمسة وابقائه في اسبانية فقط وتقسيم اوروبا الى ممتلكات يقيد بعضها بعضاً، وتأليف جمهورية نصرانية فيها يرأسها البابا وتحكمها فرنسا، وكذلك اضعاف منافسي هذه الدولة والفت في عضد خصومها، وتقوية انصارها وتعزيز اصدقائها واحاطتها بمجموعة من الدول المحايدة التي هي في الحقيقة دول خاضعة لها، وطلائع الدفاع عنها، ثم طرد التتر من اوروبا واحياء امبراطورية القسطنطينية .

وقد اسندت هذه الخطة اي انشاء امبراطورية نصرانية جامعة الى هنري الرابع ولكنها كما قلنا لوزيره سولي، وقد تلقاها عن بعض الذين سبقوه وجردها من الاوهام

والخيلالات التي تأبأها فنون السياسة واساليبها وزينتها بالاحلام الدينية ، وقد عادت بعد ثلاثة عصور الى الظهور بمظهر جديد واسلوب انيق وضعه (سيمس) ، وتصبح فرنسة بحسبه مهيمنة على اوروبا ، سائسة لاورها ، محاطة بمجمهوريات تأتمر بأمرها ، حاملة في العالم لواء السلم وناشرة بين الشعوب مذاهب الثورة . وما برحت القوة المغيرة تجد مؤيداً وانصاراً كما ان العدل والحذر يجدان مدافعاً وحامياً ، فترى عند جميع السياسيين القديما هذه المزية في وضع الحجج الجديدة المدافع عن تقاليد موروثه ، والاستناد الى الحق والفلسفة في تبرير خطة معينة وتنفيذ سياسة مقصودة ، فيتابع ذلك فريق بحرص اعمى وفريق بطمع شديد ، وآخرون بالحكمة والصبر الذين يميزان السياسة الصحيحة ويرفعان من شأن اصحابها . وينتمى الى هذه الطبقة مؤسسو السياسة الفرنسية الحديثة وهم الذين يصورون الماضي ويحددون تقاليده ويعنون بالمستقبل ويقررون سياسته : هنري الرابع ورشيلىو ومزران العمال الخالدون لا عظم امر قامت به فرنسة القديمة وهو معاهدة وستفالية .

وكان هنري الرابع اقل الملوك تعلقاً بالخيلالات ، ولكن تسمهويه البراهين المنطقية واساليب التفكير الجميلة ، وكان يحب ان يسمع الى سوللى فيما يبدىه من آرائه وخططه ، على انه يجد فيها مالا يرضى به ومالا يعتقد بوجوده وهو السلم او ما لا يتفق مع اهوائه ورغباته وذوقه وهو التجرد عن الغاية .

وقد نشأ الكردينال رشيلىو في تقاليد السياسة التي سنها هنري الرابع وتلقن مبادئها وغذي باساليبها ، فكانت نيته تتجه الى ايطالية وكان يتطلع الى الرين ويريد ان يحمل حدود فرنسة اليه ، فاقتفى الكردينال الكبير خطط الملك الداهية ووسمها و اضاف اليها ، وكان يزداد حرصاً وطمعاً كلما ازداد فتحاً ونصراً ، كما قال عن نفسه في مذكراته عند البحث عن خطط هنري الرابع التي انارت سبله .

ولم تكن هذه التقاليد متمكنة من نفس رشيلىو وحده بل كانت تجتمع عليها كلمة حزب كبير وطني وملكي معاً ، وهو حزب رجال السياسة ، ولما كان رشيلىو

قد اعتمد على هذا الحزب ، وحدد ميوله بما كان له من سلطان ، وبما بهر به العيون من رونق ، فنال وشيكا ما يريد من الحكم واخذ بقوة اخذعز يز مقتدر . وقد كتب « مارب » عنه منذ سنة ١٦٢٧ يقول : ان في هذا الرجل شيئا يتجاوز حد الانسانية . . . والمسافة بين نهر الرين وجبال البرنات لا تظهر كافية له . . . وهو يريد ان يخل شواطئ البحر الابيض وان يذهب الى ارجاء الشرق البعيدة . . . فقس عظم خططه على عظم شجاعته .

حقا لقد كان رشاو مؤسساً لانظير له ، وكانت خططه ايجابية وآراؤه واضحة بسيطة ونافذة ، وكان يتفوق في تمييز الفرص وحسن انتهازها ، فعندما ساد الهدوء المملكة ، واخضع الخارجين عليها ، وجاء وقت التفكير بتأييد الامراء البروتستان في المانية على بيت النمسة اذا كانوا يتخلون عما يملكون دون الرين ، فكتب مذكرة الى لويس الثالث عشر يبين فيها الفوائد العظيمة التي يجنيها الملك من هذا العمل والخطر اليسير الذي فيه ، فهو يستطيع ان يمد حدوده الى الرين بدون عناء ، ولكن ينبغي قبل كل شيء اعداد العدة وتمهيد السبيل وذلك باحتلال اللورين ، ومتى تم انجاز ذلك فان حدود فرنسا تصل الى الرين في بضعة اشهر ويمكن مهاجمة فلاندر عند وقوع اي اضطراب في اسبانية .

ومع ذلك فقد كان المفكرون في ايام التقاليد يضعون على السنة العلماء القواعد السياسية الحكيمة ويتحدثون بها ، وبما قالوه في تلك الايام على لسان فيلسوف حكيم واذا عوه بين الناس :

عليك ان تجعل حداً لملك وورغبتك

ينبغي قبل كل شيء ان ترز خطتك وقوتك ، فلا تتجاوز في خطتك ما لديك من القوة .

لا تستول ابداً على ما لا تستطيع ان تحتفظ به .

٢ - رشلو في طريقته واساليه

كانت حدود الرين قاعدة كبرى لسياسة رشلو التي عمل فيها على تنفيذ الخطط التقليدية ولما كان لابد من الاتيان بالشواهد الحقوقية والبحث عن الاصول والبراهين والسوابق ، فقد اعد نشرة ذكر فيها ان الامر بطور لاحقه في الحدود التي هي دون الرين ، وليس له فيها الاحق التغلب ، على حين ان حدود فرنسا بقيت على الرين خمسمائة سنة ، وعلى هذا المنوال اخذ المتشرعون في اعداد الحجج وذكر الاسباب وتقرير الاحكام .

ولم يكتف رشلو ، بالمفاوضة والقتال لتحقيق غايته ، بل اراد ان تكون سياسته وطنية ، وان يؤيدها الرأي العام ، فاصى بوضع المؤلفات التي نشرت في عهده وفي عهد سلفه ، وعمل على ارشاد الفرنسيين وايضاح الاسباب والنتائج لخطه الحرب والسياسة التي يتبعها ، وكانت البراهين مهيأة لا تفقر الا الى اقتباسها من التقاليد و ابرازها في اساليب ذلك العصر ، وقد اذعن المؤلفون في القرن السابع عشر خطوات من سبقهم ، وجاء من بعدهم متشرعو الثورة الفرنسية الذين ذهبوا نفس المذهب عند تقديم الاحكام ، فاولوا ان يطبقوا صيغ الشرائع العامة الحديثة على تقاليد الفتح القديمة ، ولا عجب في ذلك فان الذين وضعوا الخطط وسنوا التقاليد خرجوا من اصل واحد و تلقوا فكرة واحدة وشعوراً مشتركاً في الدواوين والسجلات واعمال الدولة . وكان جميع هؤلاء المؤلفين والجدليين يمتدنون اعتقاداً واحداً ان سعادة العالم مرتبطة بسعادة فرنسا وان السعي للسلم العالمي يكون بتعزيز فرنسا في اوربة ، ويرون انه من الحق الذي لا مرية فيه ان تلحق فرنسا الانزاس واللورين ، وهي بذلك لم تأت الا حقاً وعدلاً ، فلا تقف الادعاءات عند حق التملك السابق بل تتجاوزه ومتى بدأ الانحدار في هذه الوهدة فان الفصاحة والبلاغة لا يقفان عند حد ، والمتشرعون يكشفون القناع عن الادعاءات حينما يجدون نفعاً بذلك ويأتون بالبراهين الشرعية لتأييد حجة مدعياتهم .

واحسن شاهد على مابلغة هذه الخطط السياسية من المنزلة عند الناس في ايام الكردنال رشليو انه كتب في وصيته هذه الحكمة المشهورة : ان غاية وزارتي ان تعاد الى بلاد الغال حدودها التي منحها الطبيعة اياها ، وان يكون ملك الغالين فيهم وان تكون الغال هي فرنسا ، وحيثما كانت الغال القديمة تكون الجديدة . واذا كانت قد افكرت صحة هذه الوصية فان بينات كثيرة قد اقيمت لاثباتها ، ومهما كان من امرها فان الغاية التي ارادها منشيء هذه الوصية كائنا من كان توافق التقاليد الوطنية وتعرب عن رأي الكردنال وتشرف ذكره ، ولا شيء اجمل منها لاثارة اعجاب الفرنسيين .

ففي عهده غلب الانكليز وفتحت مدن كثيرة والحقت الالورين وتم الاستيلاء على معظم الالزاس ، وقد استوسقت لفرنسة الامور حتى لم يبق لها جار لم تغلبه في المعارك ولم تظفر به في الحروب ، ولم تنتزع منه البلدان ، ولا يدع اذا اهتز الفرنسيون عند مطالعة اخباره ومالوا طرباً للمجد عند تذكره . فقد كانت فرنسا مركزاً للسياسة الالوربية ، وابقى رشليو للذين خلفوه وضعاً اوشك ان يبلغ النام وتقاليد وطنية لا تزال تبني عليها افضل سياسة خارجية وهي ان يخدم مصالح الوطن الحقيقية اكثر من شهواته ومطامعه ، وطعاً نيمته اكثر من عظمته .

وقد انتشرت فكرة الكردنال اي انتشار ، انراها بعد قرن ونصف عند الرجال الذين تسنموا غارب الحكم في فرنسا ، في فرصة من فرص الزمان سنة ١٧٩٤ ، من غير ان يعدوا لذلك تربية غير تربية الفرنسيين الذين عاشوا في زمانهم ولم يكن لهم علم الكردنال في الامور ، ولا معرفته بالرجال ، ولا حزمهم ، ولا رجاحة عقله وثبات اخلاقه ونفاذ بصره ، وقبل كل شيء لم يكن عندهم تناسق عبقريته العجيبة ودهائه الخارق العادة لذلك مابرحوا مريدين مضطربين ومقلدين غير مبصرين ، فلم يحفظوا منه الا قواعد عامة يسرفون في حملها حتى يحرفوها عن مواضعها ويتخذوا منها آراءً مجردة سفسطائية ، وهم مع ذلك يحتجون بامثله ويفخرون بالانتساب له .

واذا قيل تقاليد رشليو فلا ينبغي ان يراد بذلك تلك التقاليد المبهمة التي ما برحت تسوق الفرنسيين الى السعي وراء حدودهم الطبيعية ، ولا سياسة التحالف مع اوروبا لمحاربة بيت النمسة التي كانت تضرهم اكثر مما تنفعهم ، فقد نشأت هذه المذاهب قبل رشليو وورثها الفرنسيون من تربيتهم التقليدية في نضال الامبرطورية ونضال شاراكين في القرن السادس عشر ، واستعان بها رشليو في زمانه كما يستعان بالرأى العام في هذا الزمان ، ولكن الذي عامه معاصريه ولقنهم اياه ، هو ان فرنسا في وسط المنازعات الدينية وجب عليها ان تتخذ سياسة خاصة بها مقتصرة على منافعها وهذه المنافع العليا قائمة على ان تكون لها حدود طبيعية ، او غير طبيعية كافية لحماية عاصمتها ووحدتها الموروثة وان لا يكون في جوارها دول قوية تهدد هذه العاصمة وهذه الوحدة وكان شديد الحرس على الاتفاق مع بريطانيا العظمى ويقول ان التحالف معها كانت دائماً مفيدة لفرنسة وهي اشبه بطريق مؤد اليها .

وكذلك فان رشليو ابقى لمن جاء بعده جيشاً حسن القيادة ، وجعل العمل الذي قام به في الخارج بآمن من القضاء العاجل عليه ، واحسن في اختيار رجل بعيد عن مشابهته ، ولكنه ترسم خطواته واقفي آثاره في السياسة الخارجية ، وهو الكردنال مزران ، فلم يغير موت رشليو شيئاً من السياسة العامة التي ذلل صعاها لان لويس الثالث عشر لم ينزع ثقته من الرجال الذين كانوا يعملون تحت امرته ، ووضع على رأس المجلس مزران الذي وصى به رشليو ليكون خلفاً له .

وقد عرف رشليو النفي في افنيون وكان يخشى ان يلاقي شرّاً من ذلك فكتب يومئذ هذه الكلمة التي يجدر ان تردد : لا يوجد براءة مأمونة في الوقت الذي يراد فيه ان يكون هنالك مجرمون . وكان رشليو شديد الوطأة ، قد اربى الرجال واخافهم مما حكم فيهم ، وكان رشليو يبحث عن رجاله في كل مكان ، فيختارهم من رجال الكنيسة ومن الاسر النبيلة ومن اناس مجهولين ، يغيرهم ويبدلهم ويؤيد

الذين اختارهم ، وقد يتخلى عنهم ، ولكن بعد آن طويل عندما يعرف خطأه فيرسل فريقاً الى القتل ، وآخرين الى البستيل اويكتفي بعزلهم .
ومما قال في وصيته عن الفرنسيين :

ان خفة الفرنسيين وسرعة تقلبهم لا يمكن التغلب عليها الا اذا قام فيهم رجل بيده الامر والنهي ، فهم قادرون على كل شئ ، اذا كان الذين يقودونهم يستطيعون ارشادهم الى ما يقومون به من الاعمال ، واذا وجد الملك رؤساء جديرين بالقيادة فانه لا يفقد الرعية الطائعة ، والرأي الشائع في ارجاء العالم بان الفرنسيين عاجزون عن اتباع النظام ورقابته ، وليس لذلك سبب الاعجز الرؤساء الذين لا يحسنون اختيار الوسائل الضرورية للغايات التي يريدونها .

وكان كردنال الدولة الكبير يرشد الشعب الفرنسي في الخطط الكبرى التي خلفها له ويضع له المناهج الخالدة ويقود سفينته في البحار النائية ، على انه كان يلقي معارضة عنيفة في القصر وفي المدينة ، ولكن الملك كان يؤيده كل التأييد ويعرف له عظيم خطره وجميل اثره ، وفخر القرن السابع عشر يرجع كله اليه والى اساليبه وخططه ، وهو منشيء السياسة الفرنسية الكبرى في اوربة وفي خارج اوربة .

٣ -- رشليو ومزران

ابقي رشليو للمملكة وصية هي الكردنال مزران فاتم عمل سلفه وحافظ عليه لامتة وورثه لبلاده ، وهو الرجل البارع في اعمال السفارات وصناعة المفاوضات ، وكانت طريقته مألوفة فلا يسيطر بعنف ، ولا يمكن يستمين بالدسائس ويلجأ الى المسكائد ، وكان يتواضع ويظهر بظهور الضعيف حتى يغفر له ما هو عليه من عظم الشأن ، وكان عليه ان ينال ثقة امرأة ملكة ام ، لاثقة ملك استولى عليه حب المجد وجلال العرش ، فلا فائدة من محاولة اقناعها ، ولكن ينبغي ان يعمل على الاستئثار بقلبها ، وقد ادار معركة وستفالية والبرنات السياسية بمهارة لم يسبق لها نظير ، وهو بعيد عن ان يكون رجل دولة مثل رشليو ، ولكنه في السياسة

الدولية قد يكون في بعض الاحيان اكثر براعة منه . ولم يكن الفرنسيون يقدرّون مزران حق قدره ، ولا يحلونّه المحل الذي هو اهله ، والاجيال الذي جاءت بعد رشليو لم تنظر الا في اسباب عظمته ، كما انها لم تنظر الا في النواحي الضعيفة التي عرفت في حياة مزران ، على انه لو لم يحمل مزران على عاتقه ميراث رشليو لما كنا نعرف ماذا يبقى من خطط الكردنال العظيم ، وقد اخرج مزران مرتين من الحكم ، فكان في منفاه يدبر الامور ويرشد وينصح ، وعندما يرجع الى السلطان كان يقوم باعباء الحكم بنفسه المطمئنة وصدوره العجيب ، فيستأنف الامور من حيث ابقاها ، ويربط حول اسبانية الشباك التي وضعها ، وكانت مرونته لاتعرف القاطع ، ينظر الى المستقبل ببصر حديد ، ولا يفرط حتى في معاملة اشد اعدائه ، حاسبا حساب الزمان وتقلباته ، ومن مفاخره انه لم يأمر بقتل احد ، وقد استطاع هذا الايطالي العبقري ان يحرز لفرنسة برغم حالتها السيئة يومئذ انتصارات باهرة .

وقد لبس مزران كسوة الكهنوت ايدخل السلك السياسي في خدمة البابا ولم يصبح فرنسياً الا في سنة ١٦٣٩ ، وجعله رشليو كدنا لا واستخدمه في القصر وفي ايطالية ، وقد اقام في اسبانية بضع سنين يتعمده النجاح في جميع اعماله ، ولم يكن احد كنهله عارفاً باساليب السياسة الايطالية والخطط الاسبانية ، وقد اصبحت ايطالية منذ القرن السادس عشر الارض التقليدية للسياسة الحديثة وقد دخلت منذ ايام فليب الثاني في دائرة النفوذ الاسبانية ، ولم يكن من قبل الصدفة ان الرجل الذي خلف رشليو في ادارة السياسة الفرنسية ايطاليا ، ولا ان الرجل الذي خلف مزران (ليون) قد اسندت اليه مهات كثيرة في ايطالية وقضى بها عهدا طويلا ، فهذا الانتخاب وذاك يدلان على موقف فرنسة من سياسة هذه الارزاء .

فمزران واشباهه من عمال رشليو ، لم يكن وزير خارجية اعين في خططة رجال افضل منهم وارسخ قدما في تدبير الامور ، ولم يكن مثلهم رجال سياسة مساقين الى العمل النافع ، فقد كانوا يعرفون ان باريس تقرأ تقاريرهم ، وتغوص

على دقائقتها وتذكر بعد غورها ، وتناظرها ببعضها وتقارن بينها وتنقب عن مواضع النقد فيها ، ويعرفون ايضا ان مقترحاتهم لا تبقي بدون جواب ، ولا خططهم بدون مراقبة ، وهم في هذه الحال من التأيد لهم والاحاطة بهم يجردون بهضم جهودهم ، ولم يقتصر رشليو على رجال السياسة بل كان له عمال من جميع الطبقات وفي كل البلاد ، وله في كل مكان عيون وآذان ، يريد ان يستفيد من جميع المواهب ويعرف كل شيء ، وكذلك فقد كان له اقلام يوحى اليها وقد اوجد الصحافة الرسمية لانه يعرف قوة الرأي العام وقوة الاتجاهات السياسية التي تؤثر عليه ، فهو يهتم بشأنها ويضع يده عليها ، ويتقود وكلاءه ويعلمهم ، وكان كثير المرونة والملاءمة في اسلوبه ، ولكن فكره السياسي لم يكن اشد مراساً منه ، والقول بانه كان يصيب شاكلة السداد في الاعمال العظيمة التي يقوم بها هو حق لانه يتقن صناعة رجل دولة ورجل سياسة ، وقد تميز هذا العهد بالمنازعات القومية وكان رشليو استاذاً فيها ، يعمل على ان تكون الوقائع طبقاً للاراء والمذاهب ، وقد كان يدعو لاسباب سياسية الى التمسك بالعدل والصدق في العلائق الدولية ، ولم يكن يتنكب عن المفاوضة حتى مع الدول التي يحاربها . ومفارزاته مستمرة لسبب او لغير سبب في شأن جميع البلاد ، وقد خصص الفصل السادس من وصيته لماساهل مفاوضات مستمرة .

هذه هي السياسة التي تخرج مزران في اساليبها وفنونها ، وجعلته يتخذ المناهج التقليدية قاعدة السياسة الخارجية ووسيلة لتعزيز السياسة الداخلية ، بعد ان بلغت تلك المناهج من القوة انها اصبحت داخلية في وثائق الدولة فحقق مزران خطاً مهماً ، وحاول سنة ١٦٤٦ ان يضم نيس وسافوا الى فرنسا وكان الاستيلاء على البلجيكيك احب خطته اليه وآثرها عنده ، وكان يرمي الى آمال بعيدة يتوقع ان يعوض بها عن الدماء المسفوكة والاموال الضائعة بحيث لا يستطاع ان يجد الناقدون سبيلاً للاحط منه او الطعن به ، ولكن خاب اماله ووجد طلاب

النقد ما ارادوه ، وطعنوا مزران طعنات شديدة ، فلاموه على خوره وتردده وتوانيه ، ومن تهكمهم عليه قولهم : ما اعظم الفرق بين هذا العقل الراجح وبين اضطراب الكر دنال رشليو . وكان يظن انه ليس ما يضاف الى هذه العبارة الجارحة وفي المديح كما في الذم يزيد التشبيه رفعة او ضعة . اما الاواخر الذين كانوا اقل ريبة من المعاصرين فقد اعجبوا بالكر دنالين على سواء اعجابا يستحقه عملها المشترك الذي ظهرت محاسنه ، وعرفت مع الزمان قوته .

ولكن ليست ايطالية التي كانت بحق مهد السياسة الدولية هي التي انجبت مزران البارع ؟ ان مزران كما وصفه عارفوه لم يكن يبالي ما صنع لاجل الوصول الى غايته ، وكان يجاري الحوادث اذا شاء ، ويستخرج اسرار المسكائد منها اتقن حبكها ، ويضاف الى هذه المزايا صبره ومضاؤه ولا يوجد وزير مثله اثار الغضب والشتم ، فاستطاع ان يهديء ثورة الناقين منه وان يزيد في عناء الشاقين له ، ولم يكن يهجمه ان يجرح في كرامته ولا ان تنظم القصائد للطعن فيه ، ولا ان توزع الدشترات الايقاع به ، وكان يعرف جيداً قيعة المجاملات فلا يندفع بها ، وكان ينسى مختاراً ويثأر نادراً ، ولم يكن قاسياً ولا غير راحم ، واذا لم يكن طيب القلب فانه لم يكن شديد الحقد ، وقد كان رشليو في زهوه يحب اقتحام الاخطار ولا يكثر ثبها اما مزران فقد كان يعمل على اجتنابها قبل وقوعها ، وكان يسلم غير ضعيف ولكن اتباعا لخطوة ويلجأ الى الرأي المغب المختمر ، بدلا من نزوات الشهوات والاطاع والاندفاعات الشديدة التي لا تدل على بعد نظر ، فكان يفكر في العواقب في بلاد لم يكن فيها من يحسب حسابا للحوادث ، ويميل الى الاساليب الايجابية التي هي في ذوقه وفي صميم نفسه ، ويفضل السلطة المفيدة وان كانت خفية على العصبية الظاهرة ، يقدس المنفعة ويتهاك لاحراز النجاح ، وكان الزمان اكبر نصير له حتى انه كان يقول كثيراً ، « انا والزمان » ويحب ان يردد ذلك ، ولم يكن يسحق كل ما يعترض سبيله كما كان يفعل سلفه رشليو ، بل يحتال على الامور باحسن الطرق واثق الاساليب ، ويرى انه ليس عليه معالجة المبادئ والاكتراث بها ، ولكن الاهتمام

بالمنافع والسمي لادراكها ، وقد فاوض كثيراً من مشاهير رجال السياسة وتغلب عليهم الواحد بعد الآخر ، بمنحهم في الظاهر ما يريدونه ، ولكنه من غير ان يتنازل في الحقيقة عن شيء .

وبعد كل ما قيل عن مزران فقد عاد التاريخ وانصفه ، فهو الذي ورث رشاو ونفذ سياسته وخططه ووصاياه ورفع الى اعلى الدرجات الحرص على الاسم الفرنسي وتابع بوسائل مختلفة الغايتين الاساسيتين اللتين وضعها نصب عينه : توحيد فرنسا وتوسيعها . وقد نجح نجاح رشاو من غير ان يتبع وسائله واساليبه ، واذا كان دونه بكل ما يتعلق بالادارة الداخلية فقد كان مثله في ادارة الحرب والسياسة ، واذا كان فكره اقل سموا واتساعا فانه لم يكن اقل مضاءاً وحزماً واعل قلبه كان اكثر تصميميا واصح ارادة ، وهو الايطالي المولد كان - كما قل بوسوه - اهلا بعبقريته وعلاقته لصيانة مصالح الوطن .

واذا كان مزران لم ينجح بتقديم الامبرطورية للويس الرابع عشر ، فقد ابلغه مع ذلك جميع اغراضه السياسية في اوروبا ولا سيما باضعاف بيت النمسة ، وبتحكيمه بملك اسبانية ، وقد هدئت فرنسا وضمت حدودها وهابها غيرها . ولم تبق تخشى تأمر جيرانها ولا اثورات في بلادها ، واثقة بنتائج السياسة الحميدة التي سار عليها رشاو ومزران .

وكان فريق من اعداء الكردنال ينتقدونه ويدعون انه اطلال امد الحرب في اسبانية لغاية في نفسه وبدون فائدة لفرنسة ، فكتب سنة ١٦٥١ يشرح سياسته ويقول : اني اذن لا كون غادر ابل اكون محروما من العقل والرأى لو اني لم اشتغل بكل جهدي وكل قلبي لاقرار السلم ، لان في عودة الطمأنينة والسكينة الى المملكة وتمتع الناس بحسنات السلام التي حرمتهم اياها الحرب ما يعود على باني المفاسخ ، ولكنك اتلق من التهاوي والحامد مالا يقاس بما تعرض له من الملام ومن الطعن ، ولكن وزراء اسبانية لم يكونوا يريدون المطاولة والمطاطلة في المفاوضات مع

فرنسة ومحاولة انتهاز الفرص التي كانت تشجعهم عليها قلائل بلادنا واضطراباتها ،
ونحول دون موافقتهم على اقامة سلم عادل يتمتع الجميع بحسناته .

٤ — نضال فرنسة للامبراطورية المقدسة

وظفرتها في مؤتمر وستفالية

كانت الطريقة التقليدية في سياسة فرنسة ترمي الى اضعاف الامبراطورية
واقصاء الفرعين الالماني والاسباني عن بلادها ، وقد بلغت فرنسة ما تريده فتضال
البيت المالك في النمسة ، ولكن لم تحدث تبدلات كبرى في السيادة وان تبدلات
الصلات والعلاقات ، فاصبحت فرنسة تجد في المانية انصاراً اكثر مما تجد خصوماً ،
والامبراطورية التي كانت مهددة اصبحت مسالمة ، والعقبة الكبرى التي كانت
تعترض سبيل فرنسة اصبحت اداة لها ، وقد عظمت قوة فرنسة اكثر مما اتسعت
ارضها ، ولم تكن هذه القوة لتثير الحسد سوى عند بيت النمسة ، وكانها لم تكن
حينئذ الا لحماية حق كل ذي حق ، واصبحت السياسة الفرنسية الخارجية قائمة على
القاعدة التي اسعدت المملكة في داخلها وهي : القصد في تحكيم القوة .

اما المحالفات التي كانت تتخذ قاعدة للسياسة والتي كانت مرتبطة بعضها ببعض
بنظام دقيق ، فانها لم تكن عظيمة الا بقدر ما تناسك اجزاؤها فالالماني والسويدي
والهولندي والبولوني حتى التركي يجد كل فريق ان الآخر يؤيده في دفاع عدو
مشترك ، ولكن عندما تهددهم فرنسة كانوا يسرعون بالانقلاب عليها ، وبذلك
تنحل جميع العرى التي كانت معقودة ، وما كان الالماني يتردد في مخالفة الفرنسي
لمقاسمة جزء من المانية ، ولا يتردد كذلك في الانقلاب على فرنسة لاسترضاء
مواطنيه وهو بصيانة ما بقي من الدولة يسوغ لنفسه الاحتفاظ بما احرز ، كانه
يشترى نصيبه من التغلب بما يبدله من المعونة لسلب فرنسة ما نالته من الفتوحات بسببه .

ولذين افراطوا بجهالة في تطبيق سياسة رشليو قادم ذلك الى خيانة مبادئها
فطنوا انهم باقامة دولة اخرى الى جانب بيت النمسة وتغيز الساطة وازالة قسم

كبير من الامارات يقيمون سداً في وجه ذلك البيت ، على حين انهم في الحقيقة يقيمون غيره مقامه ، بدلاً من محاربتة والقضاء عليه ، وقد كان رشليو ينظر لاطيالية كما ينظر لالمانية ، فاذا كان يفكر بانشاء اتحاد دول فيها ، فذلك لصيانة الحريات العامة من القلاقل والغارات الدائمة التي يقوم بها الاسبان ، لالانشاء بيت ايطالي يكون اشد خطراً على فرنسة ، ويحل محل النفوذ الاسباني الذي لم يكن يطاق .

وكان لهذه السياسة القائمة على اساس التسوية والاتفاق غاية جوهرية هي فائدة فرنسة وتكوين وحدتها . ولم يكن هنري الرابع ورشليو ومزران من علماء الاديان ولا من الفلاسفة ، ولم يكن يدور في خلدكم ان يخضعوا سياسة الدولة الى عقيدة ولا الى قاعدة من القواعد المجردة ، فقد دافع رشليو عن البروتستان في المانية لنفس السبب الذي قاتلهم لاجله في فرنسة ، وذلك بانهم كانوا يؤلفون دولة في قلب الدولة ، وكان يوافق سياسة الكردنال قيام فريق منهم وراء الرين لمقاومة بيت النمسة وافساد امره عليه ، وهكذا كان هؤلاء السياسيون الكبار يسرون على اسلوب لانظام فيه ولكن الخطاط التي يضعونها تماسك ويستعين بعضها ببعض . وجميع هذه الخطط كانت تناسب عمقيرة الامة ، ويظهر ان الفرنسيين في محاولاتهم الخارجية مشابهُون جداً لاعمالهم الداخلية ، يحبون الحرب والمجد ولكن سرعان ما يملونها ، واذا كانت الحرب بعيدة قليلاً فانهم يشتد حنينهم اليها ، وقد قال نابليون مرة وهو في علياء عزه ، يقود جنوداً اشربوا حبه والتعصب له : سلوا الجيش كله تجدوه يتوق الى فرنسة . والفرنسيون لا يعرفون الوني في الدفاع عن وطنهم ، ولكنهم قد يضيقون ذرعاً من اتساعه ، ويعال صبرهم به ، واذا خرج هذا الشعب من حدوده فهو لا يكاد يعرف نفسه ، وبرغم شجاعته الخارقة لا يستطيع ان يسيطر على الشعوب الغريبة ، ولا تظهر قدرته العظيمة الا في ايام بؤسه ، وكان رشليو يفهم ذلك حقاً ويقول : ماذا يكون لو ان الفرنسيين كانوا اشد صبراً ، ويقول : لو اضيفت هذه الخلة الى شجاعتهم الى اتسع العالم لفتوحاتهم . ولكن

في الاعمال الخارجية حد لا ينبغي تجاوزه ، ولم يكن الفرنسيون انفسهم قادرين على ان يتعدوه ، وهذا هو سر نجاح الطريقة التقليدية التي توجهها مزران في مؤتمر وستفاليه (مونستر - اوسنبروك) واسس فيه سلم سنة (١٦٤٨) .

وقد ادركت فرنسة في هذا المؤتمر ما ترمي الى تحقيقه من اضعاف الامبرطورية المقدسة والمقام الامبرطوري ، وكانت فيه المعركة الاخيرة للنضال المتوارث بين فرنسة وبين التحالف الاسباني الهبسبورغي ، واصبح الامراء اولى حقوق في الامبرطورية واستقلال في التعاقد مع بعضهم وفي التحالف مع الدول الاجنبية لضمان بقائهم وامانهم ، على شريطة ان لا يكون في هذه العقود ما يضر بالميثاق الذي حالفوا عليه الامبرطور . وتم بعد ذلك الاتفاق المسمى عصبة الرين والذي تعاقد فيه امراء المانية وملك فرنسة ابتغاء المحافظة على استقلال الامراء ومقاومة اعتداء بيت النمسة وتسلطه .

وجملة القول ان معاهدة وستفالية قررت الفصل النهائي بين الامبرطور وبين الرينج وتداعى المبدأين القديمين الجامعين (الامبرطورية والبابوية) . وقيام ممالك عظيمة في اوروبا ترجع اليها جميع المساعي السياسية والعسكرية في البر والبحر ، وتعتمد عليها الدول الثانوية وتتعلق بها بحيث تصبح انظمة الدول ومجموعاتها تابعة لتأثير المحالفات المختلفة ومتحولة معها ، وكان الامبرطور حينئذ في وضع لا يقاس به وضع اي ملك او عاهل ، والبحث فيه من حيث الحقوق العامة لا يؤدي الا الى الخيبة ، اما من حيث التاريخ والسياسة فان في معاهدة وستفالية كان القضاء على اعمال التخريب والتدمير التي عرفتها الامبرطورية منذ اواخر القرون الوسطى ، وحلت محل دولة عظيمة مخيفة دول شتى ، كل واحدة منها مملوءة تيماً وغروراً بنفسها واستقلالها ، منقادة الى اساليب الظلم والاستبداد التي كانت الصفة المميزة في ذلك الزمان .

اما المفاوضات في هذا المؤتمر فقد كانت عسيرة صعبة ، بسبب الخلافات الكثيرة حول حق التقدم ، ورغبة المطاولة والتأجيل املا باحراز ظفر عسكري لان الممارك مازالت مشتبكة في جميع الميادين ، وكان قواد فرنسا يحرزون شيئاً فشيئاً انتصارات متتابعة ، وهذا ما حمل الامبرطور على ابتغاء الصلح ، وكانت فرنسا معتدلة مياسرة ترمي في سياستها الى محاسنة العناصر الكاثوليكية في الامبرطورية ، وكان امراء الالمان موافقين على منحها الشيء الوحيد الذي تطلبه وهو الانزاس ، وقد بذل مزران كل ما عنده من براعة حتى سوى مختلف المشاكل وارضى مختلف الرغبات ، وقاما بلغت السياسة ما تريده كما بلغت في هذه المعاهدة .

ومؤتمر وستفالية هو اول مؤتمر كبير عليه طابع اوربي ، بحث فيه شؤون عديدة تتعلق باعادة السلم وتطور العلاقات بين الدول ، وتقرير القواعد للتساوي وحل خلافات التقدم بين ممثلى الرؤوس المتوجة وممثلى الجمهوريات والمدن الحرة والدول الصغيرة . ومجتمع كهذا المجتمع يثير بنفسه حادثا في غاية من الخطر ، وهو يعد بداية الشرع الدولي الحديث ، على انه لا يستنتج من نصوص صلح وستفالية ما يتفق والغايات التي اريدت منه ، ومع ذلك فقد كانت عظمة الشأن في محافظة الحالة الراهنة وبقيت العهد السياسي لاوربة مدة قرن ونصف .

وبعد عشر سنين من هذا المؤتمر كان اتفاق البرنات الذي عقد فيه للويس الرابع عشر على الاميرة الاسبانية ماري ترز ، بعد ان كانت على وشك ان تتزوج بامير من سافوى ، فقاد مزران المفاوضات وجرت محادثات شفوية ، ونظر في اثناء ذلك بالصلاحيات الممنوحة للمفاوضين ، وبالاقرار بالملوك وبالعاوين وامور التشريعات وحقوق الممثلين السياسيين .

٥ — تبدل السياسة الفرنسية واضطرابها

محافة النمسة ومناذرة انكلتره

افسد لويس الرابع عشر الطريقة التقليدية ، وجعلت السياسة التي سار عليها فرنسا مكروهة في اعين الدول المجاورة ، ومهمة في اوربة كلها ، فاحتاج خلفاؤه

الى شيء كثير من الحذر والحكمة ، حتى يخففوا من شعور الخوف والحقد الذي اثاره عهد الحروب والفتوح في هذا الزمن الطويل من الملك ، وقد واتاهم الحظ فكانت سياسة الاعتدال ابرع سياسة واجلها فائدة لفرنسة ، فامتدت حدودها وقل اعداؤها وتضاءل خصومها ، واصبحت اسبانية التي كانت توقد الفار وتسعر الاحقاد وتثير الضغائن والحزازات بخطأ الاسلوب اكثر من خطأ الرأي ، وهي ضعيفة غير مستقلة ولا مخوفة ، يحكمها فرع من الاسرة المالكة في فرنسا ، اما النمسة فلا شك انها زادت وعظمت باستيلائها على البلاد المنخفضة وميلانو ونابلي وصقلية ، ولكنها توزعت قواعدها وكثرت مخافرها الامامية التي كانت تعرضها للخلاف والنزاع ، فبينما كانت الدولة الخاصة لفرنسة تتقهقر وتتضاءل كانت فرنسا تعزز وتتقوى ، وكانت تجاورها دول اضعف منها تحرص عليها وتحشى بأسها ، واصبحت تستطيع ان تقوم مرة اخرى بمثل ما قامت به في الماضي وتحرص على صيانة السلم الذي هيأه لها رشليو ، وتحمل الى الاقطار الاخرى مافاض فيها من قوة وزاد من مادة ، واصبحت تبحث عن مجال للتوسع في المستعمرات فصادت انكلترة في طريقها ، فتجدد بذلك عداء حرب المئة سنة او اشد ، غير ان فرنسا لم يكن لديها من الموارد ما تستطيع ان تمده هذا النضال الذي اشتبك في جميع انحاء العالم ، وهي عندما خاضت غمرات القتال في كندا والهند لم يعد يجوز لها ان تعي جنودها على ضفاف الرين واصبح عقد الصلح في اوربة والتخلي عن اطباعها الواسعة فيها الشرط الجوهري لادراك الحظ الذي تستطيع ان تفوز به في امريكة وآسية ، ولكنها لم تحسن القيام بهذه المهمة وتخلت عن الاضطلاع باعبائها ، فعرضت سلطانها للخطر في العالمين باتباعها سياسة الاستعمار وسياسة الفتوح في اوربة في آن واحد ، واحسنت انكلترة الاستفادة من هذه الفرص فعززت الروابط بينها وبين النمسة واصبحت صديقتها وحليفها في مناوأة فرنسا ، على حين ان هذه كانت تستطيع ان تعزز موقعها باستمالة الدول الاخرى .

ولم تنجح السياسة الفرنسية في تدابيرها المختلفة ومخالفاتها المتعارضة ، فهي طوراً تكون آلة في يد انكلترا ، وطوراً تخاطر بكندا ليحتل فردريك سلزية وهو حليف لا ثقة به ، لم يبال ان تخلى عنها سنة ١٧٥٠ وانضم الى الانكليز ، ثم ينتهي بها الامر فتحالف بيت النمسة وتصبح اداة لسياسته . وقد ظن في بادىء الامر ان هذا التحالف سياسة حكيمة ولكنه انقلب الى كارثة ، فحافظ ملك بروسيا على سلزية واستولت بريطانيا على الهند ، وادت سياسة لويس الخامس عشر الى انتصار انكلترا انتصاراً عظيماً بدلا من الانكسار الذي كان الغاية الوحيدة لتلك السياسة ، وقد خسرت فرنسا مكانتها في اوروبا ، وبعد ان كانت ضمت اليها في الماضي جميع الدول القلقة من النمسة ، اضطرت الى الاختيار بينهم وبينها ، فتركت للنمسة الجبل على الغارب تعمل ماتشاء ، واضاعت بالنتيجة كل شيء لارضاء هوى ماري تيرز وشقاء حقدتها على فردريك ، وفي آخر الامر تقارب هؤلاء الالمان المختلفون من غير ان تشعر فرنسا ، واتفقوا مع روسيا على تمزيق بولونية اقدم الاصدقاء للملكية الفرنسية .

وميثاق الاسرة الذي عقد بين فرنسا واسبانية في سنة ١٧٦١ كان العمل الوحيد النافع الذي تم في هذه النكبات والكوارث ، واذا كان الاتفاق بين فرنسا والنمسة موضع انتقاد شديد في الدولة الاولى ، فان ميثاق الاسرة كان امراً متفقاً عليه ، وكما انه كان يوحد بين الاسرتين فقد كان كذلك يقرب بين الدولتين ، ولم ينتقد هذا الميثاق الا في بعض الامور التفصيلية ، وكان يعد الشعب الاسباني خيالياً ، مغروراً ، قليل الحذر ، شديد البغض للاجانب ، متقهقراً متى سنة عن شعوب الحضارة ، وملك اسبانية ليس الا رجلاً من افراد الامة ، وهو كما قال منتسكيو ، كثير الغنى في دولة كثيرة الفقر ، تعيش من مستعمراتها ، وتستأثر بخيراتها ، وتدمرها وتدمر نفسها باستثمارها ، وهي مع

ذلك تتقد فيها جذوة الرغبة في استرداد جبل طارق وطمع بأمر اشد خطراً وهو احتلال البرتغال ، وكانت هذه الاطلاع توثق المعري بينها وبين فرنسا التي كانت تستعين بأساليب السياسة المختلفة لتزيد في استمالتها وتجدها الى جانبها في مقاتلة انكلترة التي تتهادى في اذيال النصر ، ولكنها لم تبرح شديدة اليقظة والحذر والترب ، وكانت عداوة فرنسي القرن الثامن عشر الموروثة لا تطفأ غلتها ولا تدفع خصومتها ، ولم تكن المعاهدات مع انكلترة الامهادات ومحاجرات ، وبقيت البغضاء كامنة ، وبقي الحقد الذي ولدته العصور ونسكاته جراحات الكرامة التي توقد في صدور الفرنسيين حماسة الانتقام ، وكان المعاصرون يشبهون العلائق بين انكلترة وفرنسا الى ما كان بين رومة وبين قرطجنة ، وكانت انكلترة دائبة في سهرها على ما يجري في ثغور فرنسا ومعاملها ودور صناعاتها ، تعمل على صد كل حركة تبدر منها ومقاومة الدسائس المتوقعة والمظاهرات المهددة .

وقد حاول لويس الخامس عشر بما بذله من جهود متناقضة في سياسته السرية ان يصلح ما فسدته سياسته العلنية ، ولم يكن ذلك النتيجة قلق ضائع لفكر متعب ، يدل فيه الاضطراب على الضعف ، ويضحى كل ما اوتيته نفس من القدرة على ادراك الاشياء العظيمة او على تحقيقها ، في سبيل العمل المضني المريب الذي تقوم عليه اساليب تلك السياسة الماكرة ، واصبحت فرنسا في رأي جمهور الموظفين في الشؤون الخارجية واثقهم رأيا واكثرهم كرامة دولة لاشأن لها عند الشعوب ولا قوة ولا مادة ، قد تحول الحسد لها الى ازدراء ، واضاعت وزارتها كل ثقة ، وبدلاً من ان تظل كما كانت في السابق مرجعاً للأعمال العظيمة ، اصبحت تشاهد ما يجري من الامور وهي هادئة ساكنة لا يعبأ بها ولا يقام وزن لرأيها .

وكان الشعب شاعراً بهذا الانحطاط ، شديد الغضب على الاساليب الجديدة التي تنقض جميع التقاليد السالفة ، التي كانت تعمل منذ عصر توجيه الافكار لمقاومة بيت النمسة ، وتمتبر ذلك من قواعد الدولة ومن الحقائق العامة كفلسفه الضياء واصل الفن الروائي ، وبعد ان تضائل الاعجاب برشايو ومعاهدة وستفالية ،

واسرقت فرنسا في محالفة النمسة وانحاز فردريك الى جانب انكلترة ، اخذ شعور الشعب يتحول شيئاً فشيئاً ، واستيقظت في نفوس ابنائه تلك الذكريات الكبرى وحركت اشجانته تقاليد الخصومة القديمة ، ولا سيما بعد ان بذل ما بذله من الضحايا وتعرض لما تعرض له من الاخطار بغية الانتقام لما رى ترز ، فحكم انه غدر به واسى الى مصالحة .

ولم تنقم فرنسا على ملك بروسية لانه كان محبوباً فيها ، وكان اعجابها عظيماً بمعقريته وفتوحاته وحكومته ، وتغاب الحقد الذي كانت تثيره النمسة على الضغينة التي تستحقها بروسية ، والفرنسيون يشتعلون على عاطفة الحب والتقدير للذين ينجحون في اعمالهم ، وهم يفضون البيت المالك في النمسة لانه يمتص دم الامة ، وكانت العاطفة عادلة والمعنى صحيحاً ، وقد فاض شعور الغضب بعد اقتسام بولونية ورأى الفرنسيون كأنهم كانوا منقادين للنمسة ، التي اسنحرتهم في الحرب وخدعتهم في السلم ، وانهم كانوا يقاتلون في سبيلها بنفس الشدة التي كانوا يقاتلون فيها ، وحاذروا هذا الخليف ، الكثير الطمع القليل التخرج ، ان ينتزع منهم احد اجزائهم وان يطالبهم بالانزاس والورين او غير ذلك مما يرغب فيه ، ولا سيما ان ماري ترز التي كانت مشهورة بالتقى وصداقة الجزويت وعداء الفلاسفة تعد حظايا القصر من صنائع النمسة ، فكل شيء يعمل على كره الرأي العام للتخالف مع النمسة الذي كان مبغوضاً في نفسه ، وفي الايام التي بدى ان يسمى فيها انصار الآراء الحديثة وطنيين ، فقد جرت العادة ان يمزج في حزب النمسة جميع خصوم هذه الآراء .

غير ان العداء لمخالفة النمسة لم يكن يثير حماسة مريدي الفلاسفة والطبقة المبهذبة من الشعب بقدر ما كان يثير حاشية الملك واسرته ، فولي العهد على شدة تمسكه بالدين يحرص كل الحرص على تقاليد السياسة القديمة ، ويحاذر ان تعود النمسة فتنتقص بلاده من اطرافها ، كما جرى لها في الماضي ، وكذلك كان رأي رجال السياسة ورأي الوزراء الذين يفاخرون بمعرفة التقاليد ورأي دواوين

وزارة الخارجية التي تفاخر كذلك بالحفاظ على التقاليد القديمة كما يحافظ على النار المقدسة .

وكانت هذه العاطفة عامة كانها نداء وطني وبقيت حتى أيام الثورة ، وقد شاطر المهاجرون آراء الجمهوريين في هذا الشأن وعواطفهم ، حتى ان كاترين الثانية تلقت كتابا من احدهم جاء فيه ان النكبة التي اصابت الملكية منشأها التحالف المشؤوم الذي عقد سنة ١٧٥٦ ، فجمعت الاميرة السيئة الطالع حول رأسها جميع الاحقاد والريب التي توالى في اجيال من النضال والنزاع ، وجاءت الحوادث الاخيرة فزادت في الاثر المدموم ، واصبحت بجيئتها الى فرنسا متهمة في اعين الفرنسيين ، وعدت مجرمة بتمسكها بالتحالف الذي كان في الحقيقة سبب زواجها ويكنى ان يقاس عنف الاهواء التي ثارت على امها وعلى وطنها والتي تابعتها في فرنسا بالكلمة التي اختصرت كل ذلك ، واصبحت لما ري انطوانيت حكم الاسقاط والموت وهي : النمسوية .

ولما جلس لويس السادس عشر على العرش كانت المملكة يومئذ اكثر المحطاطا في نظرا ورية منها في فرنسا ، وكانت الامور الخارجية مضطربة قلقا اكثر من الامور الداخلية ، وقد حاول لويس السادس ان يصلح هذه وتلك ، وان يتخذ لكاكتيها نفس الوسائل ، وعاد الى تقاليد الناج باذلاً جهده في التأليف بينها وبين ضرورات الزمان ، فودع الى دى فرجن تدبير الامور الخارجية والى تورغو تدبير الامور الداخلية ، ولم يكن الاول عبقرياً كالثاني ، ولكنه كان على منزلة رفيعة من صدق الحس ، وتجربة الأمور ، وحب الوطن ، ورجاحة العقل ، وبعد النظر ، وصحة الرأي ، ووضوح المنهاج ، واشار الفضيحة ، وكان يلام على تردده ، ومن الذي يستطيع ان لا يتردد في السياسة الاوربية التي كانت مضطربة ذلك الاضطراب ، كانها تعصف بها الرياح الهوج من كل جانب ، وقد اتهم بالرياء والتغلب ، والتباين بين المبادئ التي كان يقول بها والاوامر التي يصدرها ، ولكن نسي متهموه انه كان يعيش في عالم من المنكرات والشكوك ، وكان عليه ان يجر الآخرين الى رأيه وان

يسمهم كلمته ، ولا ريب في ان هذا العمل دقيق عسير ، فلما رقب وصاحب الاخلاق والسياسي والذي هو في بطانة الملك يعانون كثيراً بعضهم من بعض ، واذا اضفنا الى ذلك قليلا من التظاهر والاحتفال ، والرغبة في الفصاحة التي كانت في ذوق العصر ، وطاءاً خفيفاً من التصنع والتكلف ، وجدنا بالمستطاع ان نعد فرجن في مقدمة الوزراء الذين حكموا فرنسا منذ عهد طويل عقلاً وشرافاً ، وكان يريد ان يرد فرنسا الى خطة فرنسية بدلاً من محالفة النمسة التي قاد اليها ضعف لويس الخامس عشر وعجز وزرائه ، وقد نجح فرجن في مساعيه على حين ان تورغو فشل واخفق ، ولا يجوز ان يرد ذلك الى طبيعة العاملين ، والى تعقد الشؤون الداخلية ، وبساطة الامور الخارجية بالنسبة اليها ، ولكن يجب قبل كل شيء ان يرد الى ماله فرجن من تأييد الشعب وثقة البلاد .

وكان الرأى منقسماً فيما يتعلق بتورغو ، وكانت المصالح الخاصة متضادة عليه ومحبطة عمله ، وكان يبعث فرنسا وانهاضها يتوقف على السير ورائه ، ولكن تأييد تورغو والنضال دونه يفتقر الى رأى سام وتفكير عال ، اما تقدير فرجن وتقبل سياسته فيكفيه شيء من صحة الحكم ، وسلامة الرأى ، ومعرفة المصالح الفرنسية في اوروبا ، وكان لويس السادس موصوفاً بذلك ، ولكن عقله الواني المتردد لم يكن ليتحمل تلك الامور المعقدة في السياسة الداخلية ، فاخلى منها ذرعه وترك القيام باعبائها على عاتق كبار موظفي الدولة ، اما الشؤون الخارجية فقد كانت في ذاتها عمل الملك وطبقته واسرته ، اذ هي شؤونها الخاصة التي انقطع اليها بدأبه وتوفر عليها بمجده ، فعرف تاريخ الاسرة التي ينتمى اليها وتاريخ الاسر المالكة في اوروبا ، ولم يتعلم ذلك بالدرس والاغراق في الطلب ، ولكن بالحادثات والروايات ، وبنسق الحياة التي كان يقضيها امير مالك ، وقد رد مدراكه ومعارفه في شؤون اوروبا الى بعض المقترحات الاساسية التي كان عليها ، وكان يضيف اليها عاطفة رفيعة من مكانة الملك وحقه وواجبه ، فاعانتته هذه النشأة على تلقي النصائح القيمة وابداء الآراء الحكيمة ، وزاد في حذره

خجله وريسته ، فكان يخشى تأثير الملكة في الشؤون الخارجية ، بينما كان يتحمله غالباً في الشؤون الداخلية لانه لم يكن بصيراً فيها ، ومنذ تسنم اريكة الملك برهن على انه يريد ان يدبر سياسة البلاد الخارجية على غير طريقة جده .

وقد كتب دى فرجن الى الملك سنة ١٧٨٢ يقول : تفضل يامولاي بتذكر ما كانت عليه فرنسة عندما استلمت جلاتكم مقاليد الامور ، فصلح سنة ١٧٦٣ القبيح ، واقتسام بولونية وغير ذلك من العوامل السيئة المنكودة اصابت مكانة تاجكم بابلغ اصابة ، وفرنسة التي كانت في الماضي مخيفة للدول محسودة اصبحت ينظر اليها بغير ذلك النظر ، وهي لا تكاد تعد من الدول الثانية بعد ان كانت اول دولة في اوربة ، فاذا اريدان تعاد اليها منزلتها القديمة فينبغي ان تحرر من سيادة انكلتره وان تتخلص من ربة النمسة ، وقد سنحت هذه الفرص دفعة واحدة .

ولم تعد تهم فرنسة بعد ذلك الا بتأييد السلم في اوربة ، على ان العمل لم يكن سهلاً المنال ، فاذا كان فردريك قد اصبغ شيخاً كبيراً ومال الى الاكتفاء والدعة والتمتع باملاكه ، فان كاترين الثانية تلميذته الجريئة المتمردة ، والامبراطور يوسف الثانى الذي ينافسها في اغتنام الفرص واقتناصها ، قد وافقت هواهما حروب امريكة وحاولتان تقاسما الدولة العثمانية ، ولكن الصلح الذي عقد بين فرنسة وانكلتره سنة ١٨٨٣ جاء في اوانه وصد هؤلاء الفاتحين عن قصدهم ، ومع ذلك فان روسية استطاعت استبقاء القريم من الميراث المنتظر ، وقد اندرت فرنسة فينة انها لا تريد ان تضحي لها الدولة العثمانية ، ومهما كانت قيمة التحالف مع النمسة ، فان الملك لم يكن يتردد بالعدول عنه اذا اضاع الامل باقناع حليفه ، واذا لم يلب الامبرطور طلبه ومضى في تحقيق خططه اضاع الحرمة التي نالها بسياسة حكيمة في مدة عشر سنين لم تصب فيها مصالح البلاد الحقيقية باذى ، ولما كان يوسف الثانى لا يريد ان يتخلى عن مناهجه في الفتوحات ، اصبغ التحالف مضطربا كل الاضطراب ومهدداً بزوال عاجل او آجل ، وقد حاول يوسف الثانى ان يوجه عمله شطرها وانددة فلم ينجح وحاول ان يستميل فرنسة بمنحها اللكسمبرغ فلم تصغ اليه ، وفضلا عن ان الملك لم يعده بمعونته يبذلها له ، فقد ازر تحالف الامراء الذي وضع فردريك اسسه لمقاومة عدوان بيت النمسة .

وحق للوزارة الفرنسية ان تعتبط بما نالته من النتائج فقد اعادت الى فرنسا النفوذ الذي ضمتها لها معاهدة وستفالية ، واستمر لويس السادس عشر سائراً في طريقه حتى يصبح حكم السلم في اوروبا ، وطاقد انكلترة وروسية وحافظ على هذه السياسة الحسنة، التي رفعت فرنسا الى المنزلة التي حظها عنها لويس الخامس عشر في سياسته ، المؤسسة على الاماني الفرارة والمطالب الكبيرة ، وكانت المملكة بالغمة من الرقي والرخاء حداً لا يستطيع ان يتصور المرء معه الهوة التي تنقاد اليها بسرعة، مالم يؤت قدرة عجيبة على التنبوء ، وكان كل واحد في فرنسا يعتقد انه سائر الى السكالم ، بدون ان يعبأ بالعقبات وبدون ان يخشاها ، فهدراً بأنه فرنسي وخاصة من فرنسيي القرن الثامن عشر ، الذي كانوا يعدونه العصر المختار الذي انزله الفلاسفة الحديثة على الارض ، وكان هذا العهد، عهد الاحلام الخائبة والمناهج السخيفة ، يشبه ذروة عالية وقف عليها رجل ، وقد دارت به الارض ، ولكن عرضت له خلال هذه الفترة مناظر خلافة وآفاق واسعة تسبق بوقت يسير اجل السقوط المخيف .

وكان هذا السقوط قريباً ، وقد بلغ الداء الذي يفتك بالعهد القديم غايته ، اما الرونق الذي ظهر فيه فلم يكن الامسارعة في طريق الدمار ، وكان دي فرجن رجلاً سياسياً بارعاً لارجل دولة ، ولم يكن له اثر في الحكومة الداخلية التي كان بمعزل عنها ، ولم ينهض في فرنسا رجل مثل رشليو يستطيع ان يقود البلاد في وسط الفتن والقلقل وان يؤمن حاجتها المال الذي تواصل به الحرب وتستعملها ، وكانت وزارة فرجن قد جاءت في عهد الاضمحلال فصرفت الانظار هنيهة الى السياسة الخارجية ، وشغلتهم قايلاً عن الامور الداخلية ، وكانت الاضطرابات المالية تستوجب اصلاح الحكومة فزيدت الديون لتضليل الرأي العام ، وتفاقم الاضطراب واستفحل الخطر ، ونزلت فرنسا فجأة عما نالته من التفوق في اوروبا ، ومات فرجن قبل ان يشهد ، والحزن ملء قلبه ، مصير السياسة التي رفع منارها وقضى لها بنجاحها .

الفصل الثالث

تليران واهيستياسية

١ — اوروبا والثورة الفرنسية

ان التخاذل الذي اصاب فرنسا في عهد لويس الخامس عشر لم يطمئن اعداءها الامدة قصيرة من الزمن ، فهم مابرحوا يخشون ما تشتمل عليه من الاقدام على الامور الخطيرة ، وما يهزها من عاطفة قومية ، وما الرونق الذي تالاً فجأة في سماءها عند جلوس لويس السادس عشر الانذير للذين كانوا يظنون بها الظنون ، ويعتقدون انها سائرة الى الاضمحلال وانها في عرض انقراض عاجل ، ولكن سرعان ما كانت تخيب آمال اعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ، ويغالون في تقدير علام ضعفها ومظاهر انحلالها ، فيرونها فجأة تختال في حلقها الزاهية التي كانت تنهادى بها في ايام لويس الرابع عشر ، قد استأنفت نشاطها وعادت اليها الحياة ورجعت سيرتها الاولى ، وكانوا يتصورون انها تسير في سياستها على القواعد الآتية :

اولاً ، متابعة الحروب والتأهب لها ، واحراز الفتوحات ، واتخاذ الحجج للاستمرار على التجهز والتسلح ،
ثانياً ، التدخل بجميع الشؤون التي تقع في اليمين وفي الشمال ، والتحكم هنا وهناك بالقوة او بالفتنة ،
ثالثاً ، التمسك بمصلحة الدولة ، وعدم الاكتراث في سبيلها بالمعاهدات او بالرابطه الدينية او بالقرابة او بالموودة ،

رابعاً ، تحريض الدول الأجنبية حتى يشغل بعضها ببعض فتقودها الى التجزئة والتقسام وممارسة الحروب .

وكل هذه القواعد هي قواعد الفاتحين ، وعلائم خطة واسعة عميقة مدبرة منذ عهد طويل ، وهكذا كان يصف فردريك الكبير فرنسا ، ويطن نفسه قادراً على النيل منها ويشبهها بالغني المترف الذي يتمتع بهناء العيش ويحيط به اناس مسرفون بالأسون .

اما النيات التي يعزونها الى فرنسا في اوروبا فهي النيات القائمة على التقاليد ، وقد تمهم فرنسا بامور لا يقول فرنسي بها ، وليس مما ينتقد عليها حرصها على ان تكون البحار وجبال الالب : جبال البرنات ونهر الرين حدوداً لها ، فان هذا العمل مما لا يأباه العقل ولا ينكره ، ولكن الافراط في الاطماع ، والتمسك على توسيع الحدود ، بحيث تصبح فرنسا الدولة الوحيدة في اوروبا لا اكبر دولة غصب ، واذا قادتها مطامعها الى هذا الحد ، واسرفت في الفتوح ، فان ذلك مما يثقل كاهلها ويثير حسد الدول الاخرى ، واذا صادفها مرة نكد الطالع كما يصادف الامبرطوريات كان بذلك فناؤها والقضاء عليها .

والمسألة التي كانت اساس الخلاف بين فرنسا واوروبا في ايام الثورة والامبرطورية ، هي ان ادراك فرنسا هذه الدرجة من السلطان والاحتفاظ به ، يحول الدولة الى معسكر محاط بخندق ، والى تسليم الجمهورية الى رؤساء الجيش فتصبح اوروبا مغلوبة او مستسلمة ، وكانت انكلترا تريد بمقد الاتفاقات ان تستعيد بالقوة ما احرزته القوة ، فتضطر فرنسا لاجل التغلب على هذه الخطط ، واستمالة حلفاء انكلترا ، والقضاء عليهم ان تعقد محالفات مناقضة ، وتعمل على تجزئات جديدة ، وتخوض غمرات الحروب لتقديم مخافرها الامامية ، والنضال بين الدولتين ادى الى الحصار البري والى محاولة فتح الشاطئ الايسر من الرين .

فالاسلوب الذي يقود الى هذه النتائج المفرطة يضحمل بنفسه ، واذا سلمنا باننا نستطيع الوصول الى غايته ، وهي السيطرة على اوروبا ، فان ساعته نجاحه تكون

ساعة اضججلاه ، وهذا ما ادركه الخصم الكبير الذي لقيته فرنسه واقبه نابليون : ولیم بیت ، وهذا ما ادركه ايضاً مترنيخ الرجل الحول القلب ، ولم يكن الاثنین في النضال الذي ابتدأه الاول وفاخر بآتامه الثاني الا هذا الدليل وهذه الحجة ، اما الفرنسيون الذينهم اولومهزة واولو عاطفة فقد طربوا الاحلام الكبيرة وساروا وراءها ، وبقي عزائهم وسلواهم ان حكمة رجال السياسة فيهم درأت عنهم الاخطار والنواب التي حلت بهم والاوهام التي اضلتهم ، بعد ان سعى رجالهم الاكياس لشفائهم منها وتحذيرهم من عواقبها ، وقد كانت آراؤهم الصائبة متناسبة مع قوى الاشياء ، فانه بعد اثني وعشرين سنة من حرب لا انقطاع فيها ولا هوادة ، غلب فرنسة اعداؤها المتحالفون وانزعوا منها فتوحها وانتقصوا اطرافها واغاروا عليها في عقر دارها ، فقبلت السلام الذي اكرهت عليه ولكن لم تهين في توقيعه ، وصالت اوربة من غير ان تنزل عن مرتبتها التاريخية ، واستمعات عماء قليل مكانتها ، وسلكت الخطط التي وضع اساسها وزرائها الحكماء قبل الثورة .

وفي التعاليم التي ارسلت سنة ١٨١٤ ، باسم لويس الثامن عشر ووحى تليران ، الى مندوبي فرنسة في مؤتمر فينة نجد هذه الجملة البديعة الموروثة عن دي فرجن ونظرائه : ان فرنسة تبلغ من العظمة درجة لا تظمئن اليها الدل الا عندما تسودها فكرة الاعتدال والقصد ، هذه الفكرة التي يزداد الحرص عليها بسبب ماتوحي به من فكرة اعظم منها وهي فكرة الحق والعدل ، المقترنة بالنفع العام الموزع على سواء .

هذه هي العقاليد التي كان يجب ان تتمسك بها فرنسة ، ولكنها تجاوزتها بعد ذلك ، فاضلتها الاطاع وخذعتها الفرص وغرر بها المؤتمرون ، وهذا هو حظ اوربة المتصل بحظ فرنسة وتاريخها ، وما كان النزاع بينهما الا تبعاً لحوادث متفاعلة ، فقد اصبحت فرنسة في ذلك العهد بازمة شديدة ، شاطرتها اوربة محنها وتقلباتها .

٢ - السياسة الخارجية الجديدة

لم يشارف العهد القديم على زواله حتى زالت معه قواعد سياسته الخارجية، ولا سيما التحالف بين فرنسا والنمسة الذي تضاعف حتى لم يبق منه الا رسوم، وقد لاحظت اوروبا خبراً بذلك، واخذ خصوم الخطة القديمة ومناذبوها يعملون على ان يقيموا في الدولة طريقة سياسية جديدة، كان في مقدمة الداعين اليها رجلان متفاوتان في الشهرة اليوم، ولكنهما كانا متعادلين في عصرهما: دكلو وفافيه. وكان كلاهما في مقام يعين على الاطلاع والمعرفة: الاول مؤرخ الملك، والثاني من مقدمي رجال السياسة السرية.

اما دكلو فلم تكن تهمه النظرات والآراء، وكان ادبياً اكثر منه سياسياً، ولكن مذكراته التي نشرت في الملاء الراقي تاريخ حرب السنين السبع، اثارت النفوس على سلام سنة ١٧٦٣ المين، وبشت الضغينة على النمسة وعلى التحالف معها الذي كان مصدر الشرور التي اصابته الدولة، وكانت تفيض اعجاباً بملك بروسية ورجاءاً لمودته وولائه، وقد حمل دكلو في هذه المذكرات حملة شديدة على ماري تيرز وندد بسلو كها نحو فرنسا وتسامحها مع فردريك على الرغم من نكوصه وتحلفه.

وكانت هذه الرسائل المغالطة تهز من افئدة المعاصرين وتنبج سياسة لويس الخامس عشر وتذكر بخطيئاتها، وما اقبلت سنة ١٧٩٠ حتى كانت بالغة حدها من الشهرة فتهاقت عليها الجمهور واشتد بها اعجابه، وهياً دكلو بما كتبه ورواه الرأي العام، وقام فافيه بارشاده وهدايته.

وكان فافيه قد بدأ عهده بتعاطي السياسة، فبرهن على براعة لم يشك بها احد ولكن اضطراب حياته وخش لسانه، وشدة ميله الى الدسيسة والرشوة، ومجازاته اساليب الشرطة، كل ذلك كان سبباً في اخراجه من السلك السياسي واقصائه عن المراتب الرفيعة، فسقط في الاعمال الضئيلة المهمة والحياة

البائسة ، وسافر في ارجاء الارض فافاده كثيراً ماشاهده وتعلمه ، وكان يضيف الى معارفه الواسعة البعيدة دهاءً كبيراً وبياناً فصيحاً ، فيسبغ على افكاره من الصيغ الاعتقادية ما يوافق رغبات اهل الزمان ويواتي ميولهم ، وكانت التفاصيل الفنية والبراهين التي تؤيد مذهبه تستميل النفوس وتحملها على القناعة . وكان شديد الوطنية ، شديد الحب لبلاده حريصاً على عظمتها ، يتأثر جد التأثر بالمطاعن التي توجه اليها ويستولى عليه الغضب .

وجملة القول ان فافيه كان رجلاً عبقرياً ، وسائساً داهياً ، وهو في ذلك مفكر بعيد الغور فسيح مجال الخيال جم الخطاط كثير التدابير مخصب الاساليب ، مبتدع مخترع ، يعث بعقول مريديه ويستفزهم كما شاء ، يعلمهم السياسة بمزج بين الميل الى المنطق وبين الواع بالاسرار ، وهو من رؤساء تلك الطبقة القلقة من السياسيين التي عرفت في بدء الثورة ، ونشأت في المنتديات والجرائد، منتظرة ان تنفث في اوروبا ، وتسلك جميع الطرق الملتوية والمناهج المريبة .

وكانت خطة فافيه ترجع الى مقترح جوهرى وهو اضعاف انكلترة ، فقد كانت العقبة الكبرى في سبيل اتساع فرنسا ، ونمو سلطانها في المستعمرات وفي البحار ، بل في اوروبا نفسها ، فيجب محاصرتها في جزيرتها ومنعها من تضليل اوروبا ولم تكن فرنسا نخشى الانقياد النمسة لانكلترة ، فعلمها ان تبدأ بالقضاء عليها ، وان تحالف بروسية لتحقيق اربها ، وهذا هو سر السياسة الجديدة التي تناقض القديمة ولكنها تحمل نفس عيوبها : منطق في الامور المجردة يطبق على اعمال الدولة وجهل باخلاق الرجال وضرورات السياسة ، وكان فافية ينتقد مخالفة النمسة لانها مغايرة لتقاليد السياسة الفرنسية في الشمال وفي الشرق ، وتضحية بالخلفاء والانصار القداما في سبيل اطاع النمسة ، واذا كان على حق في ذلك ، فقد ضل ضلالاً بعيداً فيما كان يأمله من فصل بروسية عن روسية ، والاتفاق مع السويد ومؤازرة الترك ، والدفاع عن بولونية ، وحماية الدول الصغرى في المانية والحفاظة

على التوازن بينها ، ومعنى ذلك تكليف بروسية ما كلف به لويس الخامس عشر النمسة ، وهو الانقطاع عن البقاء بنفسها والاستقلال بامرها ، والدخول بسياسة غريبة ومذاهب متناقضة .

وكان هذا التناقض من طبيعة الزمان ، وحظه الوحيد اثاره الا هوآ ، والثقة بالتقاليد ، فقد كانت برندبورغ اداة لسياسة رشليو ، وكان ملك بروسية من الفلاسفة ، وكل انتصار له يعد انتصاراً للثورة وكان البروسيون النزيون يضمرون حقداً شديداً على النمسة ، وهم اميل الى فرنسة ، وكانت بروسية حليفة طبيعية ، وتعززها تعزز فرنسة نفسها ، وتكون بذلك قد الفت بين قواعد السياسة وقواعد الفلسفة ، على ان الرجل السياسي انما يفكر في مصالح بلاده وفي التحالفات التي توافقها بحسب الزمان وقوة الدول ، وخاصة بحسب عبقریات الذين يقودونها .

وقد انتشرت قواعد السياسة الجديدة في ايام الثورة ، واصبحت مزيجاً غريباً من الدعوة الى السلم والحض على الحرب ، ومن الشعور الانساني والحماسة للفتوح ، حتى ان الشاء على رشليو كان يقصف فجأة خلال صحيفتين من الكلمات الخطابية المستعرة المتدفقة على السن الديمقراطيةين المستبدين الذين تتألف منهم جماعات اثورة ، كانه لا بد لبقاء الممالك من السلام والطائنة ، ولا بد لبقاء الجمهوريات من القلق وحذر الاعداء ، فرومة كانت بحاجة الى قرطجنة ، ومع ذلك فكان على قرطجنة ان تستسلم او ان تموت . وكان البغض شديداً لانكلترة وهي مخاطب بمثل هذه الاقوال : ملكتم فلم تسججوا ، وظفرتم فاسأتم الظفر ، وهذه ساعة العدل اوساعة الانتقام ، لقد سئمت اوربة الظالمين واستردت حقوقها . هكذا كان يتكلم رشايو الذي يجب ان يبعضه المواطنون لانه كان سفاكاً للدماء والذي اعمل السيف بجميع اعدائه حتى ينال ما يشاء ، غير ان الامة والدولة ينبغي ان تكرم ما ذكره كوزير ، لانه اول من اسمع فرنسة كلمة الكرامة ، واحلمها في اوربة المقام الذي يليق بها ... وبرغم التعصب الذي كان يشتمل عليه اليعقوبيون فقد كانوا يسمعون اطراء لويس الرابع عشر الذي استطاع في مدة اربعين سنة ان يكون جديراً بمصره ، وكان كبيراً

حتى فيما ارتكبه من الخطيئات ، ولم ينحط في السقوط وفي النكبة لاهو ولا شعبه . وكانت فرنسا قد تخلت عن الفتوحات جبهة ، وحضت العالم على السلام والوثام واعلنت في ثورتها انه اذا كان انظم قد فرق بين الشعوب فان الحرية ستجمع شملها وماذا يحسد بعضها بعضا عليه اذا عمته السعادة . وظلت تنادى بمثل هذه الآراء حتى ظن فريق عندما نشبت الحرب انها ستعين على تحقيق هذه الاماني ، غير انه حدث ما هو اكثر انطباقا على طبيعة الاشياء وعلى اهواء الانسان ، فقد حجب انصر الحروب للثورة فابتدأت الحرب بالدفاع عن الاراضى الفرنسية ، واستعرت في البلاد المجاورة ، والبلاد التي فتحتها فرنسا لتحررها احتفظت بها لنفسها ، ولما لم يبق لدى ملوك اوربة الاقوى حكوماتهم التي توارثتها ، تغلب عليهم شعب كان يقاتل اولا في سبيل استقلاله ثم في سبيل مفاخره ، ولما تقدم للقتال شعوب اوربة انقلب الامر وتبدل ، واصبحت فرنسا لاتعتمد الا على وسائل الدولة وحاربت اوربه بسلاحها ، وقد وقعت في هذا التناقض ، فبعد ان اعلنت الحرب على الملوك واعلنت السلم للشعوب ، تغلبت على الملوك وغلبتها الشعوب ، فافسدت الثورة الفرنسية قواعدها لتعامل اوربة القديمة ، وتنازلت اوربة القديمة عن قواعدها لتعامل الثورة الفرنسية .

والمنطق وحده ليس من شأن السياسيين الذين يحكون بحسب مصلحة الدولة ، ولا من شأن الشعوب التي يحكمها الهوى والعاطفة ، ولكن للشعوب كما للدول تقاليد تسامي في قدمها تاريخها ، لانها تنشق مع التاريخ من نبعة واحدة وتتبع نفس الجرى ، وتأثيرها فطري جبرى للنفوس ، وفي الازمات الشديدة التي تأخذ الرجال على حين غرة ، لا يجدون مناصا من الخضوع لسلطان القواعد المتبعة والاشياء المألوفة والاهواء المسيطرة عليهم او في مجتمعهم ، شاءوا ام ابوا وعرفوا ام جهلوا واذعنوا ام لم يذعنوا .

وفي عنفوان الثورة الفرنسية التي دنتون خطبة شهيرة طالب فيها بضم البلجيكي وايد سياسة الحدود الطبيعية بقوله : ان الطبيعة عينت الحدود وهي من جهات الافق الاربع ، من المحيط والرين والاب والبحر الابيض واليها يجب ان تمتد قواعد جمهوريتنا وسلطاننا . وكان من هذه الخطبة ومن القرارات التي تبعتها ان كتب تاريخ فرنسا كله الى سنة ١٨١٥ ، وابتدأ النضال العظيم مع اوروبا وخاصة مع انكلترة لاجل تحقيق آمال فرنسا التي توارثتها منذ اجيال .

٣ - مشكلة الحدود والسياسة في ايام الثورة

مهما كان شأن التحالفات فما هي الاداة السياسة ، والحدود هي الغاية الحقيقية ، وقد كادت فرنسا سنة ١٧٨٩ ان تزال الحدود التي تبغيتها منذ تأسست الاسرة المالكة ، ومنذ اخذت في عقد التحالفات ونقضها وخاضت غمرات الحرب والسلم في تاريخها الشجي ، ولكن الذي ينبغي ان يعبأ به ليست الحدود نفسها بل حالة الدول التي تجاورها ، وقد كان موقف فرنسا في هذه الناحية افضل من غيرها : دولة متجانسة قوية في اوروبا ، والى جانبها دول مجاورة ضعيفة ، وكانت وراء الرين الامبراطورية منقسمة على نفسها وهي هيكل عظيم لاعصب فيه ولا نفس ، ترجوان تعيش بامان وسلامة ، وكانت النمسة وبروسية تقف كل واحدة في سبيل الاخرى وتصددها عن قصدها وتعرقل مساعيها وخططها ، وكانت فرنسا تستطيع ان تسود الدول الصغرى بشرط ان لا تغير عليها ، وكانت ايطالية تحكمها اسر متعادية ، وهي تستطيع بسياسة محكمة ان تضارع ذات يوم سلطة النمسة . وكانت اسبانية مرتبطة بفرنسا باوثق معاهدة وابق صالة محال لم يعقد مثله بين دولتين ، وكانت سويسرة محايدة خوفا وطعما .

ففي مثل هذه الشروط كان يتساءل السياسيون اذا كان من الرأي ان يوضع في خطط المستقبل منهاج توسيع الدولة المستمر وتكبير مساحتها ، وقد اتضح انه

ليست في اوروبا دولة قد بلغت من القوة مبلغاً تستطيع ان تقوم معه بفتوحات بدون شركاء ، وقد قام البرهان على ذلك في بولونية وهو برهان ساطع ، ولكن هؤلاء الشركاء لا يكونون الا من احساب المطامع الذين تقع بينهم الخصومة ويشترط التنافس ، والربح لا ينال الا على حساب الضعفاء الذين يضحي بهم في سبيل الاقوياء . واذا كان الامر كذلك لم يكن خير لفرنسة ان تبقى المملكة الكبرى بين الدول الاوربية المعزقة من ان تنقسم مع الدول المتساوية حكم اوروبا وتوزعها بين عدة سلطات عظمى ؟ او لا تكون ايضاً حدود غير ثابتة في انحاء مختلفة قائمة كما هي افضل لحماية الدولة من حدود تؤسس بطريقة عامية ، ولكن تكون ورآها ممالك منظمة اعظم تنظيم ، مستعدة لقتال فرنسة في كل يوم ؟

هذه اهم مشكلة عاجتها فرنسة ، ولم تكن بالجديدة عندها ، ففي عهد لويس الرابع عشر كان كبار قادته انفسهم لا يرون ان يؤخذ بالحرب الا ما استطاع احرازه في السلم ، والفتوحات التي لاحزم فيها ولا بصيرة تجر على صاحبها عواقب وبيلة كانت سلاح بيد العدو ، فلا فائدة الا من الاوضاع القوية والاسس المتينة التي تصلح الدفاع عن الدولة ، وهذه هي السياسة الحكيمة والحدود الثابتة الصحيحة وقد اصبحت الحاجة امس الى تحديد الآمال ، لان الوضع الذي آلت اليه الدول جعل نموها واتساعها ابعد ممثلاً واصعب مرتقي ، خاليتها الداخلية لم تعد تسوغ لها المخاطر العظيمة والمخاوف الخطرة ، وقد انتهى زمن الفتوحات ، ويكفي لفرنسة ما لديها من فتوحات وما نالته من مكانة ، وآن للفرنسيين ان يهتموا بحكم ما شغلهم كثيراً احرازه ، وبعيدول فرنسة عن سياسة الفتوحات تحمل غيرها على العدول عنها ويكون تجردها سبب عظمتها ، فتجتمع حولها الدول الثانية التي تتمتع بحمايتها ، والتي تبقى محافظة على محالفتها محافظت على مصالحها ، وتصبح بذلك رئيسة تحالف دفاعي قوي يصد جميع الطامعين ، ويحمل فرنسة الى الصف الاول ويعينها على البقاء فيه ، ويجعلها حاكم السلام المسيطر ، والصائن للتوازن الذي يكون كل اخلال فيه مضرراً بمصالحها وكانت الحكمة تنصح بهذه الخطوة ،

والعدل يؤيدها والمصالح الحقيقة تأمر بها، وتكون فرنسا بذلك عاملة على خير نفسها ومؤيدة لسيادتها، وكان يرى منتسكيو ان هنالك علاقة ضرورية بين عظمة الدول ووضعها، ولم تجعل الطبيعة الحدود بالأنهار والجبال، ولكن جعلتها باخلاق السكان وحسن تدبير مصالحهم، وقد اوتيت فرنسا من الحظ ان اتساعها كان متناسباً مع سلطتها وعبقريتها ابتنائها، وينبغي ان يكون لدى الملوك من الحكمة ما يستعينون به على توسيع سلطاتهم، وان يكون لديهم من الحذر مالا يقل عن ذلك حتى يحدده، وكما انه ينبغي دفع المذورات التي تنشأ من الصغر فكذلك ينبغي ان لا تغفل المذورات التي تنشأ عن الكبر.

ولما حاول يوسف الثاني ان يحمل فرنسا على التخلي له عن اسبانية، وعلى ان تأخذ جزءا تغاضبها جزءاً من البلاد المنخفضة، ارسل اليه دو فرجن كتاباً يقول فيه: لا ضرر يصيب فرنسا اعظم من ضرر هذه الخطة، وخاصة باثارها الرأى العام واغضابه، واين تصير اوروبا اذا تحقق — لا اراد الله — مثل هذه الطريقة من الاقسام والتعويض فستحل جميع الروابط السياسية وتصبح اوروبا عما قليل مسرحاً للفتن والفلاقل... ان فرنسا في الوضع الذي هي فيه يجب ان تحاذر التوسع لا ان تطمع به، ففي اتساع المملكة وتراخي اطرافها ما يشغل كاهل الدولة بالاعباء ويضعف مركزها، على حين ان لديها جميع العناصر التي تؤلف سلطة حقيقية: ارض خصبة، وخيرات كثيرة لا تستغنى عنها سائر الشعوب، وامة متحمسة مطيعة شديدة الحرص على ما ينفع ايرها ووطنها... وفرنسا في وسط اوروبا يحق لها ان تؤثر في جميع الشؤون الكبرى، وملكيها كقاض سام يتخذ عرشه لصيانة حقوق الملوك وحماية ممالكهم. واذا كانت جلالتكم تعمل بجهد ونشاط لاعادة النظام الى نصابه في داخل بلاده، وتتبع في سياستها خطة تعمل بالرأى الذي يدعو الى السير في سبيل الامان والطمأنينة والعدل، وهو لا يظلم الى الغارات ولا تنطوى جوانحه على الاطماع، حينئذ يكون مثلها ابلغ اثرًا من سلاحها وحينئذ يسود الحق والسلام اوروبا كلها، فتهدف في ارجائها الدانية والقاصية لهذا العمل المفيد، وتعترف بانها نالته على يد جلالتكم وحكمتها واناتها وفضيلتها.

ولم يسبق للسياسة ان تكلمت بكلام في هذه المنزلة من السمو والنبل، ولا جاءت بمثل هذه المقترحات الشريفة لذي سلطان، وهذا فصل يعين به عهد الانتقال من الحق القديم، الذي كان سائراً في سبيل الاضمحلال باسرافه وتقريطه الى العهد الجديد الذي يراد انشاؤه، وانشاء عالم جديد فيه. ويكفى لمعرفة مقدار التبدل الذي حدث مقارنة العوامل التي كانت في الماضي تقود دول الشمال في مفاوضاتها المتعلقة ببولونية والعوامل التي قادت دوفرجن الى مثل هذه المقترحات، وكذلك المقارنة بينها وبين الاسباب التي تذكرها فرنسا نفسها لتعزيق مملكة النجسة، فقد انقضى العهد الذي تميز باستهتار فردريك وكاترين وخطط رشليو، واخذت المناظرات السياسية تقوم على البحث في مصلحة الجميع التي فيها مصلحة كل فريق ومالت النفوس الى استبدال الفكرة القائمة على مصالحة الدولة، واصبحت الاعتبارات الاخلاقية المحضة تصحح من الحقائق القاسية التي قررتها السياسة القديمة، ودخل في السياسة شيء من مبادي روح القوانين. ودوفرجن الذي اقتبسنا من كتابه القواعد الرفيعة التي اسلفنا ذكرها كتب ايضاً في مستقبل عهد لويس السادس عشر يقول: لا بد ان يخامر الملك الفاتح حزن واسف من حاله، ولكن الملك المواطن يرضيه ان يكون في ايام ملكه ظروف ملائمة لتنفيذ آرائه السامية الفاضلة، وكذلك كانت قواعد السياسة الخارجية سنة ١٧٨٩، ولم تكن للجمعية التأسيسية خطة غيرها.

وقد تلقى ميرابو وتليران هذه المبادي ونشأ في اجوائها، وكانت نافذة الى صميم قلوبها عندما اخذا مكانها من الجمعية، ولم يكن بد من السلام الخارجي لتحقيق الإصلاحات الكبرى، وكان يعتقد ميرابو ان فرنسا لم ينفد معين قوتها، واذا ترك لها الامر فانها تستعيد رونقها وبهاءها، والقوة الداخلية هي ركن السياسة الخارجية وستبقي شؤون فرنسا سيئة مادام وزير الخارجية فيها الوزير الاول، وكان يرى كل تجزئة جائرة فاضحة مؤذية، ويعتبر بروسية بالغة من القوة حدا يجعل من نقص الرأي ان تترك تنمو وتوسع، ويجب الاحتفاظ باللمانية كعنصر

اساسي في التوازن الذي يجعل السيادة لفرنسة ، وكان يميل الى مخالفة انكلترة بالرغم من جميع الاوهام التي كانت غالبية ، فان في اتباع الشعبين اوضاعاً متشابهة مايجعل لهما نفس المصلحة في الدفاع عنها ، والمعاهدات التجارية تؤلف بين مصالحهما والتنازع يذهب بجهودهما ، وتحرير المستعمرات الاسبانية نتيجة تحرير المستعمرات الانكليزية وكلاهما يعود على تجارة فرنسة وانكلترة بالفوائد الجزيلة ويفتح لهما المنافذ العظيمة فيبدأ نزاحهما في العالم الجديد ويتقاسمان خيراته والنفوذ فيه .

وكان تليران يهتدي في خطته بهذه الآراء ، وقد استنكر تقاسم بولونية ، ولكن افاده هذا التقاسم وانار سبيله ، وعنده ان فرنسة يجب عليها ان تعدل بعد الآن عن خططها القديمة في التسلط والتسود ، اذ لا تجتمع وسائل الغنى الحقيقية عن طريق الاغارة على ما يملكه الآخرون ولكن عن طريق الاستثمار لما تملكه ، وما عند فرنسة يحزها لأنشاء عظمتها ، واذا زاد على ذلك فلا يكون بدون خطر عليها وعلى السلم في اوربة ، وهذه المناهج الحكيمة تقوم عليها اسس السياسة التي يتبعها رجل البراعة والرأي الذي سيمصبح في سنة ١٧٩٥ وزير خارجية الجمهورية ومفاوضها الكافي السديد الموفق .

وكانت فرنسة تستطيع ايام الثورة ان تؤسس السلم الذي كانت تفتقر اليه على قاعدة احترام الحقوق ، وان توفق بين مصالحها الدائمة في اوربة وبين ماتدعوا اليه من مباديء الحق العام الجديد ، ومن الصدف النادرة ان الرأي اتفق في نتيجته مع التجارب ، وان ما كانت توحى به في العهد اقديم اسباب المنفعة الحقيقية والتبصر والتفكير كان العقل السليم كذلك يوحى به الى المشرعين رواد الحقائق ، واول مبدأ من مبادئهم الذي هو سيادة الامة كان من متمماته ان تقرر الشعوب مصيرها وتتصرف بشؤونها ؛ واذا طبق هذا المبدأ الذي هو من قواعد حقوق الدول سنة ١٧٨٩ فإنه يحول دون جور الفتح واساءته ، ولكن كما تبدل الغايات فان القواعد الحكيمة وسنن العرف والمادة لا تكون ضمانات مطلقة ، والدول

الكبرى بحاجة في سياستها الى قواعد بسيطة وعهود ثابتة ، وحق على متشرعي ١٧٨٩ ان يتخذوا من مقترحات فرجن اوامر رسمية وان يجعلوا الفتوح ملغاة في قواعد البلاد الاساسية .

ولكن السياسة المتبعة كانت مناقضة لذلك كل المناقضة ، فلا فرنسا ولا اوربة لم تكونا معدتين لهذا الاصلاح الجوهرى في الاخلاق السياسية ، وقد اثر روح الدعوة في الثورة ، واستمر روح الفتح يحكم اوربة ، وتبعث ذلك حرب ضروس فأنتقدت وطنية الفرنسيين استقلال بلادهم ، وفتح انقسام اوربة الباب لفتوح الجمهورية وضمنتها لها حماستهم ، ولما اصبح السلم ممكناً سنة ١٨٠٥ لم يكن قد بق احد من مؤسسي سنة ١٧٨٩ ، واضمحل كل اثر من آثارهم ، وخلا المسكان من اوائك المتشرعين المفرطين ، المجهزين بالاسلح والحديد من احفاد فرسسان القانون ، الذين كانوا بغوصون على اسرار سياسة رشليو ، ويتممون بالسراف القواعد التى كان يطبقها اسلافهم في خدمة الملك . فيستنفرون الشعب للمجد ويدفعونه الى الحرب ، ويشيدون على شهواته السلطة التى ينفذونها باسمه ، وكذلك يعتمد شارحو حقوق الامة في كتاباتهم على المؤلفات التى وضعت في حقوق الملك ، وكذلك تخلف سياسة السلم والاعتدال سياسة الفتح والاكرام .

وقد سارت الثورة على منهاج لويس الرابع عشر في كثير من خططها السياسية وكانت واياه على وفاق من حيث الغاية ، وعلى خلاف من حيث الوسيلة ، فهو مثلاً كانت له سياسة في اسبانية يريد منها تعزيز ما كان يهتم به العهد القديم من اوضاع وغايات ملكية واستبدادية ، اما فرنسا الثائرة المجددة فانها تصرح برغبتها في خدمة اسبانية والانسانية ، ولكن الفرنسيين عندما احتلوا هذه الارجاء استمروا متأثرين بعاداتهم التى ورثوها من العهد القديم ، يعاملون الاسبان كشعب عاص محكوم عليه ان يكون في الدرجة الثانية ، وحاشية الملك ضعيفة خواراة تباع وتشترى . واهمل سياسيو باريز حساب الشعب واستهانوا به ، وسنوا سياستهم على ما يريدون من حجزته وما يتوقعون من خضوعه ، ولكن هذه التقديرات التى لم

تعباً بالمعصر الجوهري وهو خلق الاسبان خدعت مختلف اوضاع الثورة واضلتها ، وقادت نابليون الى اعظم الكوارث ، وطويت فيها الخطط التي خالقها العهد القديم للثورة .

وهؤلاء الاسبان الذي لم يبق لهم يومئذ في اوربة شأن الا في الابحاث الفلسفية ، وفي الامثلة الحية لاحتطاط الشعوب ، عندما وطئهم الاجني بسنابك خيله ووجدوا انفسهم في خطر ثورة تجعل عالمهم سافاهم وتنهك اخلاقهم وعاداتهم ، استيقظوا فجأة ، ودفعتهم حماسة التعصب المتأججة في صدورهم وشعور الوطنية المتقدة في قلوبهم ، فراع ذلك رجال السياسة في اوربة ، وتحققت كلمة رشليو التي قالها عن الاسبان : انهم يفوقون الفرنسيين في الثبات والعزم والغيرة والامانة وحب ملوكهم ووطنهم ، ووجدهم نابليون كما كانوا منذ حاربوا العرب تلك الحرب الضروس .

وقد انتقض الاسبان على الفرنسيين المغيرين ، والنقائص التي طالما اضعفتهم كانت لهم معين قوة ، وانقلبت الى فضائل يستمدون منها البأس والشدة ، وتوقد في نفوسهم نيران الحقد القاتل الذي كان يديرهم على الفرنسيين ، فكان بؤسهم يجعلهم غير شاعرين بالام الحرب ، وتعصبهم الديني يستثيرهم على منكري الدين واعدائه ، فشعور الحماسة الدينية ، وما ورثتهم اياه القرون الوسطى من صفات الالباء والانفة ، وهذه القسوة التي تبرز مع دواعي الشرف الرفيع ، وحب الانتقام الذي يتجدد بروح التضحية ، يجعلهم جنوداً ابطالاً ومقاتلين اشداء على المغيرين ، وكل ما كان يقصدهم في القرن الثامن عشر عن الحضارة الاوربية ، ويغلق ابوابهم دونها ، ويبقيهم في سباتهم الطويل كان يعين على جعلهم منيعين في جبالهم لاتصل اليهم الايدي ، وذلك عندما وجدوا كرامتهم التي ابعدهم عن العالم مهانة ، واستقلالهم الوطني ، الذي ليس لديهم ما يستهويهم غيره مهدداً ، والثورة الفرنسية حتى في افضل احوالها لم تكن الا مؤذية في اغارتها عليهم ، تبعهم على اليأس

والاستبسال في الذود عن حمام ، وبقيت اسبانية الحاجر الذي وقفت عنده دعوة الثورة ، ولما اراد نابليون ازالته تكسر عليه سيفه ، فوجدت فتوح الامبرطور في طريقها نفس العقبات التي وجدتتها رسالة الثورة وهي عواطف الوطنية المتأججة .

ويقال مثل ذلك عن اجزاء اوربية اخرى ، ونخص بالذكر هولندة التي كانت فرنسة تحميها لتبعد بيت النمسة عن مصب الاسكوت والرين وتضعف النفوذ الانكليزي في البلاد المنخفضة ، وبعد ان استعانت هولندة بفرنسة وشدت ازرها بها ، قاومتها مقاومة شديدة لانها ارادت ان تستعبد لها بعد ان اعانتها على تحريرها ، فقام مقام الصداقة والمودة الحقد والضغينة ، والهولنديون لم يفكوا رقابهم من ربة الاسبان حتى يتحملوا ربة الفرنسيين ، وكانوا يعززون الى حب الظلم جميع الادعاءات الفرنسية التي لاتتفق مع مصالحهم كما ان الفرنسيين كانوا يرون من دلائل النكران كل مقاومة لادعاءاتهم ، وقد كان في طاقة فرنسة ان تستصلح الهولنديين لو انها اثارت اهتمامهم بمخططاتهم وجعلتهم يرجون الفائدة منها ، ويطمعنون الى عواقبها ونتائجها ، ولكن هذه الاساليب تستلزم تنازلاً واعتدالاً ليس في ذوق سياستهم .

ويظهر ان الجهود العظيمة التي بذلها الهولنديون قد استنفدت قواهم واضعفت عزائمهم ، فانهم بعد ان قاتلوا بكل صبر وثبات في سبيل حريتهم ، ظنوا انها اصبحت في مأمن الى الأبد ، ولم يعودوا يفكرون الا بأن يعفوا آثار هذه الحروب الطويلة ، وكان حب الوطن يحملهم على ان يضحوا بتجارهم في سبيل استقلالهم فاصبحوا يضحون استقلالهم شيئاً فشيئاً في سبيل تجارتهم ، ولما صد غليوم دورانج على عرش انكلترة ، اصبحت دولتهم في اول الامر شريكة لهذه الخليفة ، ثم صارت تابعة ، ولكنها بقيت منافسة لها في الحكم وفي المستعمرات ، فكانت في القرن الثامن عشر تقيض غنى وتجارة ورخاء ، ولكنها تقهقرت في سلطانتها وفي كرامتها ، وكانت الدول الاوربية تعاملها كما يعامل العطاء الصيارفة في حاجتهم اليهم ، يحلونهم قبل العقديويهنونهم بعده ، وكانوا يرون ان هولندة بلاد تجارة ، فيجب ان تستغني وتجي

وتفقد وتخضع ، وقد انساق الفرنسيون الى تحرير هولندا بعد الثورة ، ثم الى فتحها ، ثم الى تجزئتها ، ثم الى افقارها ، ثم الى ازالها من دوان الشعوب الى ان كان بعثها واستقلالها سنة ١٨١٤ ، وما كادت الجيوش الفرنسية تولى اعقابها بانكسار نابليون حتى تداعى حكمها في تلك الانحاء ، ولكنه مع ذلك قد ابقى فيها اثرأ عظيماً وهياًها لانشاء بنية سياسية جديد يختلف عن الاوضاع السابقة والعادات القديمة التي كانت تجعل جميع السلطات السياسية في ايدي بعض الاسر او الجماعات المميزة وتكره على تقلد دين الدولة من لم يكن يدين به ، وتؤيد بقاء طبقات متباينة لا تتساوى في عرف القانون وفي تطبيقه . ولما كان هذا النظام القديم الارسطقراطي طوى امره وقضى عليه ، فقد قامت مقامه جمعية ديمقراطية وادارة حديثة متشابهة كونت البلاد المنخفضة للقرن التاسع عشر .

٤ — الحدود الطبيعية وتقاليد الفتح

التاريخ ينشر التقاليد في الشعب ، والعقبات التي تعترض السياسيين لا تنف في سبيل العلماء والجهابذة ، ورجال الدولة مجبرون على ان يحسبوا حساب الوقائع ، اما العلماء فانهم يحتفظون بالحجج ويدافعون عن الحق ويحولون دون النسيان ، والتقاليد لا تمنح من نفس الشعب ، وقد اذيعت نشرة سنة ١٧٤٨ تلام فيها فرنسا لانها لم تلحق البلجيكي بها ، فاجيب على ذلك بهذا القول : انه يستحيل ابقاء هذا الفتح الجميل رغم اربعة كلها التي كانت تحسد فرنسا قبل ذلك ، ولكن عامة الناس يطمنون هذه الاماني من غير ان يفكروا بما تنطوي عليه ، ولم تعدل الحكومة عن ذلك الا مرغمة ، فقد احقت اللورين ، وما زالت ترمي ببصرها الى هولندا والبلجيكا والكسمبرغ ، وتتخذ ذلك اساساً مشتركاً لكل خطة سياسية . وكانت الدروس تتبع التقاليد ، والمؤرخون يحدودنها ، ورجال الادب يذيعونها وهي تلقى في المدارس العسكرية وتحفظ في سجلات الدواوين ، وتنقل الى طبقتين من الرجال الذين ابقوا اثرأ عظيماً في سياسة الثورة الخارجية : المشرعين والعسكريين ، فتلقوها واضحة مفصلة

بطريق التحليل الذي كان من صفات ذلك الزمان ، وهي قواعد بسيطة ليس فيها شيء من الجدل والمناقشة . فظلت خطة الفتح الرائمة قبلة الاحلام الوطنية اجيالا متتابعة ، لا تفترق فيها الامن حيث المناسبة والملاءمة ، وكان كل فريق يأتي بالبراهين الواقعة ويعتمد على الأسباب القائمة ، فضرورات الدفاع والهجوم حجة رجال الجيش ، وضرورات الحكومة الداخلية حجة رجال الدولة ، وضرورات السلام الاوربي حجة رجال السياسة ، وهي بجملة ما تؤلف عناصر البحث والمناقشة .

وقد اتفق على الحدود انتهائية ، سافوا ونيس من جهة ، والموز والرين من جهة اخرى اما احراز الشاطيء الايسر للرين فلم يكن غاية مباشرة ولا خطة سياسية محددة ، بل هو الغاية العليا وامنية المستقبل وآخر حلقة في السلسلة ، واذا لم تقف فرنسا عند هذا الحد الذي عينته الجغرافية والتاريخ والسياسة ، فانها تعدو بدون شك طور الدولة التي يستلزمها توازن القوى في اوربة ، وتعدى حدود الملك الذي تستطيع حكمه والدفاع عنه . وقد ورد في احدى المذكرات السياسية القديمة في سنة ١٧٤٤ انه على فرنسا ان تكتفي بحدود الرين ، وان لا تفكر ابداً بتجاوزة والقيام باي فتح في المانية ، واذا اتخذت لنفسها قاعدة الوقوف عند الحدود التي عينتها الطبيعة من الغرب ومن الجنوب : البحر المحيط ، البرنات ، البحر المتوسط جبال الالب ، الموز ، الرين ، تصبح مهيمنة في اوربة قادرة على صيانة السلم بدلا من تكدير صفوه .

ولكن فرنسا اذا ارادت تحقيق خطط الفتح والاستيلاء العظيمة وحمل اوربة على قبولها ، فانه ينبغي ان تغلب اوربة بأسرها ، وهذا من الامور المستحيلة او ان تسلك خطة التجزئة والتقسام فيها ، ومعنى ذلك ان يقام في اوربة اصدقاء او شركاء وان يستعان باسلاط المغلوبين لتأمين التعاون وتسديد الديون ، فهناك عدو يجب ان يغلب وان يمزق هو النمسة ، وحليف يظهر انه دائماً على اهبة الانتفاع ، لين لمغريات الفتوح ، سريع الى المساومة مهيأ لكل نهب مقسم وهو بروسية ، وكانت الاراضي التابعة للكنيسة في المانية تستخدم في مثل هذه الاحوال لتعزيز

الموقف والمحافظة على التوازن ، واذا مست الحاجة فهناك بولونية وهي بلاد
لاصاحب لها ولا حدود ، تتصرف فيها بروسية كما تشاء .

تلك هي قواعد سياسة الفتح التي شارك بالدعوة اليها قادة الجمهورية ورجالها
المشرعون بما كانوا يحملون من تقاليدها في المعسكرات والجامع ، على حين ان
هذا الجيل الذي يعيشون فيه ، هو جيل فلاسفة يستنكر الحروب وينتقد
الفتوح ، ويدعو الى اقامة نظام الدولة وصلات الجماعة على اساس لاتتغير ولا تنقص
من سيادة الشعوب وحقوقها ، وهو يزهد بتلك الاتفاقات الواهية التي تعقدتها
الدسياسة وتنظمها المنفعة وتبرمها الملامة ، ويريد ان تؤسس الاتفاقات على اساس
من الحق المطلق الشامل الصريح ، والسلم الذي يعقد لمصلحة الانسان يجب ان
يضمن له الخلود والبقاء ، ولم تعد تدرك العقول المعقدة الحساب البسيط الذي اقامته
تجربة رشيديو ، واخذ يتنصل اصحابها من اتباع السياسة المكيفلية وكانوا لا يكتفون
بالاحتجاج بالاعمال بل يريدون الاستشهاد بالحقوق ، ولا يكتفون بالحق التاريخي بل
يضيفون اليه الحق الطبيعي ، ويقضى مذهبهم بالتأليف بين الملامة والعدل وبين
حق الدولة والحق المجرد .

فلاحكام التي قررتها الثورة الفرنسية تبنى على استشارة الشعوب ، بحيث
لا يضاف الى الدولة الا الذين يرغبون بالانضمام اليها ، وهذا مبدء صحيح ولكن تطبيقه
صعب ، فالشعوب ترفض والامراء الاجانب لا يقبلون قاعدة تضر بسلطانهم ، واذا
كان مبدء السيادة جامعاً مطلقاً فان الى جانبه مبدء آخر راد ان تكون له الغلبة
والسيادة ، هذا المبدء الذي يقول اصحابه : انه جنائية في محكمة الاخلاق ان يباع
ويعطى ابناء امة الى سلطة اجنبية ، وبأى حق يتصرف امير بشعب لا يريد ان يبدل
السيادة فيه ؟ وهل يجب ان تكون الشعوب كل شيء او ان لا تكون شيئاً ؟ او
ليس على الملوك شيء للشعوب ؟ وما معنى حقوق الدول ؟ وما معنى حقوق الشعوب ؟
او ليست القاعدة التي لاتصل ابدأ هي ان خير الشعب وسلامته هما القانون الاسمي
الذي يتوقف عليه كل قانون سواء ، والذي ليس فوقه قانون .

غير ان هذا القانون منها سما قدره لا يبرح قانونا مبها ، فمن الذي يضع القواعد في هذه المادة الخطرة ويحدد حدودها ؟ ان فرنسا لا تستطيع ان تتجاوز الحدود التي ترسمها السلامة العامة ، فالسلام يتوقف عليها ، والواجب يقضي ان تكون ثابتة ، ولا بد لتحديدتها من اساس يعلو على اساليب السياسة القسرية ومواطناتها ، وعلى اطماع الفاتحين وانايتهم ، وعلى جهل الشعوب بحقوقها وتضييعها اياها . وقد استخرج هذا المبدأ مؤلف العقد الاجتماعي روسو ، واستعلاه كسائر مبادئه من الطبيعة التي هي مصدر كل حكمة وكل فضيلة ، فبال اوروبا وبحارها وانهارها تقرر حدود الشعوب الساكنة فيها ، وتحدد عدد الشعوب وسعتها ، ويجوز ان يقال ان النظام الاساسي في هذا الجزء من العالم هو في بعض معانيه عمل الطبيعة ، ولكن لا يراد من ذلك ان جبال الالب والبرنات ومختلف البحار والانهار عقبات لاتنالها الاطماع بل ان هذه العقبات تسعين باخرى تقويها وتمززها ، وتعيد الدول الى حدودها التي تجاوزتها بمجهود زائلة .

هذه هي القواعد التي قامت عليها الثورة فيما يتعلق بالحقوق العامة وتعيين الحدود ، وقد تجاوزت بها المحافل والجامع ووسعها الخطباء والزملاء ، فحقوق الشعوب تشتق من الطبيعة ، وتنفيذ هذه الحقوق يتوقف على ما وضعته الطبيعة نفسها من الحدود ، والمذهب الذي اعتمد على الطبيعة في تقرير مبادئ الحقوق العامة لفرنسة الجمهورية يؤسس الحقوق الدولية على قواعد الحدود الطبيعية ، والحدود التي رسمتها الطبيعة هي بحق التي ذكرتها الاساطير ، وحددت احيال التاريخ ، واوحى بها درس السياسيين المعاصي ودرس الفلاسفة المطلق ، والعادة المألوفة عند فريق تنود الى نفس النتائج التي يرشد اليها منطق الآخرين ، وهذه النتائج مابرح منذ العصر الرابع عشر تستخرج على التوالي من شرائع طوائف الملوك وحقوق الرومان ومن العهود والعقود .

وفي سنة ١٧٨٩ كانت الخطط الكبرى تظهر من الخيالات الرفيعة ، ولكن هنالك تناقض بين السلام في نفسه وبين اقراره في العالم ، ومع هذا التناقض بين

السلام وبين اقرار السلام ، فكلاهما كان يلتئم مع حالة الزمن الروحية ، وهذا الرجل السياسي الذي عمر خاطره بالخيالات الكثيرة كان يحلم بان ينشيء اوربة على هواه ، ويؤلف فيها جمهوريات متشابهة كما هو الامر في الولايات المتحدة الاميركية فتعاد الدولة الرومانية ، ويكون السلم مؤسساً على الوجه الروماني ، اى على قاعدة اخضاع الشعوب القديمة لاحترام حقوقها ، غير ان هذه الثورة لاتم الا بالفتح ، والفتح السعيد او الفاتح العظيم هو الذي يمهده كذلك سبيل غاياته .

وكان الكثيرون يبتغون ان تخرج المانية مما كانت فيه ، فتتخلص من الامبرطورية المقدسة ، ومن هولاء الامراء والرؤساء ، الذين كان يبلغ عددهم نحو ٢٠٠٠ يظلمونها في السلم ويحتاحونها في الحرب ، وكان بعض الفرنسيين يطمع ان يراها موحدة ، او يظن انها ستدخل تحت لواء البيتين المالكين في النمسة وبروسية ، وهكذا كان الامر في ايطالية والرغبة في تحويلها الى جمهوريات متحدة او دول . وانقاذها من ظالمها ، وانشاء عصبة فيها ذات مجلس عام ورئيس ، يكون ملك ساردنية ، وما هذه الا المانية ثانية تريد فرنسا ان تنشئها على ابوابها ، وقد كانت مبيأة من ايام الملكية ، فتقبلها الجمهوريون ولم يبق عليهم الا ان يغيروا فيها الاسماء .

ولكن ماهي الفائدة من احياء ايطالية واتخاذها حليفة اذا لم يكن فتح طريق الشرق لفرنسة هو الغاية ، وكان يرى ذلك جميع الخياليين وواضي الخطط ، فقد كان منهم من يسعى لمقاتلة الترك وانتزاع مصر منهم والذين يدعون الى اقتسام الدولة العثمانية وتجزئتها ، واقامة ممالك نصرانية في اليونان ومكدونية ، والاستيلاء على فلسطين وسورية ومصر ، وكذلك الامر في بلاد البربر وفي مراکش ، ثم وصل بحر الشرق بالبحر الاحمر ، وقد استفادت كاترين بحملاتها الصليبية سنة ١٧٦٨ من انتشار هذه الآراء ، وكان فولتير نصيراً لقضية اليونان ، كما ان شينيني جعلها قضية جميع الشعراء .

وكانت مصر مهوى افئدة رجال السياسة ، وعندما كان يوسف الثاني وكاترين يعملان على اقتسام تركية ، كانا يرجوان ان تشاركها فرنسا اذا منحت مصر ، ويروى ان مجلس الملك تذاكر في هذا الشأن ، وان فرنسا لم يكن يرضيها ويعوض عليها ، اذا لم تستطع ان تحول دون تجزئة تركية ، الموره او كريد ، ولكن مصر هي الشيء الوحيد الذي تقنع به ، فتبلغ الهند عن هذا الطريق وتعيد بواسطة السويس طريق التجارة القديم ، وتبلغ ما تريده من تعطيل طريق « الكاب » ورأس الرجاء الصالح .

وكان بنابر تضاير نفسه بهذه الاحلام عند دخوله ايطالية ، والشرق هو الذي يجتذبه من وراء الجبال والبحار ، وقد كشف القناع عن حقيقة فكره بقوله : يجب احتلال مصر اذا اردنا ان نقضي على انكتره ، ودفع فكره الى غاية المنطقية فرأى ان يسير الى القسطنطينية ، ويزيل الدولة العثمانية ، ويرجع بهد ذلك الى باريس عن طريق فينة بعد ان يقضي على بيت النمسة .

وفي الحق ان ماتم على يد نابليون تجاوز في مضمار الفخار كل ما يعرض في خيال خارق العادة منذ عهد شرلمان ، فلم الامرطور الشيخ اصبح حقيقة ، وعند تحققة تجاوز ما كانت تطمع الاحلام فيه ؛ ولوانه قيل في سنة ١٧٩٠ الى احد رجال الجمعية التأسيسية كتليران المأخوذ يؤمئذ بمبادئ الحرية العامة ، والمخرج على طريقة فرجن الحكيم المعتدل ، انه يعمل لاهياء عهد القياصرة في اوربة وامبرطوريتهم ، وانه سيكون الوزير الاكبر في هذه الغارات والفتوح ، لصاح بصوته مستنكر اسكان احتجاج بالتاريخ وبنظام التوازن وبمقاومة اوربة ، ولا ستنتج من عدم امكان ذلك سنحف هذه النبوءة ، ومع ذلك فان التناقض العجيب تغاب على الاراك العام ، ولم تكن هنالك معجزة في الحقيقة ، فالذي يعرف الماضي حق المعرفة وينعم النظر في التقاليد لا يستنكر ولا يأخذ العجب .

والاسباب التي جعلت الثورة تنقلب في النظام الداخلي الى فوضى ذميمة ، تقوم على الاستبداد ولا تنكره ، هي التي قادت هذا الاستبداد ليمتد في اوربة

ويرفع الوية فتوحه ويمجد السبيل ممهدة له ، أما الحذرون واصحاب الآراء البعيدة الذين هم عندما شاهدوا الطوفان لاذوا باكتاف الجبال او حبسوا انفسهم في الفلك وانظر ان تهدأ العاصفة وان يفيض الماء . فقد انتقموا من المغامرين والجاهلين الذين حسبوا انفسهم قادرين على العاصفة فحملتهم في طريقها ودمرتهم تدميراً ، ولم يكن مخدوعاً من يظن ان مثل هذه القوة لا بد ان تتداعى في العاجل او الآجل تحت ثقل اعبائها ، وعلى هذا الظن قاوم الذين قاوموا الثورة الفرنسية ، ولم يعدلوا مطلقاً عن العودة بفرنسة الى حدودها القديمة .

وقد دامت الحرب بين اوروبا والثورة الفرنسية نحو ربع قرن فابتدت في فالسي ولم تنته الا في واترلو ، وانتصرت في آخر الامر اوروبا المتحددة على الجيوش الفرنسية ، ومع ذلك فلا يقال ان فرنسا خرجت مفكسرة من النضال ، فقد خاضت المعارك مدافعة عن استقلالها وسلامة اراضيها ، وعما قامت به من الاصلاح في دستورها السياسي وفي قوانينها ، ولم يكلفها السلم الا اعادة البلاد التي انتزعتها من اهلها ، وعادت الى حدودها القديمة من غير ان يصاب جسم الامة بضر ، وسامت القواعد الكبرى للثورة ، فاحتفظت فرنسا بالقانون المدني وبالحكم التمثيلي ، وفي ذلك الغاية ليكون عمل ١٧٨٩ ابعد من ان تناله عوامل الاذى ، واقوى على ان يحمل الى الاجيال القادمة جميع ثمراته ، كزراع اخرج شطأه يعجب الزراع .

٥ — صفات تليران و اخلاقه السياسية

لم يكن السياسيون في عرف الناس طبقة مستقلة ذات طابع معين ، ولكن طائفة مميزة بوصاف مسلكية وعادات مألوفة ، وحذر وحيطة وروية وتقدير وتلبس ومخادعة ، وكان تليران احسن مثال لهذه الطبقة ، وقد بهر اهل زمانه بمقدرته السياسية ، فكانت احاديثها كالاساطير التي تتجاوز الحقائق . وكان اشهر سياسيي الامبراطورية ورجال الملكية المؤسسة بعد انكسار نابليون ، حضيف الرأي هادي ، النفس ، لاخل له حبوة ، ولا تفرع له صفاة ، حفيماً كريماً ، طلي الحديث

ساحر الاملوب ، بعيد الغور ، واضح الكلام موجزه ، حاضر الجواب عنيقه ، وكان كرجل متفرد بين النظراء متفوق على الاقران ، يكتفي بان يحكم ويدبر ويستعين بكل انسان في مهمات اموره بحسب ما عنده من غناء وكفاءة ومواهب ، يأبى ان يرضى لنفسه بما يرضاه لسواه من الرغائب الصغيرة والمكرمات المحدودة ، شديد المراقبة خفي الاساير لا يظهر شيء على ملامح وجهه ولا تدل ملامحه على شيء مما يجري في خاطره ، مهما اشتدت العواصف واضطربت النفوس وبلغت القلوب الحناجر ، يسيطر على الرجال ، ويتغلب على الحوادث التي تملأ الجوانح خشية ، لانه يعرف كيف يتقبلها وكيف يخضع لها وكيف يتمكن من قياد نفسه ويقاوم اهواءها ، اما حياته العامة فهي اعمال جليلة ، تصدر عن هذا الرجل الذي عليه ميسم العز والسمو والرفعة ، والذي لم يكن يعبأ بفخار المولد وشرف المناقب ولا بالاطماع والرزائل ، وكل ما يقع الآخرون تحت تأثيره وسلطانه يتخذة وسيلة لنيل مآربه وتحقيق اغراضه ، فيقوم بدسائسه قياما تزل عنه الآمال ، مستهتراً بجميع الوسائل ، لا يبالي ما يصنع في سبيل ادراك النجاح ، وقد عقد معاهدات كثيرة كان فيها المجلى السابق ، اما في مؤتمر فينة فقد تجاوز قدره وسما حتى على نفسه .

وقد ملأت السياسة حياة تليران ، فكان بصيراً بها ، خبيراً بحل مشكلاتها ، عارفاً مداخلها ومخارجها ، فلم يكن يعالج مشكلة ويترك فيها وشأنه الا ينفذ فيها الى ما يريد ، وقد اقتصر في اعماله على المهام الدوائية التي عرفته الاجيال بها فانفق فيها مواهبه النادرة . وسخر للقيام باعبائها طريقة المحدية ، وكانت السياسة العليا جزءاً من نفسه وادراكه ، غير انه لم يكن يمتاز بصفات رجال الدولة لامن حيث الفكرة ولامن حيث الخطوة ، وقد قيل انه نصف ميرابو ولكن لم يكن على شيء من ميرابو ، فقد كان هذا خطيباً ، على حين ان تليران اذا خاطب ثلاثة رجال وجد اثنين يستغني عنها ، ويتجاوزان الحد الذي لا يجوز تجاوزه في هذا الحديث ، وكان يـكل الى غيره افهام الناس ما يريد عمله ، اما الفصاحة والاخلاق فلم يكونا في ذاتها من غاياته .

والتملأ على هذه الجماعة او على تلك من اصحاب الاخلاق وخصوصهم ليس من الامور التي تهم واضعي السياسة ، وليس هو منهم ولا يستحق ان يكون في عدادهم من مهمه ان يمتزع كذبة لمخادعة الناس ، اذا كان يستطيع وهو يستعين بالحقيقة ان يدرك نجاحا اعظم .

وفي السياسة احوال تكون فيها النواحي الاخلاقية عظيمة الفائدة ، و احوال تكون فيها النواحي الاخلاقية باعثة للضرر ، ولا سيما اذا كان الصدق فيها مصطنعاً ، واصحاب الاخلاق المتشددون ينتقدون السياسة دائماً رجالاً واعمالاً وينازعونها ويشاركهم بذلك اصحاب العقائد ، ولكن مناقشة الامور السياسية من الناحية الاخلاقية غاية لا تنال ، والانسان يستطيع ان يبدل الاوضاع والمعاهد والاشياء ، ولكن الاوضاع والمعاهد والاشياء لا تغير الانسان في طبيعته وخلقه وحاجته ، وقد سار ذكر تليران من انه اقل رجال السياسة اكتر اثنا بالاخلاق ولكنه لا يقال فيه على الاطلاق بانه ينطوي على طبيعة مجرمة ، واذا كان قليل الاكتراث فيما هو اقرب الى الفضيلة او الى الرذيلة ، كما قال عنه احد مندوبي امريكة في ايام الثورة في فرنسة ، فان هذا الوصف ينطبق على تليران وعلى من سبقه ومن جاء بعده من كبار رجال السياسة ، الذين يظن بعضهم بعينين عن الاخلاق اكثر مما هم في حقيقةهم ، اما اصحاب الاخلاق فانهم يسرون في دعواهم معتمدين على فكره طيبة تقوم عليها البشرية او ينبغي ان تقوم عليها .

وكان تليران يغير كثيراً من الاحزاب التي ينتمي اليها ، ولكن لا يغير شيئاً من معتقده ، فقد بق وفيأ لمبادي سنة ١٧٨٩ في انشاء المملكة الدستورية كما بق وفيأ للتوازن الاوربي محافظاً لفرنسة على مقامها الاول ، ومنتهجاً مع انكلترة السياسة القائمة على التوازن ، وكان في مفاوضاته يواجه الامور بدون تردد ، ويفتح بما في نفسه ويعرب عن رأيه بدون ان يذهب شتى المذاهب في محاولة اقامة البراهين والحجج ، والحرص على المغالبة والتنازع حتى قال بالمرستن عنه : انه لم ير رجلاً مثله اقل ادعاءً واكثر كرامة .

وسياسة التقارب بين فرنسا وانكلترة كانت من القواعد السياسية التي فيها تليران منذ نشأته الأولى ؛ وهو يعتقد ان اتحاد الدولتين في الدفاع عن الآراء الحرة اقوى اساس للسلم في اوروبا

وكان ميرابو الذي يودع اليه اسراره يرى هذه الفكرة نيرة عبقرية ، حتى انه كتب اليه من برلين وهو يقوم بهمة سياسية : « ليس من خطئة واسعة تؤلف بين كل شيء وتنتهي من كل شيء مثل خطتك ، فهي تقضي على المنافسات التجارية ، وعلى الخصومات الحرقاء الدامية ، وتكل الى فرنسا وانكلترة امر الحربة في الماين » وهذه السياسة هي التي انارت فيما بعد سبيل تليران في ازمة البلجيك ونشوء هذه الدولة المستقلة ، فازر يومئذ خطة عدم التدخل وقضى على عهد التحالف المقدس ، وكان هذا العمل الذي هو آخر عمل له دليلاً على بعد نظره وحرصه على السلم . وفي اثناء سفارته في انكلترة كان يكتب الى حكومته : ان انكلترة هي البلد الذي يجب على فرنسا ان تثبت معه احسن العلاقات الودية ، وما اضاعته من المستعمرات ازال سبباً من اسباب التنافس بينها ، واذا كانت الدول لا تزال تعتقد بحق الملوكة الذي تستمد من العناية الالهية ، فها تان الدولتان لا تشاركان بهذا الاعتقاد ، وقد قبلت الحكومتان مبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين ، كما انها تعلنان حرصهما على السلم والدفاع عنه ، وفداؤهما لا يذهب ضياعاً . وكتب ايضاً : تذكروا حينما تبعثون بمقترحات الى الانكليز انكم تخاطبون شعباً هادئ القلب واسع الاناة ، ولذلك فانه يحسن في مخاطبته اجتناب اللغة التي تثير العواطف .

وكان يقول تليران : ارجو ان يبحث في مدى احيال العمل الذي قمت به ، وماذا كنت فيه وماذا فكرت به وماذا اردت ان اصنعه ، وقد مر اكثر من عصر تحققت فيه امنية تليران الفخورة . ولا شك ان حياة كحياته مرت بهما احداث عجيبة وتقلبات مدهشة ومناقضات عظيمة من رفيات الامور ووضيعاتها ، لا بدع اذا ملأت نفوس الذين جرت بين ظهرانهم ، ولا سيما عندما كانت فرنسا في ذلك الاضطراب الشامل واليأس القاتل والالأم الكثيب الصامت ، فقد تهاوت كواكب

سمعتها وتزلزلت شرفات مجدها وشعرت انها بعد ذهاب نابليون قد اصبحت ارملة بعد قيصر . وما اكثر الذين سدّدوا طعناتهم النافذة الى داهية السياسة وامير السياسيين مثل شاتو برين وفكتور هيكو ، وقد يكون ما كتبه جورج ساند في ايام شهرتها وفخارها اجراً مما كتبه غيرها في شأنه ، ومن ذلك بعض ما قالته في مجلة العالمين :

لم يعرف هذا القلب مزنة الكرم والنبيل ، ولم يحل في قلبه الاخلاص والولاء ، هو رجل لاشييه له بين الرجال ، يتجاوز حتى طبيعة الانسان وبعد ان وصفته بانظم مخادع في العالم ، استمرت في حديثها وتساؤلها عن اعماله السياسية قائلة : ماهو العمل النافع الذي قام به هذا السياسي الكبير ؟ وماهي الخدمات التي اداها ؟ وماهي الحروب الدامية والاضطرابات العامة التي حال دونها ؟ وماهي الضرورات التي جعلت ملوكنا من الفاتح المغرور الى التقى الغافل يحملوننا على الاذعان لعلو شأنه ؟ وماذا يخفي تحت رداء السياسة الزاهي من الخزيات المنديات . هذه هي صحائف الحساب التي يحملها اليك الذين توكل اليهم اموالنا ودماؤنا من غير ان نستشار في امرهم ، ان عجائب مخيفة تضطرب فوق رؤوسنا ولكنها نائية بعيدة بحيث لا تستطيع ابصارنا ان تصل اليها او تدركها ، ونحن لا تزال غرضاً لاسهام اللاعبين المجهولين ، اشباح صامتة تضحك هازئة ، وهي تسجل مقاديرنا ومصائرنا في صحائفها .

٦ — تليران ونابليون

كان لتليران من العمر خمس وثلاثون سنة عندما أعلنت الثورة ، فادرك بفطنته الدقيقة عظم شأن هذا الحادث ودخل فيه بجرأة وبراعة ، وقد ساقته الآراء التي يديها والاعمال التي يقوم بها الى فضائح ومخازي ، فحرم من الدين واخرج من جماعة اهله ، وكشف القناع منذ تلك الايام عن سريته ، وعرفت اوصافه وخلاله ، وجرت المقادير لمستقرها في تعيين مصيره ، ولكن لم تغير شيئاً من طباعته التي عرف

بها : سيطرة شديدة على نفسه ، تكهن مدهش للحوادث معرفة بالغة في الرجال
لين ومرونة في العمل ، استهتار وعبث بالاخلاق ، تسلط على القلوب وسحر للعقول
ثم استباحة لجميع الوسائل التي تضمن النجاح .

وقد شعر بعظم الخطر عند دنو الازهاب ، واحس بما يهدده فيما اذا بقي في
بلاده ، فغادرها الى امريكا ، ولم يرجع الى باريس الا في زمن « الدركتور » ،
فاستعان بمدام دوستابل لتولى الامور الخارجية ، وظهرت له اعلام العهد الجديد
وسطوع نجم بنابر ، فالتبس الى الدخول في خدمته ، والاكتسار من مداهنه ،
والمباغة في مديحه ، وكان اول من ذكر له الامبرطورية قائلاً انها كانت تقوم
على العجائب ، اما الآن فهي تقوم على الحقائق ، واشترك في المغامرة النابليونية
ولكنه لم يشترك في عواقبها ولم يتحمل تبعاتها ، ولبس حلة الامبرطور ولكن ظل
محافظاً بارادته واستقلاله ، واتخذ له خطتين في علائقه معه : الاولى اخلاص لاجد
له ، والثانية خيانة بدون حياء .

ففي عهد القنصلية قام باعظم عمل يمكن ان يقوم به رجل سياسي ، فكان ينظر الى
الحوادث نظرات بعيدة تسمو به الى ارفع منازل السياسيين ، ويدعو الى القصد
والروية واحترام ملك الآخرين وسلطانهم ، وذلك بضد الخطة التي كانت سائدة
في الثورة والاوهاام التي كانت غالبة ، وقد كتب وهو في خدمة القنصل الاول :
ان التفوق الصحيح الذي يأتلف مع الفائدة والمنطق ، هو اكتفاء الرجل بان يكون
سيداً في بيته لان يأخذ به السخف فيدعى السيادة في بيت غيره ، وقد ادركت
الدول كما ادرك الافراد - وان كان هذا الادراك جاء بعد وقته - ان احراز الثروة
يكون باستثمار ماعنده لابلتسلط على ملك الآخرين . وكما كان يدعو الى الاتفاق مع
انكلترا فقد كان كذلك يعتقد بان النمسة عنصر لا بد منه ليقوم في اوربة نظام
ثابت دائم ، والمصلحة تقضي باستمالة وزارة فينة ، لان الخصومة المتوالية للنمسة
وانكلترا تعرض فرنسا لمخالفات عدائية وحروب لا ينقطع اشتباكها ، ولكن هل
كان في المستطاع كبح جماح نابليون الذي لم يكن لاطاعه حد تقف عنده ؟ لقد كانت

قوة عظيمة تقوده في مغامراته الخطيرة ، وكان يعرف ذلك من نفسه ويقول : لم اكن ابداً مسيطراً على ما اقوم به من الاعمال ، وكنت منقاداً للحوادث في كل ما آتته .

وبرغم اخفاق تليران في محاولاته ، فكان يجدي في حمل نابليون على السير في سياسة طبقاً لتقاليد الملكية القديمة ، ويشابر في اغتنام كل فرصة مواتية ليدعوه الى الاناة والقصد ، وقد اختار الساعة الخطيرة عندما كانت فينة على اهبة ان تفتح ابوابها له ليكتب اليه موصياً وهو في سترسبورغ : لا اجد في هذا البعد عن جلالتيكم الاتعزية تحلولى ، وفي الحقيقة لا اجد الاتعزية واحدة ، وهي ان اكون قريباً منكم على سبيل الذكرى والاشترار بتقدير الامور ، وازضاف الى ذلك برنامجاً اضافياً للسلم . وكان اساس هذا البرنامج انه لا يجوز القضاء على النمسة ولا ان يصيبها من الذل اكثر مما يوافق مصالح اوربة نفسها ، لانه اذا كلفت ببذل ضحايا عظيمة واذعنت في ساعات الضرورة ، فهي لا تنتظر الا فرصة الانتقام ، وان تلتحق بتحالف جديد لمحاربة فرنسة وحينئذ لا يكون السلم الا هدنة ، ولا يكون سفك الدماء الا امراً مؤجلاً ، واذا مددنا الى النمسة يداً سمحاً فانها ستكون لنا اكبر عون في سياستنا الاوربية ، ونفصلها عن انكلتريه وبروسية وروسية ونستعين بها على دفع اعدائنا كلهم ، ونجعل اوربة في حالة حياد ، وبذلك تكون قد سويت مشكلة السلم الذي يكون اكثر دواماً وبقاءً بقدر ما يؤمل العقل الانساني ويسمح به ، وكان تليران جريئاً غداة استرليتز بقوله : انه من العسير ان تدمر دولة آل هابسبورغ ونقضى عليها ، بل انه يجب علينا بدلا من ذلك ان نقويها ونعززها ، ونجعل لها مكاناً فسيحاً في النظام الفرنسي ، لانه لا بد من النمسة لسلامة الشعوب وبقاء حضارتها . لكن نابليون ظل متصاماً عن سماع هذه الدعوة الرشيدة التي تلخص تجارب عدة اجيال سياسية ، اذ لم تكن المعاهدات المبرمة الا هدناً مؤقتة .

وبعد تلمست لم يبق عند تليران مجال للتوهم ولم يخف عليه مصير البنيان
الامبرطوري ، وقد ايقظت الحوادث المتتابعة الحذر في نفسه وبدأت تخامر الخواف

وتترامى له العواقب والمكاره التي تخلفها الكارثة بعد وقوعها ، واخذ يتساءل ماذا يكون اذا مات الامبرطور وما نصنع اذا قتل غداً ؟ ولم يعد يستحسن عملاً من اعمال نابليون ولا امراً من سياسته ، ولم يكن مزاجه التقليدى ولا منطقته الواضح الايجابي لياً تلقتا مع اساليب قيصرية عظيمة ، فراح يعد عدته لمرحلة جديدة .

وقد استقال تليران من وزارة الامور الخارجية محتجاً بمرضه في آب سنة ١٨٠٧ ، فعهد اليه نابليون بمنصب شريف سام ، لانه كان يريد الاحتفاظ به في قربه لاجل ان يراقبه على الاقل ، فظل من كبار رجال الدولة يستشير الامبرطور ويحيط به السفراء ويسجلون كل كلمة تصدر عنه ، فاخذ يتصل بالدول الاجنبية وينتقد نابليون في مجالس ثقاته ، وقد كتب عنه الكونت تواسوى السفير الروسي : ان تليران ليس له من النفوذ ما يستطيع ان يحمل نابليون على العدول عن خطته ، ولكن مطامعه الواسعة واخلاقه الضعيفة تجعله دائماً على اهبة القيام بما يكلف به من المهام ، اما مترنيخ فقد كان يرى ان سلطة تليران على الامبرطور ضئيلة جداً ، غير انه على ما يظهر لا يزال قوياً بمثابة عملة كل يوم ومتابعة اساليبه الملتوية .

وعلى كل حال فقد زاد في توسيع مسافة الخلف بين نابليون وتليران وفرق بينهما الحرب التي قام بها الامبرطور في اسبانية ، فعارض تليران بذلك وذكر المضار والنتائج ، ولكنه كلف في آخر الامر ان ينزل في قصره امراء الاسرة المالكة الاسبانية الذين وقعوا في الاسر ، ودعا الامبرطور ان يهيء لهم جميع الميزات وكان لا يرى بأساً اذا احيطوا ببعض الحسان وعلقوا في حبائلهن .

وقد انتدب نابليون تليران لمفاوضة القيصر في تجزئة تركية وتقاسم الشرق والسير الى الفرات ويران والهند ، والقيام مرة اخرى بالامر الذي عجز عنه الاسكندر و تيمورلنك ، واخفاق هذين الفاتحين لا يستلزم حتماً اخفاق غيرها ولا سيما اذا كان التدمير احكم والاستعداد اكثر ، وقد جرت محادثات بين القيصر وبين رسول نابليون ، كشف فيها تليران عن دخيلة نفسه وافضى بذات صدره .

وكان يتذكر هذه الحادثات التي بقيت سرّاً مكنوناً ويقول : كل ما كنت اظن انني بحاجة اليه من الحنكة والدهاء لم يكن بنافعي مع القيصر الحذر . فقد ادرك غايي من اول كلمة ، وفهم ما اریده حق الفهم .

فما هو الاتفاق الذي كان على اتمه بين القيصر اسكندر وتليران ؟ لقد كشفت القناع عن هذه الاسرار مذكرة افضى بها مترنيخ الى الامبرطور فرنسوا وقال فيها : ان هذه الرحلة التي ترمي الى حمل القيصر على اضممار الشر لنا والاستعانة به علينا يريد منها تليران غاية اخرى : ففي اليوم الاول بعد وصوله خاطب القيصر بهذه الكلمات المأثورة : ماذا تريد يا صاحب الجلالة من قدومك الى هذا المكان ؟ انه عليك ان تنقذ اوربة وانك لاتستطيع ذلك اذا لم تقاوم نابليون ، ان الشعب الفرنسي شعب متمدن ولكن رئيسه ليس كذلك ، وقيصر روسية متمدن ولكن شعبه ليس كذلك ، فقيصر روسية يستطيع ان يكون حليف الشعب الفرنسي . وقد اطلعني تليران على نتيجة مفاوضاته عند عودته الى باريس ، وهي تلخص بانه قانع منذ معركة استرليتز ان العلائق بين روسية وبين النمسة لم تكن ابداً حسنة ، وانه لايتوقف الا عليك - كما قال لي - ان تصبح العلائق مع روسية حسنة كما كانت في الماضي . وهذا ماينقذ البقية الباقية من استقلال اوربة . وختم مترنيخ كلامه بقوله : لقد اصبحنا في الزمن الذي نجد فيه محالفين في داخل الامبرطورية الفرنسية نفسها .

وبقي تليران يواصل القيصر وهو في باريس عن طريق سفيره بجميع الانباء التي تفيده ، حتى انه ارسل اليه الخطة الحربية التي يريد نابليون اتباعها في روسية ونصح له ان يسرع بعقد الصلح مع الاتراك حتى يصبح اكثر قوة ، فقددنت النهاية . وقد علم نابليون في اثناء حربه في اسبانية ان تليران وفوشه قد عقدا بينهما حبل ألافة بعد تقاطعهما الطويل ، وان تليران سائر في خياناته ومؤامراته ، فما كاد يرجع من حربه وتقع عليه عينه في مجلس ماتشم ، حتى القى عليه نظرات مستعرة ووجه اليه هذه الكلمات التي تضطرم بنيران غضبه ووقدات غيظه :

انك اص جبان ليس لك زاجر ولا وازع من عقيدة او ضمير ، لقد قضيت عمرك متخلفاً عن القيام بواجبك ، منهمكاً بأعمال غدرك ، ليس لديك ما تقدسه ، فلا تمتنع حتي عن بيع ابيك ، والآن عندما حدثتكَ نفسك ان الامور تسير سيراً سيئاً في اسبانية ، اخذت تعلمن بدون حياء انك كنت غير راض عن عملي في هذه المملكة ، على انك انت الذي حببت الي هذا الفتح وسقتني اليه باصرار ، انه ليجدر بي ان اجعلك مثلاً وان اكسرك كما يكسر الزجاج ، ولكن احتقاري لك هو اكثر من ان اتكلف هذا العناء .

فلم يتأثر تليران بما سمعه ، ومر به من غير ان يحرك صفاته ، ولكن هذا الممثل البارع عندما خرج من التويلري اطلق اساري وجهه المنقبضة واخذ يمس قائلًا : واأسفًا لهذا الرجل الذي هو على عظم شأنه يكون في هذا القدر من قلة الادب . و اشار تليران الى هذه الحادثة التي لم يستطع اغفالها لانها كانت مشهورة فقال في مذكراته : ان اطالة لسان نابليون واغلاظه القول لم يكن ليؤثر به ، اذ الخوف لا يعرف سميلاً الى قلبه ، والحق الذي يظهره نابليون كان يرجع اليه ضرره ، وقال كذلك انه لم ينقطع عن نابليون بعد اقصائه اياه ، وبقي في المكان الذي يطالع فيه على سير الامور ، ويساعده على متابعة اعماله الخفية ، مع التظاهر بالتقاعس وعدم الاكتراث ، حتي لا يتعرض بحال من الاحوال لشبهات نابليون الدائمة .

ولما جرت المقادير في اعنتها ودار الفلك دورته ، انقلب النصر المؤازر الى كارثة عظيمة ، واخذت تموالى على فرنسا انباء الحرب التي تملأها خوفاً وحزناً ورعباً ، وكان تليران لا يظهر على وجهه دلائل الخشية والقلق ، حتي ان شفتيه قد انفرجتا عن هذه الكلمة : هذا بدء النهاية ... النهاية التي كان يتوقعها منذ عهد بعيد والتي كان من المتأمرين فيها .

٧ — تليران في خدمة فرنسا

مؤتمر فينة والعهد الجديد في السياسة الاوربية

عندما بدأت المفاوضات بين الدول المتحالفة وبين فرنسا افتتح تليران عهداً

جديدا في سياسته يفوق سائر عهوده ويشرف تاريخه وذكراه . فقد اخذ على عاتقه ان يقوم بعمل جليل الخطر وهو المفاوضة مع الغالبين ، ولم تكن معاهدة باريس التي عقدت في ٣٠ ايار سنة ١٨١٤ الا نسخة ثانية لعقد الهدنة ، فعادت فرنسا الى حدودها القديمة سنة ١٧٩٢ ، وشمرت بحرج كبريائها الوطنية ، ولكن انقذ ما استطاع انقاذه في هذه المنازلة الكبرى ، واعلن تليران ان ما تحات عنه فرنسا هو في مصلحة الوطن لانه لا يقع صلح بدون ذلك بين فرنسا واوروبا ، وكان يقول : لقد انهيت السلم مع الدول الاربع واني مغتبط لما حدث ، فقد عقد الصلح على قاعدة التكافؤ وسر به جميع العالم ، وندما افكر في معاهدات ١٨١٤ وبالمصائب المختلفة التي كنت القاها ، وروح الانتقام التي كانت تملأ قلوب بعض المفاوضين الذين كنت اعالج معهم الامور ، كنت انتظر مطامئنا حكم الاجيال المقبلة واذا اردنا ان نصف مفاوضات ذلك العهد ، فعلينا ان نتمثل في خواطرنا ما صارت اليه فرنسا بصنع نابليون وخطيئاته ، فقد استنفدت فيها الرجال والاموال ومصادر القوة وأغير عليها من جميع الانحاء مرة واحدة ، ولم تهاجمها الجيوش وحدها ، بل ان الشعوب كانت تضطرم بنيران الحقد عليها ، وتشعر بحس الانتقام منها ، بعد ان ارهقتها بالمغارم وصنوف الاذى التي دفعتها للثأر ، وماذا بقي لديها من وسائل المقاومة ؟ وماذا يصنع مندوبها في مثل تلك الاحوال وتحت سلطان هاتيك الحوادث ؟ لقد كان عليه ان يفاوض في عاصمة فرنسا المنكسرة التي وطئها الغالبون بسنابك خيولهم ، فحق له ان يفاخر بالشروط التي احرزها مهما كان فيها من الموحطة .

ثم جاء بعد ذلك مؤتمر فينة ، فقلد تليران ايضاً مهمة مفاوضة الغالبين في هذا المؤتمر ، ومنحه لويس الثامن عشر جميع السلطات ليدافع عن عظمة فرنسا واستقلالها وكرامتها القومية ، ولم تكن مهمة اعظم خطراً من هذه المهمة ، ولا تبعه اثقل واشد تأثيراً على سفير من هذه التبعة ، ولكن كذلك لم ير الراؤون مفاوضاً مثله ، يقوم مقامه في مؤتمر سياسي ، ويسد المكان الذي سده بنفذه ،

فكان لغزا عجيبا ان يستطيع ممثل دولة مغلوبة ومملك بدون مملكة ، ادراك هذا النجاح كله ، امام هذه المحكمة الدولية العليا التي يسود فيها الخصوم ، وان يقوم بمهمته الشاقة بحذق ودهاء وسعة صدر ورابطة جأش ، لم تذكر مدونات السياسة الا قليلا مما يماثله .

وكان تليران قد مهد السبيل لنفسه في باريس ، وعادت اليه ذكريات شبابه التي تدفمه الى التحالف مع انكلترة ، فاتصل برجالها واحكم العرى بينهم وبينه ، ولم يذهب الى فينة الا وهو واثق بان فرنسة لن تكون وحدها في هذا المؤتمر ، ولا بعزل عن اولئك المتعاقدين الذين يتظاهرون بتحالفهم حتى بعد توقيعهم على معاهدة السلم في باريس ، وكان اول ما قام به من الاعمال ان انكر بحزم ما يراد من اقصاء فرنسة ، وما يدعى من التحالف الذي انتهى امدته ، والذي اذا كان باقيا فلا فائدة من مجيئه الى فينة . ولما قيل له انهم لم يستعملوا كلمة حلفاء الا للاختصار ، اجاب : ان الاختصار لا يجوز ان يكون عقبة في سبيل الايضاح ، واستمر على مطالعة سجل المذكرات وقال: اذا كانت هنالك دول تدعى لنفسها الميزة على سواها والسلطة المطلقة لها فانه يكتبني بشروط معاهدة باريس ولا يعترف لهذا الاجتماع باي سلطة عليا .

وقد قادت هذه الخطة الى ما يريد تليران منذ اول اشتباك ، فاعتبط بهذا النجاح ، ولكنه اخذ بعد ذلك يسير على مهل وحذر ، فالطريق وعر ، وشراك الخصوم ومؤامراتهم منتشرة في كل جانب ، ولم يبرح يحتج بالمبادئ العامة والحقوق الشرعية ، ويرد على مناظريه بالبراهين الدامغة والاجوبة المسكتة القاطعة ، حتى اصبح ممثل فرنسة المغلوبة من اكبر اعضاء المؤتمر تأثيراً واعظمهم نفوذاً ، وحتى قال عنه القيصر اسكندر : انه يتكلم كوزير لالويس الرابع عشر ، وطفق كلاهما ينظر شزراً لصاحبه .

وقيل له مرة وهو يدافع في المؤتمر عن الحق العام الذي اتخذه شعاره : ماذا يصنع الحق هنا ؟ فاجاب هو الذي جاء بكم ، وقيل له مرة اخرى : انه لا فائدة من

ذكر الحق العام لانه امر لا خلاف فيه ، فقال ان الخلاف يكون اقل اذا جيء على ذكره ، وبعد ان انتهى من خطة الدفاع اخذ بالمهاجمة ، وذلك بالدفاع عن حقوق الامراء الشرعيين لان فرنسة لا تطلب لنفسها شيئاً ولا تريد ان تعترف بان الفتح وحده يمنح حق السيادة ، والحكام الذي نخضع بلاده لحق الفتح لا يزال حاكماً ما لم يكن قد تخلى عن حقه ، وكانت الناحية الثانية من خطته ان يعتمد الى الايقاع بين الحلفاء الذين ظنوا انفسهم قد اصبحوا سادة اوربة ، وعليهم ان يقرروا مصائر شعوبها بحسب ما اتفقوا عليه سراً ، ووضعوا له خطط الثقة اسم والتجزئة ، التي تلائم نظام التوارن الاوربي ، ولاجل تحقيق هذه الغاية اخذ تليران يتقرب من النمسة ويوثق صلاته مع بريطانيا ، حتى استطاع في ٣ كانون الثاني سنة ١٨١٥ ان يعقد تحالفاً سرياً مع هاتين الدولتين ، وان يؤيد بذلك سياسة فرنسة ، ويمزق التحالف الذي عقد سنة ١٨١٣ لمحاربة نابليون ، وتأسيس بنيان اوربي يسيطر عليه .

وهذا ما وصف به تليران ابتداء عمل المؤتمر : ابلغني المفاوضون الانكليز ان غاية المؤتمر هو اطلاعكم على ما قرره الدول الاربع منذ اجتماعها ، ولما اطلعت على سجل المذكرات وعلى اطلاق الدول الاربع اسم الحلفاء عليها ، احتججت على هذه التسمية التي تجعل فرنسة بمعزل عن مجموعة الدول الكبرى ، وقلت : اين نحن اذن ؟ هل نعيش في سلم ، ام في حرب ؟ وكان يعيد قراءة المذكرات ويكرر القول انه لم يفهم ، ثم قال : اني اعرف تاريخين لم يقع شيء بينهما ، ٣٠ ايار حيث تقرر اجتماع المؤتمر ، واول تشرين الاول - حيث كان ينبغي اجتماعه .

وقد طلب تليران افتتاح المؤتمر الذي وعد به الحلفاء ، وتأليف لجنة لاعداد قضايا المؤتمر الذي يحق له تقريرها ، فاجيب الى ما طلب ، وتألفت لجنة من الدول الاربع المتحالفة ، انكلترة والنمسة وروسية وبروسية ، ومن الدول الاخرى التي وقعت معاهدة باريس ، فرنسة واسبانية والبرتغال والسويد ، على ان المؤتمر لم يجتمع ابداً ، ولم تكن هنالك الا لجن فرعية للمفاوضين الذين وقعوا المعاهدات

الخاصة بين الدول ، وقد جمعت هذه المهادت في صك واحد سمي العقد انمائي لمؤتمر فينة .

وانتقد تيرس وغيره من الفرنسيين تليران لانه لم يستطع ان يجعل الحدود الفرنسية الى شاطيء الرين ، وكان الروس قد اقترحوا منح ملك الساكس ارضا على شاطيء الرين بحيث يصبح حليف فرنسة الطبيعي ، وتنقطع فرنسة من الاتصال ببروسية ، ولكن تليران لم يكن يستطيع ان يفعل أكثر مما فعل ، فان خطة انكلترة الثابتة ان تقيم الى جانب فرنسة تلك الجارة التي لاتعرف شعبا ورثا ، وقد كتب اللورد كاستلريخ الى اللورد ولنتون في سنة ١٨١٥ ، ان انكلترة لاتستطيع ان تعتمد في دفاعها على هولندة ، وكان المستر بيت على حق عندما اراد سنة ١٨٠٥ ان يمنح بروسية زيادة من الاراضي ، وان يقيمها على الشاطيء الشمالي من الرين ويجعلها باتصال عسكري مع فرنسة ، وكانت خطة تليران قائمة على ضرب الحلفاء بعضهم ببعض ، فدافع عن الملك الشرعي ، وقاوم مطامع بروسية ، وحالف انكلترة والنمسة . وكتب بذلك مفاخرأ ومقتصرا الى الملك وقال : ان التحالف قد قضى عليه الى الابد .

وقد افتتح العهد الجديد في انسياسة الاوربية بحادث عظيم وهو انكسار نابليون الاول الذي لم تسلم اي دولة من تأثيره ، سواء كان ذلك بما احدثه من الاضطرابات في الشؤون الداخلية ام التحويل الذي احدثه في السياسة الخارجية . واخذت اوروبا تتلمس شيئاً جديداً ، وهو الرجوع الى اساس قديم : اي التوازن الاوربي . فلما عاد نابليون وحاول استرجاع سلطانه قبل ان يوقع به ولنتون وبلوش في واترلو ، اعلن المتفاوضون ان نابليون بنابرت اخرج نفسه من الشرائع المدنية والاجتماعية واصبح عدوا للعالم مكدرأ لصفوه ، والتي بنفسه في ايدي النعمة العامة ، وتماهدوا جميعا على صيانة العهد الجديد الذي انشيء انشاءً حسنا في اوروبا كما انهم وعدوا ملك فرنسة وكل دولة مهددة بالتأييد والامداد . ولكن هذا العهد الجديد لم يكن الا رجوعا الى مبادئ سياسة القرن الثامن عشر القائمة على الفتح

والتوازن وسلطان القوة وتمثيل الحكومات لتمثيل الشعوب ، والاستخفاف بأراء سكان البلاد ومنافعهم .

ورافق اعادة النظام الاوربي اعادة الحكومات القديمة ، على ان آراء الثورة التي انتشرت في اوربة جعلت فريقا من الرجال يعملون لتأييد الفكرة الحرة وينعمون على الوضع الجديد الذي نشأ في اوربة . رغم ارادة السكان ورغائبهم ، ويستثيرون بذلك الشعور الوطني ، فتألف الاحرار من الفريق الاول ، والوطنيون من الفريق الثاني . وكثيرا ما اتحد الاحرار والوطنيون في حزب واحد هو حزب المعارضة ، الذي كان يدأب ويجد في نقض ما بناه السياسيون . وكانت الحكومات تشعر بحاجتها للتضامن تأييداً لما ابرمته ، كما ان احزاب المعارضة في كل مكان كانت تشعر بنفس الحاجة للتعاون مع سائر من يقول بقولها . وكانت النمسة اشد الجميع حرصاً على الوضع الجديد ، وهي حصن المقاومة الذي يدافع عنه مترنيخ . فكان جميع المارضين في نظره ثوريين ، وكان يرى ان غايتهم واحدة وهي قلب كل شيء قائم على الشرائع والقوانين ، فعلى الملوك ان يقابلوه بضد ذلك 'ي بالحفاظة على كل شيء قائم على الشرائع والقوانين .

والى جانب العمل السياسى الذي قام به المؤتمر فقد ابقى اثرا خالداً عند الاجيال المتعاقبة بما جرى فيه من اللهو والعبث واطلاق عنان الشهوات . وقد سجلت يومئذ تقارير الشرطة في فينة التي نشرت فيما بعد فضائح واسراراً من حياة اوائك الرجال تدل على ما بلغوا من الانهك والاستهتار . غير ان هذه النقائص الشخصية لا يجوز ان تعتبر صفتهم المميزة ، ولا سيما ان المصادر التي تعتمد عليها الشرطة لا يصح الاستناد اليها ، فهي باعتراف رجالها مدخولة مسموعة . على انه لم يكن هناك مجال للشك ان حياة اللهو والالعاب اخذت قسطا كبيرا من اوقات المؤتمرين حتى قال تليران بجنسه المشهور في كتاب الى لويس الثامن عشر : ان قيصر روسية عاشق ، وملك الدنمرك متهتك ، وملك ورتمبرغ نهم ، وملك روسية مفكر ، وملك بافاريا ثرثار ، وملك النمسة مسرف ، قد انفق حتى الآن ٤٢ مليوناً من

الفرنكيات الذهبية . وقال البرنس دي لينى وهو يتكلم بفكاهة القرن الثامن عشر :
ان موتى يتهم مسليات المؤتمر ويجمع اسباب لهوه ، وهو فرصة حسنة للاحتفال
بدفن فلدرمشال وامير من امراء الامبراطورية المقدسة . وهو القائل ايضا بعد
ان شهد ما شهد من الحفلات والاجتماعات والطرب والعبث كلمته المشهورة :
المؤتمر لا يمشي ولكنه يرقص .

٨ - تليران في اواخر ايامه

عندما احتفل تليران بعيد ميلاده في ٢ شباط سنة ١٨٣٧ وتذكر ايامه الخالية
تحدث عن نفسه بهذا الحديث المشجى قائلا : هذه ثلاث وثمانون سنة من الماضي . واني
لا جهل اذا حاسبت نفسي في هذه السنين التي انطوت هل اكون راضيا عنها وعن
الاعمال التي قمت بها في اكثر المحاولات الضائعة والاضطرابات التي لم تجد فائدة ؟
وما اكثر التعقيدات المحزنة والتأثرات المبالغ فيها ؟ وما اكثر القوى التي اهتمت
والمواهب التي بددت ؟ وما اكثر الاوهام الزائلة والآمال الخائبة والتقديرات
الخطئة ؟ واخيرا ماهي النتيجة ؟ هذه التي تنشأ عن التعب المادي والنفسي ، وعن
اليأس من المستقبل والألم من الماضي . ان فريقا من الناس يتمتعون بمنزلة الجهل
لانفسهم والعجز عن ادراك اقدارهم وينعمون بهما ، اما انا فسوء الطالع او علة
التفوق جعلتني على ضد ذلك ، وهذا ما يزيد مع الجهد الذي يبعثه توالي السنين .

وقد يكون هذا الشعور بالألم ، وهذا الندم المستولي على القلب وعلى النفس
هو الذي يفسر ما قاله في آخر كلمة القاها في حفلة عامة كانها وصية موص . فقبل
شهرين من وفاته ذهب الى مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية في مارس سنة ١٨٣٨
الذي كان عضوا فيه لتأبين الكونت رنهار احد معاونيه السابقين في وزارة
الخارجية . فوصف المثل الاعلى لرجل السياسة وصفا ينطبق على كل زمان قال فيه :
يجب ان يكون الرجل السياسي حائزا على نوع من الشعور الذي ينهيه وينذره ،
وينمعه كل مناقشة من شأنها ان تجعله في مركز حرج . وعليه ان يكون مقتدرا
على الظهور بظهر الرجل السهل المأخذ مع تحوزه وبعد مناله ، وان تكون

محدثاته كثيرة التنوع ، غير متكلفة ولا منتظرة ، سمجة عليها طابع السذاجة .
ومهما كانت هذه الصفة نادرة فليست بكافية اذا لم تمنح من صدق الطوية ضماناً
هي بحاجة دائمة اليه . اما الفكرة الموهومة المنتشرة فعلي ان اشير اليها في هذا
المكان للقضاء عليها واقول : كلا ان السياسة ليست علم الاحتيال والخديعة ، واذا
كان الصدق محتماً في بضع الاحيان فهو خاصة في العلاقات السياسية لانه هو
الذي يجعلها قوية ثابتة دائمة ، فلتكن كلمة الصدق نهاية قولنا ولنقف عندها .

وكانت دهشة سامعيه عظيمة عندما وصف السياسة بانها ليست علم الحيلة
والدسيسة ، فتذكروا ما اسند اليه من اباحة وقعة الدوك دانجيان واسره وقتله ،
وحمله نابليون على خلع بوربون اسبانية وتآمره على مليكه وسعيه . وان تعجب
فمجب من هذه الجرأة التي يقدم صاحبها على الخوض على مكارم الاخلاق وصدق
النية في المعاملات الدولية ، وهو الذي لم يذكر عن رجل ماذكر عنه من الهزوء
بالقواعد الاخلاقية والدينية ، والذي كان يباع ويشري ولا يبالي بغدر او خيانة ،
والذي كان يتهاونك على المال ، ويمد اليه يده حيثما كان ، فيؤول لنفسه كما يؤول
لسواه ، ومن ذلك انه دافع عن ميرابو لانه قبض مالا من حاشية الملك جزاء
خدمة اداها بقوله : انه لا يجوز ان يقال برغم هذه القضية المالية ان ميرابو باع
نفسه من القصر ، فقد تناول المال ولكنه لم يضح ابداً بمبادئه ، وكان يريد ان
يخدم فرنسا والملك معاً ، فتيران يحتفظ لنفسه بحرية الفكر والعمل والوسيلة
ولكن بتقييد من حيث النتيجة ... وحرصه على المال لم يكن لدفع حاجة ولكن
لقضاء لباثته من الملذات والفئاس ، والفرق عظيم بين تيران وبين الخطيب العبقري
الذي ما برح حتى في اسوأ ايام ضلته وتيهه تنقد جوانحه بجذوة من الخير والحلماسة
الصادقة ، وحب شديد للاخلاق الكريمة ، اما اذا اراد تيران ان يجد شيئاً له
بين رجال الثورة وخطبائها فهو دنتون ، ميرابو الطبقة العامة ، الذي لم يكن يستر
اطماعه واهواءه جلباب من الحياء . وكما كان يؤول اخذ المال فقد كان يعتذر عن
التقلبات والخianات ، وذلك بتفريقه بين الملوك والشعوب ، فهو يرى ان الوطن
يبقى ، وان عليه تدبير امره والدفاع عن حقوقه ، وهذا الواجب هو غير ما يترتب

عليه في خدمة الملوك ، والخطة التي اختارها لنفسه ان يخدم فرنسا كما هي وبلي حالة كانت ، وقد اختصر اوصافه بقوله : اني وضعت نفسي في يد الحوادث وجعلتها رهينة الاقدار ... ولكن الكلمات التي يصوغها لا تغير وجه الحقائق ، فانه لا يستطيع ان يجد ما يسوغ بيعه اسرار بلاده الى روسية والنمسة ، وليس في دعواه في اسباب تنكره انابليون ما يبرر مواقفه .

وبعد ان امهى تليران حياته السياسية في تلك الخطبة التي تلاها في مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية بقى عليه ان ينهي حياة اخرى وان يسوى مشاكله مع الكنيسة ، وقد كان يرجي ذلك ويماطل فيه برغم الحاح المخلصين من اصدقائه ، ولما حانت الساعة ولزمه ان يوقع الصك الذي يغسل به ادرانته ويمحو سيئاته ، طالع فوجد فيه ما يرضيه ، ولكنه لم يلبث ان طواه ووضع في جيبه بدون توقيع ، لان كل عقد لم يوقع انما يعود بالفائدة على الذي يأخذ على عاتقه امراً ويبرم عهداً ، واني ان يمضيه حتى بلغت روحه التراقي ... وكانت هذه المصالحة مع الكنيسة كسائر المصالحات التي عقدها ، تذرع فيها بوسائله المعروفة في الاخذ والرد والدفع والمطل والتأجيل والتسويق والحزم والصبر والمجاملة والمواربة .

الفصل الرابع

مترنيخ

في سحره وأساطير سياسته

١ — سياسة النمسة والثورة الفرنسية

كانت النمسة بيتاً مالكا قبل كل شيء ، وقوانين الارث هي التي كانت في آخر الامر تغير القوانين الاساسية ، ولم يكن في اوروبا دولة مثلها متمسكة بنظام الاسرة ، مدافعة عن حقوقها ، عاملة على تثبيتها ، والغريب في امر هذه الدولة ان زيادة عظمتها واتساع ملكها كان ينزل بنيانها ويضعف قواعدها : فهي لا تبرح تنقص الدول من اطرافها ، او تستعين بالطامعين مثلها على تقاسم املاك الاخرى ، بغية تأمين الاتصال بين اجزاء المملكة والدفاع عنها وتصحيح حدودها او البحث عن عروش لامرائها ، واذا اردنا ان نقارن بين تقاليد النمسة السياسية وبين التقاليد التي اورثها هنري الرابع ورشليو آل بوربون وجدنا فروقاً عظيمة ومباينات كثيرة ، وان كان فيها اتفاق من حيث محاولة توحيد الدولة عن طريق استنفاد قوى الامراء بالحروب المتتابعة سعيّاً وراء الفتح والفخر به وكانت النمسة في الحروب الاوربية تقدم الرجال وحلفاؤها يبذلون الاموال كما صنعت فرنسا في حرب السنوات السبع وانكلترة في حرب الثورة.

وقد تقلبت خطط السياسة في النمسة ، فبعد العداء التاريخي بينها وبين فرنسا ، حالقها ماري ترز واستعانت بها على تحقيق خططها ، ولكن السياسة الفرنسية ادركت خطاها وعادت في ايام لويس السادس عشر الى سيرتها الاولى في الدفاع عن مصالحها ، واسترجاع المركز الذي كان لها في اوروبا ، وكانت النمسة بعد ذلك

تخرج من فشل الى فشل ، وتحس في كل ماتلاقيه يد فرسة واثرها ، وكان يوسف الثاني يلتبس سبيل الخلاص فتحول الى روسية منذ تقلد الحكم ، واتفقت مطامعه مع مطامع كاترين وعقدا محالفة في سنة ١٧٨١ ، وكانت الآراء التي تحملها النمسة وتدعو اليها في هذا التحالف تدير سياستها في ايام الثورة كلها .

والامبراطورية الالمانية هي غاية النمسة العليا التي لا تزال نصب عينها ، ولذلك فان بروسية بقيت خصمها الذي لا يمكن دفعه ، فاذا ارادت ان تبسط سلطانها في المانية وجدت بروسية حائلا في طريقها ، واذا ارادت ان تمتد الى تركية كانت بروسية تهددها من ورائها ، فنجاح خطتها السياسية يستدعي القضاء على بروسية او على الاقل تجزئتها ، ولم تكن المودة بين هذين العدوين الارباء لا بقاء له ، حتى ان رجال السياسة في النمسة كانوا يتوقعون زوال احدى الدولتين بحيث تصبح احدها تابعة للآخرى حتى يقوم بينهما اتحاد صادق واتفاق مشترك ، يقوم مقام تضارب المصالح التي لا ينفك بعضها يعترض سبيل بعض .

وكان يوسف الثاني يحاول التوسع في المانية ، ويفضل لاستيلاء على بافاريا وعلى استعادة سلزنية ، وبطمع في ايطالية ، ويرى ذلك حقاً اكثر مما يراه سهلاً ، وكانت مطامعه كثيرة في بلاد الترك ، وكان يخشى ان يصلح امر الجمهورية البولونية وان تصبح خطراً على النمسة ، ويريد ان تبقى فيها الامور مضطربة وان تظل مهياة للتقاسم حين الحاجة ، مع تعهد الفوضى فيها ، والاحتفاظ بالوسائل التي تعين على امتلاك بعض ولاياتها .

وكان من شأن هذه الخطط اقضاء النمسة عن فرسة ، ولكن نجاحها يستلزم بقاء فرسة محايده لتستعين بها في دفع الدول الاخرى وتأمين جانبها ، وكما كان في فرسة اعداء لمخالفة النمسة كذلك كان في النمسة اعداء لمخالفة فرسة ، والخطوة العمياء التي تبعتها فرسة في اثناء حرب السنوات السبع كان يرجى ان تعفى اثر العداوة التاريخية الموروثة ، وكانت ماري تيرز تعلن انها كانت متعلقة بالتحالف ، ولكنها كانت تخفي وراء هذا

العطف احتقاراً مزوجاً بقلة الصبر . وكذلك كان يوسف الثاني واخوه ليوباد ، يحفل رسائلهما بالشكوى من فرنسا ومن رايائها ومياها الى الاذى ، ومن خطتها القبيحة المتناقضة التي لا تجدر الا بها ، وهي لا تستخدم عنوان التحالف والقربي والمودة الا للخداع عن قرب ، والاساءة بدون ان تحشى مغبة ، اما النمسة فهي بضد ذلك صادقة وفيه واثقة مخلصه ، على حين ان فرنسا لا تقفاً عكسهما وتسوق الضرر اليها ، ولذلك فهما يضران الشر لهذه الحليفة . وكان يقول يوسف الثاني انه لم يحن الوقت الذي يحسن فيه اظهار الحقد على فرنسا ، اذ لا يجوز ان ينسى ذلك ، ولا ان يغفل ما يقتضيه . ولكن بقدر ما يحتاج اليها يجب الصبر على اخلاقها ، واغماض العين عن مكنون امرها .

كذلك كان استعداد النمسة نحو فرنسا ، فكان رجالها يهيئون خطط الاعتداء على الترك ويؤملون ان يصلوا الى جميع غاياتهم في الشرق اذا اتفقوا مع الروس ، بعد ان فقدت فرنسا شأنها وعزمها ونشاطها ، وجاءت الثورة فزادت في ارتباك امورها . ولذلك فاتهم كانوا يراقبون كل حركة من حركات الضعف في هذه الدولة ، ولا يكتفون ابتهاجهم بقيام الفتن فيها ، معتقدين ان روح الغرور والمكيدة لا تغلب فيها الا اذا عجزت وسائلها عن تنفيذ خططها وتحقيق اطاعتها . واستمرت سياسة النمسة على هذا المنوال مضطربة معقدة في ظاهر امرها ، ولكنها من حيث الاساس منسجمة كل الانسجام مع تقاليدها .

ولما كانت الثورة الفرنسية تشل المملكة من غير ان تقضي عليها ، ولم تهدد اوربة بالدعوة التي يؤيدها السيف نظرت اليها النمسة بتساهل ، ولكنها عندما انقلبت الى فوضى ، واغارت على الدول المجاورة ، وظهرت انها خطر على اوربة قاتلتها النمسة قتالاً لا هوادة فيه ، ولم تكن النمسة تريد بحال من الاحوال ان تقوم في فرنسا حكومة قوية ، بل ان تبقى محدودة ضعيفة واهنة ، اذ هي تعمل على احياء العرش وتسعى لتجزئة المملكة ، وفي الوقت الذي كانت تظهر فيه مؤيدة لقضية ملك فرنسا كانت تهتم باسترداد الولايات التي اضطرت الى التنازل عنها لفرنسا ، وهي الاراس واللورين ، فلم تر في هذه الازمة الكبرى الا فرصة لتحقيق اطاعتها وتنفيذ خططها وتوسيع حدودها .

ولكن ظفر الفرنسيين افسد عليها ما رسمته من الخطط ، فلم تجد بداً من الاتجاه الى سياسة التفاهم ، فعوضت خسائرها من بولونية التي لم تهاجها ، ومن البندقية التي لم تبد حراكا ، ومن الامراء الاكليروس في المانية الذين كان عليها ان تحميمهم فاضاعت ما كانت تدعيه من سمعة الشرف التي كان اولي لها ان تستبقها ، وتأمرت مع الذين قلموا اربعة رؤساء على عقب وقضوا على العهد القديم ، وبعد ان حاولت ان تعبت بالجمع عبث بها الجميع ، وقضت عليها الاساليب التي كانت تتخذها ولا تقف عند حد فيها ، ولما عجزت عن التغلب على فرنسا حلفتها ليسهل عليها الغدر بها ، ثم بذلت للغالب الذي توجهه الثورة احدى اميراتها لتخدعه وتذر الرماذي عينه . وبعد ان غلبت في المعارك استطاعت بقوة الصبر والمرونة والمطاولة والمصانة ان تهني نفسها لتكون حكماً في اوربة الحديثة في اعظم ازمة عرفتها وخرجت منها اعظم قوة واعلى قدراً ، فما صدق تقدير خصوصها في اول القرن الثاني عشر الذين كانوا يقولون انه ينقصها دائماً جيش وفكر ، اذ كانت تجد ما تحتاج اليه من جيش وفكر ، وكانت النمسة تشكو من قلة الرجال الذين يفكرون والرجال الذين يعملون ، او الذين تنطوي ضلوعهم على حب شديد لخير الوطن ، ولم يكن العمال يبدون اي حرص على حسن سير امور الدولة ، ولا اي ارتباط باعمالها ، ولا يشتغلون الا بقدر ما يحشون على اجورهم . وكان البرنس كونتز الذي بلغ ٧٨ عاماً في سنة الثورة ، والذي ينتمي الى عصر منقض ينظر في اعمال الدولة الى جانب الامبراطور ، ولم يكن افضل منه في تمثيل ذلك العصر القاني ، شديد الغرور بنفسه وبعبريته وبعبدائه ، يتظاهر بمظهر ذي الرأي البعيد والمقصد الرفيع ، ويمتاز باستنتاج القواعد الجوفاء والاساليب السفسطائية ، ويبيدي شيئاً من تزيين الامور معتمداً على العقل الصحيح ، ويجمع بين عجرفة الحاشية وادعاء المتنطعين ، ولم يكن ذلك بغريب في رجال السياسة ، وقد كان في جوهره شاكاً مراتبا الا في تقدير نفسه ، مهيئاً لكل الحيل السياسية ، مغروراً ، خفيف الحلم ، محدود الرأي ، منهوك القوة ، عاجزاً عن ادراك العهد الجديد وفهم دخائله ، لا يفهم الامر الا عن طريق المنطق ، ولا يتكلم الا بالتفصيل والاسهاب ، وقد اصبحت فيه هذه العادة ممثلة على تجاوز السن ، وافسدت الثورة عليه اساليبه البالية ، وهو لم يعرف الا

فرنسة التي يحكمها لويس الخامس عشر ، فظن انه امام بولونية ثانية وعمل بما يقتضيه ذلك ، وقد جر هذا الخطأ الى عواقب سيئة ، ولم يكن في تصرفه رجلا متفوقاً قادراً على ان تكون له آراء واضحة وارادة صحيحة وخطة متبعة ، فحرم بيت النمسة من النصحاء ولم يبق عنده الا امراؤه .

ولما مات يوسف الثاني كانت نفسه المضطربة الفلقة سائرة في سبيل القضاء على كل شيء ، ولم يكن له اولاد فقام بالامراخوه ليوبلد ، وكان المعيا حازماً فطنا دقيقاً قادراً على اصلاح الفاسد ، فبادرته المنية وتوارى في رمسه في الزمن الذي اصبحت الحاجة اشد ما تكون اليه ، مخلفاً ميراثه لابنه الفتى الناشيء ، الذي لم تسبق له تجربة ولا مزاوله الاعمال ، فمضت سنين على فرنسوا الثاني وتوالت محن كثيرة حتى استخلص صفته الغالبة وهي الصبر التي كانت اعظم مزية في الدولة .

واذا كان هذا الصبر كافياً لمداغة الاخطار الشديدة التي كانت النمسة بعرض منها ، واذا ساعدها كذلك على انتظار الايام المساعدة والظروف الملائمة التي انتزع منها مترنيخ اعظم الفوائد ببراعته ، فقد كانت هذه الدولة تسير معاكسة طبيعة الاشياء ، وكانت محرومة المادة التي تكون فيها عناصر البقاء ، غير ان ما جعلها تنقهر في اواخر العهد القديم هو الذي انقذهها في ازمة الثورة .

٢ — مترنيخ والسياسة الاوربية

في بدء القرن التاسع ملاء مترنيخ ساحة العالم كما ملاءها تليران ، وكان هذان السياسيان العظيمان في وقت متقارب ، اعداء احياناً واصدقاء احياناً . ويقال عن كل واحد منهما انه يدير سياسة عصره ، على ان بين الرجلين كثيراً من عوامل الاتفاق وعوامل الاختلاف ، وكلاهما كان عرضة للبغض والطمع والافتراء ، ولا يكتفي لتقدير هذين الرجلين معرفة ما في نواحيهما الخلقية من ضعف ، بل ينبغي ان ينظر الى مجموع ما قاما به ، اما تليران فقد وهب توقع الحوادث المقبلة وكشف اسرارها ، وهي موهبة خطيرة ، فالانسان لا يريد ان ينذر او يحذر ، وكانت عيناه تنظر ان دائماً الى الغد الذي يعمي عليه خطته . واما مترنيخ فقد طامعت كواكب

سعدته عندما تحول الزمان عن نابليون ، فاخذ ينفق في مخادعة الامبراطور كل ما اوتيته من دهاء وعبقريه ويستفيد من نفاق صبره وقلق نفسه ، وكان في اول امره يتظاهر بالحياد بينه وبين خصومه ليخفي استعداد بلاده للحرب ، حتى اذا وجد ان فرنسة نفدت قواها التي قناعه والتحق بالهلفاء . وقد خدم تليران جميع الاوضاع واليهود ، وكان يتنبأ عن موعد سقوطها قبل الجميع ، وينفذ برأى واضح سياسة قائمة على مباديء معينة وان كثر يتبع في الوصول الى غاياتها طرائق معوجة . وكان مترنيخ يصد ذلك منسجماً كل الانسجام في خططه واساليبه في مدة سبع واربعين سنة قضائها بين سفارة ووزارة . وقد اتفق بانهما كانا يهتمان بمصير اوربة ومستقبلها . ولكن لم يكن لتليران مثل شأن مترنيخ في فينة حتى ينصرف ذهنه الى التوازن العام الذي امتاز فيه مترنيخ على سواه من اقطاب السياسة ، مثل رشليو وكافور وبسمرك ، الذين كان هم كل واحد منهم خدمة مصالح بلاده والحرص عليها قبل كل شيء .

وقد افتتح مترنيخ عهده في السياسة ولم يبلغ الثلاثين ، فعين مندوباً لفرنسوا الثاني في درسد سنة ١٨٠١ . وكانت معاهدة لونفيل قد اعادت السلم الى اوربة . وما كاد الوزير المفوض الشاب يخوض غمار المعركة حتى برهن على ذكاء خارق وحس باهر في تقدير الامور واستطلاع خفايا المستقبل ، فادرك بتكهنه وصدق ظنه ان الامبراطورية الالمانية مهددة بالتحلل قريب وان الدولة العظيمة التي اسسها شرلمان ستذهب مثلاً في الغابرين ، وان العالم ستعصف به اضطرابات عنيفة تسلبه الهدوء والسكينة الى اجل بعيد . ولا شك ان الذي يتبدى عمله بمثل هذه النظرات الى المستقبل تدلل له العقبات وتمهد السبل وتفتح الابواب .

وكان يطمع مترنيخ بعد ان ذهب الى براين وزيراً مفوضاً ان يضم بروسية الى الاتفاق الموقود بين روسية والنمسة . ولكن معركة استراتز لم تبق مجالاً لتعبئة بروسية ، وغيرت معاهدة برسمبورغ تاريخ اوربة ووجهها . فدمرت الامبراطورية الالمانية وزعزعت سلطان النمسة ، فاستدعا فرنسوا الثاني والسكابة آخذة منه كل مأخذ بعد وقوع الكارثة ، وكلفه ان يذهب الى باريس ليقوم فيها بمهمة خطيرة :

مهمة الوقوف في وجه الغالب المنتصر الذي هو حكم العالم .

وما كاد يصل السفير الجديد الى العاصمة الفرنسية حتى اخذ يستهوي القلوب بظرفه ولباقة وحسن تقاطيعه وجمال سمته ، وكان في اثناء عمله السياسي يحاط اسكل شيء ، ويظهر انقباضاً واثارة ووقاراً ولا يبرح متمكناً من نفسه ومن لسانه ومن حركاته ، واذا تكلم فدائله المنطق ، وكان لديه على الدوام خطط ومناهج فلا يغلب على امره ، واذا جمعته المنتديات والجامع فانه يظهر عابثاً فكها ، مرسل نفسه على سجيته ، ومتحدثاً باحاديث كأنها قطع السحر ، شديد الولوع بالآداب والفنون ، شديد التهالك على النساء ، اما الرجال فكانوا معجبين به ، ويعده منافسوه متصنعاً مدعياً مغروراً .

وكان السفير الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة وثلاثين عاما يقلب حوله نظرات تنفذ الى بواطن الامور وتصيب كبد الحقائق ، فما لبث ان عرف مغامرات تلك الامبرطورية ومواطن الضعف في ذلك السلطان الضخم ، وقد وجه بداية ذي بدء جهوده الى نابليون لتعرف حقيقة هتك حجابيه ، فلم ذكؤه الباهر بسر القائد الكبير الذي بسط في العالم ملكه ورفع لواءه ، وبدون ان يخطف بصره ذلك النور الساطع في عظمته ، فقد ميز جميع النقائص التي ستصير الى القضاء عليه ، وتبين هذه الحقيقة ان انتصارات نابليون مهما كانت تبهر الانظار وتملاء الاسماع فانها لم تكن وقائع حاسمة لا قيام بعدها لعدوه ، فبعد ريفولي وبعد مرانغو وبعد اولم وبعد استرليتز لم ينته شيء ، وعلى القائد ان ينهض في الغد لخوض معركة جديدة ، ولذلك فانه عندما كانت تأتيه انباء الانتصارات لم تكن تغير شيئاً من ملامحه ، لانه قد استقر على النهج الذي يسير عليه ، وعين الخطة التي ينبغي ان تسير عليها بلاده المهيمنة ، فكان يوصى بالصبر والانتظار واحناء الرأس اذا اقتضى الامر ، ويستعد في السر لليوم العظيم الذي يكون قريباً او بعيداً ، والذي لا بد ان تنتهي فيه ايام نابليون ، وقد اكدت له رايه بعض محادثات مع تليران وفوشه ، كما ان الحوادث ما عثمت ان حققت برهانه .

٣ - احباط خطط نابليون

أخذ السياسي يفت في عضد الفاتح ، وكان ما صنعه بنارت في كمين بيون قد كشف القناع فجأة عما ينوي القيام به في اسبانية ، فكتب مترنيخ الى ملكه يقول : ان الكوارث التي يراد بها القضاء على عرش اسبانية هي في الحقيقة متجهة نحو انجاز السياسة المخادعة الهدامة المجرمة ، التي ما برج نابليون يتبعها منذ بدء عهده ، والتي شهدتها اربعة شهور المتفرج العاثر ... ومع ذلك فانه لم تنتهك المباديء بقدر ما انتهكت في الكمين الذي نصبه نابليون لرجل بائس من آل بوربون حتى ينزعه من ملجأه المقدس . ويمدحه بالرصاص في غابة فنسان . وانتهى السفير الى قوله : انه لا يمكن بعد الآن عقد سلم ثابت مع نابليون .

ثم لاحت لمترنيخ آفاق جديدة ، فكتب بعد ايام الى فينة : ان نابليون يريد القضاء علينا ، وهو يتحرى ذلك ويتعمد القيام به ، لان بقاءنا لا يتناسب من حيث المباديء ومن حيث اتساع الملك وما يرجوه من سلطة عالمية ، ولكن هل يحارب نابليون النمسة قبل اخضاعه اسبانية ؟ كلا فان هذا الخضوع سيكلفه عناء كبيرا ، وهو لم يتوقع ان نيران الثورة ستشتعل حتما في شبه الجزيرة كلها ، ولكن مقاومة اسبانية وشؤونها لا تعفينا من القتال في سبيل استقلالنا والدفاع عن انفسنا . فما كان من فرنسوا الاول ، هو فرنسوا الثاني قبل اجتماع اليرين سنة ١٨٠٦ ، ومن مستشاريه ، الا ان وقفوا عندما رسم لهم مترنيخ من التأهب واعداد العدة في السر ، ولكن نابليون لم يلبث ان اتصلت به انباء ذلك ، فوجه ذات يوم لسفير النمسة كلمات قارصة على مشهده ومسمع من الهيئة السياسية كلها وقال له : وانت ايها السفير ! ماذا يريد سيدك الامبراطور ؟ ايريدان ارجع ادراجي الى فينة ؟ فتلقى مترنيخ هذه الصدمة من غير ان يخرج عن طوره ، وقد قص هذه القصة فقال : كلما طال الحديث كان يأخذ شكل مظاهرة عامة ، وكان نابليون يرفع صوته شيئا فشيئا كما هي عادته عندما يريد ايقاع الرعب في قلب مخاطبه او التأثير في سامعيه ، ولكني لم اخفض صوتي ، وكنت انقض بالتهكم حججه التي يأتي بها ،

الى ان قطع الحديث فجأة ونكص على عاقبيه منصرفاً من غير ان يطوف على المجتمعين . وقد اثارت هذه الحادثة المخاوف ، وتدنّت اسعار البورصة في اليوم الثاني ، وظن ان الحرب قادمة على الابواب ، ولكن مترنيخ ما زال يعتقد ان ساعة الخطر لم تدن بعد ، وان نابليون كان يريد ارباب النمسة في الوقت الذي كان يشتد الخطر على جنوده في اسبانية ويضيق عليهم الحناق ، ثم تقابعت الانباء بالجلاء عن مدريد وغيرها ونزول والنغتن واضمحلال فيلقين من فيالق فرنسا ، فضاغف مترنيخ يقظته وسهره ، وحصل على مؤازرة تليران ومحالفته في السر ، وعرف منه ما كان من التقارب بين نابليون وبين اسكندر قيصر روسية ، وايقن ان هذا التقارب سيؤدي حتما الى حوادث جديدة مخيفة ، سيكون في مقدمتها محاربة النمسة .

وبعد ان بلغ نابليون ذروة المجد في معركة واغرام ، واسرع جيش النمسة في تقهقره نحو مورافية ، استدعى فرنسوا الاول مترنيخ وولاه وزارة الخارجية ، فتحمل وهو في السادسة والثلاثين من عمره اعظم تبعة وادعاها لخوف ومشقة ، لان حياة بلاده أصبحت عرضة للخطر ، وقد بلغ القنوط حده من مصير آل هابسبورغ ، وتحقق لنابليون ما اراد من سيادة اوربة واصبح بحالة يستطيع معها اذا اراد ان يجعل مصير النمسة كمصير روسية واسبانية ، غير انه في هذه الايام المظلمة بقي مترنيخ وحده لا يستولي عليه اليأس ، ولا يبرح يعتقد ان بلاده لم تخسر رهانها ، وانها لا بد ان تهض من عثارها ، وسما في شعوره عن عدوى اليائسين والقانطين ، وكان له بذلك اعظم الفخر .

ولم تكن آراء مترنيخ هذه مستمدة من نفس كبيرة تأبى ان تنحني امام سوء المنقلب ، لانها لا تستطيع الا ان تعتقد ان حرية الانسان التي تناضل القوى الخارجية سينتهي امرها بالظفر ، ولان العوامل الاخلاقية الخالدة لا بد من ان تغلب على الذين لا يكثرثون بها ، كما كان يقول في الساعات التي يبرر فيها تفاؤله ، ولكن يعتمد في عقيدته الراسخة على الاسباب الايجابية الراهنة التي يحصن بها الحقائق ، فيرى ببعد نظره ان صنع نابليون قريب الزوال ، وان بنيانه يوشك ان يتداعى وينهار ، وقد وصف ما كان يتردد في خاطره بقوله : ان نابليون بانقياده

الى رغبة الاستيلاء على ادرية تجاوز حدود الممكنات ، وليس لدي ادنى شك في ذلك ، واني ارى ان نابليون واعماله لا تنتجو من اضمحلال مفاجيء ، ولكن متى يكون ذلك وكيف يكون فهما امران مجهولان عندي ، غير ان وجداني قد رسم لي الطريق الذي ينبغي علي اتباعه حتى اعترض سير الحوادث ، والا احرم النمسة حظها من النهوض الذي تستمده من اعظم قوة : هي طبيعة الاشياء .

ولم يبق بعد ذلك لمترنيخ الا غاية واحدة وهي القضاء على نابليون ، فبذل في سبيل ذلك كل ما اوتي من حزم لا مثال له وصبر لا نفاد فيه ، وقدرة على انتهاز الفرص لا ينضب لها معين ، وكان أهم شيء لديه ان تصان النمسة من الزوال ، فلم يحجم عن توقيع معاهدة ١٨٠٩ التي كانت كارثة عظيمة ، ولكنه كان يريد قبل كل شيء ان يكتسب الزمن ويتحين الفرص ، وقد امكنته في اثناء ترقبه فرصة عجيبة غير منتظرة فاقتنصها عند سnochها ، وذلك ان نابليون طلق جوزفين واصبح يطمع ان يتزوج باميرة روسية ، فاحجم القيصر عن اهداء شقيقة ، ولكن فرنسوا الاول لم يتأخر في بذل بنته ، وتم الزواج في تسعة ايام ، ورغم الاستنكار العام الذي اثارته هذه الحادثة ، ورغم الذكري المؤلمة التي مابحت تؤذي آل هابسبورغ وتشجي خواطرهم من مصرع احدى اميراتهم : ماري انطوانت ، اذ سيجلس على عرش سيقته منه الى المقصلة اميرة اخرى من اميرات هذا البيت المالك ، ولكن مترنيخ لم يجد في هذه المصاهرة المستنكرة الا وسيلة ضرورية وموقته ، ورداءاً تحتمي وراءه النمسة لتسجن جمع قواها وتنتظر ساعة اخذ الثأر من العدو الالد .

ودعا نابليون مترنيخ الى مرافقة ماري لوز في انتقالها الى العاصمة الفرنسية حتى يكون مرشدا لها في خطواتها الاولى ، وحتى يؤكدا تفاهيم بين الامبراطوريتين ، وقد كتب مترنيخ الى مليكه يذكر له الحسنات التي نشأت عن هذه المصاهرة ، فانها غيرت وضع النمسة الذي كان باعثاً على القنوط ، وجعلها تتمتع بقسط من الراحة ، بعد ان اصابها ما اصابها من التضعضع في الداخل وفي الخارج ، لذلك

يتحتم على الحكومة ان تغتنم هذه الفرصة المواتية ، وتبذل قصارى جهدها في إعادة تنظيم قواها التي سقطت سقوطاً هائلاً في اثناء المصالحة الاخيرة وبعدها ، وان تعد هذه القوى لكل حادثة يمكن وقوعها ، ومن الخطأ الكبير ان يكون تقدير هذا المستقبل بحسب السنين الاولى التي مرت على امبرطور الفرنسيين ، فان زواجه من ارشيدوكية ضمانه للنمسة لا تعادلها ضمانه ، ومع ذلك فانه من الخطأ ان ينظر من هذه المصاهرة ان تؤثر على خطط نابليون كلها وان تحدث تبديلاً في آرائه جميعها ، ففي طبع نابليون هوى السيطرة على العالم ، وقد يدفع هذا الهوى ويحال دونه ، ولكن لا يستطيع استئصال جرثومته ، ولولا هذه المصاهرة لكانت النمسة قد اصابها الاضمحلال من الآن ، وفي الحق ايضاً ان يقال انه برغم هذه المصاهرة ، قد تنشأ امور تدعو الى تعبئة جميع قوانا حتى نقاوم الاستعباد ولا نقف مواقف الهوان .

ففي اثناء هذه المهمة الموثوقة التي قام بها مترنيخ الى جانب الامبراطورة الفتية ، كان يستفيد اعظم الفوائد من تتبعاته وملحوظاته ، وقد رأى ان الشعب الفرنسي يكنظ بالمفاخر ، ولم يبق له ما رجوه الا الراحة والسلام ، ووجد ايضاً ان امراء الجيش وعظماء الدولة ملوا المغامرات التي لا تنهي ، واصبحت اطاعهم تنحصر في التمتع بالحسنات التي ادر كوها والثروات التي نالوها ، وقد نبه تلييران الى بوادر الخلاف بين حليمي تلسيت ، وسيكون عملاً قريب احدهما عدو الآخر ، فكتب الى الامبراطور ان الحرب ستقشرب في الشمال سنة ١٩١٢ ، وقد فوجيء مترنيخ بانكسار نابليون وعودته ، ولكنه لم يدهش لهذه المفاجأة السعيدة ، وسرطان ما انتبه لها ، واحاط بنظرة واحدة في الموقف وفيما يجب ان يعمل ، وازفت ساعة النمسة التي تنفذ فيها اوربة من سلطة فرنسة وتصبح حكماً في السلم العام .

ولكن ماذا يمكن تحقيقه ؟ ليست الخطة صعبة ؟ وها ان نابليون لم يفقد قواه بل انه تغلب على الروس وعلى البروسيين في معركتين متتابتين ، فوضع مترنيخ خطة قائمة على سلسلة من الاعمال والاساليب التي تصل بالنمسة لتكون وسيطة بين

المتحاربين ، واقْتيد نابليون ببراعة متناهية في التضليل والابهام والوعود الخلابه الى مؤتمر براغ ، كانه شرارك قد نصب له ، وقد دبرت الامور بحذق وكياسة لا حد لهما ، واديرت بدهاء وعبقريه فكانت تبعئه سياسيه تفوق كل وصف .

وقد التقى مترنيخ وجهاً لوجه مع نابليون في درسد ، وقبل ان يصل اليه مرقي جماعات من كبار القواد والضباط ورجال الحاشية الذين اثقلت صدورهم الاوسمة البراقة والشارات المذهبه ، وعلت محيا كل واحد سحابة من الغناء والقلق والتعجب ، فتقدم اليه البرنس نوشاتل قائد الجيش الكبير وهمس في اذنه قائلاً : لا تنس ان اوربة قد كرهت الحرب وكذلك فرنسة فهي لا تريد الا السلم ، واستمر مترنيخ في خطواته لا يندس بينت شفة حتى فتحت له الابواب ودخل على نابليون ، وكانت بينهما هذه المقابلة التاريخية الخطيرة التي وصفها مترنيخ بقوله :

كان نابليون واقفاً في وسط غرفته .. فدلف الى متظاهراً بالهدوء وسأني عن صحة الامبرطور ، ثم لم يلبث ان انقبضت اسارير وجهه ووقف نجاهي وهو يقول : انكم تريدون الحرب وما هي عنكم ببيعد ، لقد انهكت الجيش البروسي وهزمت الروس ، وانتم تنتظرون يومكم ، وموعداً في فينة ، الا ان الرجال لا يهدون الى الرشد ، وعظات الماضي لا تنفعهم ، فقد أعدت الامبراطور فرنسوا ثلاث مرات الى عرشه ، ووعدته ان ابقى مسالماً له ما بقيت حياً ، وتزوجت ابنته ، وكنت اقول في نفسي اني اركب متن الضلال ، ولكن هذا ما هو كائن اليوم واني نادماً على ما صنعت ...

هذه المقدمة التي ادلى بها نابليون جعلتني اشعر بقوة موقعي ، وقد ادركت في هذه الساعة الحاسمة اني امثل اوربة بأسرها وماذا اقول ايضاً ؟ ان نابليون كان يصغر في عيني ، وقد اجبته : الحرب والسلم في يد جلاتكم ، ومصير اوربة ومستقبلها ومستقبلكم ايضاً كل ذلك رهين بما ترونه ، وانتم في هذا اليوم بوسعكم ان تمقدوا السلم ، اما غداً فقد يفوت الوقت . فقال لي فجأة : وماذا يراد مني ؟ ايراد

ان ادنس شرفي بالعار ؟ كلا ! هذا لا يكون ابداً ، انني اعرف سبيل الموت ، ولكن لا اتنازل عن شبر من الارض ، لقد ولد ملوككم على العرش ، فهم يغلبون عشرين مرة ثم يعودون الى عواصمهم ، اما انا فجندي باع ما باع !

ومضت المحادثة ثماني ساعات على هذه الطريقة المؤثرة ، وكان نابليون يحاول ان يتعرف موقف النمسة وحقيقة قواها ، وكان مترنيخ يحتج بما تقاسيه اوربة من آلام ، ولا يحجم عن الاستدلال بنفاد قوى الشعب الفرنسي . فتأثر نابليون من هذه الكلمات وقال له : انك لست جندياً ولا تعرف مايجول في خاطر الجندي ، اما انا فقد نشأت في الحروب ، ولا تهمني حياة مايمون من البشر ، وكان الاسى بالغاً منه مبلغه ، فرد عليه مترنيخ قائلاً : لماذا تفضي الى بين اربعة جدران بهذه التصريحات ؟ لنفتح الابواب ، ولندع كلماتك هذه تدوى في اقصى فرنسة وفي ادناها وحينئذ لاتكون القضية التي ادافع عنها خاسرة .

ثم خيم الظلام وكاد المتحادثان لايعرف احدهما وجه صاحبه ، ولكن لا يستطيع احد ان يدخل عليهما ويوقد لهما المصابيح ، فلما عاد الى نابليون هدوء نفسه وسكنت ثوائرجأشه ، خاطب مترنيخ بالطرف لهجته وهو يضع يده على الباب وقال له : اتعرف ماذا يقع ؟ انكم لن تحاربوا ! فاجابه الثاني بوقار وتمهل : لقد ولى امرك يا صاحب الجلالة ، وكنت اشعر بذلك قبل مجيئى الى هذا المكان ، اما الآن فقد ناكذته .

وبعد عشرين يوماً انعقد مؤتمر براغ ، وكان مندوبو النمسة يتكلمون بلهجة الأمر ويقفون موقف السيد ، وقد رفض نابليون الانذار الذي وجه اليه ، فاعلنت النمسة عليه الحرب وتوات قيادة الجيوش المتحالفة .

ومضى مترنيخ في خطة لايفكر الا في غاية الدولة وحقها ، ولا يعبأ حتى باميرة آل هبسبورغ التي زوجها من نابليون ، ولا بما لابنها من حقوق في العرش ، ورأى من حسن التدبير ان يفصل بينها وبينه فوصاها بالذهاب الى اكس لبنان ومنعها من

اللاحق بزوجها في جزيرة البه ، وارسل ملك رومة الى فينة ليعيم فرخ النسر تحت جناح النسر الاسود، ولما كان يعرف ما يعرف من نفس الارشيدوكا الامبرطورة فقد اسلمها الى تديرغ، غير مبال بالتهمة والظنة وتجاوز بذلك ، على ما قال احدهما وانيه ، حتى خطط مكيفلى واساليبه ، وهو في الحقيقة لم يكن يبالي ما يفعل في سبيل مآربه ، ولم يكن يتردد في عنف او قسوة ولا بما يدعو الى خجل او ريبة .

٤ — اوربة في عهد اسكندر ومترنيخ

القيصر اسكندر والرئيس واسن

كانت السياسة الاوربية بعد انقضاء عهد نابليون متأثرة بسياسة رجلين: اسكندر الاول قيصر روسية ومترنيخ مستشار النمسة ، وكانت تتوقف على اتفاقهما واختلافهما سياسة الدول المعظمة في اوربة، وقد بحث في ذلك العهد بمشكلات اربع: فرنسة في نظامها الداخلي ومظهرها الخارجي ، التدخل في الشؤون الايطالية والاسبانية ، المسألة الشرقية ، المستعمرات الاسبانية . واتفقت الدول على عقد مؤتمرات موقوتة للمحافظة على النظام الذي وضع ، والبحث في الأمور التي تهم الشعوب الاوربية وتضمن راحتها ورخاؤها ودوام السلام فيها، ولما لم يكن قد حدد وقت معين لهذه المؤتمرات ، فقد كان مترنيخ يلجأ الى اساليبه حتى يحرز موافقة الدول المتحالفة على الاجتماع .

غير ان الاتفاق بين الدول العظمى لم يكن الا ظاهراً ، فقد كان يخفى نضالا وتنافساً بين اسكندر ومترنيخ اللذين كانا يرجع اليهما ويقرران سياسة اوربة على هوائهما ، وشتان بين الرجلين في الاخلاق والغاية والسياسة والمنهاج ، فقد كان القيصر كريم المهزة ، لين القلب ، شديد التعلق بواجباته كرئيس دولة ، متسع الذرع للمذاهب الانسانية ، وقد ساعد هو وانكلتره على اقامة نظام دستوري في فرنسة وفي سويسرة ، وسن كذلك نظاماً دستورياً لبولونية ، وكان منشأه حراً وهو يميل الى الحكم الدستوري الذي تغلب فيه سلطة الملك ، اما مترنيخ فقد كان

سياسياً من اصحاب الشكوك وقلة التخرج ، لا يعني الا بالسياسة القائمة على المصالح ولا تعرف الانسانية سبيلاً الى قلبه ، وهويري ان مصلحة سيده في المحافظة على ما هو كائن ، وان اساس السياسة الاوربية في المحافظة على الراحة والدعة ، وكان عدوا لجميع الثورات متمسكا باساليب الحكم الارستقراطي المطلق ، وكل دستور في نظره سلاح في يد الثائرين ، وكان جوهر الخلاف بين القيصر والمستشار قائماً على الطريقة التي يؤسس فيها نظام دول اوربة الداخلي ، فكان الاول يؤيد الحكم الدستوري ويامر ممثليه بمؤازرته والانتصار له ، على حين ان الثاني كان يدعو الى ضد ذلك ويتهم سياسة القيصر في الامبرطورية العثمانية ويسميتها سياسة فتح واستيلاء ، وعلى كل حال فان التنافس بين الرجلين افاد الاحرار في اوربة اللذين كانوا يناوئون الحكم الاستبدادي المطلق .

وفي اثناء مؤتمر اكس لاشابل كان اسكندر قد بدأ في التحول عن سياسته لان اتساع نطاق الفتن قد اخافه ، فاعتنم الفرصة مترنيخ واستفاد من اتجاه القيصر الجديد ومن مخاوفه ، لمقاومة العناصر الثائرة والتعاون لقمع كل اخلال بالامن العام والنظام ، وقد اغتبط بهذا الفشل الذي اصاب اسكندر وحاشيته ، بعد ان كانوا يحتفلون باسموه فكرة الزمان ويحدثون باقوالهم آمالا عظيمة عند المتطرفين واصحاب الميول الحديثة من كل فئة ، واصبح مترنيخ ينشط انصار الامن والنظام ويخيف انصار الفتن والقلقل وقد قال ان اسعد ما دركه من النتائج هو اطمئنانه الى انه لن يحدث تغير بعد الآن وهذا اكبر انتصار للمحافظين الذين لم يستجوبوا الآراء الجديدة ولم يثقوا بها .

اما الحكومة البريطانية فقد رفضت ان تأخذ على عاتقها عهداً مطلقاً عاماً ، وعندما اقترح القيصر اسكندر عقد اتحاد اخوى بين الحلفاء المحافظة على كل الحقوق ، اجاب كاسنلرغ مندوب انكلتة ان المعاهدات لا يمكن ان تقوم الا على اساس الواجبات السياسية المعتادة التي تلزم دولة امام الثانية ، ولم تكن معاهدات سنة ١٨١٥ ترمي الاغايات آنية حاضرة ، هي موضوع تلك المعاهدات ، وليس بالمستطاع قبول تدخل دول في شؤون اخرى ، لاجل مقاومة تغيير شرعي او

غير شرعي ، اذ لا تستطيع ان تكون دولة اجنبية حكما في امور دولة غيرها منها كان شأنها ، وقد ذهب الحلفاء مدى بعيداً باخذهم على عاتقهم مراقبة السلم في اوروبا والمحافظة عليه وعلى تنفيذ المعاهدات ، فاذا كان هذا كتحالف ضمني ، فانه يخرج منه اجبار كل دولة على تأييد الاخرى في نظام التوارث الملوك وفي اوضاع الحكم والسلطة الداخلية ، وصيانتها من اعمال العنف والاضطراب ، وهذا ما يفرض ان هنالك قوة عامة تستطيع ان تكره جميع الشعوب والملوك على اتباع نظام عادل في الداخل ، ولا شيء ابعد من الاخلاق كالاتجاه الى القوة للمحافظة على حكم قائم بدون اكترات بالطريقة التي يمكن سلوكها واساءة العمل فيها . فسلكت بريطانيا بذلك سياسة عدم التدخل وتابعتها فرنسة به ، وقادت النمسة سياسة التدخل وشاركتها فيها روسية وبروسية ، وبقي التحالف رسميا بين الدول الخمس ، غير انه بدأ يتمزق في معالجة قضيتين لم تحل منذ سنة ١٨١٥ . ثورة المستعمرات الاسبانية والمسألة الشرقية .

ولكن تغير الاشخاص سبب تغير السياسة ، فقد انتحر وزير انكلترة الاول كاستلرغ ، وحل محله كاننغ الذي كان وزيراً للامور الخارجية فاعلن سنة ١٨٢٣ ان التحالف كان اتحاداً لتحري جزء كبير من تسلط فرنسة العسكري ، ولم يكن في حين من الاحيان اتحاداً لحكومات العالم ، وتديبراً لشؤونها الداخلية ، وقياما على امور الدول الصغرى ، وانكر كاننغ ايضا نظام الامن الاوربي وسياسة التدخل في اسبانية ، وقال : ان انكلترة تلح في تأييد ما تريد الشعوب ان تقرره من الوضع الذي تختاره ، ولم يكتف برفض مبدأ عدم التدخل ولكنه طالب بحق المنع للتدخل السياسي في شؤون دول اخرى ، واستمر على معارضة الحلفاء ومقاومة سياسة مترنيخ .

وقد نظمت المستعمرات الاسبانية الثائرة امورها واستت اوضاعها ، في الوقت الذي كان شاتوبريان وزير خارجية فرنسة يقترح مبدأ التدخل في هذه المستعمرات ومؤازرة ملك اسبانية في اخضاعها ، وهذا مغاير للسياسة الاولى التي كانت

فرنسة تشايح بها الخطة الانكليزية ، فالق حينئذ كاننغ خطبة عظيمة وابلغ الدوك دوبولينيك سفير فرنسة ان كل تدخل لاحياء السلطة الاسبانية في امريكة تعتبره انكلترة سبب حرب ، اما الولايات المتحدة فقد اعترفت بالمستعمرات الاسبانية وقررت مبدأ موترو في صيانة امريكة ومقاومة التدخل في امورها .

ثم كانت المسألة اشرقية واعترف كاننغ بحق المحارب لليونان ، وقال : ان هذا الحق لم يكن مبدءاً ولكن امراً وقماً ، وقد تردد القيصر اسكندر في معاضدة اليونان ، ولكن خلفه نقولا حارب الاتراك في سبيلهم ، ثم انتقلت قيادة الدول الاوربية الى انكلترة وفرنسة ، واخذت النمسة يتضائل امرها في قضايا السياسة الاوربية ، وطوي نظام مترشيخ عهده ، كما زالت احلام اسكندر قيصر الروس ، وجر الزمان ذبول العفاء على خيالاته .

وكانت هذه الاحلام والخيالات شبيهة باحلام الرئيس واسن وخيالاته في اعادة تنظيم الجماعة الدولية ، وانشاء عصبة الامم ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وميثاق العصبة ، والمواد الاربعة عشر ، ولكن المبادئ طالما غلبت على امرها واذيلت منها الحقائق السياسية والمعاملات الدولية .

وقد اتفق القيصر والرئيس واسن في ان كليهما لم يعد نفسه محارباً في جملة المتحاربين ، ولكن حكماً بين الفريقين ، حتى ان المفاوضين الالمان سنة ١٩١٥ - ١٩١٩ كانوا يلجأون الى الرئيس واسن والى مبادئه ، كما ان المفاوضين الفرنسيين سنة ١٨١٤ كانوا يرجون في بادئ الامر معونة الامبرطور اسكندر وسخائه ، وفي هذا التاريخ وذاك كان امر تنظيم اوروبا وانشائها يحتاج الى مثل اعلى والى عوامل معنوية ، وفي مؤتمر فينة كان يدافع عن حقوق الملوك وفي مؤتمر فرساي كان يدافع عن حقوق الشعوب ، وفي مؤتمر فينة كان يراد انشاء نظام دولي للتعاون وهو تأمين السلم والمحافظة عليه وتحريم النخاسة وتنظيم الملائق الدولية والمواصلات والتجارة ، وفي مؤتمر فرساي وفي عصبة الامم كان العمل لهذه الغايات اوسع نطاقاً ، وقد استمر اسكندر الاول في مدة اربع او خمس سنين

يعمل على تحقيق خطته العظمى في الاتفاق بين الدول وفي تحديد السلاح ، ولكنه بعد ذلك اصابه السأم والضجر وذهب في سبيله .

ومهما كانت الفوارق من حيث الاساس ومن حيث النشأة ومن حيث الزمن بين اسكندر الاول وبين الرئيس واسن فهناك تشابه عظيم في موقفها وفي ميولها وفي خلاقها ، وكما تخلى القيصر عن برنامجه ، فان المواد الاربعية عشرة التي ادخلت في المعاهدة حوات الى نصوص اصبح الرئيس نفسه يجهلها ، وقد كان في مكانه النسائي يدعو الى مبادئ علوية ، فلما وصل الى باريس وخاض بنفسه غمار المفاوضات ، انحدر عن مستواه الرفيع واصبح يناقش مخاطبيه المجيزين بالاسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، واذا كان قد سلم باكثر برنامجه وتنازل عنه ، فذلك لان همه الاكبر في انقاذ مابقي وهو انشاء عصبة الامم ، ويمكن المضي في انتشيمه الى ابعد من ذلك ، فكلاهما يستمد حكمه من العناية ، احدهما بنعمة الله والاخر باسم الدستور ، وكلاهما يعتقد بامكان اصلاح النوع الانساني وينطوى على نفس تقية وتقدير اعظم المسؤولية ، وكلاهما يرى ان افضل طريقة للمحافظة على السلام توحيد الدول في عصبة واحدة ، وكلاهما استقبل بحماسة لاحدما ، ولكن مالبث ان عارضه حلفاؤه وتنكرت له بلاده ، وسفقه سائر الناس ، وقد انكرت الولايات المتحدة الرئيس واسن ولكن اسكندر قد انكر نفسه وحياته بسبب جرأة متناهية وحب شديد للعدل والحرية وثقة بالرجال مفرطة .

٥ — الحاكم باصره في النمسة

بعد ان انقضى امر نابليون وعقد الصلح في باريس واجتمع مؤتمر فينة ، اخذ الامر في النمسة يرجع كله الى مترنيخ ، ولم يبق الا برطور الامپاطر الملك وعناوينه ، وقد انتهج المستشار السياسي خطة عامة ، تابعها في مدة ثلاث وثلاثين سنة بجهد وحذق ، وهذه الخطة تختصر بصيغة سهلة : اقامة السلم الخارجي بين الشعوب على اساس توازن الدول واتحاد العروش ، واقامة السلم الداخلي على اساس تعاون القوى المحافظة وتضامن الحكومات المشروعة .

اما من الناحية الخارجية فقد كان النظام حكيماً من حيث النظر ومجدياً من حيث العمل ، واما من الناحية الداخلية فلم يكن هذا النظام الا خيالاً موهوماً ورأياً سفسطائياً قد انتهى بفشل مريع ، وذلك لان حياة الشعوب لا يمكن دوامها على الخضوع والصمت والسكوت ولا استطاع القضاء على الافكار الحرة بوسائل العنف والقوة ، والتبدل هو النظام العام للطبيعة ، والانسانية لا تبقى الا على التحول المستمر ، ولكن مترنيخ رغم ذلكائه المتوقد لم يدرك هذه الحقيقة ، ولم يكن يفكر بالطريقة واحدة لمعالجة الاحداث وهي العناية الشديداً بقمع الغيف ، وكان يحب ان يردد هذه الكلمة : اني صخرة النظام ، وكان بعد نظر مترنيخ يكدره في الغاب عيب كبير وهو الغرور الذي كان يزداد كلما بلغ من الكبر عتياً ، وكان شديداً لالعجاب بنفسه حتى ليظن انه معصوم من الخطأ ، بل يظن ان الخطأ ابعد من ان يدنو من خاطره ، ويحدث رسالة قدسية انزلت عليه ، على حين كانت السحب تجتمع في الآفاق ، والبروق تلعب في السماء ، والعاصفة تمب هذه المرة ايضاً من فريسة ، ولكن مترنيخ الذي زادت حوله الاطماع والاهواء والشهوات لا يبعد للمقاومة عدتها ، ويعتقد ان النمسة الامبراطورية التي يورك حولها ستنجو من القلاقل التي تقع في جميع البلاد ، ولم يكن يكثرث للديمقراطية المنتصرة لان شعور الرجعة مستول عليه ، وكان مع ذلك يتهاك على المال فيسرف ويتلف ، وقد كلف بلاده نفقات عظيمة في اعماله السياسية ، واقصاها عن الامم في تمهيه وجبروته .

وبينما كان يتردد بلهجة واضحة آراءه في فلسفة السياسة ، حدثت ثورة فينة سنة ١٨٤٨ وقضت في ساعتين على حكمه ، فاعلن انسيحابه قائلاً انه قضى عمره وهو يخدم المملكة ، فاذا ظن بانه اصبح مهدداً لها اعتزل من تلقاء نفسه ، لانه لا يحب ان تسفك الدماء في سبيله ، وولى هارباً متنكراً ومعه زوجته ، لا يجد من يعطف عليه ولا من يسديه معونة ، يقضى ظلام ليله ويباض نهاره ، كانه عبد آبق من سوء ما فعلت يده ، وكان يحى في حلم خفيف ، وقد شاءت الاقدار ان لا يجد ماوى يلوذ به الا البلاد التي اصابها وباء الحرية : بلاد كانغ وبلمرستن التي كان يتوقع

لها الدمار ، والتي برهنت على ان لديها من القوى والبناييع والروح العامة ما يحميها من انقلابات في ذلك المحيط الاوربي الهائج المضطرب ، وكانت السنين التي قضاها بعد عظم جاهه واتساع سلطانه وبعد اثره شديدة الايلام له ، وكانوا يلومونه في البلاد التي لاذ بها على استسلامه للقيصر اسكندر في سياسته الشرقية لقاء ما كان يبدل له من المال ، وكانوا يرون انه لم يلحق الاعداء مجتمعون ضرراً بالنمسة بقدر ما الحق بها مترنيخ وحده ، وانه قاد النمسة الى اسوأ مصير بسبب اسرافاته وانفاق خزينة بلاده في سبيل تأييد الحكم المطلق ، وقد طالب النواب ان يحقق في الاموال التي يقال انه اخذها ، واستمر التحريض عليه حتى بعد جلوس فرنسوا يوسف على العرش ، وكان الناس يرون انه مسؤول عن الخلافات التي قامت في شعوب النمسة والقلاقل التي نشأت فيها ، ويعدون حكمه الاستبدادي قد ولد الريبة والنفرة ، وان يده الحديدية كانت تضطهد كل حياة قومية او ادارية ، وان سياسته التفريق التي سار عليها اثارت احقاد الشعوب على الاسان انفسهم الذين كانوا كذلك مضطهدين .

غير ان النفرة العامة اخذت تخف وطأتها ، وقد شهد سكان فينة من بوادر العهد الاستبدادي الجديد ، ماجعلهم يرون العهد الاستبدادي انقديم اقل شدة وعنفا ، وبعد ان قضى مترنيخ ثلاث سنين ونصفا في منفاه عاد الى قصره ، ولكن كل شيء في اوربة كان قد تغير ، ومات سنة ١٨٥٩ وهو في السابعة والثمانين من عمره ، ولوانه عاش سبع سنين اخري لشهد سقوط النمسة في سادوا وهبوط نجم آل هبسبورغ ، وعلو شأن روسية وتعاظم خطر آل هوهنزولرن .

٦ - اوصاف مترنيخ والاراء فيه

ظهر مستشار النمسة وعلا شأنه في ايام القلاقل والاضطرابات ، فبلغ في قيادته وحزمه غاية بعيدة ، واستثار الاعجاب بحسن رأيه وصدق حدسه وقدرته على دفع الكوارث ، ودان فرنسة وحماتها ، وكبح جماح روسية الشديدة الطموح

لبسط سلطاتها بغية الأحنفاظ بالتوازن والسلام في اوروبا ، و اذا كان قد اصاب شخصه ما اصاب من الكسوف فقد تحسن الرأي فيه وعاد المادحون الى ذكره ، وكثير من رجال السياسة يعمرون بهذه الحن ، حتى ان بسمر ك العظيم لم يسلم من ذلك بسبب الاتجاهات الحزبية والاجتهادات السياسية المتغلبة في اليمين وفي الشمال .

وقد تساءل الكثيرون اذا لم يكن مترنيخ رجلاً سياسياً اكثر من ان يكون رجل دولة ، فقد كان من ابرع اهل زمانه في السياسة وادهاهم في الشؤون الدولية ولكن كانت تنقصه الصفات التي يتكون منها رجل الدولة ، وهي الجرأة والعزيمة والجلد والقوة وتوقع الامور وعدم الاكتفاء بالمنافع الآنية ، بل كل ما هو فكرة مبدعة وبنيان صحيح ، وقد كان مترنيخ نفسه يميز بين رجل الدولة وبين رجل السياسة الذي لم يمنح بعد النظر ومعرفة ما يمكنه المستقبل . وكان يوصف بأنه يصنع الحق باطلاً والباطل حقاً على هواه ، وانه يبدأ بالكذب على الناس ثم يكذب على نفسه ، وكان نابليون يقول عنه ان الميسودو مترنيخ سائر في طريقه ليصبح رجل دولة لانه يحسن الكذب من الآن ، وكان يقول وهو يقصده : الناس جميعاً يكذبون في بعض الاحيان ، ولكن الكذب دائماً هو زيادة وافراط ، وكان تليران يشبهه بالكردنال مزران ويقول كان الكردنال يخدع دائماً ولا يكذب ابداً ، واما مترنيخ فانه يكذب دائماً ولا يخدع ابداً .

وكان مترنيخ يتناقض في اقواله وفي اعماله فيقول عن نفسه : اني ارى خطر اليوم اعظم من خطر الغد ، فيجب ان نفتكر بمعالجته ، اما المستقبل فالزمان يكفيننا امره ، ويقول ايضا : ان اليوم الذي يمر لاشأن له عندي الا باعتباره وقفة الغد الذي اناضل دائماً في سبيله ، ولا اعمل الا له ، اذ لا يهمني سوى دفع الشرور المقبلة والقتال المهددة ، وكان كذلك يظهر احياناً شديد الاعجاب بتمثيل دور السيد المسيطر في الساعة التي هو فيها ، و احياناً دور رجل الدولة الذي يتوقع الحوادث ويحسب لكل شيء حسابه ويحاذر ما يمكن ان تحمله وقائع الايام ، وكما كان يتناقض في اقواله وفي اعماله ، فقد كانت اقواله كثيراً ما تخالف اعماله حتى مزج بعض

المؤرخين بين هذه وتلك ، واراد ان يستخرج من النتائج ما لا يتفق وما شاهد معاصروه الذين ساد عندهم الرأي بانه لم يكن كبيراً الا في الدسيمة والحيلة والخديعة ، فاذا كان من يدعى انه سياسي بعيد الرأي لا يذعن لغير المنطق والعقل فانه يجد من يرد عليه بانه لم يكن يذعن مطلقاً للعبادي الفلسفية ولم يكن همه الاحكام الدولة التي وكل اليه تدبيرها لاجسب الرأي والعقل ، بل بحسب المقتضيات والضرورات ، حتى ان قرينة ولي العهد حكمت عليه حكماً عنيفاً بقولها انه مسؤول عن جميع المصائب ، لأنه شديد الغضب ، قليل التفكير ، عاجز عن النظر الى الاور اذا استمضى قيادها نظرة صائبة .

على ان الذين يريدون ان يجدوا له صفات ممتازة وآراءً بعيدة كرجل دولة لا تدل على صحة نظرهم شواهد الكارثة التي نزلت به في اواخر ايامه ، وهم برغم كل ذلك يعقدون على رأسه عصائب النصر ، بسبب ذلك النضال الذي قاده في حرب نابليون وكان نفسه وروحه حتى تغلب عليه وانقذ اوروبا منه ، وقد كثر المعجبون بخطته الباهرة وبراعته السياسة التي قادت الى الظفر في قتال الامبرطور ، ولكن الذين تحروا اوراق وزارة الخارجية في النمسة بعد مضي السنين الطويلة لم يجدوا انه كانت هناك خطة مدبرة محكمة ، فان النمسة كانت كلما وقعت في مشكلة او حدثت حادثة تجهد بالخروج منها بقدر ما تستطيع ، وكان مترنيخ الذي استفاد من نجاحه السياسي الاول القائم على فن حسن الانتظار والاعتماد على طبيعة الأشياء ، يظن انه يستفيد من هذه القوة السحرية في جميع المواقف ، وقد بق متمسكاً بهذه الخطة التي هي خطه كل رجل محافظ ، ولكن لم يفكر بالجزء الثاني الذي يعين الحظ وهو العمل والانشاء .

وقد اديل مترنيخ من نابليون وكان يعده العنصر الهدام ، والبون شاسع بين ما خلفه كل واحد من مكانة في التاريخ ، فقد خلد الامبرطور آثاراً قيمة ليس لفرنسة وحدها ولكن للعالم بأسره ، فوضع خاتمه على الاجيال المقبلة وسيطر على حياتها السياسية وآرائها العسكرية ومبادئها الاجتماعية وقواعدها الشرعية ،

وهو لم ينبج من الضعف الانساني فارتكب خطيئات سياسية كبرى ، ومع ذلك فانه سيبقى في ذكريات الرجال الى الابد ، العبقريّة الخالدة المضيفة ، ومثال الاقدام والعمل والجرأة ، وهو كالنسر الذي اتخذ شعاراً له يخلق في اجواز الفضاء ، وينشر اجنحته بين الارض والسماء ، اما مترنيخ فانه لم يستفد شيئاً من الانقلاب العظيم الذي حدث سنة ١٨٧٩ ولم ينس شيئاً ، ولم يحفظ الا الخوف الذي احدثته الثورة في نفوس ارباب التيجان ، فاخذ يقاتلهم على هواه ، وذلك بضد ما كانت تشعر به القلوب الكبيرة مثل غوته الذي كان يحض على الانتفاع بدروس الثورة وعبرها ، وينصح الملوك والامراء بان لا يعارضوا روح الزمان ولا يقاوموا قوى الشعوب ، وعندما تثور الشعوب على حكوماتها فالحكومات السيئة هي المسؤولة ، والجيوش المعبأة والمراقبة الشديدة لا تستطيع ان تقف سداً دون تغلغل افكار الثورة ، والحكومة الصالحة فقط تستطيع ان تدافع عن نفسها وان تصدها .

والحرية التي كان يخشاها مترنيخ نشأت من الدول المستبدة بعد ان سقطت بعضها اثر بعض ، وما اعظم خطأه عندما كان يعتقد « ان ايطالية مستعبدة مجزقة ، وان المانية بدون اتحاد ولا حقوق ، وان بولونية قانطة من بعثها ونهوضها » هي حقائق ثابتة كفكرة الثورة التي لا ترجع بعد الى الحياة ، فان شعور القومية وحب الحرية لا ينفك احدهما عن الآخر ، والشعب الذي يشعر بكرامته يدافع عن نفسه اذا انتهكت حرمة ويقاوم بجميع قواه ، وقد دلنا التاريخ القديم ان وطنية اثينة لم تكن قائمة على القوى المحافظة ولكن على القوى المجددة المتحمسة ، والشعب الذي لا تكون لديه جرأة شعب انكلترة يظن رجاله وهما انهم يخدمون بلادهم في وقوفها بدون حراك .

وقد عرف جميع معاصري مترنيخ مواطن ضعفه ، فقد قال تميزو : ان الصفة التي تنقصه هي الجرأة ، واريده ان اقول الجرأة التي تظهر في الجد وفي الابتكار ، ولم يكن النضال محبباً اليه ولا محاميسه لانه كان يخشى الاخطار اكثر مما يهوى النجاح الذي قد ينتظره ، وكان كاننغ الوزير الانكليزي يصفه بانه اشد الناس ضعفاً واكثرهم كذباً ، وهو رجل لا شرف له والوزارة البريطانية واثقة انه سيستخدمها

في كل قضية تعالجها وايه ، اما مترنيخ فقد كان يرى ان خصمه كاننغ لايقام لوزن لانه لايعمل بحسب المبادئ المطلقة ولكن بحسب الاعتبارات الزائلة ، وكاننغ يعلق بصره بمدى الافق على حين انه يعيش على الارض ، ويعيش في الطبقات التي لا يألفها البشر ، على حين انه ينظر الى الامور ويقارنها بمستوى الناس . فالخياليون مؤلفو الروايات ينتصرون لكاننغ ، والناثرون من محبي الحقائق العملية ينتصرون له ، ذلك لامع كالبرق ولكنه سريع الزوال ، اما هو فانه لا يهر الا بصار ولكنه ثابت البنیان .

وقد وصف وللم فون هو مبلد الذي كان من اكبر ساسة عصره مترنيخ بقوله : ان الوزير الضعيف الذي لاينفك في خلاف مع نفسه هو الذي يري في اسوأ الاحوال عندما ينقلب عليه الزمان ، وليست له آراء شخصية ولكنه يتلقى كل شيء كانه شخصي ، ولايستطيع ان يفعل شيئاً في خصوم ضعاف ، كاذب ، غادر ، ينتهي امره الى نهاية تلبسه العار ، وقد استطاع ان يستولى مدة على القيصر اسكندر وان يقوده وهذا كل نجاحه ، ولم يكن تدبيره للأمر في المانية وايطالية الا بالأساليب الموقته ، فما استطاع ان يأتي بعمل خطير ، وفي بادىء الامر كان كل شيء هيناً عليه ، وكانت موارد النمسة طوع يديه ، وكان يظهر الخضوع لامبرطور فرنسوا ويعوده على ان يخضع الجميع له ، ولو كان رجلاً من ابناء الشعب وكان عليه ان يبلغ بجده لما ذهب بعيداً ، وقد سار على آثار فرنسوا وتقبل سياسته من بعده وان كان لم يبرح ينتقد اعماله .

وهذا ما وصفه به المؤرخ نو كوالد : من شر الامور انه كان ينظر الاشياء والرجال كما تراءى له من خلال نور كاذب ، وهو ككثير من الناس الذين يتفردون في جماعة يحسبون انهم يستطيعون حل المشكلات كما يستطيعون الكلام او الكتابة ، وقد كانت ثقته بنفسه وعبادته لشخصه وغروره وكبرياؤه مما يتجاوز كل حد ، وكان ضعف اخلاقه وعجزه عن الايداع يدفعانه عن المطامع الكبيرة والجهود العظيمة ، ولا يدعانه يهتم بالاالعلاج المسكنة من غير مهاجمة الداء السكامن ، ولم يكن رجل

دولة مثله قليل الرغبة بالاصلاح ، وقاعدة صناعة الحكم وتدير الامور عنده صناعة الدسائس والمكائد ، ولم يكن في معاصريه من لم يلعنه على مكره وخبثه وسوء اخلاقه وقلة احلاصه وكثرة تقلبه ، وقد دلت الوثائق والبيانات على ان هذا الوصف ينطبق عليه كل الانطباق .

ولم يكن يظن ان مترنيخ يعنى بهذا القدر من رؤية الحقائق ويعجز بهذا القدر عن معالجة الامور ، ولا ان يغيب عنه ما عرفه الكثيرون من بسطاء العقول في فينة من انه لا يمكن مغالبة طبائع الاشياء ، وقد اعترف بنفسه ان الزمان يضطرب بالرياح العاصفة وانه من المستحيل مقاومتها بعنف ، وقد قال : لقد وجدت في زمن مخيف ، واعلى جئت في عهد كان ينبغي ان اسبقه او ان اتأخر عنه ، واني لأشعر الآن بالعجز عن القيام بامر صالح ، ولو اني جئت من قبل لتمتعت بخيرات العالم ، او اني جئت من بعد لنشأت في الوضع القائم ، ولكنني جئت في هذا الوقت الذي اقضى حياتي فيه بحماية القواعد التي هي على وشك ان تتداعى وتتصدع .

ولكن لماذا كان مترنيخ يقضي عمره في حماية المباني الواهنة والاضاع المترهلة ؟ لم يكن اولى له ان يقوم بالاصلاح في الزمن المناسب وفي السنين المواتية ؟ فقد كان يشعر بالاعباء التي تحملها الدولة بسبب كثرة الانفاق في التسليح ، حتى انه افصى بذلك الى القيصر اسكندر ، ولكنه لم يذهب هذا المذهب الا لما رب في نفسه وغاية زائلة عنده .

وقد قيل ان هم مترنيخ البقاء في منصبه ، وقيل ان الحرص على المال وتناوله من كل مسكان هو الغالب عليه ، حتى تغاضى عن معاونيه الذين اقتدوا به وفعلوا مثل ما فعل ، وقيل كذلك ان انانيته قد ساقته الى الغدر بمصالح بلاده ، ولكن سواء كان ذلك صحيحا ام لم يكن ، فان الحق الذي يبعثه في شعوب النمسة ، والمصاعب التي توالى فيها ، والاذى الذي سببه لسلطة الدولة ومبدأ الحكم ، والنوازل التي اخذ بعضها برقاب بعض الى ان جاءت الساعة التي اشتدت فيها النكبات والكوارث ، واجتمعت

القوي المختلفة والمشكلات العديدة ، التي كانت تدفع بطريقة صناعية ، واعادت الكرة على اوروبا ، فكانت وبالا عليها وعلى النمسة ، وبذلك هوى النظام الذي طالما سعى له مترنيخ وفاخر بتشبيد اركانہ .

وكيفما كان الرأي في مترنيخ فان تاريخه بين مادحيه وقادحيه يكاد يخرج عن الحقيقة ، وهو بحاجة الى ان يكتب مرة اخرى ، بهيداً عن النواحي الشخصية التي تفسد الحقائق ، وتشوه الوقائع ، وذلك بالرجوع الى الماثور من سيرته والصحيح من اخباره .

الفصل الخامس

كافور

قطب الوحدة الإيطالية

١ - القواعد الأساسية لإنشاء الأمم والشعوب

من أشهر الآراء التي أصبحت تقليداً ومذهباً في تكوين الأمم ما كتبه الفيلسوف رنان في هذا الشأن ، وقد ذكر في بحثه الممتع الدقيق ان السياسة التركية القائمة على تفريق العناصر والجنسيات بحسب الأديان قادت الى نتائج خطيرة وأدت الى خراب المشرق ، والأمة في معناها الحديث نتيجة تاريخية لسلسلة من الحوادث التي تتجه نحو غاية واحدة ، جل ما فيها ان يشترك جميع ابنائها في أمور كثيرة وان يتفقوا على نسيان أمور كثيرة ، ثم تسأل عن الأساس الذي يقوم عليه الحق الوطني والعمل الذي يشتق منه فقال ما خلاصته :

يعتمد بعضهم في الأصل على العرق ، ولكن الأصول والأجناس ليس لها الاثر الكافي في تكوين الأمم الحديثة ، اذ لا يوجد عرق نقي ، كما ان الاعتماد في السياسة على القواعد الجنسية هو وهم وباطل ، اما اللغة فانها تدعو الى الاجتماع ولكن لا تضطرا اليه ، ومن الخطأ ان يظن انها عنوان الاجناس والاعراق ، فالإنسان قبل ان يتكلم بتلك اللغة او ينتمي الى هذا الجنس هو متأثر بثقافة معينة ، وقبل ان يتأثر بثقافة هذه الأمة او تلك هو متأثر بالثقافة الانسانية الجامعة .

والمعتقدات ليست كذلك اساساً كافياً لإنشاء أمة في هذا العصر ، فمعتقدات الجماعة غير متشابهة ، وأكل انسان ما يعتقد به ، واذا كانت العقيدة في بعض الأحيان عاملاً كبيراً في تكوين بعض الدول فقد خرج هذا العامل الآن من الأسباب التي يعتمد عليها في التمييز بين الشعوب .

اما اتحاد المصالح فلا ينكر اثره في توثيق العرى وأحكام الصلات ، وهو يصنع ماتصنعه المعاهدات التجارية ، ولكن ناحية العاطفة التي لها مقامها وأثرها في تكوين الأمم معدومة هنا ، والوطن جسم وروح يتحدان في انشائه .

وفي الحق ان الحدود الطبيعية لها شأن كبير في تقسيم الشعوب والفصل بينها ، والجغرافية هي عامل كبير في التاريخ ، والجبال والانهار تؤثر تأثيرات متعارضة في نشوء الأمم وانتشارها ، فالأولى تفرق والثانية تجمع ، وإذا كان العرق لا ينشيء أمة ، فأنى الارض وحدها ان تنشئه ، والانسان هو قوام هذا الشيء المقدس الذي يسمى شعباً ، ولا تكفي المادة وحدها ، والأمة هي مبدأ علوي وضعه التاريخ في تقلباته واضطرابه ، وهي أسرة روحية لاجتماع محدودة خاضعة لوضع الأرض واشكالها . ولكن اذا لم يكن العرق ولا اللغة ولا الدين ولا المصالح ولا الجغرافية وقواعد الدفاع تكون الأمم فما هي العوامل اذن في تكوينها؟ ان الأمة تتألف من عنصرين هما في الحقيقة عنصر واحد : الماضي والمستقبل ، احدهما حوزة مشتركة ميراث عظيم من الذكريات ، وثانيها موافقة الشاهدين ورغبتهم في أن يحيا معاً ، وارايتهم في ان يستمروا على اجلال ماتوارثوه والاحتفاظ به ، فالماضي الحافل بالذكريات العظيمة ، هو القاعدة الاجتماعية التي تقوم عليها الفكرة الوطنية ، والمفاخر المشتركة السالفة ، وهي من الشروط الكبرى لانشاء شعب وتكوينه بما توحى للنفوس من التمثل بها والسير على منهاجها ، اما الضحايا الذاهبة والآلام المبرحة فانها تبقى عزيزة مكرمة ، والألم المشترك يجمع أكثر مما يجمع السرور ، والأحزان في ذكريات الوطن ابلغ اثرأ من حوادث الظفر ، لانها تستحث على القيام بالواجب وعلى بذل الجهود .

فالشعب اذن هو تضامن كبير بين شعور التضحية التي بذلت من قبل وشعور الاستعداد لبذل مثلها من بعد ، وهو يعتمد على الماضي ويعرب من الرغبة في استمرار الحياة المشتركة ، وحياة شعب من الشعوب هي استفتاء دائم ، كما ان حياة الفرد هي بقاءه ودوامه ، ولكن الشعوب ليست مخلدة ، فهي تبدأ

وتنتهي ، ورغباتها تتحدد وتتغير ، ولكن اي شيء في هذه الدنيا لا يتغير ، والشعوب في تباينها واختلافها تعين على عمل الحضارة المشتركة ، وكل يحمل مالمديه الى هذه المجموعة العظمى .

وجملة القول ان المرء ليس بأسير لمرقه ولا للغة ولا لمذهبه ولا لجاري الانهار ولا لسلاسل الجبال ، وكل جماعة كبرى من الناس صحيحة الفكر ، سليمة القلب ، تكون وجداناً معنوياً هو الامة ، وبقدر ما يقيم هذا الوجدان المعنوي البرهان على قوته بما يتطلبه من بذل ، وما يقتضيه من خضوع الفرد للجماعة وخضوع العقل للهوى ، بقدر مايكون له حق البقاء ووجوبه ، واذا قامت الشكوك في شأن الحدود التي يحجب في داخلها ، للشعوب المعرضة للخلاف ان تستفتي فيها وان تدلي بما عندها من رأى في تعيينها .

والى جانب الفيلسوف رنان ورأيه فان كثيراً من المؤلفين ، وجمهورهم من ايطالية ، يريدون ان يجعلوا مبدأ العلائق بين الدول قائماً على الجنسيات ، وقد اتبع هذا المذهب وبولغ فيه ، على حين أن اصحابه لم يكونوا يريدون الا قيام الاجناس والشعوب الى جانب بعضها بعضاً ، وحق كل جنس ان يؤسس دولة هو حق كل شعب بحريته الشخصية ، وتنظيم الدول على اساس القوميات ضمان للحق في العلائق بين الشعوب وبين الدول ، وقبول هذا المبدأ هو افضل الوسائل لتخفيف الخصومات والمنازعات بين الدول وتثبيت قواعد السلم بين الشعوب ، حتى ان بعض رجال السياسة مثل نابليون الثالث ارادوا ان يجعلوا هذه القاعدة اساساً لسياستهم ، كما ان شعور القومية هو الذي دفع اليونان للقيام على الترك ، والبلجيك الى الانفصال عن هولنده ، وايطالية الى جمع دولها الصغيرة في مملكة واحدة ، والمانية الى تنظيم الامبرطورية والقضاء على مختلف انواع التجزئة السياسية ، وكان هذا التطبيق للمبدأ القومي احتجاجاً على العقود السياسية التي حكمت مستبدة بتجزيق الشعوب ، على انه مهما كانت الاسباب التي اتخذت في ايطالية وفي المانية لبلوغ الغاية من حيث قربها او بعدها من مبادئ الشرف ، فالواقع هو ماشهد به ، ولكن هل يبرهن ذلك على صحة مبدأ القائلين بهذا الرأي؟

كلا ! فقد اخرج المؤلفون الايطاليون القصة عن وضعها الصحيح ، وارادوا تأليف الدول بحسب القواعد العامة والاساليب العلمية المختصة ، وليس باستطاع ان تقوم على هذا المبدأ وحده العلائق بين الدول ، ولو انه اتخذ اساساً لاضطربت اورة الاضطراب كله ، وتغيرت فيها معالم كل شيء ، وتبدل اتجاه التاريخ في تكوين الشعوب الذي هو وليد الحوادث والصدف والاطماع السياسية ، ولا حاجة للتذكير بان دولاً مغتربة بوضعها مثل بلجيكة وسويسره ، لما كان لها اذا طبق هذا المبدأ حق في البقاء ، وكان كل اتجاه ينبغي ان يؤدي الى تأليف ثلاث او اربع دول كبيرة بحيث ان النتيجة المنطقية تكون انشاء الجامعة الالمانية والصقلية او انشاء دول صغرى لا تستطيع ان تحبى بنفسها وان يكون لها شأن .

فذهب القائلين بالقومية اذن لا يقوم على قواعد عملية ولا متشابهة ، وهو مبهم وغير مستقر في تطوره ، واذا اريد تطبيقه في مبادئه بمخافيره فانه يصير الى نتائج متناقضة ، ولكنه مع ذلك لا يزال من اعظم القوى النفسية في التاريخ الحديث ، وهو يرجع في مصادره الى امرين : الاول الفلسفة المنطقية التي انتشرت في القرن السابع عشر والثامن عشر والباحثة عن اساس وضع الدولة وعناصر حياتها ومقوماتها الشرعية ، والثاني مبدأ تحرير الشعوب الذي اخذ بالانتشار منذ عصر النهضة وازار نفوس الشعوب واوحى اليها بشعور الكرامة وشعور التراث والبقاء والتصميم ، فهي تأخذ بيدها تدبير شؤونها ومصائرهما ، وهذان الامران يلتقيان وبؤثر احدهما بالآخر ، وليس المذهب الذي يشتق منهما الا تبرير للاتجاهات الجديدة التي يوصي بها اصحاب الرأي للشعوب الناهضة .

وقد استقر هذا المبدأ في قراره بعد حرب الاستقلال في امريكة وحروب الثورة ، ونادى مونرو بدعوته المشهورة ورفع صوته في سبيل امريكة اللاتينية ، ولكنه لم يقرر في المبدأ الذي وضعه خطة مطلقة لهذه المستعمرات وقتالها في سبيل الحرية ، على ان فكرة رئيس الولايات المتحدة تفرض على الأقل ان الثائرين على حق في نهضتهم ومطالبهم بالانفصال والاستقلال ، وقد آزر الرأي العام في اورة اليونان وأيدهم في نهضتهم ، وتحمس الناس لهم بروحهم وجسمهم بعد ان اشربت القلوب فكرة تحرير الشعوب المضطهدة ، اما نهضة البلجيك فقد كانت

متأثرة بمنافع الدول المجاورة ، بحيث لم يكن هنالك مجال للحجاسة لها كمبدأ سام ومثل عال ، وحوادث سنة ١٨٤٨ تتصل بذلك المبدأ الذي اتخذته نابليون الثالث قاعدة لخطته ، فكان يرى ان السياسة يجب ان تسمو الى مستوى ارفع من الاوهام الضعيفة المزدرة التي ورثتها عصور سابقة ، ولا يجوز ان تتوقف عظمة شعب على ضعف الشعوب التي تحيط به ، والتوازن الصحيح في رأيه لا يتم الا بتحقيق امان الشعوب الاوربية ، وكان نابليون الثالث يتأثر في هذه الآراء بمعتقدات قديمة وتقاليد موروثه ، فنابليون بنابرث لم يكن غريباً عنها ، بل كان يتوقع حدوث التبدلات التي حدثت في اوروبا ، وقد وضع حجر الزاوية للقوميات الحديثة بانشاء المملكة الايطالية وبازالة مئة وثلاث وخمسين دولة مستقلة في المانية . وكان نابليون الثالث يفاخر بأنه حامل لواء القوميات ، ولم يكن في ايام فشله اقل منه انتصاراً لهذا المبدأ وتبأله ودفاعاً عن قواعده .

ولم يكتف لامارتين وهو وزير الخارجية سنة ١٨٤٨ بتبرير الفكرة القومية واعتبارها حقاً ، بل انه وعد بمؤازرة فرنسا لكل شعب يريد ان يفاضل في سبيلها ، وقد اقترب بذلك من اسلافه رجال الثورة وقال : اذا كانت الساعة قد دنت للنهضة بعض الشعوب في اوروبا او في غيرها ، واذا كانت سويسرة حليفتنا الأمانة قد اكرهت او هددت ، واذا كانت الدول المستقلة في ايطالية قد اغير عليها او اقيمت العثرات التي تحول دون تطورها ووضعت العقبات في سبيلها ، او لجىء الى القوة لحرمانها من الحق في ان تتحالف بعضها مع بعض وتثبت وطناً ايطالياً وتؤسسه وتنشئه ، فالجمهورية الفرنسية حينئذ ترى ان لها الحق في حمل السلاح للدفاع عن هذه الأعمال الشرعية والقتال دون نمو الشعوب ورغبتها في انشاء قومياتها .

٢ — مبشرات النهضة في ايطالية

في اواخر القرن الثامن عشر كانت تتجاوب في ايطالية مبشرات النهضة ، وكان الايطاليون قد استيقظوا الآداب والعلوم والفنون والسياسة ، فتذكروا ايامهم السالفة ، وساروا في نهضتهم ويقظتهم تحذو بهم الاحلام لانشاء وطنهم

واحياء مدارس من معاهده ، وكانوا يتسمون بالأسماء التي تعيد اليهم ذكرى ذلك الماضي الزاهر ، وما برحوا ينشرون محاسن بلادهم وآثارها حتى اصبح اسمها يملأ الخافقين ، ويجب ان يقال ، وفي ذلك مفخرة لهم ، انه مهما كانت بلادهم مضطربة فانهم ان يدعوا مطلقاً حقوقهم تزول وتنسى ، ولم يكن في القرن الثامن عشر سياسة وطنية في ايطالية ولكن لغة ووطن وآداب وشعراء ، وكانت القصائد والنقص والمقالات تدعوهم الى الاستقلال في سبيل المجد ، وتذكرهم بالوطنية الرومانية وعندها القديم ، وتعمل على ان تعيد ذكريات تلك الايام ، وتعتمد على التاريخ لتكوين وجدان قومي ، فكانت الدولة الإيطالية المبعوثة المجددة تظهر للرائي في الآفاق البعيدة التي اكتشفتها الانسانية .

وكانت ايطالية ممزقة الاجزاء ، وكان بنوها يرون في تجزئتها قضاءً على حياتها الفكرية . على حين انهم يمتون الى اصول واحدة ويتصفون باخلاق واحدة ويحكمون بقوانين مدنية واحدة ، وكذلك كانوا في ايام رومة وشرلمان ، وقد اظهروا في جمهورياتهم وفي ايام النهضة انهم مازالوا حافظين لذكرياتهم . فكان الوطنيون منهم يتداعون ليكون لهم نظام واحد في التقدم والعلوم والفنون ، وان يكون حب الوطن يعني حب الخير العام لشعب ، كالشمس التي يضيئهم سناؤها ، ويقولون : لنكن جميعاً ايطاليين اذا لم نرد ان نحرّم من ان نكون رجلاً .

ويذكر انه تقدم رجل ذات مرة في ميلان الى شركة لايعرف فيها ، فقبل له هل انت ميلاني ؟ قال : لا ، فقبل له : هل انت اجنبي ؟ قال : لا ، فعم حينئذ الاستغراب واعيد السؤال ؛ فقال : انا ايطالي و الايطالي ليس اجنبياً في ايطالية ، كما ان الفرنسي ليس غريباً في فرنسا ، والهولندي في هولنده ، ثم اندفع الرجل في حديثه باحثاً عما يصيب ايطالية في انقسامها ، وكيف يقضى على كل حياة فكرية فيها ؛ فوجد السامعون الرجل يحسن الكلام ، وانه مهذب عاقل وطني مفكر ، واقبل بعضهم على بعض يتحدثون بنكبات الزمان اني تمنع الايطالي ان يكون مواطناً لايطالي مثله ، لأن الصدفة جعلت مولد هذا هنا ومولد ذاك هناك .

كان الايطاليون يقولون ذلك واوربة تعرفه ، وكانوا برغم تجزئة بلادهم تحتفظ لهم هذه الآداب وهذه الفنون بنفوس متحدة ، تبقى حيثما يوجد اناس حريصون على المعرفة ، لهم خيالات مولعة بالجمال ، ملء قلوبهم ذكرى ماض كبير وشعور مستقبل قريب ، وكان كل شيء حتى هذا الاقليم البديع والارض الرائعة يعين على ان ينشر في العالم تقاليد وطن ينتشر معه هذا الاسم الحفل بالضياء ، وكانت عناوين حضارتها عناوين الحضارة الاوربية ، ولا أحد يجهل ذلك ، وكانت كاترين الكبرى تقول : ايطالية تنتظر وتؤمل ، وحقا ان الايطاليين كانوا ينتظرون ويؤمنون ، ويرون انه سيعاد ذكرهم ويعلو شأنهم ، ولكن بحسب ماضيهم وبحسب مستقبلهم لا يحسب ما هم فيه .

اما الاثراء فلم يكونوا في ايطالية الا رؤوساً متوجة ، لانتظر اليهم الشعوب الا من نواحي الادارة التي يقومون بها حسنة او قبيحة ، وكان الايطاليون يعدون العدة الى الثورة ، التي تستفز ما كان يخامرهم من العواطف ، فتقلب اوضاعاً واسراً لم يكن احد متعلقاً بها ، وجاءت الثورة الفرنسية تعلن الاصلاحات الحديثة التي كانت الاماني الشاملة لجمهور الأمة ، وتقرر مبدأ استقلال الشعوب والعمل على تحريرها وجمعها ، فتقرب الرجال بالقوانين وتوحيدها بالوطنية ، ولم يكن الايطاليين الا ان يستقبلوها بالهتاف ، وليس لدى حكومة من حكوماتهم وسيلة من وسائل الدفاع لمقاومتها ماعدا حكومة ييمون الوطنية ، وكان مصير ايطالية كمصير سائر البلاد المجاورة لفرنسة ، فقلبت رأساً على عقب بغارات الجيوش الفرنسية وهدم نظامها القديم ، وقسمت ثلاثة أقسام خاضعة لحكومات فرنسية ، ولجأت بعض اسرها الى سردينية او صقلية .

ولم يمنح الاحتلال الفرنسي الايطاليين الاستقلال القومي ولكنه احيى اسم ايطالية ، واوجدت ايطالية جيشاً وعلماً مثلث الاطوار يقوم فيه الاصفر مقام الازرق الفرنسي ، وتمهأت ، بما اسس فيها من مساواة شرعية وحرية دينية ووحدة تشريعية واوضاع ادارية ونظم عسكرية ومدنية ، الوحدة السياسية التي تشهداها ،

ولكن الحلفاء بعد زوال نابليون لم يبقوا شيئاً من نظامه ، فعادت الإيطالية الى نحو ما كانت عليه قبل الثورة ، مجزأة الى اربعة عشر جزءاً .

وكان امراء هذه الدول جميعها حكاماً مطلقين ليس بينهم صلة ولا علاقة ، وأهمها مملكة سردينية ، حتى ان مترنيخ رفض في مؤتمر فينة انشاء لجنة للشؤون الإيطالية كاللجنة التي انشئت لالمانية ، قائلاً : ان الالمانية تؤلف جسم دولة ، اما الإيطالية فانها لا تؤلف الا دولا متحدة مستقلة ، تجتمع فقط في وضع جغرافي . وظلت التجزئة هي الشرط الرسمي لإيطالية ونظامها التقليدي ، وسادت النمسة في اجزاء مختلفة فيها ، وتمسكت ببقاء حالتها الراهنة ، حتى انها تعاقبت مع فرنسا في ايام لويس فليب على محافظة ذلك ، فاصبحت صفات ايطالية مميزة ثلاثاً : التجزئة والاستبداد والخضوع للنمسة ، ولكن هذه الاوضاع المكروهة اثارت نفقة الجميع ، فالتجزئة تؤذي الوطنيين الذين يشعرون بالتمسك من ويريدون وحدة ايطالية ، والاستبداد يغضب الاحرار الذين يطالبون بالدستور وبحقوق الانتخاب والغاء المراقبة ، و-حكم النمسة يثير الحفاظ على الالمان ويستفز الشعور لاجراج الاجني وطرده .

اما جمهور السكان فغير مثقف ، وهو بمعزل عن جميع الشؤون العامة ، متمسك بالدين ، خاضع للرؤساء وللسلطات المطلقة ، غير مكترث بالسياسة التي لم تكن تهم الاعداء فليلا من الرجال كـ بعض الاشراف المتعلمين ، ورجال الصناعات الحرة ، والتلاميذ المتفرقين في اربع وعشرين جامعة ، محروم اكثرها من الحياة الفكرية ، واصبح حب الوطن الايطالي يتجدد على افواه الشعراء واقلام الكتاب ، وبدأت تتألف الجمعيات السرية التي يعد بعضها من الاساطير ، لمقاومة الفرنسيين من قبل والنمسيين من بعد ، ولأعادة الوحدة الإيطالية وتأسيس نظام دستوري ، وكان الثأرون الايطاليون يقلدون خطط الاجانب ، ويستعبدون مناهجهم واساليبهم ، غير ان الثورات العديدة لم تؤد الى العقبي المرجوة ، وبقي الاحرار عرضة للمراقبة والاضطهاد بعد الاخفاقات المتوالية التي نزلت بهم .

٣ — مزيني وكافور

يقترن ذكر الوحدة الإيطالية باسم رجلين متفاوتين في الشهرة مختلفين في الطريقة متفقين في الغاية ، مزيني الذي امتاز بأساليب الثورة وبث الدعوة ، وكافور الذي فاق النظراء بحسن التدبير ودهاء السياسة ، وابقى الاثنان في تاريخ إيطاليا الحديثة أثراً لا يمحي .

اما مزيني فقد كان يعمل لإيطالية ويسعى للجمهورية ، وقد أسس سنة ١٨٣١ إيطاليا الفتاة التي لم يقبل فيها الا رجلا دون الاربعين ، ثم وسع برنامجها وأسس اربعة الفتاة ، وكان في كل سنة يؤسس فرعاً لائمة ، نحو فرقة الفتاة والمائة الفتاة وهلم جرا ، وكان للجميع لجنة مركزية ترمي الى تحرير الشعوب من الحكومات الملكية ، وكل شعب يعيش في ظلال جمهورية يربطها الأضواء بسواها ، وكان مزيني في بادى الامر قد ارسل كتابا الى ملك سردينية يذكره فيه بالدعوة الى جمع المتفرقين من ابناء إيطاليا التي تعيش في ذكريات عظيمة من مفاخر عشرين قرنا ، وحض الملك على الاصغاء لصوت إيطاليا كلها ، التي لا تنتظر الا كلمة واحدة لتكون له . وقال : قم على رأس الشعب ، واكتب على اعلامك ، الاتحاد والحرية والاستقلال ... وحرر إيطاليا من البرابرة ... فكانت جواب الملك ان أمر بالقاء القبض عليه . . ولكن مزيني فقل مركز عمله الى البلاد الاحنية وأخذ يجد ويدأب فيها لادراك غايته .

وقد كان مزيني عدواً للكنيسة ولكنه متأله ومعتقد ، وشعاره : حرية ، مساواة ، انسانية ، آله واحد ، حاكم واحد ، شريعة الله . وكان جميلاً ، فصيحاً ، كريماً ، حازماً ، يعيش عيشة تقشف وتجرد ، ويؤثر في الشباب الذين يلتفون حوله والمريدين الذين يؤمنونه ، فيبعث في قلوبهم نوراً من الأخلاص ، بحاسته لرايه وفصاحة بيانه ، وسحر طلعه الوقورة ، التي تضيء احياناً بابتسامة عذبة ، وقضى مزيني حياته بالمؤامرات ولكنه لم ينجح في اى محاولة من محاولاته ، وبعد ان قضى نحبه اخذ الجليل الذي تلاه يعده حوارى الوحدة الإيطالية ، الداعي لها والمبشر بها ،

كانت ذكرى ميلاده سنة ١٩٠٨ فاحتفلت ايطالية بمزني وأقامت الاعياد والمواسم، اجلت به الحكومة الإيطالية رجل المثل الأعلى للوطن الايطالي .

واستمرت النهضة الوطنية في ايطالية تتأزر هي واليول الحرة ، وكان البابا بي « التاسع مشرباً بمبادئ الحرية القومية ، فدشط الماملون في زمانه ، واغضب لك النمسة حتى ان مترنيش قال : ان «بابا» يميل الافكار الحرة هو نكبة للعصر ، عمت الحركة الملوك والأمرأ حتى رجال الدين ، واتجهت النفوس نحو الاصلاح للدستوري والتحرير القومي ، وعم البلاد العلم المثلث الالوان ، واله لم يومئذ منوان الوحدة ، وقامت الثورة في الانحاء التابعة للنمسة سنة ١٨٤٨ ، كما ثارت ينة نفسها واصبحت النمسة عاجزة مستضفة ، وما عمت الثورة ان انقالت الى كاخفة الشعب للاجنبي ، وقامت الحكومات على الاثر .

وقد نشأ في ذلك الحين كافور الذي هو من رجال الدولة العبقريين الدهاة ، الذين لا يستطيع الدهر ان يحجر عليهم ذبول النسيان ، والذين عملوا اعمالاً عظيمة في تاريخ السياسة وابقوا في اذهان الجماعات تأثيراً كأنه السحر ، وكيف يطوى ذكر رجل مثل كافور ! مؤسس الوحدة الإيطالية وصاحب الخطط التي لم تتغير ، المعروف بليته وصبره ورباطة جأشه عند الانكسار ، ووقاره وهدوءه في ساعات النصر ، ذلك الرجل الذي كان يطمح ابدأ الى تحرير امته وجمع كلمتها ، وقد وصفه السياسي الايطالي الجنرال (دولامارموره) بقوله : لأعرف رجلاً نظيره ، شديد التهاك في الحب ، يندفع بسهولة غريبة وراء الذين يستهوونه ، فيرفعهم الى السماء ، ويخلع عليهم برود المدبج والثناء ، ثم ينقلب عليهم بشدة ، فستراه يعبت كالاطفال ، كأنه يريد ان ينتقم منهم لانه خدع بقوتهم ، وكأنه يريد ان يعاقبهم لأنه اسرف في تقديرهم باكثر مما يستحقون في ساعة من ساعات حياته .

وقد عرف القرن التاسع عشر رجلين لانظير لهما ثابرا على تدمير ما سبق من مؤتمر فينة : كافور وبسمرك ، ولم يكن ابدأ صبراً أكثر ونبوغ اعظم ، وجرأة وحذر لاحد لهما ، حتى قام هذان الرجلان بما قاما به ، وقد أعان كافور على تحقيق

اغراضه (نيفرا) مندوبه في باريس الذي كان على جانب عظيم من الحنكة السياسية و براعة الاساليب .

٤ — الحرب والسياسة في تكوين الدولة الايطالية

كتب كافور في آذار سنة ١٨٤٨ يقول : نحن الرجال الذين نفكر تفكيراً صحيحاً هادئاً ، والذين قد الفنا ان نصني لقيادة العقل اكثر من حركة القلب ، نعلن جهره انه لم يبق للشعب والحكومة والملك الا الحرب ، والحرب بدون تأخير ، فقرر الملك الحرب وظهر للجماهير في تورين على شرفة قصره ومعه مندوب الثائرين في ميلان ، وتناول الشعار الملون الذي كان الى جانبه وهزه بيده ، ونشر بياناً خاطب فيه سكان لمباردية والبندقية وقال : ان جيوش بيجونت ستحمل اليهم في معارك المستقبل العون الذي ينتظره الأخ من أخيه ... وظهر الايطاليون بأسرهم مظهر المتحد في قتال الاجنبي بقيادة ملك سردينية ، وكانوا يرفعون اصواتهم بالنشيد القومي : ايطالية تدعو فلننضو الى لواء واحد .

غير ان الأمراء لم يقاتلوا النمسة الا مكرهين ، ولم يكن البابا يريد ان يتقلد رئاسة تحالف ديمقراطي ، وكان يهيمه ان يهدي عواطف رؤساء الدين من الالمان ، حتى قال في خطبة له في نيسان سنة ١٨٤٨ انه كان دائماً يحض رعاياه على الطاعة ومحبة جميع الشعوب على سواء . وكان مصير ايطالية يتوقف على الحرب ، وقد غلب شارل البر الذي كان جريئاً صامتاً ، فلم يستثر حماسة جنوده ، وكان هياج الشعب عظيماً بعد الفشل ، فاشتبك مع الجنود التي بذات جهدها في مدافعته ، وقد اعانت انكلترة وفرنسة يومئذ على تقرير الهدنة مع النمسة .

وكان في نهضة ايطالية موطننا ضعف ، الأول : ان الايطاليين لم يكن لديهم قوة عسكرية كافية لاجراج الاجانب ، الثاني : انهم كانوا منقسمين على نوع الحكم الذي يريدونه ، فمنهم الدستوري والاستبدادي والملكي والجمهوري ، وقد اصبح ينظر الى الملوكة بنظر الكره اما بسبب فشلهم او بسبب نكوصهم ، غير ان الجمهوريين لم يكونوا اسعد حظاً ولا انجح مسمى ، واعتزل شارل البر فخلفه فكتور عمانويل

وكان من اشياح المبادي الحرة ، ففشأت في ظلاله مملكة سردينية الدستورية ،
وفتحت بلادها للرجال الاحرار ، وكان كافور الذي هو من نبلاء بيمونت غير
شعبي لانه بعد ان ايد الثورة سنة ١٨٣٠ حتى اخرج من الجيش ، قاوم في سنة
١٨٤٧ الدمقراطيين في بلاده ودافع عن مذهبه في الملكية الحرة ، ولكنه في اثناء
الرجمة اظهر تمسكه بالدستور والحريية في جميع مظاهرها ولا سيما حرية الصحف ،
فانفصل عن المحافظين وتقرّب من احزاب الشمال ، وحكم عليه البابا لانه اقر
الزواج المدني .

ولكن هذه المغامز لم تكن لتفت في عضد الجمعيات الوطنية ، التي وجهت
قواها للدفع الايطاليين الى سياسة مشتركة بقيادة ملك سردينية ، وكان الجمهوريون
انفسهم لا يرون في ايطالية الا قوتين : الرأي العام وجيش سردينية ، وكانت جمعية
الاتحاد الوطني سرية شعارها : الوحدة والاستقلال وفكستور عمانويل ملك ،
وكانت هذه الجمعية تسعى بالاساليب الساعية وتستنكر المؤامرات والقلاقل ، وقد
اختلفت هي ومزيني الرئيس الجمهوري الذي لم يكن يرغب الا في تحالف موقت
مع الملكيين ، واتصل كافور بجمعية الاتحاد الوطني ، وقال لسكرتيرها لا فارينا
ذات يوم : اصنعوا ما تريدون ، اما انا فسا أنكركم امام العالم مثلاً أنكر بطرس
الحواري السيد المسيح .

ولم يكن كافور يعتقد ان ايطالية قادرة وحدها على ان تدرك استقلالها ،
فاخذ يسعى لعقد التحالفات بعد ان اصبح وزيراً للخارجية حتى ينقطع لمقاتلة
النمسة ويعزز قوى البلاد ، وكان معجباً بانكلترة ونظمها العسكرية والادارية
والاقتصادية ، خالف انكلترة وفرنسة على روسية سنة ١٨٥٥ ، رغم سكان جنوى
الذين خافوا ما يصيب تجارتهم من الخسران بسبب محاربة روسية ، ولم تفد هذه
الحروب ايطالية فائدة مباشرة ، ولكنها سوغت لكافور ان يشترك في مؤتمر
باريس سنة ١٨٥٦ ، وان يقدم مذكرة له ، وهو على وشك ان يختم اعماله ، يبحث
فيها حالة البلاد الإيطالية ، فساعدته المندوبون الفرنسيون وايدوا مطالبه ، ولم

يكن الموقف المبهم الذي وقفته النمسة في حرب القرم ايمكنها من رفع صوتها عالياً ، وكانت الجلسات الاخيرة نجاحاً كبيراً للكونت كافور الذي ابتسم له ثغر الزمان ، واصبح من عطاء الرجال . وكان نابليون الثالث قد وجه سؤالاً مشهوراً قال فيه : ماذا يمكن ان يصنع لاطالمة ؟ فأثار كافور قضية بلاده في وجه اوروبا ، وانتقد المناقشات التي جرت في مؤتمر باريس ، واكد ان حالة ايطالية والشروط التي تعيش فيها تعرض السلم الاوربي للخطر .

وأشد البغض للنمسة برغم محاولاتها تعديل موقفها ، وكان نجاح النهضة الايطالية متوقفاً على رغبة نابليون الثالث الذي اقسم في ايام شبابه ان يعمل للوحدة الايطالية ، وكان قد ارسل طبيبه ليدعو كافور الى اجتماع سري خاص بهما ، فعقد الاتفاق بين الفريقين ، ووعد نابليون بتحرير لمباردية والبندقية الى بحر الادرياتيک ، ووعدت سردينية بالتخلي عن سافوا ونيس ، على ان تنشأ مملكة في ايطالية العليا ، واتحاد دولي في سائرها ، وكذلك كان نابليون الثالث هو الحليف القوي الذي ينشده كافور .

وقد شبت بعد ذلك الحرب بين فرنسا وسردينية من جهة وبين النمسة من جهة اخرى ، فانكسرت هذه الدولة وتخلت لفرنسة عن لمباردية ، فتنازلت عنها لسردينية ، والحقت بها نيس وسافوا بعد استفتاء سكانها ، ولم تكن انكلترة راضية عن هذه الحرب ، وطلبت الى كافور ان يمين رغبات بلاده وامانها ، وذلك لان انكلترة كانت يومئذ متقاربة في سياستها مع النمسة ، ولان كل ماجري في ايطالية مما يستوقف نظر رجال سياستها الذين يفكرون قبل كل شيء وبعد كل شيء بمصالحهم ، كما قال كافور في ذكر اسباب كره انكلترة لهذه الحرب .

وقد ارسلت انكلترة سفيرها في باريس الورد كوالي ليوافيها بالانباء بعد معركة سولفرينو الدامية وعقد الهدنة واجتماع نابليون الثالث وفرنسا يوسف في فيلافرانكا ، وقد وصف السفير ببرقية طويلة اجتماع الامبرطورين وهذا بعض ما قال فيها : لقد التقى الامبرطوران باعظم مظهر ودي ، وتصافحا كأن لم يكن

جرى بينها شيء ، وعندما خلا أحدهما بصاحبه ، بدأ فرنسوا جوزيف الكلام وأعلن استعداداه ان يتنازل للامبرطور الفرنسي عن البلاد التي احتلتها جنوده حباً باعادة السلام الى نصابه ، ولكنه لا يستطيع ان يفعل أكثر من ذلك ، فاجابه الامبرطور نابليون : ان موقف فرنسة والبيانات التي اذاعتها تجعلها تطالب بشيء أكثر لان الحرب قد اعلنت لتحرير ايطالية ، ولا يستطيع ان يبرر عمله عند الفرنسيين اذا لم يضمن السلم تحقيق هذه الغاية .

وفي اثناء المحادثة بين الملكين أكد فرنسوا يوسف ان نابليون رغبته الصادقة في استقرار اسرته وتثبيتها على عرش فرنسة ، قال ان جلالة (نابليون) يتبع طريقاً غريباً لتحقيق غايته ، وحذره من الجماعات التي يركن اليها ، فان الأسر المالكة لا تؤسس بمثلها . ويظهر ان نابليون - على رأى السفير - قد تقبل هذه التضحية ، حتى انه ادلى ببعض القدر قائلاً : انه لذلك يسأل الامبرطور ان يساعده على انتهاء الحرب الإيطالية والقضاء بذلك على روح الثورة التي ولدتها هذه الحرب ، ثم افترقا الامبرطور ان بنفس الطريقة التي التقيا بها .

وقد كتب اللورد جوهن روسل الى الملكة فكتوريا بعد معاهدة فيلا فرانكا يقول : لاشك ان موقف الامبراطور نابليون جد قوي ، وقد نال هذه المنزلة لانه اخلى له المجال ليكون وحده بطل القضية الإيطالية ، ولكن هذا الأمر لا يكون سبباً لاثارة النزاع مع فرنسة ، وقد يتسرب الشك للنفوس في كون الخطب التي القيت في مجلس اللوردات ، واطهر فيها ضعفنا وقلقنا ، هي متفقة في اتجاهها وفي غايتها مع مصالح الوطن ، وافضل سياسة في رأبي وابسطها واوثقها واشرفها ، هي ان نكون على أتم استعداد في السلاح ، وان نعمل في حق جميع الدول المجاورة لنا .

واعربت الملكة فكتوريا عن رأيها بهذه الكلمة : ان كتاب اللورد كولي يفصح باجلى بيان عن الخطر الشديد الذي تتعرض له ، اذا بذلنا عهداً في امر ايطالية او شاركنا الامبرطور في عمل ، فقد يكون قد اخذ على نفسه عهداً كثيرة لاشأن لنا بها ولا علم ، وقد يكون يرمي الى غايات لا نستطيع معرفتها ولا تقتصر

على ايطالية بل تتجاوز ذلك الى توسيع بلاده على حساب اوردية وخسراؤها .
وقبل احتلال رومة وانشاء الوحدة الايطالية ، كانت الدساتير السياسية
تصنع صنعها في تلك الربوع ، ولم يكن في وسع خصوم السياسة الفرنسية ان
يقاوموا جبهة نابليون ، ولا ان يعارضوا التقاليد السياسية الفرنسية ، وكانت
سردنية تعمل للوحدة عمليين متناقضين ، فهي في الملن تحجم عن كل تشجيع
للثورة ، وفي السرتمالى الثائرين وتؤازرهم ، وكانت سياسة الايطاليين ترمى الى
جعل نابليون امام امر واقع ، فكانوا يعمونه من كل تدخل بسبب المبادئ التي
قررها والمظاهر التي ظهر بها والاعمال التي سعى لها ، وقد انتهى الامر باقناعه
باستلحاق ايطالية الوسطى ، والنازل له بمقابل ذلك عما اتفق عليه : نيس وسافوا .
وكان غضب غريبلدى عظيما بسبب استيلاء فرنسا على وطنه ، فهم بالاعتزال ،
وحينئذ كتب اليه كافور : نيس ام صقلية ؟ ولكن هذا الكتاب قد انكر ، وامد
كافور غريبلدى بالعدد والذخائر ، وكان يكتب في الوقت نفسه الى الدول متربا
عن أسفه ، حتى ان الاميرال برساتو قال : انه تلقى من كافور بطاقة يقول فيها :
احرص على ان تقف بين غريبلدى وبين الطرادات النابلية ، واحسب انك قد
ادركت ما تريد : فاجابه الاميرال : اظن اني ادركت ماتريد ، وبوسعك ان ترسلني
اذا اقتضى الامر الى الاعتقال ، واراد غريبلدى اثاره اثورة في رومة واحتملها ،
فعارض بذلك كافور وقال له انك ستكون في رومة ذات يوم ، ولكن محاولة
هذا الامر الآن طائف من الجنون ، وبعد ان قام غريبلدى باعماله في ارجاء ايطالية
المختلفة ارسل اللورد روسل يقول في برقيته : يصعب ان نعتقد بعد ان تقع هذه
الاحداث العظيمة التي نشهدها في هذه الاحيان ان البابا ومالك صقلية يملكان
قلوب رعياهما .

وقد برهن كافور فيما قام به من الاعمال ان اساليبه وجهوده هي اعظم دليل
على عبقريته ونبوغه ، وقد قضى نحبه قبل ان تحمل قضية البندقية ورومة ، خربت
ايطالية من مواهبه العظيمة المتابعة جهودها وتحقيق بقية آمالها ، وقد ابدى كافور

قبل مماته رأيه في قضية رومة واعان ان الرأي العام مصمم على ان تكون عاصمة له ، واذا لم تنجح الحلول السلمية فلا مناص من القوة ، وقد اعتمدت ايطالية في بادىء الأمر على فرنسا التي كانت برغم الخطة التي سار عليها نابليون تتمسك ببقاء ايطالية مجزأة كالمانية ، حتى انه بقيت في رومة حامية فرنسية منذ سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٦٦ ، ثم استعانت بعد ذلك ببروسية فالحقت بها المندقية ، وحققت مبتغاها بمؤازرة هاتين الدولتين الواحدة بعد الأخرى ، وكما جمعت شملها بمؤازرة الحزبين الجمهوري والملكي الدستوري ، فقد استفادت من الاوضاع الخارجية وادركت بمعونته غيرها ما كانت وحدها عاجزة عن ادراكه بقوتها ، وسدت بسياسة الاتفاق والتحالف مواطن الضعف التي كانت ظاهرة فيها ، غير انها لم تحتل رومة الا سنة ١٨٧٠ ولم تتم وحدتها الا بعد حرب ١٩١٤ .

اما موقف الكنيسة الكاثوليكية من اعمال دعاة الوحدة الإيطالية ، فقد كان البابا (بي) التاسع يصف الحاق دول الكنيسة بانه من اعمال العصابات ، وكان يعتبر القضاء على السلطة الزمنية ثورة وان كان قد صدر عن مملكة منظمة ، وقد رفض البابا ان يعترف بدولة ايطالية وزاد احتلال رومة في الخصومة والعداوة ، حتى ان الحكومة الإيطالية سنت قانون الضمان ، واخذت على عاتقها ان تحافظ على وضع البابا وعلى استقلاله وعلى سيادته في نصره ، وان تمنح تعويضاً له ، ولكن البابا اعلن انه لا يزال اسيراً من جهة معنوية وانقطع عن كل مفاوضة مع حكومة رومة ، وكان يقول : انه لا يريد الطواف في المدينة حتى لا تقع عينه على التأثيرين والبروتستان الذين يظهرون آراءهم من غير خشية .

واستمر الخلاف في زمن ليون الثالث عشر الذي ما برج يطالب بالسلطة الزمنية وينسك كل دعوة للاتفاق مع ايطالية . اما (بي) العاشر فقد دخل في نزاع دائم مع فرنسا واطهر ميله للتحالف الثلاثي ، ولم ينفك عن المطالبة بحق الكرسي المقدس ، ولكنه اصبح اكثر محارواً نشأ في جو الوحدة الإيطالية فكان اكثر تقبلاً لها .

وبقي الخلاف بين كرسي البابا والحكومة الإيطالية الى ان عقد اتفاق لا تران سنة ١٩٢٩ الذي اعيد فيه للبابا جزء من سلطته الزمنية ، وقد دفع له ما يعادل ١٥٠٠ مليون ليرة نقداً وسندات ، تسوية للمطالب والحقوق .

ولكن هل يقال ان القضية الرومانية قد انتهت حقيقة ؟ ان مسألة الكرسي المقدس هي ذات وجه لا تشابه مسائل الدول الاخرى ، وفي رأي الكونت سفورزا ان الاتفاق الذي تم بين البابا (بي) الحادي عشر وبين موسوليني نأثي عن عداء مشترك للحرية ، على حين ان جميع مخدورات الحرية مفضلة على تنازل شعب عن حريته وتسليمها لسواه ، وقد كان . كيفلى نفسه لا يحب الذين رفعون عقيرتهم بالشكوى من جرائر الحرية يقول : ان سر عظمة رومة كان قائماً على الاختلاف في الرأي والتباين في الاجتهاد .

الفصل السادس

بلرستن وأساليب السياسة البريطانية

١ — المصالح والسياسة في القرن الثامن عشر

انكلترة جزيرة متاجرة ، وكل سياستها قائمة على هذه القاعدة ، والانكليز لا ينمون ولا يكبرون الا بالمستعمرات ، وهم ينتجون اكثر مما يستهلكون ، فعليهم ان يبحثوا عن منافذ لتجاريتهم ، وبحريتهم هي اداة ثروتهم فعليهم ان يجدوا ويدأبوا لاجراز سيادة البحار ، وهم يتميزون بصفات التجارة التي تعرضهم للحسد ، وصفات الوطنية ومزايا الشعوب الفاتحة التي تورثهم الشعم والاستئثار ، والعزلة البحرية التي كانت تمنعهم في هذه الجزيرة الشاء — كما قال اندره شنيه — بما يتكسر عليها من الأمواج ، وغيرها من العوامل التي تجتمع فيهم ، تجعل سياستهم تهادي في اذبال الكبر والخيلاء ، وتجعل اوربة كلها تخشى بأسهم وتحاول منافستهم ، وهم يطبعون الحكومة القائمة فيهم ، والعاملة على خدمة مصالحهم ومتاجرهم ، بطابع العنف والعجب ، مثلما كان يصنع لويس الرابع عشر في الحكومة القائمة لخدمته اسرته والعناية بمصالحها ، والاقتصاد السياسي الذي يتبعون قواعده هو عنوان الدولة وسر المملكة ، ولذلك كانت انكلترة تحرص على احتكار مستعمراتها ، وتدعى لنفسها الحق كله بالمتاجرة مع مستعمرات غيرها ، وتنظم التهريب الذي تعاقب عليه في بلادها بمنتهى الحزم ، وهي لاتتسامح في هذا الشأن مع سائر الدول ، فتظلم الضعفاء وتزدرىهم ، وتقاتل الاقوياء وتضع من كبريائهم .

وما كانت انكلترة لتقبل مطلقاً ان تشاطرها فرنسة سيادة البحار وسلطان المستعمرات وتجارة العالم ، ولهذا فقد كانت تعارض معارضة لا هوادة فيها في

امتداد شواطئ فرنسا في اوروبا وافتتاح منافذ لها في الاقيانس ، ولا تتساهل في احتلال الفرنسيين انفرس ، وتصدهم عن البلاد المنخفضة ، وتدفعهم عن الاتحاد مع بلجيكة او الاستيلاء على العدو الثانية من الرين ، وبقيت هذه العواطف بكل ما فيها من شدة وولوع في سني الثورة ، ولم يكن الانتقام الذي نالته فرنسا في امريكة ايسخفف من حدتها ، بل انه مابرح يومئذ من القضايا المسلمة التي يدرك كنهها كل انكليزي من اصغر رجال الطبقة الوسطى الى اكبر مستشاري الناج ، ومن خطط السياسة الثابتة واساليبها الدائمة اضعاف فرنسا والاحاطة بها واسقاطها في كل حال وحسبها في القارة الاوربية . ولما كان الانكليز لا يستطيعون ادراك ذلك بأنفسهم ، لانه لم يكن لديهم جيش ، كانوا يلجأون للمحالفات وبيذلون لها الأموال ، وهذا سر اتفاقهم مع فينة الذي دام عهداً طويلاً ، فكانت النمسة تتناول المال من انكلترة لتقاتل فرنسا التي تنافسها ، وتدافع عن البلاد المنخفضة التي هي لها .

اماروسية فان السياسة المستقلة التي اتبعتها في اثناء الحرب الامريكية افسد ما بينها وبين انكلترة ، وبعد ان ظل الفريقان مدى من الزمن يعتبران منافهما مشتركة ، اخذ الانكليز ينظرون الى الفوارق التي تحول بينها ، فاستقر ارم في الهند واستفحال امر الروس على شاطئ البحر الأسود ، غير من حال الاتق والصلات بين الدولتين اللتين كانتا متحالفتين في الماضي ، ومنذ تعاضل شأن انكلترة في آسية قامت تناوى روسية ، واشتد بها القلق على مصير الدولة العثمانية ، لانها لم تكن ترضى ان تصل دولة تنافسها هذه المنافسة الى شواطئ البحر الابيض ، ولم يكن يكثرث البريطانيون ببولونية لان تجارتهم معها اقل من ان تذكر ، وهكذا فان سياستهم ومحالفاتهم كانت تؤدي الى هذه النتيجة المضاعفة : توسيع امبرطوريتهم البحرية والتضييق على الامبرطورية الفرنسية .

والانكليز لا يحاربون الا للتجارة ، والحرب تعطل التجارة و تعرق لها ، ولا يقاتلون الا عندما تكون مصالحهم مهددة حقيقة ، وحينئذ يخوضون غمرات القتال لانهم مضطرون له ، وبتها الكون فيه ، ويحملون اليه كل ما عندهم من صبر وثبات ،

ولا سيما ان السبب يرجع الى ما عرفوا به من اثره وانانية ، وتاريخهم حافل بهذه النقائص والغرائب التي توحى الاعتقاد باضعف حالهم ، وبذلك الاقدام العجيب الذي يملك قوى خصومهم ، فطوراً تجددهم قد خلوا اوروبا وشأنها ، وطوراً تجددهم قد اخذوا على عاتقهم قيادها ، وبينما تراهم يهملون المسائل المظلمة في اوروبا ، اذا بهم يزعمون انهم يدبرون امرها في صغيره وكبيره وحقيقه وجليله ، وبذلك ينتقلون من السلم كل السلم الى الحرب كل الحرب .

واذا غلبوا بعد القتال عملوا على تلافي امرهم واستقالة عثرتهم ، واذا غلبوا عملوا على حسن الاستفادة من النصر ، وفي كلتي الحالتين يطالبون بالهزم ويقومون بوفاء ما عليهم ، وثروتهم العظيمة تعينهم على عقد دبنون كبرى ، غير ان الغنى الذي ينعمون به يجعلهم يستثقلون العبء ولا يتحملون الاضطراب في شؤونهم المالية ، وذلك علاوة على رغبتهم السائدة في الاحتفاظ بحرياتهم التي تتضاءل في اثناء الحرب ، وقد رجعوا الى انفسهم بعد انتصارهم في حروب السنوات السبع وانكسارهم في حروب امريكة ، فاعملوا الفكرة في تدبير امورهم ، وانقطعوا الى اصلاح شؤونهم ، وعلى هذا النحو يجتازون الازمات ويستفيدون من التجارب ، ويعانون في سبيل الحرية بعد ان ادركوها ، ولكن قبل ان تألفها اخلاقهم وتحسن مراسها نفوسهم ، فيهم لا ينتهون من نضال الاجانب حتى يبدأوا بنضال انفسهم ، وقد ملأ هذا النضال القرن الثامن عشر .

وكان على رجال الدولة في اوروبا ان يقولوا ان هذه الازمة لم تكن الاولى في انكسارهم ، فقد علمهم التاريخ بان هذه المملكة ، برغم ما كانت تتخبط فيه من الافراط احياناً والاھمال احياناً ، ما برحت تظهر في العالم بمظهر باهر ، ومع ذلك فقد اضاءت ثقة الدول بها بعد ان تساحت في تقسيم بولونية وفي احتلال اقمرم من لدن روسية ، وفي تحرير الولايات المتحدة ، فاخذت تتقهقر في جزيرتها وقد اتقلت الاعباء كاهلها .

اما الشعب فقد كان يحكم عليه بانه في طبيعته لا يدعن اسلطان ، وان دستوره مفسد لكل سلطة ، ورجال الدولة ليس لديهم متابعة للامور ، ولا ثبات في السياسة

ولا تحالف يوثق به ، حتى ان دوفرجن كتب في سنة ١٧٨٣ انه لا توجد سياسة متقلبة كسياسة وزارة سان جيمس ، ولا اكثر منها خضوعا للاساليب الموقته التي تمنعها تبدلاتها اليومية من ان تكون لها سياسة ثابتة في الغارة الادورية . وقد بلغ الامر بيمض السياسيين انهم كانوا يشبهون انكلتره ببولونية ، الا انها غنية بمفكرة مجتمعة على نفسها ، وهي ليست باقية الا بحكم الصدفة التي جعلتها بمعزل عن سواها ، حتى كان يقال ان الاجانب لا يرون في انكلتره الا اساطيل عظيمة ومخازن كبيرة ، فتؤثر هذه المظاهر في النفوس ، وكان قليل من الرجال يظنون ان شيئاً قليلاً وضوضاء كاذبة وجرأة للعُدو تذهب الثقة وتبعث الفوضى والاضطراب في هذه الآلة المعقدة ، وتكشف القناع عن ضعف لا يعرفه الا اولو العلاء ، واصحاب الشأن انفسهم ، حتى ان كاترين الكبرى كانت ترى ان الانكليز يخونهم اعصابهم ، وكانوا في نظر فردريك أغنياء مترفين يباعون ويشرون ، وعند يوسف الثاني ان دواتهم العظيمة آذنت بالاضمحلال ، وقد تدخل في دائرة النفوذ الروسية كما هي الحال في السويد والنمرك .

وكذلك كان يتبنأ لها الفلاسفة والحكماء ، وذلك بسبب اتساع سلطاتها وكثرة ديونها ، ومحاولة ارلندة ان تتخلص من ربقتها كما هو شأن مستعمراتها ، وما يهددها من خطر الافلاس العاجل ، وما يثقل كاهلها من عبء الضرائب الفادح ، وكان يرى خاصة في باريس ان السلطة الانكليزية ليست الا ظاهراً مصطنعاً من القوة ، وانها على وشك الاضمحلال ، وكانوا يفكرون في فرنسة قبيل الثورة بارسال الجيوش الى انكلتره والقضاء عليها ، ويرون هذه الفكرة المنتشرة امراً من الامور البسيطة العادية ، ومن المناقضات الغريبة التي تكون مع غرابتها مألوفاً عند الناس هذه الآراء السطحية المندفعة التي يحكم بها بعض الشعوب على بعض ، تجعل خشية الاجانب في الحسد الاقصى المبالغ فيه في الايام الحاضرة ، وتجعل احتمال القضاء عليها من السهولة التي لاتصدق في الايام المقبلة .

وهذه الآراء في تعقدها وتناقضها هي التي كانت تقود رجال الثورة ، فخرم ١٧٩٣ والحصار البري قاما على مناهج ملتبسة وخطط مهمة ، ومنها نشأ خطأ

نابليون الذي كان يخيّل اليه ان الامبرطورية البريطانية ليست الا وهماً باطلاً وظلاً زائلاً ، وانه يستطيع ان يزلزل بنيانها ويسير على اعقابها الى الهند ، ولكن ثلوج روسية وقفت في سبيله ، وتحطم ذلك الجهاز الذي كان يعدّه الفرنسيون لمقاتلة انكلترة منذ سنة ١٧٩٣ وهلك الجيش معه .

اما منتسكيو فلم يكن يجارى معاصريه ، بل يدعوهم الى التماس الصداقة البريطانية ، ومحاذرة بغضاء هذه الدولة ، واجتناب الظن القاتل باضطراب شؤونها وتقلب امورها ، فقد شاعت الاقذار ان تكون السلطة التنفيذية في هذه الدولة قلة في الداخل ، عزيزة في الخارج ، بحيث اذا تعرضت لها دولة اجنبية وجعلت ثروتها او فخارها مهدداً بالخطر ، انحمت المنافع الصغرى للمنافع الكبرى واقبل الجميع يدافعون عن السلطة التنفيذية ، وهذا ما حدث عندما حاولت اوروبا ان تقاتل فرنسا التي هبت فيها عواصف ثورة لامثال لها ، يقودها اعظم رجال الحرب في العصور الحديثة ، وكانت تخضع المنافع الكبرى للمنافع الصغرى في الممالك القديمة ، وتحبط دسائس القصر ومنافسات رجال الحرب مساعي الدولة وتشل اعمالها ، وكانت الحكومات التقليدية تعترض سبيلها عقبة لاتزال من انظمتها التي كانت بسيطة المظاهر .

وبعد ان ارتبك الجميع وغدروا على التوالي باقضية العامة ، خرجت انكلترة من عدم اكتراثها المألوف وكانت وحدها قادرة على جمع الدول وقيادتها فما حسدتها بعد الآن على غناها واثرائها لانها جميعاً كانت تستمد منها ، وبرهنت على رقابة للنظام وطاعة في الحرب اكثر من بروسية ، وعلى متابعة الامور اكثر من روسية وعلى صبر اكثر من النمسة ، وبذلت من صفات القدرة ما تجاوز كل ما كانت تطمع به هذه الدول الثلاث ، ولم يستطع وزراء فينة و بترسبرغ وبراين بتحالفها جميعاً ان يكون لهما من القوة والعزيمة ما يقارن ما كان لدى حكومة وايم بيت من المضاء والذكاء والثبات ، على حين ان انكلترة كان يرى الرأؤون شعبها في يأس مظلم قاتل لم يسبق له مثال في تاريخها ، فبرلمانها مخذول مستنكر ، ومملكها كاره للسلطة الضعيفة الزائلة ، والحكم تتداوله الابدني بالرشوة

والافساد ، والاضطرابات السياسية قد افسدت كل شيء حتى الاسرة ، والاحزاب قد مزقت الشعب ، والعرش قد اضعفته المطاعين ، والمجلس قد كرهه الناس واهانوه ، فما اعظم التناقض واشد التفاوت بين تلك القوة وهذا الضعف !

٢ - وليم بيت والثورة

تقلد وليم بيت الحكم وعمره اربع وعشرون سنة وذلك عام ١٧٨٣ ، فما انقضت اشهر حتى اتى بالبرهان الساطع على مقدرته وكفايته ، وكان اعظم وزير عرفته انكلترة حتى ذلك الزمن ، وقد ادهش رجال السياسة في اوربة ايام الثورة الفرنسية وبهرهم بمبادئه الكبيرة ، ولم يكن في رجال الدولة الانكليزية مثله ، مقتصد في اعماله ، متأن في اساليبه ، بعيد عن المغامرات التي يثيرها في النفوس حب الاشياء العظيمة ، يجهل الشؤون الاوربية ولا يكثر لامرها ، ولا يعبأ باساليبها السياسية ، وهو يختلف بذلك عن اولئك السياسيين الذين لا يعرفون شيئاً عن بلادهم ولكن يعرفون كل شيء عن بلاد سواهم ، ويدبرون شؤونهم الداخلية بما يؤثر فيها من الشؤون الخارجية ، وكان يحكم في بلاده باقصى حد من القوة واقصى حد من فكرة المنابعة ، وتستند سياسته في الخارج استناداً لا يتزلزل الى السلطة الكبرى التي يتمتع بها في الداخل ، وهذه هي ميزته على رجال السياسة من معاصريه . وهو كما قال غيزو لم يكن يتجرب في الخارج المسائل الخطيرة ، ولا يثير الخصومات ، ولا يتدخل في شؤون سواه ، ولكنه كان يتقبل الاحداث العظمى بدون تردد عندما يجد انه لا مناص منها ويكره على الاشتباك فيها ، ولم يكن يسعى اي سعي لهذه الامور الاضطرابية ، ولا يبعثها من مكانها طمعاً بتحقيق آمال وادراك رغائب وتنفيذ خطط ومناهج ، ولم يكن توسيع الامبرطورية بالحرب والسياسة الرغبة السائدة عنده ، ولكن شؤون البلاد الداخلية ورخاء سكانها ونمو واضعائها وانتشار العدل الشامل فيها كان الشغل الشاغل له ... فهمة قبل كل شيء صلاح الحكومة في الداخل ودوام السلم في الخارج ، وكان يعتقد ان اصلاح الداخلي يؤدي عند

سنوح الفرصة الى عظمة الوطن في الخارج ، وكانت عبقريته مصوغة من الثبات ، وهذا الثبات يستند الى عقيدة لا تتغير في انتصار العقل السليم والرأي الصحيح .

وكان التشريع والادارة من الامور التي تأتي في الدرجة الثانية عنده ، وكانت نفسه تنصرف الى غاية هي فوق انشاء القوانين ومفاوضات المعاهدات وتنظيم الاساطيل وتعبئة الجيوش وتجريد العساكر ، الى الامور البعيدة عندما يقتضي اقناع المجلس وتسييره ، فقد كانت تثب جميع قواه للعمل ، ويصبح حينئذ اعظم رئيس عرفته انكلترة ، متمكنا من جميع عناصر الحكم في النظام البرلماني .

ولما تولى مقاليد الحكم كانت تصصف ببلاده ازمة شديدة : سلم مخزية ، دين ثقیل ، خزينة متضعضعة ، ضريبة مهلكة ، شعب منقسم ، برلمان مضطرب ، معارضة قوية تسعى للاستيلاء على الحكم ، يقودها خطباء ماهرون وبرلمانيون من الطبقة الاولى . واذا نظرنا الى ظاهر الامر وجدنا مشابهاة لموقف فرنسا عندما تسلم الاربيكة لويس السادس عشر قبل تسع سنين ، غير ان الفلاقل في فرنسا كانت ناشئة عن انحلال الدولة وانحطاط المملكة ، اما في انكلترة فقد كانت الازمة شديدة بدون شك ، ولكنها طبيعة وحيوية ، ناشئة عن نمو الأمة وتكون الدولة ، وكانت في انكلترة ، اوضاع تستطیع ان تعززها ، مؤلفة مع الزمان جامعة المرغائب الوطنية ، وكان النضال في هذا الشأن متمماً للنزاع القديم الذي انشأ اخلاق الامة واستجمع عزائمها ، غير ان هذا النضال كان بين احزاب لا بين طبقات ، وكل حزب كان يرمي الى حكم الدولة ، ولم يكن هناك حزب يطمع في ان يدغم الدولة فيه ولا ان يفكر في اوضاعها . وكان يحكم بيت بلاده بالوسائل الشرعية والاوضاع الدستورية ، ولم يكن فيها من يضارعه ، مسيطراً كل السيطرة في وزارته محبوباً كل الحب من سلطانته ومن برلانه ومن امته ، ولم يسبق في انكلترة من تمتع بمثل سلطته ، وقد اصبح بحق اقوى رجل في اوربة .

وكانت قلوب الانكليز تضطرم حقداً على فرنسا ، وقد ظهر ما يمكنه من حزازات في اثناء مناقشة المعاهدة التجارية سنة ١٧٨٦ ، على حين ان شروط هذه

المعاهدة كانت ملائمة لوجهة النظر الانكليزية ، وكانت في جماتها من الاعمال الرفيعة ، وقد قرر فيها ان تدفع فرنسا الى انكثرة نفقات حرب امريكة ، ولكن الوطنيين الانكليز لم يكفهم ذلك ، حتى ان فوكس الذي سيدعو عما قليل الى الاتفاق مع فرنسا ويحث عليه بجلال وروعة كان من المحرضين على سياسة النزاع والخصومة ، وقد نادى باعلى صوته : ان فرنسا هي عدو انكثرة السياسي ، ولكنه لا يذهب الى حدا التاكيد بانها ينبغي ان تبقى كذلك عدواً لا يملثم مع بريطانيا العظمى ، وانها لا تستطيع ان تشعر بحاجة تخامرها الى مصافاة هذه المملكة ، فاذا كان هذا الامر غير محتمل الآن فما هو بمستحيل ، فاجابه بيت قائلاً : ان عقلي ليأبى هذا التاكيد ولا يبعد احتمال الاتفاق شيئاً غريباً ومستحيلاً ، فمن الضعف ومن الطفولة ان يقد شغب عدو الآخر الى الأبد . غير ان هذين الخصمين في نضالهما الحماسي كان كلاهما بعيداً عن العمل الذي يهيأ للقيام به في حروب الثورة الفرنسية ، على انها في الحقيقة اذا كانا قد غيرا لغتهما بعد ذلك فانها لم يغيرا شيئاً من اخلاقها فما زال فوكس خطيباً وما زال بيت رجل دولة ، وكانت الاغلبية في جانبه ، ولكنه اضحى غرضاً للشتم التي كانت تجربحه وتؤذيه اكثر من كل شيء .

وفي اثناء قيام بيت باعباء السلطة لم يكن له في بادئ الامر النفوذ الكافي ، وكان في جملة مايتهم به بمالاة فرنسا ، فهو لا يستطيع ان ينال مايريد الا باحراز انتصار ينتقم به من هذه الدولة ، ويرضى كبرياء الانكليز وضغنتهم ، فسنتح له فرصة الثورة الهولندية سنة ١٧٨٧ وكانت فرنسا تشد يوه مذارر الوطنيين وتحاول اكراه السلطات على التسليم ، فتحالفت انكثرة سنة ١٧٨٨ مع هولندة وبروسية ، واتمت هذا العمل بنظام دفاعي يخيف يحمل لها القول الفصل في شؤون اوربة متى ارادت ذلك .

وبفضل هذا النجاح استطاع بيت ان يجتاز اشد المحن التي مرت بحكومته ، فقد اصيب الملك بالجنون ، وظن الاحرار اصدقاء ولي العهد انهم سينتزعون السلطة من الملك الذي كان حراً في نزعته واصوله ومبادئه وان حكم مع المحافظين ، فونف

بيت بجرأة في سبيل مهاجمة ، وثبت لملاتهم وقاد البرلمان الى تحديد سلطة مجلس الوصاية ، ولما افاق الملك مما اصابه في بدء سنة ١٧٨٩ شمل الناس السرور والابتهاج ، فاستقرت الساطة المالكة في قرارها واعتدلت في نصابها وتمكنت من قلب الامة ، وزاد حب الشعب لبيت اكثر من قبل ، واهدت انكلترة الى اورية هذا الرجل القوي الكبير على رأس حكومة تتمتع بمكانة عظيمة ، وتستمد قوتها الخطيرة من طرائفها الحرة ومناهجها الوطنية وعناصرها القومية .

وقد نهضت انكلترة واصلحت من امرها في الوقت الذي كان كل شيء يتمزق في فرنسة ، ولم يكن يظهر ان فيها دواء لاصلاح الحالة الا الثورة العامة ، على حين ان انكلترة كانت تنشأ من نفسها وتستمر في طريقها ، سائرة بالنمو المعتاد والتقدم المألوف ، متطورة في اوضاعها ومؤسساتها ، وهذا التناقض بين المملكتين يرجع الى بدء تاريخها ، وقد اصبح قانوناً لهما على وجه التقريب ، فالانكليز يمتازون بفكرة سياسية تنقص الفرنسيين ، ولديهم دستور وتقاليد ، وقد اوجد العهد القديم في فرنسة طبقة من النبلاء وفي انكلترة طبقة من الأشراف يحفظون مميزاتهم بحسب ماؤدونه من الخدمات لبلادهم ، ويبدلون في سبيل امتهم .

وتألف في انكلترة حزب من الديمقراطيين ، جم النشاط دائب الحركة ، ولكن هذا الحزب كان ينظر اليه في انكلترة كما ينظر الى فئة مزدرة لاسلح عندها ولا مال ولا نظام ولا قيادة ولا رئاسة ، ولم ينتشر هذا الحزب كثيراً في انكلترة ، ولكنه خدع عدداً كبيراً من الفرنسيين بما ظنوه من انه ستقوم ثورة في انكلترة تشابه الثورة الفرنسية ، التي كانت في اول امرها موضع اعجاب الاحرار وعطفهم ، غير ان الاعلية نبذت فرنسة نبذاً عاماً بعد تطور الامور فيها ، وظهر الفرق بين الانكليزيين والفرنسيين ، فالاولون اصحاب مبادئ وقواعد ، اما الآخرون فاتهم يضعون القاعدة ويحاولون ان يخضعوا لها الحوادث ، والانكليز يسخرون جميع مداركهم للتأليف بين النظر وبين العمل ويجاد فلسفة موافقة للوقائع ، ولذلك فقد كان الادب الواحد والمذهب الواحد يبعثان في هذه العدو من البحر هدامين متحمسين وفي تلك العدو محافظين متشدين .

وكما ان النضال السياسي في القرون الوسطى قدانف بين الاشراف والشعب في انكلترة لمقاومة خصائص الملك واستبداده ، فكذلك كان امر العوام والاشراف في مقاومة الثائرين الذين كانوا يهددون العهد (الشرط) والملكية ، وبمقاتلة الانكليز الثورة كانوا يعيدون ذكرى تقاليدهم التاريخية ، فكانت حرب المقاومة حرباً وطنية ، وكانت انكلترة خصم الثورة العنيد لانها وحدها ناضلتها بمثل عدتها ، بالمبادئ الوطنية والعواطف الشعبية ؛ واذا كانت ظهرت في اثناء الثورة بذلك المظهر الجليل ، وظهرت القارة الاوربية بهذا المظهر من الهوان والصغار ، فلأن الشعب البريطاني — كما قل منتسكيو فيه — هو الشعب الذي عرف اكثر من كل شعب ان يقدر حق قدرها هذه القواعد الكبرى في العالم : الدين ، التجارة ، الحرية .

٣ — منشأ بالمرستن ومميزاته

بعد حروب طويلة استمرت نيرانها بين فرنسا وبين بريطانيا . استقرت السياسة البريطانية على اساسين عظيمين : الاول : سيادة البحار ، والثاني توازن الدول ، ويشتمل من هذين الاساسين امران آخران : الاكتفاء بحيش برى قليل ، وتأمين سبل التجارة وحريتها ، وهو ما تقوم به السياسة البريطانية ، على ان يكون الاسد البريطاني ناظراً بعينين اثنتين : احدهما شطر اوربة واخرهما شطر العالم ، وبذلك تكون علائقها مع الجميع دائمة وتبعاتها متشابهة متماثلة .

وهذه القواعد السياسية هي التي اوحى للورد كاستلرغ ان يقول : ليس همه في معاهدة فينة ان يعود والويته معقودة بالنصر ، ولكن ان يعمل على توجيه اوربة في طريق السلم ، وكان كاستلرغ محافظاً في السياسة الداخلية ، ولكنه يجتنب التدخل في شؤون الدول الاخرى واوزاعها ويشارك بذلك رأي مواطنيه ، وكان كاننغ خلف كاستلرغ في الامور الخارجية يصرح بان انكلترة ليس لديها اي دافع للتدخل في شؤون الدول المستقلة ، ولذلك فانه اسرع بالاعتراف بالمستعمرات الاسبانية التي اعلنت استقلالها في امريكا الجنوبية ، وقال في ذلك

كلمة تاريخية في انه دعا الى البقاء علماً حديثاً حتى يقيم التوازن مع العالم القديم . .
لكنه ارسل بعد قليل جنوده الى البرتغال لمؤازرة الدستوريين ودفع
العدوان الخارجي .

وقد انحل تعاون الدول الاوربية الكبرى بعد القضاء على نابليون، وكان يرى مترنيخ
ان هذا الانحلال ناشىء عن خطأ « اثائر » كانغغ ولكن رأى اكثر الانكليزي ان
انقضاء تعاون الدول الاوربية يرجع الى خروجه عن قواعده الاصلية وغاياته التي انشئ
لأجلها اذ اصبح وسيلة للرجعى العقيمة ، اما كانغغ فقد كان من ابعده وزراء الخارجية
البريطانية اثرأ واعظمهم خطراً ، وكانت له المساعي الجلى في تحرير اليونان ، وهو
محافظ في السياسة الداخلية حر في السياسة الخارجية ، حتى انه ليعتبر واضع
تقاليد السياسة التي اتبعت من بعده .

وعندما ابتدأ بلمرستين عهده الطويل في وزارة الخارجية البريطانية كان قد
طوى امر التحالف المقدس والتعاون الاوربي ولم يبق منها الا الذكرى ، وقد
تقوض الاتفاق بين روسية والنمسة على اثر تحرير اليونان ، واضمحلت روح
الرجعى التي سادت بعد الحروب الطويلة ، واخذ الزمان يساير المبدئين الجديدين:
القومية والديمقراطية . ولم يكن بلمرستين من اصحاب الخيالات ، ولا من اصحاب
العواطف ولا من دعة الافراط في الاصلاح والتغيير والتبديل في الشؤون الداخلية،
ولكنه كان محافظاً في اول امره ، ثم انضم الى الاجرار ، يشاطر الانكليزي
المتوسط رأيه في كره الظلم والاضطهاد ، ويدبر الامور بحسب تقاليد كانغغ .

وقد اختلفت الآراء فيه ، فمن قائل انه كان من اكبر وزراء الخارجية
البريطانية ، ومن قائل انه كان محرضاً جعل اوربة تعيش في جوعاصف ، وعلى
كل حال في اثناء العشرين سنة التي قضاها بلمرستين في الحكم والسياسة كان يتنازع
سياسة الاحرار رجلاًن : احدهما روسل وهو زعيم الحزب الرسمى ومن اصحاب
الآراء والمبادئ ، كثير انتورع ، صعب العلاقة ، وثانيهما بلمرستين الذي نحن في صدد
ذكره والذي كان مشبعاً بالافكار الارستقراطية وحب التسلط ، ولكنه مع ذلك

كان رقيق العشرة ، فكة الاخلاق ، لطيف النكتة ، يحسن ارضاء النواب ، ويتجنب اليهم بأساليبه العتيقة التي لم تكن تصل الى الحرب ، فيستميل الرأي العام بحمل انكلترا في موقف المسيطر ، ويخاطب شعور الوطنية عند الانكليز ويستعمل مايسميه الرئيس روزفلت الآن بسياسة العصا والعلف التي يصفق لها الجمهور الجاهل.

وكان اعظم فوز له في حياته السياسية المديدة ، خطبة قالها على اثر اعتداء جرى في اليونان على يهودي متجنس بالجنسية البريطانية ، وفيها هذه الجملة الشهيرة: كان الروماني يصيح بلى فيه ان رومة تحميه من كل اهانة ، فكذلك البريطاني حينما وجد يشعر ان عين بريطانيا الميظنة تطاعه ، وان ساعدها الطويل يحميه من كل اعتداء ، وقد اصاب بالمرستن اخفاق بعد هذا النجاح فقد تقمت المملكة منه استثنائه احيانا في السياسة ، ولا سيما موافقته على عمل نابليون الثالث في فرنسا من غير مشاورة الوزراء ، فخرج من وزارة الخارجية ولكنه عاد بعد قليل لرئاسة الوزارة .

واذا كان اسم كاستلرغ مقرونا بمعاهدة فينة ، واسم كانغ مقرونا بتحرير اليونان ، فاسم بالمرستن يذكر قبل كل شيء بانشاء بلجيكة فقد كانت الثورة البلجيكية وتسبب بالمرستن مركزه في سنة واحدة ، فساعد على ادراك بلجيكة حيادها واستقلالها وعلى ابرام معاهدات سنة ١٨٣٩ ، وكان يعتقد بحق بلجيكة الكاثوليكية فيما تريده من التخلص من حكم ملك هولنده البروتستاني ، والتحرر من القيد الذي وضعته في عنقها معاهدة فينة من غير ارادة شعبها ولا موافقته ، وكان يخشى ان يجز نقض هذا الشرط من معاهدة فينة الى حرب اوربية .

وكانت المعضلة الشرقيةتهم احرار الانكليز وتشير هواجسهم . اذ لم يبق خلاف بين بريطانية وبين تركية بعد تحرير اليونان ، فاقدم بالمرستن على شد ازر العثمانيين في قتال محمد علي ، ولم يكثر ثبأ بيد فرنسا ولويس فليب للخديوي ، ولا بمخاوف بعض زملائه من عواقب هذه السياسة وكذلك اظهر بالمرستن ميله لمساعدة الاحرار في جميع الممالك الاوربية ، حتى ان خلافا حدث يومئذ بين الملكة فكتوريا وبين

وزرائها ، فكان الوزراء يرون ان الملكة التي تعمل بمقتضى الدستور ليس لها الا ان تطلع وتعلم ، وكان الملك جورج الثالث آخر ملك في انكلترة راقب سياستها الخارجية ، وعلى هذه الطريقة فقد شجعت انكلترة وفرنسة معها تركية على مقاومة روسية والنمسة وحماية اللاجئين اليها .

وفي العهد الذي مضى بين سقوط نابليون وبين سنة ١٩١٤ لم تدخل انكلترة في نزاع دولي الا مرة واحدة وهي في حرب القرم . ويرى الانكليز ان هذه الحرب كانت سيئة الطالع ، واذا كانت الغاية التي ترمى اليها من مقاومة الروس حسنة ، فان السياسة البريطانية لم تبد من البراعة في استثمار هذه الحرب والانتصار فيها ، بما كان يفيد العالم ويعود عليه بالرخاء .

واهم ما قام به بلمرستين في اثناء وزارته الاخيرة (١٨٥٩ - ١٨٦٥) حينما كان وزير الخارجية جوهن روسل رئيسه القديم ، مؤازرة ايطالية في تحقيق اتحادها بدون ان تخوض بلاده غمرات الحروب ، وذلك انه بعد ان استطاع غرييلدى ان يخرج من صقلية جيش نابلي رفضت انكلترة ان توافق فرنسة على منعه ومقاومته وكانت الامة الانكليزية تعطف على الثائرين بضد القصر الملكي الذي كان يرى غير ذلك ، وقد اعرب اللورد روسل في برقية نطق فيها باسم الوزارة عن اتجاه البلاد فقال : الايطاليون انفسهم افضل حكم في مصالحهم الخاصة ، والشعب القاطن في جنوبي ايطالية له الحق ان يقطع صلته برؤسائه السابقين ، وقال في ختام هذه البرقية بعد ان ذكر انه لا يستطيع ان يرى سبباً كافياً لاجابة النمسة وروسية وروسية الى ما يريدونه من استنكار اعمال فكتور عمانوئيل : ان حكومة صاحبة الجلالة تتوجه بابصارها الى الخطة المثلى التي استعملها لنفسه شعب يريد ان يؤسس بيته على قواعد الحرية ، ويثبت اركان استقلاله في وسط عطف اوربة وامانيتها الطيبة ، فكانت هذه البرقية مترجمة عن المبادئ الحرة ، كما كانت خطبة بلمرستين في التشبه بالرومان عنوان الدعوة للقوة والسيطرة .

غير ان سياسة الرجل القديم لم يكتب لها نفس النجاح في حرب الفصل
الامريكية بل هددت بوقوع حرب بين الولايات المتحدة وبين انكلترة ، ولم يكتب
لها النجاح ايضا في الثورة البولونية ولا في قضية شلزيغ هولشتاين ، وكانت
انكلترة عند موت بليرستن في خلاف مع فرنسا وبروسية وروسية والولايات
المتحدة .

ومميزات سياسة بليرستن هي مميزات السياسة الخارجية الانكليزية ، وهي السياسة
القائمة — كما قال دزرائيلي — على شؤون البريطانيين في الخارج ، وهذه السياسة
تتمثل في طائفتين من رجال السياسة فطائفة من اشباه روبريل وغلادستون يقوم
مذهبهم على بسط السيادة الانكليزية عن طريق الانتاج والصناعة ، ويحاذر هؤلاء
في سياستهم توسيع الامبرطورية خشية من اثاره المماكل والاشتباك مع الشعوب
الاخرى ، واما الطائفة الثانية ورجالها امثال بليرستن ودزرائيلي وسلسبوري
(وان كان الاول اصبح في عداد الاحرار) فان سياستهم تقرر ان الانكليزي لا
بأس به في بلاد غيره ، ولكنه افضل في بلاده ، وهم يتبعون سياسة لا تورع فيها
ولا حذر ، ويؤيدونها بالسلح حين الحاجة ، وهم يخاطبون الشعوب الضعيفة بلهجة
قاسية عنيفة ، تبقى آثارها حتى في مخاطبة الشعوب القوية ، وفي كل مكان تهدد
فيه مصلحة من مصالحهم ، فانهم يدافعون عنها كأن هناك عهداً او ذمماً او حقاً
مؤكداً بعقد ، وهم باعمالهم يستفزون الشعوب ، يعرفون ذلك ويعمدونه مفخرة
لهم ، ويعتقدون ان شعبهم هو الشعب المختار ، والسيد المنتظر ، وحامي الضعفاء ،
ويأبون التواطؤ مع الذين هم دونهم ، كما انهم لا يفرطون في الاشتباك والتعاقب مع
اشباههم ، والعزلة الباهرة من جملة عاداتهم وطبائعهم ، والشعب الانكليزي لا
يتسامح مع الضعيف ولا يكتفي بالتناجح ، ولكنه يطالب بالنصر الظاهر ويلج ويأمر ،
ولا يبالي بالعقبات التي تعترض سبيله .

وحقوق الدول عند الانكليز واسطة لحماية مصالحهم ، وهم يعرفون قواهم ويريدون
الاستئثار بها ، ويمكن ما يذكر في مواخذة رجالهم حادثة اطلاق القنابل المشهورة

على كونهاغ ، ومعاملتهم لليونان في قضية احد الرعايا البريطانيين ، وفي الانتخابات التي جرت سنة ١٨٥٧ اعاد الشعب البريطاني الى المجلس النيابي من ايد بالمهرستن في خطته وتنكر للذين عارضوه ، وقد سقط بالمهرستن في هذا المجلس الذي كان مرآته لانه طلب معاقبة الذين تأمروا على نابايون الثالث ، ولم يكن ذلك لانه اراد تغيير الوضع في حماية الاجئين ولكن لأن في هذا العمل خضوعاً لما طلبته دولة اجنبية من انكلترا في تغيير نظامها المتعلق بالاجئين المتأمرين ، وهذا انكار لنفسه ومميزاته التي رفعت شأنه في بلاده ، فانقلب عليه المجلس الذي هتف باسمه واجتمع تحت لوائه . والشعب البريطاني يدعو الى التمسك بالمثل العليا ومحض عليها بقدر ماتستوجب ذلك اساليب سياسته ، وما تقتضيه مصالحه وغاياته ، وعلى هذه الشروط بقيم قسطاس المبادئ . ويعتبر كل دولة عضواً في الاسرة الانسانية مكلفة بواجبات الشرف والنبيل والصدق والولاء نحو الآخرين ، واذا قامت بذلك فانه يعترف لها بحسن الصنيع واحياناً بالتجرد والكرم والفروسية ، ولكن لا يقي اثر للعطف والشمور والصدق والوفاء والامانة والانسانية متى اصبحت قواعد الدولة ومقاصدها مهددة .

ولا يستنكرون في انكلترا تغيير رجال الدولة مذاهبهم وآراءهم واخزائهم اذا لم يغيروا ما بانفسهم من صفات ومزايا حبيبتهم الى الشعب الانكليزي وجعلته يسير وراءهم ، وفي مقدمة هذه الصفات مناضلة الخصوم والصبر في الشدائد والتجملد في الحوادث والنكبات ، وكثيراً ما يحارب فريق من سياستهم خطط الفتوح والزيادة في اعباء المسؤوليات التي يتحملونها ، ولكنهم عندما تلقى اليهم مقاليد الحكم لا يبالون اذا كانت اعمالهم تخالف رغباتهم انسابية وآرائهم المعلنة ، كذلك كان شأنهم في مصر والكاب وارلندة والهند . ولما انتقد المسترمورلى الاعمال العنيفة في السودان واتحى بالائمة على اختلاف الوجدانين : وجدان الوطن الائم والوجدان الآخر لهذه البلاد الفسيحة التي لا تحيط بها ابصاركم . لم يكن في جواب بلفور الوزير الاول شيء من البحث عن الشفقة والانسانية واكتفى بأن قال : لقد قام كتشنر بما

يوجيه اليه ضميره ، واني لم آذن بشيء لا يتفق ومصالح البلاد ، وقد تكون هناك اعمال لا تقبل بقبول حسن . وكان شمير لن الكير قد غامر في بعض الامور ، فقال عنه مادحوه : لو كان النجاشي حايضنا لوضع الناس على مفارقنا تيجان الفخر فلا يجوز لنا بعد ان اصابنا من الفشل ما اصابنا ان نقف في مواقف الضراعة . وقد اعجب الشعب كله بهذه الكلمات الفخورة وهتف لها .

واوحت حرب البوير الى الانكليز آراءً سياسية قيمة ، فكان زعيم المحافظين اللورد سلسبوري وزعيم الاحرار وايم هاركو يتفقان في انتقاد اهل زمانهم وهذا التشابه بين آراء الاحرار والمحافظين من مألوف سياسة الانكليز ومأثور عاداتهم ، فقال الاول : انني واثق ان الرأي العام في هذه البلاد يتأثر بآراء رجعية تقصيه عن الآراء التي سبق لها ان سادت فيه منذ خمسين سنة ، فيظن انه من واجبنا ان نأخذ كل ما نستطيعه ، وان نقاتل جميع العالم وان يبدأ النزاع عند كل سنوح فرصة ، وهذا مذهب يحمل في طياته اخطاراً شديدة ، اذ يحرض علينا جميع الامم الاجنبية ، وليس هذا مما يجوز اهماله ، والسمعة التي لنا في اوروبا الحاضرة ليست في حال من الاحوال مما ننفع به او نغبط عليه ، ولكن هناك خطر اشدهو اننا نحمل انفسنا عبئاً هو فوق طاقتنا ، ومهاكنا اقوياء رجالاً وشعباً ، فان هناك مدى لانستطيع ان نتعداه ، واذا حاولنا ذلك فاننا نقتاد الى الدمار ، وكثيراً ما قضت مثل هذه الجرأة على دولة عظيمة تملك ما تملك من البأس والقوة .

اما زعيم الاحرار فقد اورد ما اورده اللورد سلسبوري في شؤون السياسة يومئذ وقال : هذه عبرة يجدر بنا جميعاً ان نتأملها ، فقد قيل لنا انه ينبغي ان نستفيد عبراً كثيرة من هذه الحروب في الامور العسكرية والبحرية ، ولكن هناك عبرة اعظم واجل تفيد امن البلاد وسلامتها . وهي ان لا تحمل على اليأس والقنوط من الذين يزيد ان يكونوا اصدقاءنا بسبب غرورنا وجهلنا ، ولانسي معاملتنا الذين يقعون تحت نفوذنا وتأثيرنا ونطعن فيهم ، بل تسوسهم بروية وحذر ومراقبة للنفس ، كما يليق بمكانة امبرطورية تشعر بعظمتها وقوتها .

٤ - النزاع بين انكلترة وفرنسة

استقلال البلجيكيك والمسألة الشرقية

كانت سياسة الدول نحو سنة ١٨٣٠ ليس فيها ما يدل على التقارب ، وكانت كل دولة تهم الأخرى بنيات سيئة نحوها ، ولم يكن احد يعرف ما يفكر فيه رجال السياسة عند كل دولة وما يجري في خواطرهم وما يقدر من الاتفاق بين اقوالهم واعمالهم ، وقد اشتمكت السياسة الانكليزية مراراً عديدة في مشكلات شتى يأتي في مقدمتها استقلال البلجيكيك والمسألة الشرقية .

اما استقلال البلجيكيك فقد كان يهدد بالخطر العظيم العلائق بين انكلترة وبين فرنسة ، وذلك منذ انتقضت بلجيكية على هولاندة وطالبت باستقلالها وقد نشأ الخلاف من ترشيح امير فرنسي ليملك في تلك البلاد التي ينعت اهلها في فرنسة كما ينعت البولونيون بفرنسيي الشمال ، فعدت انكلترة ذلك تحدياً لها ، حتى ان الوزارة الانكليزية صممت على الحرب فيما اذا تم ذلك ، وفي اول كتاب ارسله بلهرستن سنة ١٨٣١ الى السفير غرنفيل قل له : لا بأس من ان تبين في اول فرصة مناسبة اننا حريصون كل الحرص على توطيد العلائق الحسنة مع فرنسة ، وان نحصى اياها في احسن حال واهناً بال ، ولكن على شرط ان تقنع بما تملكه من اجمل بلاد في اوربة ، ولا تعمل على ان تثير من جديد اسباب اعتداء او فتوح .

وقد عقد مؤتمر في لندرة لتسوية أمور البلجيكيك ، فعين لها فيه حدود لم ترضها ، كما ان حصتها التي قررت من الديون العامة لم توافق عليها ، حتى ان فرنسة رفضت الاتفاق تايبدا لفكرة البلجيكيين ، الذين كانت تعتقد انهم سيكونون معها جسماً وروحاً ، وانها ستضع يدها على الحصون المكتظة بالذخائر والتي كانت قد انشئت لمقاومتها ، وبلغ الامر بوزير الخارجية الفرنسية انه ارسل الى المؤتمر كتاباً في الدفاع عن وجهة نظر البلجيكيك ، معلناً ان فرنسة لا توافق على الشروط اذا لم تكن متفقة مع مصلحة الفريقين . وقد اداع هذا الكتاب قبل ان يصل الى المؤتمر ، فكتب

بلمرستين الى سفيره غرنفيل ليحتج على ذلك ويطلب من الوزير الفرنسي ايضاحاً لما كتبته ، وقال : انه اذا ارادت حكومته ان تنكر اعمال ممثلها يجب عليها ان تنبئ بذلك جميع اولى العلاقة الذين يجري التعاقد بينها وبينهم لان تبلغهم الامر عن طريق اناس آخرين ، واذاف بلمرستين ان الحكومة البريطانية كان بوسعها ان تنهى عمل المؤتمر ، لولا انها تتوقع ان تصلها بيانات مرضية عما قريب ، وكان سباستياني وزير الخارجية الفرنسية حريصاً على السلم ولكنه شعر بالاهانة التي وجهت اليه فقال ان برسن الممثل الفرنسي لم يكن مأذوناً بنشر الكتاب ولا بأن يطلع عليه غير نواب بروكسل ، وعلاوة على ذلك فان مؤتمر لندرة لا تتجاوز صلاحيته التوسط بين الفريقين ، وليس له ان يعلى عليهم او امره ، وليس باستطاعة فرنسا ان تكون عضواً في تحالف مقدس جديد يستبد بالحكم في العلائق بين الامم .

ولما علم اللورد غرنفيل بان انتخاب الدوك دى نور ملكاً للبلجيك اصبحت امراً مقضياً ، وان وفداً قدم باريس ليحمل النبأ رسمياً الى ابيه ملك فرنسا لويس فليب كتب الى حكومته قائلاً : لم ار ابدأ تغييراً في الحالة النفسية والخلقية وفي اللغة مارأيت هذا اليوم من سباستياني وزير الخارجية الفرنسية ، ففي الساعة الواحدة كان شديد الحماسة يريد الحرب ويركب لها كل مركب ، وفي الساعة الخامسة ونصفاً جاء الى لييلغني ماجرى من انتخاب الدوك دى نور وليطالعني بصوت متناه في الهدوء والمودة ان الملك قد اجاب بالرفض . . ثم قال وقد بدت عليه علام الجذ : ان انا بكم ثقة غير محدودة ، ولا نريد ان نكتممكم رأياً او نطوى دونكم امراً ، وسنعمل دائماً بكل صراحة . . وكان بعد ذلك ان اتهم سباستياني بلمرستين انه يدس الدسائس في البلجيك وانه يقول شيئاً الى وزير بريطانيا العظمى في بروكسل ويقول ضده الى تليان ، وكان الوزير ان يبغض كل منها صاحبه ويتر بص به الدوائر .

فلما ابلغ غرنفيل ماقاله سباستياني الى بلمرستين ، ارسل كتاباً عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية الى السفير اللورد غرنفيل يقول فيه : قد يكون من اللازم افهام سباستياني انه يجدد به ان يعلم السيطرة على نفسه ، واذا لم ينجح في ذلك

فان عليه ان يصب غضبه على من شاء ولكن ليس على انكلترة ، وليس من عادتنا ان نهم باننا قد اصبحتنا مخادعين ، فارجوك ان تبين له ان تليران لم يحسن ادراك ما قلت له ، ويظهر انه قد بالغ فيما نقله . . . فقد سألتني ان ادعو السفير الانكليزي ان ينقطع عن مؤازرة البرنس دوانج ، فاجبته بانى سأوصيه بان يعمل بما قالت له دائماً ان يعمل ، وهوان لايتحزب لاحد ، ولكني لم اقل لتليران او على الاقل لم ارد ان اقول له ان السفير الانكليزي سيمضد المرشح الفرنسي . فكتب غرنفيل جوابا يقول فيه : ارجو ان تكون المظة البليغة النافعة التي وعظت بها سباستياني قد علمته ان يتمكن من نفسه ، وهذه الطريقة التي اتبعها كثيراً ما يلجأ اليها لاطلاع حكومة على امر قد لا يكون من الجملة ان تبليغه مباشرة ، ولكن عرضا في كتب يعرف انها ستفتح وتقرأ . وقد طلب بلمرستين عزل برسن الممثل الفرنسي الذي اعتبره البلجيكيون انه غرر بهم فلستقال بعد ان تخرج موقفه ، وكان في آخر الامران انتخب ايوبلد دوساكس كويورغ ملكا ، وتزوج بنت لويس فليب ارضاءاً لفرنسة ، وهو القائل عن نفسه بسبب اطماع الدول المتضاربة : انه بين المطرقة والسندان .

هذا ما كان من استقلال البلجيك ، اما ما كان من المسألة الشرقية فان وزارة الخارجية البريطانية كانت تنظر بريبة الى مطامع فرنسة في مصر وفي سورية ، وكانت مغامرات بنابرث لانزال مرددة في الخواطر ، وجاء فتح الجزائر فعده كثير من الفرنسيين خطوة في سبيل الاتجاه الصحيح ، وانه لو ترك بولانيك لعمل اعمالاً عظيمة في سبيل هذه الغاية ، وقد ارادت فرنسة ان تتوسط بين محمد علي وبين السلطان . . وكانت سلامة البلاد العثمانية يومئذ من المبادئ المقررة ، فان انكلترة مع انها كانت معارضة لتساط فرنسة على مصر ، فقد كانت معها على وفاق في صد روسية ومنعها من التدخل . . .

وعند ما اشتدت الازمة بين فرنسة وانكلترة بسبب استفحال خطر محمد علي ، كانت كلتا الدولتان تقيم العقوبات الواحدة في سبيل الاخرى ، فكتب القائم باعمال

السفارة الانكليزية في فرنسا الى بليرستن : انه يوجد في فرنسا ما هو ايجابي وما هو مبهم في آن واحد ، اما الايجابي فهو الامر الذي لا يراد ، واما المبهم فهو الامر الذي يستطيع ، وكذلك كتب غيزو الى تيرس عن موقف الحكومة البريطانية يقول : ان للحكومة البريطانية مصالحتين في المسألة الشرقية : احدهما اقضاء روسية عن القسطنطينية ، والثانية خشية النفوذ الفرنسي في مصر ، وتأثير الحوادث الغربية فان روسية لا تأتي التنازل عن مدعياتها في ان تقوم وحدها بحماية السلطان ، وتبذل موعونها لانكلترا حتى تضمف باشا مصر ، على ان بريطانية العظمى لا تجهل ان تمسكها بسياستها قديضر بحسن التفاهم مع فرنسا ، ولأجل الاحتفاظ بهذا التفاهم فقد تميل الى بعض التسامح والتساهل ولكني اعتقد انه ليس في نيتها ان تدع هذه الفرصة تمر بدون ان تصيب انكلترا مبتغاها في الشرق .

وقد افهم مندوبو فرنسا رجال القسطنطينية ان انكلترا ترمي الى مقاصد مكيفلية في حمل السلطان على محاربة محمد علي ، والقول بأن اخلال انكلترا لمصر افضل من بقاءها بيد الوالي العاصي ، لأن ماتضع انكلترا يدها عليه تحتفظ به ، وكان مندوبو فرنسا يعملون في القاهرة ايضا على احباط السياسة البريطانية ، ولم تكن تجهل السفارة الانكليزية في باريس هذه المكائد والدسائس ، كما ان بليرستن كان يعتقد بتعذر الاتفاق مع فرنسا ولا يرى مندوحة عن القطع النهائي ، ولو ان بريطانية تركت السلطان وشأنه لاصبحت الامبرطورية العثمانية منقسمة الى دولتين : احدها تابعة للسياسة الفرنسية والثانية للسياسة الروسية ، اما انكلترا فانها لا تصبح بمعزل فحسب ، بل ان مقامها في الهند يمرض للخطر ، وكان يرى بليرستن انه يتخلى عن الوزارة بدلاً من الموافقة على ذلك ، وقد تردد زملاؤه بدءاً ذي بدء ثم انقادوا الى خطته ، وآل الامر الى اتفاق انكلترا وروسية والنمسة وبروسية مع تركية وبقاء فرنسا وحدها تنادي بغدر بليرستن وكيدة . وظلت السياسة تسير صامتة في طريقها ، بدون ان تكثر بعواطف فرنسا ، فاشتهد هياج الفرنسيين على انكلترا ، وكتب حينئذ تيرس الى غيزو ان انكلترا

لاتقدر خطر العمل الذي اخذت على عاتقها القيام به ، والمشكلة التي وقعت بها ، فيجب افهام وزير خارجيتها هذه الحقيقة ، ويجب ان تعامل بلمرستين كما يعامل ملك ، وان توجه اليه الاسئلة بجوأة ، وان تعلم اذا كانت انكلترة تريد اثاره القلاقل في سورية ، وماذا تعمل اذا فرض بلاشا مصر مقترحات السلطان ، واحمله على الاعتراف لك بانه كان متهوراً في خطته ... ولكن غايك ان تعني باسمئلك حتى لا يكون عدم الجواب عليها يسبب قطع العلائق . وكان لويس فليب يقول ايضا للقائم باعمال السفارة الانكليزية : ان انكلترة تريد ان تعطي ، ولكن هذه العظة ستكون خطراً على العالم كله . غير ان بلمرستين كان حازماً لا يؤخذ بتهديد او وعيد ، ولا يدع الرأي الذي يراه ، وليس في طاقة غيره ان يخرج منه قيد اصبع ، مهما كان بارعاً في الافناع ، وقد سلكت فرنسة خطة جعلها في عزلة عن غيرها واضعفت من شأن ملكها ومن هيبة سلطانها ، حتى كتب بلمرستين الى سفيره في باريس يقول : اذا كانت اللغة التي تخاطب فيها مشتملة على التهديد والوعيد او كانت مخفوفة بالحدز والحيلة ، فارجوان تحيب بمثل اللغة التي تخاطب بها ، وبالبراعة الماثورة عنك بتصارييف الكلام ، وجدير بك ان تبين بافضل طريقة ودية بسيطة ، انه اذا دعتنا فرنسة الى النزال فستجدنا امامها ، واذا خاضت غمار الحرب فستخسر سفنها ومستعمراتها وتجارها قبل انتهاء الحرب ، وان جديشها في الجزائر لا يبقى بعد الآن من بواعث قلقها ، واما محمد علي فسيذتهي امره بان يلقي في النيل .

وبعد ان بلغت انكلترة ما ارادت واخرجت محمد علي من سورية ، كانت تشعر فرنسة من ملكها الى اصغر رجل في شعبها انها قد اهينت اهانة كبرى ، وان انكلترة تريد ان تجعلها دولة من الطبقة الثانية ، وكان غضب فرنسة بالغاً حده - كما هي في الساعة التي تغضب فيها - وقد كتبت الملكة فكتوريا كتاباً يدل على راحة عقل الى ايوبلد وعمرها لا يتجاوز عشرين عاما قالت فيه : ان فرنسة هي التي وضعت نفسها في هذا الموقف الحرج ... فقد ابت الا ان تملك خطة منفردة ، وكانت تتردد بالأعتقاد بفائدة الوسائل مع موافقتها على المبدأ ، وعلى كل فمهي الا هانة التي

جرحت كرامتها؟ ولماذا ترفع صوتها بالحرب؟ لقد تجاوز الأمر على ما اظن ما كانت تريده الحكومة الفرنسية، والآن يجب على فرنسا ان تصلح كل شيء، وان تهدى، القلق والاضطراب، وهو غير يسير، ومع ان فرنسا تقع عليها تبعه الخطأ كله، فيجب تهدئتها، وينبغي ان تأخذ مكانها بين الدول الخمس، وليس في ذلك ادنى صعوبة.

وكان يرى غرنفيل انه في حالة اشتداد الازمة لاتبقي فائدة للسياسة، وان كانت تبذل من الوسائل ادقها والطفها في مجتمع يضطرم بنيران الحقد والبغضاء، واذا كان الشعب ولاسيما الرجال الذين يقومون باعمال الدولة لا يستلمحون خططهم من العواطف الودية، فان براعة رجال السياسة لا تكفي مطلقاً في الوصول الى تعاون حقيقي.

اما باعمرستن فقد كان يحاذر ان يقود الادعاء لفرنسا الى محاولة بسط سلطاتها على اوروبا، حتى لا يعرف جيلها على سواها حداً، فتضطر انكثرة الى مقاتلتها بعد قليل، بسبب تعرضها للأمور التي تتصل بشرف الدوائين ومصالحهما، والتي لا يستطيع احد الفريقين ان يتخلى عنها من غير ان يندس شرفه، وقد اعرب عن رأيه في موقف فرنسا بكتاب ارسله الى الملكة وقل فيه: يمكن لجلالتك ان تعامن، فان في فرنسا جمهوراً من الناس يعيشون رغداً بخيرات ارضهم ويعملون في مصانعهم، وهم يرغبون عن القتال اذا لم تكن هنالك دواع له، بل انهم يلجأون الى الثورة ليجولوا دونه، واذا لم يكن هؤلاء الاشخاص في المقام الاول الان فسيعلو صوتهم في امر السلم وامر الحرب التي لا سبب يسوغها عند ما يناقش في امرها.

ولم تقتصر سياسة لويس فليب ورجال حكومته على المشاكل التي اثارها في قضية بلجيكية والمسألة الشرقية، بل تجاوزت ذلك الى التدخل بشؤون اسبانية حتى قضت على دولة آل اورلئان، وقد قال نورماني السفير الانكليزي في ذلك العهد: ان ملك فرنسا اطلق المصائب من عقالها على اسرته وعلى فرنسا وعلى اوروبا، وقد كان بمقدور حكومة دستورية معتدلة، قائمة على اساس التنازل عن جميع

الخطط التي تفتح ابواب المطامع للأسرة المالكة في الخارج ، ان تعين على تشييد اسس سلم ثابت من النظام والحرية في اوروبا ، ولكن الحيلة والانائية تهدمان كل مايبنيه الاخلاص والحكمة .

وقد كانت انكلترة هي الدالة الوحيدة في اوربة التي لم تشترك في حفلات زواج الدوك دومبانيسيه بالاميرة الاسبانية ، ولكنها كانت ملجأ الاسرة المالكة بعدنكبتها ، وكذلك كان مصير الرجال الذين قاموا بثورة سنة ١٨٤٨ الذين لم يجروا غيرها من يلودون به ويحتمون بحماه ، على ان فيهم من رفع صوته بكره انكلترة التي تقتبط بنكبات فرنسة ، وفيهم من حرض على غزوها في عقر دارها ، ولم يكن هذان الحادثنان فريدين في تاريخ انكلترة وفي معاملتها لاعدائها ، ولاسيما بعد ان تدارل منهم اوتعثر جدودهم .

وكان اضطراب علائق الدولتين ، يؤثر احسانا في الصلات بين السفراء البريطانيين ووزراء الخارجية في باريس ، ومن ذلك ان السفير نورماني كان بينه وبين الوزير غيزو فجاء فدعاه مرة الى حفلة فقال غيزو ان السفير تلقى امرأ بذلك ، فقال لا بل انه دعاه خطأ ، واتسعت هذه الحادثة حتى كتب بلمرستين الى السفير يذكره بانه كان يجب ان يقول ، وان دعاه خطأ ، اما دعاه طبقاً للتقاليد المتبعة ، وان عليه بعد الان ان يدعو الوزراء الى حفلاته اجابوا الدعوة ام لم يجيبوها .

ولما شاع ان السفير قد استقال وكانت الشائعة غير صحيحة ، كتب اليه بلمرستين ايضاً ان عليه ان يزود عن مقامه وان لا يتنحى عنه ولا يفر منه ، لان غيزو خصمه لا يستبعد ان يقول انه هو الذي اخرجه ، واذا اراد اصدقاؤه الدفاع عنه بانه ذهب مغاضباً او ذهب ايظهر غضب حكومته ، ولم يفعل غيزو شيئاً ولم يعتذر مما بدر منه بعد ان اثار القضية في المجلس فحينئذ يكون رجوعه صعباً الى مقر عمله ... على ان الخطأ الذي ارتكبه نورماني في هذه القضية لا يناسب ما كان عليه من ذكاء وادب وتميز ، وهو الذي يصف الشعب الفرنسي بهذه الكلمة : لا استطيع ان امسك نفسي من الاعتقاد بغرور الشعب الفرنسي المفرط ، كما اعتقد بشدة ابائهم ،

فالجهور في فرنسا لا يبيع لكتاب ان يصف له حقيقة امره ولكن يريد ان يكثر من مدحه ومداهنته ، وجميع الذين يقتربون منه يجب عليهم ان يحملوا اليه تكريمهم وتبجيلهم ، والمؤرخ والفيلسوف كلاهما لا بد له ان يقول كلمة او جملة يطرى فيها الشعب العظيم ، والمؤلف يجب ان ينظم له عقود الثناء ، والروائي يجب ان يشيد بذكر محاسنه ، والناقد الذي يقدم على تقرير شكسبير لا يجوز له ان يغيب عن خاطره ذكر راسين ، ونحن في انفتنا وعزاتنا ، لانسيغ ذلك ولا نجد شيئاً مثله بعيداً عن الحربة .

٥ - السياسة الانكليزية ونابليون الثالث

ابتدأ نابليون عهده في فرنسا بعد ان تقلد الرئاسة باحداث انقلاب سنة ١٨٥١ ، وقد سبب هذا الانقلاب ازمة سياسية في انكلترا ، وذلك ان السفير الانكليزي نورماني ذهب الى وزارة الخارجية مبنياً لها انه تلقى امر صاحبة الجلالة الملكة بان لا يمدل شيئاً في سياسته نحو فرنسا واعتذر عن التأخر ، فاجيب ان السفير الفرنسي في لندن تلقى من بالمرستن موافقته على الانقلاب الذي حدث فليس هناك اي تأخر ، فقال السفير انه لا يعلم شيئاً من ذلك ، ولكنه يعرف انه مهما كان شكل الحكومة في فرنسا فهو يمدل كل اهتمامه لتكون الصلات بينها وبين انكلترا على احسن حال . ويظهر ان بالمرستن كان يعتقد انه لو لم يضرب نابليون ضربته لكان عرضة لاقضاء عليه ، وقد كتب الى السفير نورماني كتابا ذكر في مقدمته انه في اثناء الازمات وفي الشؤون الخطيرة تصبح الصراحة واجبة على الرجال الذي يشترك بعضهم مع بعض في اعمال الدولة ، ولذلك ارى انه لا مندوحة لي عن القول ان بركاتك تسبب لي قلقاً عظيماً ، ثم بحث عن حوادث باريس وعن واجب السفير بحيث لا يظن انه ممدد للحكم الجديد ، ولا يتخلف عن غيره من السفراء اجتناباً للمحذورات التي قد تنشأ ، وان كان لا يلزم بان يعلن موافقة بلاده على الاعمال التي جرت كإغلاق المجلس عنوة ، او ان يظهر رياءاً كثيراً . والكتاب على هذا النحو من عنف اللهجة ، وكأن بالمرستن اراد فيما كتبه ان يخاصم السفير .

وقد علمت الملكة بالحادث فكتبت الى اللورد جون روسل تبدي امتعاضها من تصرف بلمرستين اذا كان حقاً قد اعلن للسفير بانه تقبل ماحدث بقبول حسن على حين ان الامر الذي اتفق عليه هو اجتناب اي تغيير في السياسة المتبعة نحو فرنسا ، وذكرت انه اذا صح ما اسند الى اللورد بلمرستين فانه يحط من شأن المملكة والحكومة في العالم بأسره .

وحاول بلمرستين التخلص من الموقف الحرج بحمل السفير نورماني على ان يكذب او ان يستقيل فارسل اليه كتابا جاء فيه : لقد مضى علي اسبوع ولم يردي منكم تصحيح لا اسند اليكم في تقرير سفير فرنسا ، فالواجب علي ان استخرج من ذلك صحة ماورد فيه .. على ان وظيفتي الحاضرة لا تسمح لي بان ابدي اي ملاحظة على اعمالكم الا اذا كانت تؤثر في موقعي نفسه ، وفي هذه الحدود فاني ارى مع كل مايلزمني من الاحترام لكم ، انه عندما تتكلمون بصفة كونكم وزير الخارجية في قضية دقيقة كهذه القضية ، وعندما تأمرون ان يكون لي موقف معارض ، اي ان اجتنب كل تدخل في شؤون فرنسا الداخلية ، اجد نفسي في حالة ضيقة حرجية واكون قد تعرضت للخطر واصبحت موضع الريبة اذا اقتضت في عملي على تنفيذ الاوامر التي اتلقاها من جلالة الملكة عن طريقكم . فاجابه بلمرستين قائلاً انه لم يكلفه القيام باي امر يناقض تعاليمه اتي لا تخرج عن ان خطة الرئيس نابليون يجب ان يحكم عليها الشعب الفرنسي ويرى برأيه فيها ، وعندي ان هذه الخطة انما ترمي الى تثبيت الوضع الاجتماعي فيها . ولما اطلع اللورد روسل على هذا الرأي كتب الى بلمرستين بجفاء انه مضطر ان يسأل جلالة الملكة ان تعين خلفاً له في وزارة الخارجية .

وكان ابتهاج الملكة عظيماً بهذه النتيجة التي كانت تتوقعها ولكن ليس بمثل هذه السرعة ، وذلك بسبب تمسك بلمرستين باساليبه العنيفة ، وخططه المعقدة ، وطرائقه القائمة على عدم الاكتراث بالعقائد والتقاليد ، وقد ابلغ الوزير الاول في انكلترا السفير الفرنسي ان سياسة انكلترا لا تنطق كل الانطباق على ما كان يظنه ، فهي

مؤسسة على احترام الوضع في فرنسا ، واجتنب التعرض له سواء كان جمهوريا ام ملكياً ... على ان لا يكون جمهورياً اشتراكياً ، وكتب اللورد غرنفيل الذي قام باعمال وزارة الخارجية بعد بالمرستن الى السفير الانكليزي قائلاً : ان كتبه عظيمة الفائدة ولكنها تشابه الكتب التي يجدها في خزانة قديمة ، وهي تبحث في امور لاعلاقة لها بالعصر الذي يعاش فيه ، واني اعتقد ان سياستنا ينبغي ان تكون حسنة مع الرئيس طالما يقبض بيده على قيادة البلاد ، ولكن بدون اي موافقة على اعماله الاخيرة .

واخذت العلائق بعد ذلك تتحسن شيئاً فشيئاً بين الملكة فكتوريا والامبرطور نابليون الثالث ، فمرت بطور الاحترام ثم بطور التقدير ثم اصبحت قائمة على اساس المودة ، وكانت حرب القرم التي اشترك فيها جنود الفرقة بين السبب الاكبر في ذلك ، فجرى بينها التزاور ، وكان نابليون يستهوي القلوب اذا اراد استمالتهما ، فابدي افانين سحره للملكة فكتوريا كما دلت عليه كتبها ، حتى انها كانت تشعر بالاسف للمصاعب التي تقف في وجهه ، وترغب ان تبذل انكلترة جهدها ليمضي في طريق الصواب ، ويصان من خفة شعبه وشدة تقابه بل قلة اخلاص عماله وقد حبذ الملك ليوبلد رأي الملكة في ان تكون العلائق على اتنها بينهما وبين الامبرطور . اما الشعب الفرنسي فانه لم يكن يحب الشعب الانكليزي وان كان يخفض جناحه للملكة ويعاملها بالرفقة والمجاملة ، وليس تبادل المطاعن القبيحة هو الذي كان يهم انكلترة ، ولكن همها ان يكون سلاحها البحري متفوقاً على السلاح الفرنسي .

اما بالمرستن فلم يكن يشاطر الملكة رأيها في نابليون وكان يقول : انه لاحظ امبرطور الفرنسيين وتأمل اخلاقه وسيرته ... فهو يعتقد ان العداء كان شديداً في قلبه لانكلترة وأنه ينفذ رغبته في اسقاطها ومما قبلها والانتقام منها اذا استطاع الى ذلك سبيلاً بسبب الاهانات البحرية والعسكرية التي لحقتها بفرنسا في بدء هذا العصر ، وبلاده متجهزة باحسن جهاز عسكري ، ولا تبرح تبذل جهدها في السر وتناحر على

تنظيم قواها البحرية، ومتى بلغت ماتريد من الالهبة فانهاستكشف القناع وتزيل الحجاب ويكون بيننا وبينها ما لا نحبه .

وقد وقعت حادثة كادت تقضي على حسن التفاهم ، وذلك محاولة اورسيني ان يغتال الامبرطور ، فهاج الشعب الفرنسي واستنكر ذلك ، واخذ الرجال الرسميون يوجهون اللوم الى انكثرة لانها تفسح المجال للذين يعتمدون القتل وتؤويهم ، حتى ان الضباط الفرنسيين كانوا ينشرون شكاويهم في الجريدة الرسمية ، طالبين شن الغارة على انكثرة (عش القتلة وقاطعي الطريق) ، وكان من المحتمل ان تذهب الامور الى مدى ابعد ومصير اسوأ ، لولان السفير الانكليزي اللورد كولي عمل على ازالة آثار هذه الحملة المضرة بهدوء وسكينة ، وقال وهو يقوم بمهمة طلب الترضية : انه لم يكن مكلفاً بتقديم بلاغ رسمي ، ولكن اذن له بالتعاليم الخاصة التي تلقاها من وزارة الخارجية ان يشرح للحكومة الفرنسية رأى حكومته بصورة اتم واكثر ارضاءً منها اذا اخذت صبغة رسمية .

وكان هذا السفير متقدماً في صناعته متمكناً من نفسه ، وقد جرت له حادثه عنيفة مع نابليون الثالث دلت على ان المفاجآت لا تفسد عليه امره ولا يغلب فيها على رأيه . فقد دنا الامبرطور من السفير في حفلة ووجه اليه الكلام بلهجة لم يألفها ، وانتقد مظاهر الخصومة التي يتعاون عليها البرلمان والصحافة الانكليزية ، فاعرب له السفير عن اسفه محاولاً اجتناب المناقشة واكتفى بان قال له : ان الغضب شديد ايضاً في هذه الناحية من المانش ؛ فقال له الامبرطور بلهجة حادة : هل هناك مجال للتعجب بعد التهم التي توجه اليه والى الشعب الفرنسي وهل هناك الا رد لهذه الحملات الظالمة ، وذكر انه بذل كل ما في طاقته للمحافظة على الملائق الحسنة مع انكثرة ، ولكن كل ذلك ذهب ضياعاً فموقف انكثرة قد جعل الامر لا يطاق ثم قال : ماذاهم انكثرة من امر السافو ولماذا لا تكتفي ببياناته التي صرح بها للسفير من انه لا يريد ضم السافو الى فرنسة بدون ان ينال موافقة الدول الممظمة ، فقال له السفير : ليسمح لي صاحب الجلالة ان اقطعه ، ان هذا القول لم يسبق سماعه منكم ، ولو اذنت لي ان انقل هذا التأكيد للحكومة صاحبة

الجلالة لو جئتم ان كل استيضاح في البرلمان كان ينقطع منذ زمن بعيد ، فالحكومة والبلاد كانتا تنتظران ما تقرره الدول العظمى في ذلك ، فاجابه الامبرطور ولكن اقول لك انني ساستشير الدول العظمى ، فاجابه السفير نعم يا صاحب الجلالة ، ولكن لم تضيف الى ذلك انك ستأخذ بما تقرره .

وكان الامبرطور يخاطب السفير ويشرك في الحديث زملاءه حتى انه التفت الى سفير روسية الذي كان في جانبه وقال : ان خطة انكلترة لامبرطرها ، ولقد حاولت بجهدى ان احافظ على العلائق العلية معها ، ولكن لم يعد ذلك في وسعى بعد الآن لانكلترة وسافوا ؟ وماذا كانت النتائج لو انني عندما استأجحت بريطانيا جزيرة بريم لصيانة شواطئها الشرقية وسلامتها ، ابدت نفس الاعتراضات التي تبديها الآن في الحاق سافوا الذي تمليه حاجة فرانسة وسلامتها .

قال السفير : عرضت في خاطري آراء كثيرة في اثناء هذه المناقشة ، وفكرت ان اقضي الليلة باحثاً عن العمل الذي يجب ان اقوم به ، ولكني رأيت ان الموقف يستلزم جواباً سريعاً ، لاسيما وقد اتسمت الحلقة وعاد الى الامبرطور مرة اخرى وابتدأ بنفس اللهجة ، فقاطعت حينئذ جلالاته ، وقلت له اني اسوغ انفسى ان اوجه نظره الى الطريقة التي لم يسبق لها مثال في محادثته ، وهي انتقاد سياسة انكلترة امام سفير روسية ... وكتب بعد ذلك الى رئيس الوزارة البريطانية يصف الموقف ويذكر انه كلما انعم النظر وجد انه كان على حق في مقاطعة الامبرطور ، فاللهجة والحركة كانتا غير مرضيتين ، ولو انها صبر عليها لكان من المحتمل التكرار مرة ثانية ، ثم ذكر اعتذار الامبرطور واسف الامبرطورية لما بدر من زوجها . وقد ابلغ الرئيس الحادث الى الملكة فكتوريا ، وذكر ان موقف الامبرطور يشابه بعض مواقف نابليون الاول ، واستأذنها بالكتابة الى السفير بالموافقة على خطته وعلى كلامه .

وقد تولى السفارة الانكليزية في باريس في اواخر ايام الامبرطورية الثانية اللورد ليونس ، وكان محرراً نفسه للعمل السياسي ، حاسماً له كل حياته ، ومع ذلك فلم يكن من رجال السياسة الاعظم اشباه تليان ومترنيخ ، الا انه كان مجرداً

من الاساليب المصطنعة والمجادلات العقيمة وصناعة المداينة ، ولم يكن له اي براعة في منبر الخطابة او المجامع والمحافل والمنتديات ، ولكن دماغه الكبير بلغ من العظمة قدراً انه كان يسيطر على جميع الشؤون الوطنية ويعرضها في قالب اثار اعجاب رؤسائه في وزارة الخارجية ، وكانت عيونه الصغرى في وجهه الضخم تخيل للرأي انها تحيط بكل شيء ، فمن اصغر خطأ في النسخ الى اقل ناحية في زينة المرأة .

ولما بدأ القيام باعباء منصبه سنة ١٨٦٧ كان مظهر الامبرطورية عظيماً ، ولكن الرجل المراقب لدقائق الامور وخفاياها يعرف ان نفوذ الامبرطور قد تضاعف في اوروبا ، وقد نبه السفير الى انه يجب ان يوجه اكثر اهتمامه ليس الى الامبرطور ولكن الى الامبرطورية الذكية الطموحة التي كانت تستطيل شيئاً فشيئاً الى تدبير السياسة حتى الخارجية منها ، على ان نابليون لو كان انتهى امره سنة ١٨٦٢ ربما ابقى في التاريخ اسماً كبيراً وذكر أحفاداً بالفوز ، ولكنه بعد هذا التاريخ كان كل شيء على ما يظهر يصير من شيء الى اسوأ . فبولونية وحرب الدنمرك وحرب النمسة وبروسية برهنت على ان دعواه في مراقبة السياسة الاوربية كانت كلها عبثاً وباطلاً ، والمحاولة العربية في مكسيكة انتهت بكارثة واهانة ، وهذه الاهانات المربعة في السياسة الخارجية اضيفت الى النعمة العميقة في الداخل : ومع ما اصاب نابليون الثالث من اضاءة المسكينة والنفوذ ، فينبغي ان ينظر كذلك بل ان ينظر قبل كل شيء ، الى تقلب الرجال وحب التغيير عندهم ، فقد حكم ثمانية عشر عاماً ومل الناس بقاء الشيء الواحد هذا الأمد الطويل وهم يريدون شيئاً جديداً .

وقد كان الامبرطور نفسه متأثراً من الوضع الذي صار اليه ، ومن عظم الفرق بين رونق اوله وتضاؤل آخره ، وبقي امامه حظو حيد لتحسين حاله وتعزيز مركزه وهو ان يعين على تأسيس اوضاع حرة في فرنسا ، وان يتحد مع ايطالية لمقاومة البابا ، ولم يكن قادراً على صنع هذا او ذاك ، وكان تيرس يتكلم عن السلم دائماً ولكنه لا ينقطع عن اثاره الحرب بالنداء بان فرنسا خاسرة مهانة ... ولما نشبت حرب السبعين كان الفرنسيون على اقصى درجات الحماسة والهياج ، وكانوا يظنون انهم

أكثر من البروسيين استعداداً واهبة ، وإن سبب الحرب موافق لهم ، إذ ليس من شأنه أن يثير جميع الألمان ، وعلى كل حال فإنه قريباً وبعيداً ينبغي تصفية هذا الحساب ودفع هذا الخطر ... فكانت العاقبة زوال الإمبراطورية .

وقد كتب اللورد ليونس بعد نشوب المعارك : أنه من المعجزات أن تبقى بهذا القدر أصدقاءً للفرنسيين بعد مرور ستة أشهر على هذه الحرب السيئة الطالع ، ونحن بحاجة قصوى إلى كثير من البراعة والحذر وفرط العناية بشعور الفرنسيين الرقيق حتى لا يذهب ضياع التحسن الذي حدث في علائق الشعبين وفي تطور عواطفهما . ولذلك فإنه لما شكت السفارة البروسية من أعمال البربرية الفرنسية في أثناء الحرب ، وطلبت إلى الحكومة البريطانية أن تكلف سفيرها بالاحتجاج فكتب ليونس : أو لم والقلق يساورني أنكم لا تنوون كبريطانيين أن تقبلوا جميع الشكاوى البروسية ، وأن تكلفوني بأن أكون معرباً عنها ، وأرجوا أن لا تنسوا أن السفارة الأميركية هي المكلفة بتمثيل المصالح البروسية في فرنسا ، وإذا كنتم تريدون أن تكرهوني على هذا النوع من العمل بتقديم بلاغات بروسية إلى فرنسا ، فإنكم تجعلوني عرضة إلى استنكارات استحقها ، وتنزلون من شأنى ومقامى إلى درجة أنني لا أستطيع القيام بشيء يذكر في حالة الضرورة ، والحوادث التي اشترتم إليها ليس من شأنها أن تكون موضوع احتجاجات سياسية ، بل يجب أن تناقش بين مندوبين من قبل قواد الجيش .

وبعد انكسار الجيش الفرنسي ومغادرة حكومة باريس ذهب هذا السفير إلى تور وكان هو وبعض موظفى السفارة يقومون برحلة إلى قصر أمبواز ، فقبض عليهم كجواسيس ، وبقي سر الحادثة مكتوماً ثلاثين عاماً ، وكان السفير قد أمر بهذا الكتمان ، ولم يخرج منه هذا العمل عن طوره ورأيه ، وقال لموظفيه : يجب أن لا يخرج كلمة من بين شفاهكم عن هذه الحادثة ، ولا أن تذكروها أبداً ، وأعلموا أن هذا أمر أخاطبكم به . ولم يطلق سراحهم إلا بواسطة رئيس المدينة ، وكان السفير ومن معه يتمثلون ، والخوف مستول عليهم ، ما يكون من أثر وصول النبأ

الى لندرة؁ وما يمكن ان يعقبه اذا تم ذلك ونشرت الصحف هذه العناوين : اهانة دولة؁ سفبر برلطانلة يعقل ككاسوس؁ ويطاف به فى الملفة ككائن؁ اءامع الوزارة؁ ازمة .

٦ - شكوك فرنسا بالسلاسة الانكللزلة

من النزاع والشقاق الى التعاون والءءالف

كتب السفبر املونس سنة ١٨٧٨ : ان انكلترة مءبوبة الآن فى فرنسا؁ وكانت زلارة البرنس ءل غال عاملاً ككبراء. ولس فى نلة الفرنسلبن ان لقالونلنا او لقالنلوا معنا؁ وهم يؤازرونلنا فلما نؤكءه من ءءسللة المعاهءات ومن صلالة الءالة الراهنة فى البءر المتوسط الى الزمن؁ الذى تصبء فىه فرنسا اكءر ءوة؁ ولكن لم تمض اشهر على هذا القول ءقى كتب مرة اخرى انه من العبء اخفاء ءالة الائم الشءلء من انكلترة الذى بع فرنسا؁ وانه لم لءن بعء الوقت لمرفة ما لكون علله اءباء الرأى العام؁ ولكنلنا فى هذا الزمن لءب عللنا ان لانفعل هذا الائم وءءلر ءأللره فى علاءقنا مع هذه البلاد .

وكذلك كانت ءءقلب العلائق بلن الءولءلن منذ انكسار فرنسا فى ءرب السبعلبن الى اشءراكلها فى ءرب ١٩١٤؁ وكان ءأللر الءاوءء عظملا على ءءارب او الءباعء فى سلأسءلها وصلالءلها؁ اما الائم الذى اشار الىه السفبر فءء اءارل ءاصة الاءفاق الانكللزلى الءركل بعء ءرب الروس والعءمانلبن؁ وهو لم بءءصر على فرلق من الشعب؁ بل عم ءملع طبقاتل من رؤسللله الى عاملله؁ اما المءافظون فءء كانت صءفهم ءءءءه وسلملة لمءاومة الءمهورلة؁ وكانوا لشكون من ءضائل فرنسا وانءءءاعلها بلءلفلءلها القءلعة؁ واما المعارضون الءمهورلون الذىن بءوءم ءمبءا فكأنوا لءمءون وزارة الءارءلة بانللا لاءءلى العار من الانءناء لانكلترة؁ واستمر هذا الوضء سنلن عءلءة؁ ءلى ان اللورء روزلرل عءءما ءولى وزارة الءارءلة سنة ١٨٨٦ كتب الى السفبر ان علاءقنا مع فرنسا هى اللل ءسبب لنا كءلراً من العناء؁ وهى ءالبلنا بما لانسلطلع منءه وءلنئء ءرفع صوللها بالشكوى منل؁ وكذلك كتب

اللورد سلسبوري في تلك الايام : ان الفرنسيين شعب غريب الأطوار ، وقد كان يظن ان فرنسا في وقتها الحاضر ليست بحاجة الى عدو جديد ، فلها من الاعداء الطبيعيين ما يكفيها ، ويظهر انها تريد ان ينفذ صبرنا ... ولآن وقد دخلنا واياها في مفاوضات سلمية فاذا بها تأمر بعمل ما وعدتنا ان لا تعمله قبل شهر ، ومن الصعب ان تمتنع من تمخى حرب فرنسية المانية جديدة حتى تنتهي من هذه الاساليب المؤذية التي لا تنقطع . واستمرت العلاقات على هذا المنوال بين البلدين ولم تتحسن مطلقاً رغم الجهود الصادقة التي بذلها ليونس ، ولعله لم يكن السفير الموافق للجمهورية الثالثة ، فقد كان يشتد المه لعنف الاحزاب وقسوة اساليبهم وبعدمهم عن الطرائق المألوفة ، وكانت مساعي السفراء في باريس بعيدة الاثر في تطور العلاقات بين فرنسا وانكلترا في تلك الايام .

وقد خلف ليونس في السفارة ليتن ، وكان يناقضه في كثير من طبائعه ، ولكنه يضاهيه في براعة سياسته .

وتولى دو فرين السفارة سنة ١٨٩١ ، فابتدأته الصحف الفرنسية بتوجيه اتهم اليه ، وقالت انه جاء ليفسد الضائر ويشترى الرجال ويسخر الصحف بمازود به من المال الكثير لافساد العلاقات بين فرنسا وروسية وتطيل الاتفاق ، فوجد انه قد ازفت الساعة ليرفع صوته باحتجاج علني ، وخطب في باريس في اجتماع غرفة التجارة الانكليزية خطبة تجمع بين الدهاء السياسي وفكاهة الاسلوب ، تعرض فيها للتهم التي كان غرضها ، مبرراً نفسه وذاكراً انها ناشئة من الجهل والبساطة اكثر مما هي ناشئة من الخبث ، وكان لهذه الخطبة اثر كبير .

ثم اتى خطبة اخرى تعرض فيها للسياسة الدولية ويبحث فيها عن العلاقات بين فرنسا وبريطانية واحتكاك مصالحهما في المستعمرات وتعارضها احيانا ، فقيل : ماشأن هذه المصاعب التي تأتي بين حين وآخر ، ومبال هذه الاعتبارات المحلية اذا نظرنا الى المجري العظيم الذي يقود الشعبين الفخوريين ويدفع احدهما نحو صاحبه ،

والذين هما منذ اطل فجر التاريخ يحملان لواء الحضارة ويرفعانه عالياً ! ان هي الا كالتعوجات التي ينسجها الريح على وجه نهر كبير ، يستمر في طريقه بعظمة وجلال .

ولما حانت مغادرته فرنسة التي كذلك خطبة نفيسة ذكر بها التأويلات المغلوطة التي قوبل بها في بدء مهمته ، على حين انه بنفوذ بصره العميق الذي كان يدعو به الى اتمام واجبه باخلاص وسلام ، كان يعتقد انه لا يوجد مثله من يقدر المزايا التي يتصف بها الشعب الفرنسي ، ثم بحث عن الاعمال الدبلوماسية وما فيها من محاسن ومخدورات ، وذكر ان تطور الحضارة جعل المهمة التي يقوم بها الرجل السياسي كالوج الذي يملو المجرى لا كالقوة العظمى التي تجري به لمستقره ، وانتقل الى حالة اوروبا السياسية في اواخر القرن التاسع عشر فوصف كيف انها اشبه بمعسكر يعج بالملايين من الرجال المسلحين كما تمتلئ البحار بالسفن والحديد ، حتى ان العالم بأسره اصبح مجموعة اعصاب تتأثر باي شيء يقع في اي مكان ... وبكفي ان بضعة رجال في العالم يقولون قولاً حتى تتغير الارض بمن عليها ، فعلى السياسي ان يهتم بمدافعة هذه الاخطار ، ومهما كان من ضعف السياسة فقد برهنت على انها افضل طريقة لبلوغ تلك الغاية ، وبهذه الطريقة المتواضعة قد وطدت اركان السلم بين فرنسة وبين البلاد التي نشأت فيها والتي يرتبط رغدها وهناؤها بمصالح الاولى ومنافعها .

وعندما انتخب بعده ادموند مونس الى السفارة البريطانية في باريس لم تكن هذه السفارة مهاداً وثيراً ، ولكنه قابل الموقف برجلة وحذر ورجاء ، وخطب الرئيس الفرنسي بهذه العبارات : ان الملكة سيدتي المعظمة ، تفضلت ومنحتني شرف تمثيلها كسفير لدى حكومة الجمهورية ، فأتشرف بان اضع بين ايديكم رسالتها الملكية التي تعتمدي بها في هذه المهمة ، وبعد ان وجه كلمات الثناء على الرئيس قال : ان حكومة الملكة قائمة بمشاطرة حكومة الجمهورية لما تريد بصدق واخلاص من تثبيت العلائق الحسنة القائمة بين البلدين منذ عهد بعيد ، وبعد ان وقف هنيئة استأنف كلامه وقال : ان مصالحنا الحقيقية تتطلب تعزيز هذا الاتفاق الودي الذي يمنح الفريقين منافع الولاة والاخلاص ، ويعينها في الوقت نفسه على القيام بالمهمة التمدينية التي حملتها اياها الاقدار المتشابهة .

واشتدت بعد ذلك الازمة المصرية، وكانت هذه المشكلة - كما قال ادورد غراي - سبباً دائماً لاثارة حنق الفرنسيين وضجر البريطانيين، حتى كان يتوقع رجال السياسة انه لابد من استعمار الحرب بين الفريقين ، فعدم تأجيلها خير واولى ، وقد اعلنت الحكومة البريطانية يومئذ انها لا تأذن لاحد غيرها ان يحتل اي مكان في وادي النيل ، وانه تعد كل توغل فرنسي عملاً عدائياً، واثرت حادثة مرشان في حديث بين الوزير دل كاسه والسفير منسن ، فانكر الوزير في بادئ الامر ان تعترف فرنسا لانكلترا بمنطقة نفوذ في اعالي النيل ، وايس لمرشان مهمة سوى ما انتدبه اليه حاكم الكونغو الفرنسي الذي هو مرجعه ، وهو يقوم بمهمة تدينية في بلد لا يطالب به احد ، فقال له السفير حينئذ بصراحة : ان الموقف خطير في اعالي النيل ، وليس لنا اي رغبة باثارة اي نزاع ، ولكن بعد التحذير الذي اعلناه منذ عهد بعيد فانه لا يجوز ان يستغرب امتعاض انكلترا وغضبها . وبعد ان اطلع سلسبوروي على هذا الحديث كتب الى السفير قائلاً : سواء اكان المصريون أم الدراويش هم اصحاب الارض انني وجد فيها مرشان فانها لم تكن ابداً بدون مالك، وهذه التجريدة المؤلفة من مئة سنغالي ايس لها اقل اثر سياسي ولا يمكن ان يكون لها اي مغزى . واذا كانت لغة السياسيين هادئة منطقية فانها لم تكن كذلك لغة الصحفيين ولا لغة الجماهير ، واصبحت الحرب قاب قوسين ، حتى ان اللورد آلدوين وزير المالية قال : انه شر كبير ان ندفع في الحرب بعد سلم ثمانين سنة ، وان كان يوجد من الشر ما هو اعظم من الحرب ، وانتهت الازمة باخلاء فاشودة .

وفي آخر السنة استعرض السفير منسن في خاطره الحوادث التي مرت ، وهم بالقاء خطبة يعرب فيها عما في نفسه، وخاف ان استأذن وزارة الخارجية ان لا تأذن له، فعزم على القاء خطبة كخطبة سلفه اللورد دوفرين تدوى لها ارجاء العالم ، وقد بدأ خطبته في البحث عن السياسة الجديدة ، ووصفها بامتياز منح لارضاء المتعاملين في آخر هذا العصر ، وارضاء الصحافة الجريئة ، التي تقر لها السياسة بكثير من الفضل، وخاصة لارضاء امريكة التي تريد القضاء على المذهب القديم قضاءً أمبرماً ، ثم

استشهد بقول اللورد كلارندن : ان السياسة الانكليزية تقوم على اساس من المصدق
يجمع بين الاخلاص وبين الامانة ، وبعد ان ذكر تمسك السياسة البريطانية بهذه
المباديء قال انه سيخرج من تقاليد السياسة القديمة التي كانت تكتم الافواه ، وتمنع
الكلام الا بالأمور الثافهة ، وذكر ان اساليب السياسة الجديدة تجربنا على ان
نذكر ما يعرض في خواطرنا مع التمسك بواجبات الكتمان والحجامة والشعور الطيب .

وبحث بعد ذلك في قضية فاشودة و اشار الى ان تعليق بعض الصحف البريطانية
لايسر الفرنسيين ، ولكن سواء اكان هذا التعليق في محله ام في غير محله ، فانه يدل
باجلى بيان على ان مايدر من مستشاري التاج في الساعات الدقيقة لا يعرب عن
رأى حزب وحده ، فبريطانية العظمى مجمعة في هذا الشأن ، وليس هنالك مجال
لأى شك ، وايس من مهمة السفير المتادة ولا سيما عندما ينطق في عاصمة البلاد التي هو
متمدد فيها ان يحاول تبرير سياسة حكومته ، ولكن لا يستطيع في هذه الفرصة
الاستثنائية ان امتنع عن القول انه لا يمكن منذ البدء اتخاذ غير هذه الخطوة ،
ولم يكن يجوز لأحد ان يقع في نفسه ريب في ذلك ، فالصحفيون والناشرون
والهazلون ، قد يكونون اثارا واثراً كبيراً من حيث لم يريدوا ، بل ان بعض الخطباء
السياسيين لهم نصيبهم من الأمر ، واحسب انه قد تداعت في الساعة الحاضرة
آراء الذين ظنوا اننا نقبل ما اراد كراهننا على قبوله ، واننا نتنازل عما لا تسمح
السياسة بالتنازل عنه ، وعلاوة على ذلك فان الضجة بنا مضرّة بل هي غير حكيمة
وبنا غير جديرة ، ولا شك ان انكلترة تذود بشدة عن مصالحها ، ولا تدع احداً
يعتدى على حقها ، وكما هي بعيدة عن جميع المخاوف التي تخامر الدول الاوربية ، فهي
كذلك بعيدة عن كل خطة عدائية تبعث القلق في نفوس الذين يريدون ان ياملوها
بشرف وعدل ، وعسى ان تنقطع فرنسة عن الظن بان في انكلترة خطاطاً غير مرضية
تدبر لها ، وان هنالك حنقاً عليها ، واني لا اعتقد كذلك ان الشعب الفرنسي
يشعر باى حنق على الانكليز ، ونحن نطلب ان تتفق فرنسة معنا وتلتقى وايانا في
صعيد واحد ، حتى نسوي جميع المسائل المعلقة بعدل وانصاف ، وبدون اى رغبة في
احراز اى انتصار سياسي واجراء اى عقد لا يفيد الا فريقاً واحداً .

ثم وجه بعد ذلك السفير كلمة نصح الى رجال السياسة والصحافة في فرنسا ،
وناشدهم ان يستنكروا سياسة وخز الابر وان يكفوا عنها ، ففي لا تستطيع ان تفيد الا
فائدة زائلة ، لوزارة قصيرة الأجل ، ولكن تثير في العدو الثانية من المانش
غضب شعب قوي في نفسه وفي اخلاقه ، ينتهي به الامر ان يرى في ذلك مالا يطاق ،
فأسألهم ملجأ ان يقفوا في سبيل الرغبة التي تحاول ان تعترض سبيل المساعي
البريطانية ، وان لا يستعروا في تحدي بريطانيا فيخرجوها عن خطة التسامح
والاعتدال في استئثار انتصاراتها الاخيرة ، ويجهلوا تضي في خطة يرضى عنها فريق
لا يستهان به من الشعب البريطاني ، وهي ليست على ما ظن الغاية التي يرمي اليها
الرأي العام الفرنسي .

وقد صفق الانكليز الحاضرون بحماسة الى هذه الخطبة المعتدلة ، ولكن
الفرنسيين استقبلوها بعنف وشدة ، فكتبت الصحف ، يتساءل بعضها اذا كانت هي
اعلان حرب ، ويرى بعضها ان فرنسا مهانة وان عليها ان ترد على انكلترا رداً قسياً
لا تنسأه ، ويذكر بعضها انه لو تكلم سكرتير سفارة بمثل هذا الكلام لكان موضع
غضب رؤسائه ولومهم الشديد ، فلافائدة من اشتعال رأس السفير شيباً حتى
يرتكب في آخر حياته السياسية مثل هذا الخطأ ، ويتكلم بكلام يضعف مقامه في
باريس التي عرفت في اسلافه براعة وحكمة وحسن سياسة واصالة رأي ، وكانوا
دونه مجاملة ولكن فوقه صنيعاً ، وقيل الى دل كاسة ان عاينه ان يسأل وزارة
الخارجية البريطانية ، اذا كان هذا السفير بظن نفسه انه ليس مكافئاً بتمثيل
وزارة الخارجية الانكليزية فحسب بل كذلك بادارة السياسة الخارجية في فرنسا .

وكان الرأي في انكلترا ان هذا الخروج عن القواعد المألوفة من افضل الاساليب
السياسية ، فكتبت جريدة التيمس انه من التظاهر الكاذب في الاوقات الحاضرة
ان تتجاهل ميل السياسة الفرنسية منذ عهد طويل الى مقاومة ما تريد ان تفعله ،
وليس ذلك لاجل ان تصون مصالحها ولكن حباً بالحاق الاذية بنا ... اما وصف
خطبة السفير بانها محاولة لاملأ سياستنا على وزارة الخارجية الفرنسية ، فهو اغلاق الباب

لكل صراحة في اظهار الشعور الصادق الذي هو وحده يحول دون ما يسببه سوء التفاهم من النكبات. ومع ذلك فقد اعلن اللورد سلسبوري انه غير راض عن هذا الانفجار، واقتضى فيما بعد ان نشرت السفارة الانكليزية بياناً ورد فيه ان السفير لم يرد مطلقاً التعرض لشؤون فرنسا وانه شديد الاعجاب بالفرنسيين ولا يريد ابداً ان يسمي اليهم، وهذا السفير هو نفسه الذي اعلن بعد ذلك على عقد الاتفاق الذي كان يشك بنجاحه كثير من سياسة الانكليز، فلم تثنه مهمته في باريس قبل ان اصبحت الملائق بين فرنسا وانكلترا على غاية من الاحكام.

وبرغم الاتفاق الودي الذي اصبحت دعامة سياسة الدولتين، فما زال يتحدث الفرنسيون ولاسيما رجال سياستهم عما اذا كان بوسعهم ان يعتمدوا على مؤازرة بريطانية في حالة هجوم الماني، فقد اسمعهم الامبرطور في اثناء مؤتمر الجزيرة انهم اذا وقعت الواقعة لا يستطيعون الاعتماد على تأييد انكلترا، حتى ان فريقاً من رجال السياسة البريطانية لم يكونوا يكتفون انهم غير مقيدين باي عقد يتجاوز المؤازرة السياسية، ولذلك ظل الفرنسيون على ريدتهم في السياسة الانكليزية، وبلغ الامر برجال منهم ان يظنوا ان هناك اتفاقاً بين انكلترا والمانيّة، ولاسيما بعد محاولات اللورد هالدين وزيارته لالمانيّة.

وقد اظهر اللورد غراي في مذكراته ما كان في نفسه من التأثر، بسبب الخفة والسهولة اللتين كان يظن فيها الفرنسيون ان البريطانيين لا يشاطرونهم في اغراضهم ومرايهم، على انهم لم يعدوهم الا بمؤازرة سياسية، والصرحة التي ذكروا فيها السبب الذي دعا الى انهم لا يسوغون لانفسهم منذ الآن الوعد بالمؤازرة العسكرية، كان يجب ان يعده الفرنسيون برهاناً على انهم ينفذون ما وعدوا به من التأييد السياسي، وكيف يمكن ان تقوم اصول متينة في هذه الرمال المترعزة والشكوك والشبهات... واذا شوهدت الامور عن كثب وشوهدت الاخطار التي قد تقع، وتبين الميل الى الريبة والى الشبهات المتبادلة، ظهر انه كان من المعجزات بقاء الاتفاق الودي على مامره به.

وكانت حكومة انكلترة مضطرة ان تزن جميع اعمالها واقوالها وان تحتجب كل ما قد يمس الاتفاق ويسبب اليه ، وكان رجال سياستها لا يكتفون اسفهم عندما يجدون بين الفرنسيين والراقيين والمؤثرين من يعتقد بسوء نية انكلترة ، ولكن الريبة الموروثة عند الفرنسيين في السياسة البريطانية جعلت فريقاً من عمال المانية يحسنون استثمارها عندما كانوا يعملون على اثارة الخلاف بين فرنسا وانكلترة ، وقد وجد الفرنسيون ما يرضيهم في الخطبة التي القاها المستر لويديجورج بعد حادثة اغادير ، وكان آخر رجل تلتظر منه المانية ان يخطب هذه الخطبة التي اثرت فيها اثرأ بعيداً ، وقد قال فيها : ارى انه لاشيء يسوغ احداث الاضطراب في الحالة الدولية التي تريد النيات الخالصة تحسينها ، اذا لم تتعرض للاخطار المسائل التي تتصل باهم الشؤون الوطنية ، واذا كان هنالك موقف يضطر اليه ، وكان غير مستطاع ان يوطد السلم بدون ان تتخلى انكلترة عن مركزها العظيم الباهر ، الذي احرزته بعد اجيال من العناء والبطولة ، او ان تتساهل في الامور التي تهدد مصالحها الحيوية كانها لاتعد في مجالس الشعوب ، فاني اعلن بكل اباء ان السلم بهذه القيمة سيكون عاراً لاتطبق بلاد كبلادنا ان تتحمله

ولما اعلنت الحرب وترددت انكلترة في دخولها قبل احتلال البالجيك ، اخذ الفرنسيون ينادون بغدر بريطانيا ، ولكن ما كادت تدخل الحرب حتى اخذها تناف لها ولمثلها يبالغ عنان الساء ، فزال تلك الشكوك التي كانت تساور الفرنسيين بالسياسة البريطانية ، ولكن اذا كانت فرنسا تشك بالسياسة الانكليزية ، فانكلترة كذلك كانت تشك بالسياسة الفرنسية ، وقد قال اللورد جراي : ان جميع الشعوب وجميع الحكومات تتأثر بسهولة وتشك بغيرها بسهولة ، وفرنسة ليست مستثناة من هذه القاعدة ، ولكنها سريرة الغضب سريرة الريبة ، وقد تكون هذه الصفة عند الفرنسيين اكثر من سواهم ، ولكن الذي وحي اليهم بالثقة ، وهذا ما يعز ادراكه ، فانهم يولونه اياها بدون حذر ولا تردد .

الفصل السابع

بسمرك

جبل الدولت العظيم

١ - المانية قبل الوحدة

القوى الكامنة والشعور الوطني

كانت الامبرطورية الرومانية الجرمنية المقدسة في القرن الثامن عشر. تعد من وجهه شرعية اتحاد دول على رأسه عظيم منتخب (امبرطور) وجمع (ديت) بدون سلطة حقيقية ، وكان فيها نحو ٣٠٠ سيد بين ملك وامير ورئيس ديني، في جسم مضطرب متفكك، وفي وسط هذا الانقسام الذي كان يسود المانية كانت تشتمل النفوس على عاطفة مبهمة عامة ترمي الى تجديد ماض غير معروف ، وتحقيق آمال وطنية في مستقبل غير محدود، وشعور قومي كامن يميل الى الظهور، وكان جيران المانية عارفين بهذه القوى الكامنة ويخشون جانبها ، ولم يبق في ذلك الزمن من يجهل ان المانية تريد ان تتحد ، وان الالمان قد ملوا اعارة ايديهم ودمائهم الى عدوهم، الذي يريد ان يستعبد وطنهم ، وان سياسة التجزئة التي انشأها العدو في بلادهم يتداعى بنيانها ولا تقوم لها قائمة ، وكان القرن الثامن عشر ينوء باعباء الحروب الشديدة التي جرت فيه ، وشهد الفرنسيون ذلك الهيكل الالمانى العظيم ، المؤلف من شعوب عديدة وامم مختلفة ، ينشر الويت ويرفع اعلامه ويتخطى حدوده ، فيضعفهم بالقوة بعد ان اخافهم بالكثرة .

وقد احتفظ الالمان باخلاقيهم الفطرية في ظل سيادات مختلفة ، فلم يكونوا اقوياء في خارج بلادهم ولكن اقوياء في داخلها ، وكان الشعب دائماً يجد ويدأب

ويناضل ويحارب ، وكان ماطوى عليه من رقابة النظام والطاعة يعد هم اعداداً حسناً
 للخدمة العسكرية ، وكان ولوعهم بالحروب من صفاتهم الممتازة ، فيميدلون في سبيلها
 كل شيء حتى حريتهم ، ولا يترددون في ايجار انفسهم للقتال دون غيرهم تحت كل
 لواء وفي جميع الميادين ، ولكن هذا الشعب كان يذكر ابناؤه بعضهم بعضاً ، انهم
 كانوا فيما سلف من الايام يسفكون دماءهم في سبيل المانية لافي سبيل غيرها ،
 وينالون المجد والفخر ، ويحرزون الفتوحات الكبرى ، ويغنمون ويسلبون ،
 ويخيفون مجاورهم ، ويملاؤن العالم بضجيج سلطانهم ، اما المقام الضئيل الذي بقي
 لهم ، والشرف القليل الذي ما برح يتبع الاسم الالمانى ، فانه لم يكن الاثراً للرونق
 القديم وصدى للصوت البعيد ، وكان الديت عنوان ذلك الماضي ورسمه ، وكانت
 فرنكفورت التي يجتمع فيها هذا الديت نوعاً من الآثار العتيقة التاريخية الألمانية القديمة ،
 تتجدد فيها الذكريات عند تنويع الامبراطرة ، وتعرض لها بين حين وآخر
 خيالات تلك الايام السالفة .

وكان بعث المانية في القرن الثامن عشر . فاصبحت كلمة الوطن والوطنية تظار
 في المراسلات السياسية وفي البيانات والخطب ، واخذ السياسيون يبحثون عن
 العاطفة الكامنة ويستثيرونها ، اما الذين كانوا يعملون على تجزئة المانية فقد كانوا
 يتظاهرون بحماية شعوبها والدفاع عن استقلالهم ، وكانت الوطنية تستبين خادعة
 بحسد الفرنسيين وعدائهم والارتياح بهم والحقدهم عليهم ، وكانت ماري ترز تقول
 عندما كانت تستثير الالمان على الفرنسيين المشتبكين في بوهيمية : الى متى ندع الاجنبي
 يظلم باقدامه الوطن الالمانى العزيز ؟ لم تسنح الفرصة لتحرير الوطن من الظلم الذى
 توالى عليه الاجيال ، وكان فردريك يفاخر بانه وطنى المانى صادق ، ولما خذل فرنسا
 كان يلتمس العذر لنفسه محتجاً بمصلحة المانية ونفعها ، ويقول للفرنسيين انهم في
 اليوم الذى يتجاوزون الرين يجدون اكثر الالمان متحدين ضدهم ، وهذا كما يقول
 « تورين » انه في اليوم الذى يتجاوز فيه الالمان الرين لايجوز لرجل حرب في فرنسا
 ان يذوق طعم الراحة .

ومع تقدم الزمان كانت هذه الميول تتجدد في المانية وكان الامراء يستثمرونها ولكن لم ينجح امير نجاح فردريك ، فبعد حرب السنوات السبع التي ضحت فيها فرنسة حقاً بمفاخرها ومصالحتها حتى ترد سلازمة الى ماري تيز ، تصالح الاميران الالمانيان وتعاونوا على فرنسة وارادا اذلالها بعد ان عبثا بها ، وتنافسوا في اذكاء الحماسة الوطنية ، وكانت المانية بأسرها مصفية الى هذا النداء .

وكان عجيبياً هذا الحظ الذي قدر لبيت بروسية ، فان رئيس الدولة الأقل المانية ، والامير الغرب عنها بذوقه واخلاقه وتربيته وتقاليده ، هو الذي اعان قبل كل انسان على احياء العزة القومية وافاضة شعور الاستقلال في المانية ، وكان لبروسية اعداء كثيرين فانصرف قاداتها وولاة امورها للبحث عن اصدقاء لها وانصار ، وكان لشأن الملك الفيلسوف ونفوذه في اوربة وما يذيعه عنه اولو العقول يومئذ ، سبب في زيادة تحجيسها واعلاء مكانتها ، وكان غوته يقول : ان الانتقاد الذي وجهه في شبابه الى الرجل الفرد ، الرجل الذي كان يفوق جميع معاصريه ، جعله بفكره بانه كان جائراً في الحكم ، وقد خيل اليه ان فردريك بعد حرب السنوات السبع قد اصبح المرجع في اوربة وفي العالم ، وقد سارت هذه الشهرة في كل مكان وتجاوزت البحار وبلغت امريكا فاثرت بها القلوب وتعشقت بها النفوس ، وهذا هو الاساس لمظلمة بروسية عند الالمان وجعلها حديث مفاخرهم وعنوان مكرماتهم ، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين بروسية وسائر اجزاء المانية ، فقد اصبحت الفكرة الالمانية والحزب البروسي شيئاً واحداً ، وبقدر ما كانت المانية محتقرة عندما كانت مجزأة بصنع جيرانها الذين يثيرون الفتن فيها ، اصبحت مكرمة عزيزة واشتد الحرص على محالفتها ، واخذ الوطنيون الالمان ينكرون التجزئة ويتداعون الى الاتحاد ، ومشى على آثارهم المؤلفون المتشجعون ، يريدون ان يصنع في بلادهم ما صنع في فرنسة من التوحيد ، ويطالبون بان يرد اليها ما اخذ منها ، وكان العلماء الذين يرجع اليهم لاتساع معارفهم لالصحة حكمهم ونفوذ رأيهم ، بوهون الالمان ان السلطان التركي والتاج الفرنسي هما العدو الموروث ، وغرسوا ذلك في نفوس الشباب حتى اصبحت

مثلاً من الامثال ، وكان ملك النمسة يعمل على تمكين هذا الوهم الذي تصعب ازالته ، وكانت بروسية تستفيد من كل ذلك ، حتى اصبحت - كما قال ميرابو سنة ١٧٨٦ - القطب الذي تدور عليه في اوروبا رحي الحرب والسلم ، والشغل المشاغل للباحثين المتحمكين في سياستها ومكائنها ، فكان جميع الذين يدون ابصارهم الى احرار المجدوادراك الفتوح يرون انه يحسن التحالف معها ، والكتاب الحريصون على الاصلاح يشيدون بذكر هذه المملكة ، وبقتراحون التشبه بهذه الاداة الكبرى الجميلة ، التي توالى على تكوينها الصانع الحاذقون منذ اجيال . وقد ختم ميرابو كتابه عن بروسية بهذه الكلمة : اذا هلكت بروسية رجعت صناعة الحكم الى عهد الطفولة . ومع ذلك فقد كان هذا السقوط يظهر له قريباً فاكشف اسراره وتنبأ عنه بقوله : لا يوجد دولة تؤذن باضمحلال سريع كهذه الدولة ، انها قد انشئت بطريقة لا تطابق ان تتحمل اي اضطراب ولا اي حكم ضعيف ، وهو مالا بد منه على طول الزمن ، وهذا التعارض هو اساس حكم جميع المعاصرين ، وعليه يقوم المدح والنقد ، والتاريخ في ابان اثورة الفرنسية يبرر ذلك .

وليس من الممكن تصور صفات دولة تختلف عن صفات النمسة كهذه الدولة ، فقد كانت النمسة تعمل بمجدها على تأليف دولة غير متجانسة ، وحكومة لا تهتم الا بالسياسة ، اما بروسية فقد كانت القوى السياسية والاجتماعية تعمل فيها على تكوين شعب متحد في دولة متجانسة ، ولكنها تطبع كل شيء حولها بطابعها ، وكان بيت هوهنزولرن كبيت هبسبورغ حريصاً طموحاً مضطرباً ، ولكنه اقل شكافاً في مبادئه وايسر انقساماً في رغباته ، وكان يتابع بالسلو بادق وحزم اشد خططاً محددة معينة ، وكانت بروسية تجتمع وتتعزز بقدر ما تضمحل النمسة وتفكك ، وقد وجدت منذ البدء الشيء الذي فقدته النمسة وهو العنصر اللازم لتكوين الدولة ، وكان بيت هوهنزولرن يعتمد على تقاليد متأصلة وحقوق اهلوية في دولة جوهرها مدني ورؤسائها من النبلاء الذين تشتمل نفوسهم على عقيدة الشرف العسكري والشعب المنظم تحت السلاح ، وقد ظهروا بمظهر الاداريين البارعين المخلصين لبلادهم والقائدين

لشعبهم الذي لامثال له في اوروبا من حيث الانقياد والطاعة للحكم .

واستمر تاريخ الامان كابدأ ، ليس لهم حدود ، وكل جوار يحسن الاستفادة منه للتوسع ، ولكن يعسر الاحتفاظ بكل ما يؤخذ ، ولذلك ساد فيهم العنصر العسكري ، وبما انهم حريصون واشداء فان الخطر ينقلب لمصلحتهم ، والسهول الفسيحة التي كانوا فيها مابحت تدفعهم الى الغارات ، وتمهد لهم طريق الفتوح ، ولما كانت بولونية تشطر بلادهم شطرين فلم يكن لهم بد من الاستيلاء عليها ، فهم فاحمون بالضرورة وقد حافظوا على ذلك بالذوق والمزاج ، وكانت الحرب كما قال ميرابو صناعة روسية الوطنية ، وقد وصف هذه المملكة بعده تايران في اثناء مؤتمر فينة فقال : ان طبيعة هذه المملكة تجعل من اطاعها نوعاً من الاضطرار ، فكل حجة حسنة ، وكل وسيلة سائغة ، ولا يهمل احذر ولا تندم ، والحق عندهما موافق لمصلحتها وهي تحسن تصريف الحجج ، وتسمو على غيرها بانتقاء افضلها واجدريها ، واكثرها رونقاً وبهاءً ، ولا يوجد اسرة مالكة استطاعت كاسترتها ان تمتاز بحسن التدبير واستثمار الحوادث مجازاة الزمان . وقد نشأ ملوك روسية في ايام الصليبيين وكبروا في عهد الاصلاح ، وكما انهم كانوا بارعين في اقتناص الوسائل ، فانهم لم يكونوا غافلين عن اغتنام الفرص ، وسمعتهم في هذا الشأن تلتقي بهم ، وتنتشر اجنحتها فوقهم ، وباب المساومة عندهم مفتوح لا يغلق ابداً ، والدولة عندهم كل شيء ، لان كل شيء يأتي عن طريق الدولة ، حتى ان الكنيسة عليها ان تخرج بالدولة وان تخضع لها ، وكانت المصالح غير الدينية والمصالح الدينية مختلطة كل الاختلاط قبل الاصلاح وبمده .

وكانت فرنسا ترى اتحاد الامراء في المانية يوافق سياستها ، مادام الامر فيها يذني ان يكون قائماً على اساس معاهدة وستفالية ، ولكن اذا ارادت فرنسا ان تحتل ارضاً المانية فان هذا الاتحاد يتحول الى تحالف خطر لقاتلها ، وقد تطورت سياسة هؤلاء الامراء تطوراً غريباً لم تكن تدرك فرنسا كنهه ، وقد اصاب سياستها خيبة امل شديدة باعتمادها على شكر انهم ، بمد ان عولت على حرصهم وتمالكهم ، واصبحت سياسة الامراء الامان موضع تهكم فريق من الفرنسيين ، الذين يرونها قائمة على مخادعة

جميع الناس وعلى النكت باليهود ، وقد سار الامراء الالمان في القرن التاسع عشر على سنة بروسية في خذل الحليف اذا لم تبق لها حاجة به ، فبعد ان طأطأوا رؤوسهم لفرنسة وهي قوية ، انقلبوا عليها عندما وجدوا قوتها متضائلة ، وكانوا حلفاءها عندما يريدون الفتح ، واعداءها للمحافظة على ما احرزوه ، وكانوا يجدون في حجة الوطنية مسوغاً لما يقومون به من الغدر .

اما الوطنية التي رفعت رأسها في المانية نحو سنة ١٨١٣ ، فلم تكن تلك الوطنية المضطربة التي تباع وتشرى وتستثمر للغايات والمقاصد ، ولكنها عاطفة اكثر بساطة واكثر قوة ، وطنية صحيحة ، صادقة ، عنيفة ، كسائر العواطف الفطرية ، وهذه الكلمة التي لم تكن في الماضي ذات شأن ، وكان يداخلها الشك والفساد اصبحت عامة نقية منزهة ، ورجعت الى معناها الحق ، واصبحت تعرب عن ضمير شعب كبير ، هذا الشعب الذي بدأ يخوض غمار المعركة ، وهو عنصر قوى لم يكن يكثر له في العهد القديم ، وسيبعث تدخله الى تغيير الأحوال السياسية الفرنسية في اوروبا .

ومع ذلك فان فرنسة بنتيجة غريبة لثورتها هي التي تكاد تكون قد حرضته عليها ، فقد قوض الفرنسيون في غاراتهم بنيان علم قديم ، ومهدوا لانشاء عالم جديد ، وقد زال الامبرطور وزال اللبث وزال كل شيء مشترك في المانية ، وقضى نابليون على الحكومات الصغيرة ، فجمع وفرق ، واصبحت خارطة المانية اكثر بساطة واعظم قوة ، ولكن مازالت مجزأة في مجموعها ، موزعة الى دول شتى لم تبلغ الغاية من التقدم والتجدد ولم تتخلص من بقايا القديم ، وبعد ان خرج الفرنسيون منها مازالت آثار صنعمهم . وتعاقد امراء المانية مع الغاليين سنة ١٨١٥ ، ونشأ الاتحاد الجرمني مرة اخرى ، ولكن بدون تحديد واضح ، وكان الى جانب النمسة وبروسية تقوم انكلترة (لأن ملكها هانوفر) والبلاد المنخفضة (لعاقها باللكمبيرغ) والدنمرك (بسبب هولشتاين) ، وابي فرنسوا ان يلبس التاج الامبرطوري مرة اخرى . وقد نشأت الاحزاب في المانية ، وفيها انصار الاستبداد ، وانصار الحقوق التاريخية الذين ينكرون حق الأمراء ، وينسكرون الدساتير ، والحزب الدستوري

الذي كان على طرفي نقيض مع حزب الاستبداد ، ونسبت الخلافات السياسية بين سلطة الاتحاد وسلطة الامراء وبين الامراء انفسهم بسبب الوضع الغريب الذي كانوا فيه ، وظلت الحياة السياسية في المانية حتى سنة ١٨٤٨ منحصرة في الدول الصغرى ، وكانت تظهر في ثلاث مظاهر : الصحافة والجامعة والمجالس المنتخبة.

وانارت حرب التحرير حركة وطنية بين الطلاب ، فأخذوا يعملون بوسائل صغيرة لاثارة الشعور الوطني واعداد الشعب للاتحاد والحكم الدستوري ، وكانوا يعقدون المؤتمرات ، ويحتفلون بالايام الوطنية ، وقد اغضب ذلك مترنيخ وعده من اعمال عناصر الثورة ، فاضطهدت الجامعة وانعقد مؤتمر الماني في فينة ، حدد واجبات الدول الداخلة في التحالف ، واشترط بان يكون مجموع سلطة الدولة في قبضة رئيس الدولة ، ولم يستطع مترنيخ ان يطلب الغاء الدساتير وتحريم اعلان مناقشات المجالس ، ولكنه حمل المؤتمر على ان يقر ان الحدود الشرعية لحق الاعراب عن حرية الرأي ، مقيدة بامن الدول وطمأنيتها .

ولم تجد لجنة البحث والتنقيب التي الفت اثرأ لاي مؤامرة ، ومع ذلك فان بعض التلاميذ ارسلوا الى المعتقلات لانهم حملوا لواء الوحدة (الاسود - الاحمر - الذهبي) وانشدوا الاناشيد الوطنية ، وكان موقف حكومات الجنوب انها عارضت في هذا الضغط واخذت على عاتقها حماية الحريات العامة ، فاغضب ذلك بروسية والنمسة ، ولكن انصار الحرية في المانية هبوا لمقاومة الحكومتين المستبدتين ، وانتصروا للشعوب التي تدافع عن حرياتها ، وقد احكمت الروابط بين احرار الالمان واحرار الفرنسيين ، وغلب اهتمام الاولين بحرية البلاد على اهتمامهم بالوحدة الالمانية .

ولم ينشط الديت الذي هو الوضع الوحيد المشترك للعمل الا في الاضطرابات والقلق ، كانه لم يكن الا شرطة سياسية ، فكان ذلك سبباً لكره الالمان الكثيرين له ، وقد اخذ المؤلفون ينشرون فكرة اقامة حكومة وطنية اتحادية ، معتقدين ان الوطنية هي الشرط الاول للانسانية ، كما ان الجسم هو الشرط الاول للنفس ، وكان الكثيرون يحشون بروسية ويرتابون بها ، ولكنها مع ذلك اصبحت عنداولى الرأي ذات حق شرعي في التسلسل على المانية وفي حمايتها .

وكانت تعاود الفرنسيين فكرة احتلال شاطيء الرين الآخر ، فاتجه عداا الالمان لفرنسة ، ونطق به نشيدهم الوطني ، وهو الرين الالماني ، الذي اصبح نشيد الحرب بعد ثلاثين سنة في حرب السبعين ، ثم اصبح النشيد : المانية فوق الجميع . وانتشرت فكرة الجامعة والوحدة بين الامراء فاصبحوا يكرمون القائلين بها ويحيون عند سنوح كل فرصة الوطن المشترك ، ونشأت ثورة سنة ١٨٤٨ عن انتشار الآراء الوطنية في آن واحد مع الآراء الديمقراطية والدستورية . .

ولم تنجح محاولة تأسيس دولة متحدة عن طريق مجلس او مؤتمر ، فاتجه ملك بروسية نحو تحقيق ذلك بالاتفاق مع الامراء الذين حبيت اليهم جميعاً هذه الفكرة ، واخذوا عدتهم لها ، حتى تم انشاء الدولة الالمانية العظمى .

اما السياسة الفرنسية فقد ثابرت على خطاها في الاعتماد على تفرق الممالك الالمانية ، حتى ان اوغست كوقان الكاتب الفرنسي الشهير في ادراك المسائل الدولية ، كتب ينتقد هذه الآراء التي ما برحت تنتشر في فرنسا قبل حرب السبعين وبعد حرب ١٩١٤ ، واستشهد بحجج التاريخ على اغلاط لويس فليب وتيرسونا بليون الثالث وخطل آراء بعض المتأخرين في هذه الايام ، وذكر كيف ان المانية كانت تنتشر فيها دعوة العداا لفرنسة بسبب خطتها السياسية في معارضة وحدتها واقامة العقبات في سبيلها ، وقد كان ذلك قبل قيام بسمرك بعمله العظيم . وقال : لاجال للخطأ ، فالشعوب الالمانية تشد الوحدة رغم الاوهام التي كانت سائدة في فرنسا عن افتراق الالمان وتصدهم ، في عهد نابليون الثالث وفي ايام الجمهورية الثالثة ، ولم تكن الدول الالمانية تريد مهاجمة فرنسا ولكنها كانت على اهبة للتأزر ، اذا هاجمت فرنسا احداها ، وكانت بافاريا نفسها مشتملة على فكرة الاتحاد والتعاون ، حتى ان ملكها لويس دو بافاريا كان اشد الجميع خصومة لفرنسة ، فيذكرها بعنف ، ويطن فيها بشدة . وقد روى عن مترنيخ قوله : ان سياسة تيرس ادت الى نتيجة لم يمكن ادراكها في سلم دامت خمسة وعشرين عاما ، وهي ازالة جميع الآراء المتباينة التي كانت في الاتحاد الجرمنى ، من حيث الوسائل التي يذني اتخاذها لحماية الوطن المشترك والدفاع عنه .

٢ -- بواذر المستشار الحديدي

بسمرك و غليوم الاول و نابليون الثالث

كان بسمرك يمتد في نفسه انه ولد حاكماً بامرءه، لا يدفعه عن ذلك ولاؤه للملك ولا مخافة الله ، ولا حب الوطن ، ولا الشعور بالمسؤولية نحو الجماعة ، فهو يحس انه وحده، ويرى انه عظيم ، ويشعر بانه مناضل بكل ماله من صبر وعزيمة ، وانه تأثر لا ينفك ينتظر تبديلاً وتغييراً ، يبحث عن المغامرات ويحتقر الشيء المستقر ، وحمته البعيدة ونفسه العصبية لا تبغى ادارة الامور ولكن قلبها وتحولها ، وهو يريد ان يعمل كما يفهم وكما يعلم ، ولا يرضى بان تكون يد فوق يده .

فبعد حياة قلقة مضطربة ، وبعد ان رفض بسمرك ان يدخل في خدمة الدولة لانها لم تكن ذات دستور ، تهالك عند سنوح الفرصة لدخول البرلمان الاول الذي اجتمع في بروسيه لتقرير دستورها سنة ١٨٤٨ ، وقد تمثلت في هذا البرلمان جميع الولايات من الرين الى مغل ، فكان العنوان الاول للوحدة البروسية ، ولكن العقول النيرة التي كانت في هذه القاعة لم تكن تهمها الفكرة البروسية ولكن كانت تهمها الفكرة الالمانية ، وكل من كانت تحمل نفسه شيئاً من العبقريه او يلقي ببصره نظره الى المستقبل ، كان موالماً بالاراء الحرة كما هو مولع بالقومية ، اما الملك فقد كان على ما يقال ورث عن ابيه فكرة الوحدة الالمانية التي يدعو لها جمهور الشعب الالمانى ، على حين ان اعوان العرش لم تكن لديهم الا فكرة بروسيه ، وكانت الاكثرية في المجلس محافظة .

وقد ادرك بسمرك انه في عزلة ، لان رأيه في الملك يجعله بعيداً عن المحافظين ورأيه في الاحرار يقصيه عنهم ، وكانت اول كلمة قالها انه يقاوم احزاب اليمين دفاعاً عن الحكومة ، ويقاوم احزاب الشمال دفاعاً عن احزاب اليمين ، ففضى هذا المنهاج عليه ان يتجه وجهتين مختلفتين ويسير بخطتين متباينتين ، وقد كتب حينئذ في ازراء هذا المجلس : انه من العجيب ان ترى هذه الجرأة التي يقيم عليها

الخطباء البرهان اذا ناظرنا بينها وبين كفاياتهم ، وكيف يقدمون على ان يحملوا جماً كهذا الجمع العظيم على الاذعان لضعفهم وعجزهم ونقص مزايهم ، ان الامر ليستغزني اكثر مما كنت اظن . فكان يريد ان يخوض المعركة وكان يشمر باحتقار الرجال الى هذه الساعة ، وكان هذا الاحتقار يظهر في كتبه التي يهزأ بها ، او في بعض المبارزات التي يتعرض لها ، ولم يكن شبيهه لما فيه من قوة حية وجراءة وشجاعة : وكان كثير العجب بنفسه بحيث لا يستطيع ان يكون موظفاً ، ومبالغاً في الاستقلال بحيث لا يستطيع ان يكون جندياً ، فبقى رئيساً لبعض الحرائين ، وكبيراً لجماعة يسهل التغلب عليهم ، وبقيت روح بسمرك المناضلة لا تجد ما يضرهم فيها الحماسة ، اما الآن فقد وجد المنبر الذي يرتقيه ليناضل ذات اليمين وذات الشمال ، ولكن لافي سبيل الدفاع عن فكرة ، ولا لاتبجاز خطة سياسية او اقتصادية ، بل ارضاء لنفس تتحفز للوثوب ، وتستعد لقتال الرجال والجماعات ، وتمثيل الشعب عنده هو تجريد السيف .

وفي اول خطبة له في المجلس اثار غضب اصدقائه فضلا عن اعدائه ، وهي عادة العبقرية حين لقاء الجماهير ، وذلك على اثر خطبة القاها احد النبلاء المحافظين ، وذكر انه في سنة ١٨١٣ لم يكن الحقد على الفاتحين هو العامل الوحيد في اثاره الروس ، لان شعباً جريئاً كهذا الشعب لا يعرف الحقد الوطني ، فان الشعب تقدم بنفسه لتحرير رقبته ، ولذلك فانه نال الحق بمشاطرة الحكم ، فوقف حينئذ بسمرك محبباً : ان غضب الشعب سنة ١٨١٣ لا يجوز ان يعزى لشيء غير شعوره بالعار الذي لحقه ، من ان يكون الاجانب حاكمين في بلاده ، واني ارى انه من اسوأ الخدمات التي تقدم للوطن ان يقال ان الاهانة لم تكن كافية حتى يغلى دمه في عروقه ، وحتى يتغلب الحقد على كل عاطفة من عواطف الشرف عنده ، وان يحاول استثمار مافعله الدفاع عن نفسه ويصرف عنه فائدة غيره .

وقد عين بسمرك ممثلاً لدولته في فرنكفورت ، فكان يشعر بملل شديد بسبب ماياً كل نفسه من الحماسة وحب النضال ، وبما يشهده في المفاوضات السياسية من

اسباليب الحفاوة والجمالة فينظر الى اصحابها شزراً سخماً كان ينظر الى رفاته في المجلس ،
فعمد النية على الاستعفاء من عمله حتى يتخلص من الملل الذي اصابه ، ولكنه كلف
اصدقائه ان يسعوا لتعيينه سفيراً فكان له ما اراد وهو ابن ست وثلاثين سنة ، محلم
يسبق له نظير لرجل لم ينتم الى السلك السياسي ، وكان تعيينه مناقضاً للعادات المألوفة ،
وكذلك فقد اخذ نجم بسمرك يتألق في سماء المعالي وسعت اليه المراتب الرفيعة ، حتى
كتب بعد سنة الى اهله يقول : اني الان كشعاع الشمس ، يتطلبني القصر ويمشي
الي العظماء ويسألني الصغار اسداء المعونة او جميل العطف ، ولست بحاجة الى بذل
الجهد حتى اتبين ان هذه المظاهر المملابة قد تكون زائلة في الغد ، وان اشهد في
حفلة من حفلات القصر وجوها تنصرف عني اكثر من الوجوه التي تقبل علي الآن .

ولما اوشكت ان تنشب حرب القرم ، كان القيصر نقولاً اعظم رجل في اوربة وكان
يرمي الى احتلال القسطنطينية واقتسام بلاد « الرجل المريض » ، وكان نابليون الثالث
يتلظى غضباً لان القيصر بأبي مخاطبته بأخي ولكنه يخاطبه بابن عمي ، وكان يريد ايضاً
ان يثار لعمه ، فاصبحت مقادير اوربة مستهدفة للأخطار التي تبعثها اشباه هذه الصغار ،
وجاءت سنة ١٨٥٤ والحرب على قاب قوسين او ادني ، والتحالف معقود بين انكلترة
وفرنسة وتركية ، وكانت النمسة مصممة على الالتحاق بالتحالف ، لانها كانت
تنظر بعين الخشية الى توسع الروس في البلقان ، وكانت القضية كذلك تهم روسية
وتدعوها الى التأمل في عواقبها ، وقد استدعى بسمرك الى برلين ليبيد رأييه
ويكون حكماً بين المنقسمين في هذا الشأن ، فكان رأييه صريحاً وهو انه ليس
لنا ان ندخل في الحرب ولا ان نجد مغنماً فيها ، فهي لا تثمر لنا الا الخصومة ورغبة
الانتقام التي تملأ قاب مغلوب يقيم على حدود بلادنا ، واذا اشتركننا في الحرب
خشية من فرنسة وتزلفاً الى انكلترة ، نكون قد قمنا بدور احد امراء الهند الذي
يتبع انكلترة ويقاقل معها .

فغضب البرنس غليوم عندما سمع هذا الرأي ، وقال ان هذا الرجل يشتغل في
السياسة كما يشتغل بها تلاميذ المدارس ، على ان هذه هي المرة الاولى التي كان فيها

رأي بسمرك مستمداً من عبقريته ؛ وكان شغله في السياسة شغل كبار الرجال ، وهو لم يكن يريد ان تكون بروسية سائرة على آثار النمسة التي يبعثها ، ويصفها بالخداع والرياء وقبح التدبير ، وهو يعتقد ان الازمات تهيء العواصف ، وبروسية تنتظر الفرص لتنمو وتكبر وتدبر الأمور تدبيراً يلائم مصالحها ومنافعها بدون ان تحاذر شيئاً ولا ان تكثر بشيء ، وعلى كل حال فالنجدة التي ترسلها بروسية ينبغي ان تعود عليها بما يزيد في عظمتها ، وان تتخلى النمسة بمقابلها عن دعوى السيادة في المانية ، فاصبح بسمرك في حرب القرم رجل السياسة الاوربية ، ولكن الملك مع ذلك لم يكن يعرف ماذا يصنع ، فانقاد الى عقد اتفاق عسكري مع النمسة يرمي الى غايات دفاعية وهجومية ، ولكنه لم يلبث ان تخلى عن دعة هذه السياسة ، اما بسمرك فقد زادت مسافة الخلف بينه وبين القصر ، وتباعده في سياسته عن الملك ، وسافر بعد ذلك الى فرنسا فالتقى بالامبرطور نابليون الثالث والامبرطورة اوجيني اللذين اعجبا به .

وقد افضى اليه الامبرطور بحديث غريب عن نياته السياسية ، ورغباته في نمو بروسية واتساع ملكها بما تنتزع من جيرانها ، فتحتل هولشتاين وشنزويغ وهانوفر ، وتصبح دولة بحرية من الدرجة الثانية ، حتى تستطيع مقاومة انكثرة بمعونة فرنسا ، والامبرطور يريد ان يعتمد بمقابل ذلك على هدوء بروسية اذا تعقدت الأمور بين فرنسا والنمسة بسبب الايطاليين ، وسأله عما يكون رأي الملك في ذلك ؟ فاجابه بسمرك : انا سعيد بهذا الحديث ، لانه اولا دليل الثقة ، وثانياً لانه السياسي الوحيد الذي لا يذيع سره ، ولا يطلع عليه احداً في بروسية ، حتى ولا الملك لأنه لا يوافق على ذلك ، وكل حديث في هذا الشأن ربما يؤدي الى اباحة للسريسي الى العلائق الحسنة بين فرنسا والمانية ، فقال له نابليون ليست هذه اباحة ولكن خيانة ، فاجابه بسمرك انها كذلك تجعلكم في موقف حرج ، فقبل هذه الكلمة وسجل عليه وعده .

وما اكثر ما في هذا الحديث من دهاء وبراعة ، وهو يدل على طول باع بسمرك

في السياسة الاوربية ، فانه لم يقل كما يقول سواه ايس لدي تعاليم في ذلك وسأكتب الى مرجعي ، ولكنه وجد من سعة رأيه وحضور ذهنه ، ومن الجرأة وتحمل المسؤولية ، ما يفسد خطط العدو الذي يريد ان يتدخل في شؤون المانية ، ولم تلمع في ناظره بروق الاطاع ، فوطى على النار بقدمه حتى أخذ نورها قبل ان يراها احد ، على حين انه عدو النمسة الذي لا تخمد مراحله ضعفه ، واقدر من يستطع ان ينصح بالاتفاق مع الامبرطور ، ولكن بدلاً من ذلك قال له قولاً حكيماً سما فيه حتى بلغ ارفع الدرجات في حسن الاسلوب : انك تضع نفسك في موقف مبهم مستغرب . وعجيب ان يقدم الذكاء الفرنسي على مثل هذه الاقتراحات التي لا مسوغ لها ، وهل اراد الامبرطور ان يستطلع خفايا هذا البروسي ويتعرف خططه ، وحاول ان يقتنص الصراحة بالصراحة ، ونخبأت الاسرار بمظاهر الثقة ؟

غير ان هذا التقدير هو فاضح ، لان بسمرك انما يكون صريحاً عندما يريد ان يخيف ويخدع ، وهو لا يكون صريحاً عندما يستسلم الآخر بالثقة ولا تبقى له فائدة من الصراحة ، اما جوابه فقد كان يريد منه احراز الثقة والزيادة في حسن الظن به ، وقد بلغ من ذلك ما اراد ، وهو لم يبحث هذا الأمر في تقريره وكتبه الى حين عودته ، واقترح ان يدعى نابليون الى زيارة برلين ، وقد كان في هذا الرأي مخالفاً لسياسة الملك ومستشاريه ، ولكن هذا لرجل المتمسك باهداف الحقائق لم يكن يأبه لهذه الاساليب ، وماذا كان يهمه ان يؤيد الملوك الذين توارثوا الملك وتناقلوه ! لقد خرج بسمرك على رأي سيده ورأى جماعته واصبح رجل الحزب في الماضي لا يعرف الا انه رجل دولة ، وقد ادلى في رسالة بما كان يحول في نفسه فقال :

الرجل (نابليون) ايس له شأن كبير عندي ، وقلما ينمو في نفسي شعور الاعجاب بالرجال ، وقد يكون من خطأ النظر لدي ، اني ارى مواطن الضعف اكثر مما ارى مواطن الاحسان ، وهل تريدون ان تبحثوا عن القاعدة الشرعية الموافقة لفرنسة ؟ اما انا فاعترف بان وطنيتي بروسية محضة ، ولا تهمني فرنسة الا بقدر

ما يؤثر موقفها في بلادي ، وبقدر ماتكون مفيدة في العمل الذي اخدم فيه مليكي وموطني ، واني بالنظر الى مايتحتم علي القيام به من الواجب في خدمة سياسة بلادي الخارجية لا اكترث الى الحب والبغض فيما يتعلق بالدول الاجنبية والاشخاص الاجانب ، ولا فيما يتعلق بي او بغيري ، وان في قبول هذه الخطوة اعتراف الخيانة للمليك والبلاد ، وعندني ان الملك نفسه لا يجوز ان تكون لديه عواطف حب او بغض للاجانب .

واني لاسألكم اذا كان في اوروبا وزارة ترغب اكثر من وزارة فينة رغبة طبيعية في الوقوف دون نمو بروسية وعلو شأنها وتزايد نفوذها في المانية ؟ اما انا فلا اشعر بمطف نحو أى دولة اجنبية الا نحو انكلترة وعاداتها ، هذا اذا بقي احيانا لذلك اثر في نفسي ، ولكن الناس لا يريدون ان نحبهم ، واني ارى بعين الرضى ان يصلى جنودنا بنيرانهم الانكليز . والروس او الفرنسيين متى قام عندي البرهان ان هذا العمل هو سبيل سياسة محددة وفكرة مقرررة مخصصة .

ولكن متى انقطعت هذه الدول عن ان تستمد اصولها من الثورة ؟ وما هي علامة ذلك ؟ فهل يقال اننا عفونا عن ميلادهم غير الشرعي متى انقطع تهديدهم لنا ؟ وليس من دواعي الغضب ان يستمروا على اعلان اروماتهم ومناسبتهم ، واذا اريد ان يبحث عن اصل لاثورات فليس في فرصة يجب تحرى ذلك ، ولكن في انكلترة بل في عهود ابعد في التاريخ ، في رومة وفي جرمانية . وكم من حياة سياسية في هذا اليوم تمتد اصولها الى الثورة وانتقلب ! خذوا مثلاً لذلك : البرتغال ، الجمهوريات الامريكية كلها ، السويد ، بلجيكة ، هولندة ، سويسرة ، اليونان ... انكلترة ، وكذلك الامرا اذا اردنا ان ننظر الى الاراضي التي انتزعها الأمراء الامان من الامبرطور ، والى ما اخذنا نحن ، وهل نستطيع ان نأتي ببراهين قاطعة على ان الحكم في بلادنا ليست له مصادر ثورية ؟ .

وقد اشتبك بسمرق مع غليوم باختلافات سياسية خطيرة وهو اير يقوم باعباء الدولة ، ولما انتهت اليه مقاييد الامور ولبس رداء الملك جرت بينهما مذاكرة مأثورة حول سياسة البلاد واداتها وتدير امورها ، فزادت ما بينهما من تباين الرأي ،

ولكن العجب الذي يقضيه المرء هو من طمانينة الرئيس الى مرؤوس لا يحمله ، وتقلب المرؤوس في اساليب من الجرأة والحيلة والمنطق والمكر لبلوغ غايته وانجاح مقاصده .

وقد نشأ غليوم نشأة عسكرية وتأدب بأدابها ، وكان يحمل في قرارة نفسه جميع الصفات البروسية المتأصلة فيه ، وكان جليداً على العمل ، يحد ويدأب ، ويحافظ على النظام ، تقياً ، عادلاً ، كريم الجانب ، متمسكاً بحقه ، مراعي الحلق سواء ، ولكنه كان بسيط الخلق ، ضيق الذهن ، ولم يكن بسمرك يشابهه في شيء ، سريع الغضب شديد الحقد ، كثير الريبة ، حول قلب ، جرىء محقق ، مشكوك في عقيدته ربه وولائه لما ليكه ، لا ينفو ولا يندم ، يتقيد طوراً بالاساليب الشرعية ، وطوراً لا يبالى بالانظمة ، ملتبس الأمر ، متناقض في الظاهر ، عجيب عبقرى ، هو السياسة في صورة انسان ، يغلي دمه في عروقه ويثب قلبه في جوفه ، ويريد ان يقبض بيده على الفوضى السائدة في برلين ، ولكن لم يتبين المهاج ولم يعرف الوسيلة ، وقد اف بين الرجلين اتحادهما في الجرأة والانفة واشتراكهما في الالباء والشجاعة : فكان ذلك سبب اتفاقهما على ان ماطبعا عليه من شتم كان يقضي بتباعدهما ، وكانت نفس غليوم نفس ملك منذ ميلاده ، عامر القلب بالثقوى ، يحل الرأي والاجتهاد ، ويشعر انه فوق سواء من غير ان يبالغ في تقدير ذكائه ، ولكن ما انطوى عليه من العناد الشديد ومن كرامة الشيخ الكبير لم يجعله يشعر ان وزيره كان يغلبه على امره ، لأن عزة الملك تأبى ذلك ، اما بسمرك فقد كان دائماً يندفع الى الامام بما تنطوى عليه نفسه من عزيمة ، وكان باؤه يحمله على ان لا يبرح مفكراً بما يصونه وينزهه ، وهو وان كان بعيداً عن مهاوي الغرور فانه لم يكن يعبأ بأراء معاصريه ، وكان همه المضاء والنفاذ ، وهم الملك ان يملك غير طامح الى توسيع بروسية ولا رام ببصره الى المانية ، على حين ان بسمرك يطمع ان يري بروسية تقود المانية في منازل المجد ومراتب الشرف ، وكان الملك يشتد عناده في اشتداد الازمات ، ولم يكن بسمرك اهدأ نفساً ولا اوضح رأياً منه في اثناء وقوعها ، وعلى هذا النحو كان بسمرك يأخذ بيد الامبرطور الشيخ المطمئن في آثار سياسته ، ويستنفذ مواهبه في خدمته .

وكان بسمرك يتخطأه بمودة نابليون الثالث ، وقد عين سفيراً في فرنسا ، وكانت بينه وبين الامبرطور محادثة تساءل فيها نابليون عن رأي ملك بروسية في التحالف معه . فاجاب بسمرك ان الرأي العام يميل الى فرنسا ، ولكن التحالفات في الاوقات الحاضرة ليست مجدية الا اذا كانت ضرورية وقامت على سبب وغاية ، فقال له نابليون ايس هذا الرأي بصحيح دائماً ، فان الدول بينها خلافات متفاوتة في الصداقة ، واذا كان المستقبل غير مؤكد فيجب ان نرسم خطة قائمة على توجيه الثقة وتعزيزها ، واني لا اتكلم عن التحالف عفواً ، ولكن ارى بين بروسية وبين فرنسا من التشابه في المصالح ما يحملها على ان يكون بينها اسباب اتفاق دائم صادق مادام ليست هنالك موانع ، ومن الخطأ الكبير محاولة السيطرة على الحوادث وقيادتها ، لانها تأتي منقاد طائفة من ذات نفسها ، من غير ان ندرك مدى قوتها او ناحية اتجاهها ، ولذلك ينبغي ان نحسب حسابها قبل وقوعها ، وان نتخذ من الوسائل مانستعين به على دفعها .

٣ — شلزويف - هولشتاين وحرب النمسة

وصف الكونت بروكش استن ممثل النمسة في مؤتمر الاتحاد الالمانى رفيقه بسمرك بهذه الكلمات ، التي دلت على داهية السياسة دلالة واضحة ، اكدتها الحوادث الجسام التي اشترك فيها من بعد : « يدعى بسمرك ان بروسية هي مركز العالم . . . وهو يتهاونك رغبة في تمزيق الاتحاد وتفريق شمله . . . ولوان ملكا انحد من السماء لما استقبله بغير الشعار البروسي . هو مثال مكيفلى في آرائه وقواعده ، يحكم الرمية كثير الحيلة بحيث لا يأتى بعمل من الاعمال ناقصاً او يكتفى بنصفه . . . وهو يسعى جاهداً من غير ان يعرف الونى ليفت في عضد الاتحاد ويفسده ويشله . . . مستمينا على ذلك كل الاستعانة ببروسية ، ولكنه يعرف كيف يلقى التبعة على عاتق النمسة . . . وقد استولى عليه ميل بروسية ورغبته استيلاء جعله يحذثي بالضرورة المبرمة القاضية بأن تتحد المانية بقيادة بروسية . . . اما انا فلم اشهد في عمري رجلاً مثله لا يفرط ذرة فيما يعتقد ، ولا يشك لحظة فيما يعمل . »

كذلك كان الرجل العجيب الذي بعد ان تولى وزارة الخارجية اتى كلمته الشهيرة التي قال فيها : ان الخطب وقرارات الاكثرية لا تسوى مشكلات هذا العصر الخطيرة ولكن يسويها الحديد والدم . وكانت هذه الكلمة من اشهر كلماته ، فبقيت عنوانا له ، وعتب عليه بسببها الاصدقاء والخصوم ، ونقم منها الامبرطور نقمة شديدة وخشي عواقبها ، ولكن بسمرك استطاع بحزمه وجرأته ان يخرج منها وان كان قد اولها واطهر ندامته عليها .

ولما اخذ بسمرك يتأهب لاعماله العظمى ، بدأ اهتمامه بشانزويغ هوشتاين ، وكان غليوم يتساءل عن حقه في هذه الربوع فيجيبه متسائلاً مثله عن الحق الذي افتح به فردريك سائزيه ، ويضيف الى ذلك ان جميع آل هوهنزولرن زادوا في سعة دولتهم وخصامتها ، واخذ يعث بالنمسة في هذه القضية حتى يجرها وراءه ويخرجها بعد ذلك من التحالف الجرمني ، وكان على هذه الطريقة يحجب آفاق السياسة الاوربية ، فيراقب باحدى عينيه سياسة الدول الكبيرة ، وينظر بالعين الثانية الى مليكه الذي لا يستطيع اغفال امره حتى لا تضيق عليه خطته ، ولكن الحظ لا يبرح متتبعا خطى الرجال البارعين ، وقد ابتسم له الحظ في جميع اموره ولا سيما في هذا الأمر الذي حاوله قبل غيره ، وسارت النمسة يدأيد هي وبروسية التي كانت تنظر اليها شزراً والتي حرمت ساستها الراحة والهدوء ، وبعد ان عقدت للملكين الوية النصر على الدنمرك ، لم يكونا يعرفان ماذا يصنعان بالبلاد التي احتلها باسم التحالف الجرمني ، وكانت النمسة تريد ان تجعل هذين البلدين جزءاً من التحالف ولكن بروسية كانت تريد ان نفسها ، واخذ بسمرك يضطرم غيظا ويحدث الوزراء بان الفرصة مواتية لقتال النمسة ... ولكن الوزراء تركوا الامر للملك ، اما بسمرك فقد استمر في خطته ينكر سياسة التردد ويعدها اقبح سياسة ، ولا يكثر للمبادئ الحقوقية ومعارضة بعضها لبعض ، ويرى ان الواجب الوطني هو فوق كل علاقة ورابطة ، وانه اذا تعارضت المودة والوطنية فالشأن للثانية .

وكان هذا السياسي العظيم برغم الحالة النفسية في بلاده وبرغم رأى سيده ، يهيم في نفسه حرباً على اخوانه المان النمسة ، ويعمل على دفع فرنسا الطموحة بوعود ظاهرة مستترة كان يعني بها الامبرطور نابليون في محادثاته معه واغراً آتة المتوالية ، ومحاولة كل واحد ان يخذل صاحبه من غير ان يريد حربه ، وقد بدأ خطته بتقاسم شلروينغ هولشتاين مع النمسة فأخذ لبلاده القسم الاوفى لاتصاله بها ، وترك ما بقي للنمسة التي كانت مشغولة بشؤونها الداخلية محرومة من كل تحالف اجني، حتى انها تخلت عن الجزء الذي يخصها من شلروينغ - هولشتاين .

ومضى بعد ذلك بسمرك يتحدث كرجل الماني ويعلن جهرة انه يريد ان تكون المانية متحدة، وانه لا يخشى الحرب ولا يريد فقط شلروينغ-هولشتاين ، ولكن يريد توحيد المانية الشمالية ، واستمر في تحريضه على النمسة حتى انه كان يستثير المجريين للقيام على ملكهم الشرعي ، ويستفز نبلاء الشك ويعدم بالاستقلال كما يعدم اوائك . والتنافس بين النمسة وبين بروسية يرجع الى عصرين سابقين ، فكانت بروسية تريد التغلب على منافستها وتحاول ان تحل محلها ، ولم يكن الخلاف الدني الذي قسم المانية واثار النزاع الدامي فيها بعيداً عن هذا النضال ، فقد كان يخفى ويظهر حتى انه بلغ من العنف ما حمل فردريك غليوم الثاني ان يقول في وصيته السياسية : لا يجوز لبروسية ان تأذن بانتزاع الالزاس واللورين من فرنسا ، لأن السياسة الفرنسية كانت تقاوم الامبرطورية الجرمنية وتحول دون استفحال خطرهما ، وهذا ما كانت تصنعه بروسية ولكن سياسة سنة ١٧٩٤ هي غير سياسة بسمرك وايامها غير ايامه ، فالنضال الذي اشتد بين الدولتين الالمانيتين لم يكن الا تمادياً في الخصومة التاريخية التي آن ان يفصل فيها بحد الحسام .

وبعد ان اندر بسمرك النمسة كان في منتصف ليلة الانذار يحدث سفير انكلترة ، فقال له فجأة ان جنود بروسية تدخل في هذه الساعة ها نوفر وهس ، وقد تخسر بروسية المعركة ، ولكنها على كل حال ستقاتل بجرأة وشجاعة . واذا غلبنا فلن ابقى حياً وسأقع قتيلاً في آخر هجوم ، والمرء لا يموت الامرة واحدة ، وعند الانكسار

فالوت اولى بالمنكرس . وهذه الكلمة تدل على خلق بسمرك ، فهو الياف المفاخرات ، وطالما كان يقول لمن يولمه على المخاطرة بنفسه ، انه لا يبالي بشيء وان حمل يديه رأسه الى السيف .

ولما لاحت بعد اسبوعين شارات النصر في المانية ، اخذ الشعب يهتف للقائد الشجاع في ساحات السياسة ومعاركها ، فتجاوبت اوربة بانباء الحادث العظيم الذي كان له وقع شديد في المحافل والجامع ، حتى ان سكرتير الدولة في الفاتيكان صرخ بملء فيه صرخة الاسف على العالم ، بعد ان اصبحت بروسية حليفة فكتوز عثمانويل امير العصاة الذي غلب هو واياها صاحب الجلالة الكاثوليكية ، وارتكب بذلك احدى الكبائر .

اما بسمرك فقد افتتح بعد النصر عهد سياسة جديدة ، واصبح يحاسب النمسة بعد ان حاربها وتمكن منها ، وقد ذكر في خطبة العرش انهم سينشئون تحالفاً دولياً في الشمال الالمانى . وهو الخطوة الاولى نحو الوحدة ، وعارض القادة الذين ارادوا مهاجمة فينة ودخولها عنوة واطلاق القنابل عليها ، وكان الملك يؤيده في خطته الجديدة حتى قال : لقد دخلت الحرب كارهأ ولكن قضي الأمر الآن ، فبقي علينا ان نجتنب في علائقنا المقبلة مع فينة كل ذكرى مؤلمة ، ودخول جيوش فاتحة يجرح كرامة شعب النمسة كما يجرحها اضاعة بعض ممتلكاته من اجزاء الدولة ، لاننا سنضطر عما قريب ان ندافع عن فتوحاتنا التي احرزناها في ساحة الحرب ، اما فرنسا فسنشتبك في قتالها بعد قتال النمسة ، وهذا ما يقضي به تسلسل الوقائع التاريخية ومنطقها . وكان بسمرك يتهكم على القواد في مجلس حرب عقده الملك قائلاً : اذا انسحب جيش العدو من فينة فينبغي ان نفتص آثاره الى هغارية ، ومضى اجزنا الدانوب ينبغي ان نبقى على ضفته اليمنى ، وافضل ما تتبعه من الخطط واحكمه ان نسير بعد ذلك نحو القسطنطينية ونعيد تأسيس امبرطورية البرنطين .

وقلما سمع هذا العبقرى الرزين يتكلم مثل هذه المرة ، فهو الذي اوقد نار الحرب واذكى لظاها ، وبعد ان قضى منها وطره عزم على الكف عنها وفكر في

عواقب السياسة التي يتبعها ، وفي الغايات البعيدة التي يسعى لها ، وإذا لم يكن قائداً وهو كذلك في نفسه ، فقد جعلته السياسة صاحب الكلمة الأولى لأنه يرى في ثنايا الاتفاق حرباً جديدة ، وهي حرب فرنسة التي لم يكن يريد لها ولكنه لا يجد مندوحة عن خوض غمارها .

ومضى بسمرك يداري الملك العسكري المنسالم ، الذي لم يكن يريد الحرب إلا دفاعاً ، ولكنه يأبى أن لا يقتطف قادته ثمار النصر ، وإذا كان قلم بسمرك هو الذي قاد إلى الحرب ، فانه ينكر على هذا القلم أن يضرب بالنصر الذي ادركه السيف ، وقد اعرب غليوم عن شروط الصلح لئلا يليون الثمات الذي توسط في الأمر وهي : الحاق شلروينج - هواشتاين وسيادة بروسية في المانية وغرامة حرية وانتراع بلاد الامراء المعادين . وكان بسمرك يتعرف ما يقع في باريس من صدى هذه المطالب ورجعها ، وقد صح رأيه على عقد الصلح بحسب الشروط التي طلبتها النمسة ، ولم يقصر في عناء يتطلبه اقناع الآخرين وحملهم طوعاً او كرها على اتباع رأيه ، وكانت النمسة متضعضعة فلم يبق الا سلوك خطة الانشاء واجتناب الاحقاد ، ولا سيما ان النمسة لا يمكن ان تصبح ارضا بروسية تحكمها برلين ، فيجب توثيق العرى معها قبل ان تتحسن العلاقات بينها وبين فرنسة ، ومن اللازم على بروسية ان تعمل على تعزيز نفوذها في المانية كلها ، وان تسعى لتعزيز الروح الوطنية وتقوية شعور الوحدة في البلاد الالمانية .

وكان الملك يخشى ان يعقب الفشل والاحفاق النصر والظفر ، ويرى ان السلم الذي يزيده بسمرك لا فخر فيه بمد تلك الانتصارات الباهرة ، اما بسمرك فكان يرغب في توحيد المانية بقيادة بروسية ، ويرى ان ذنب النمسة في منافستها اعظم من ذنبها ، ولكنه يحرص على توثيق الصلات بين الدولتين الجرمنيتين اللتين بينهما علاقات محكمة وعوامل كثيرة ، وهو لذلك يريد سلماً لا الحاق فيه ولا غرامة ولا غنائم ، ولكن يريد مداواة الجرح فوراً حتى يلتئم في الحال ويندمل ، ويقوم على اثره تحالف صالح مرضي ، يتخلى فيه الغاب عن حق سيفه ، ويضع العقل والحكمة فوق الغلبة والقوة ، وهو يدنو بذلك

من آراء مفكرى القرن العشرين، فيما يجب ان تكون عليه العلائق بين الدول التي تريد اقامة سلم ثابت الاركان .

وكان يفاخر بسمرك بانه بلغ اغراضه في حرب النمسة ، فابقى فرنسة على الحياد ، واخذ يمنيها البلجيكيك تارة ويعارض تارة اخرى اطامعها في المكسمبرغ ، المنطقة الالمانية التي لا يوافق الشعب على ان تكون في يد العدو الموروث . وبعد ظفر بسمرك واستفحال امر بروسية ، حاول نابليون الثالث ان يعزز موقفه المضطرب بمطالب اقليمية ، وحينئذ صرح له بسمرك عن ناجذه ، وصددم مندوبه صدمة شديدة بقوله : اذا الحت فرنسة فيما تطالب به ، فستجد على شاطئ الرين ، جيش روسية وجيش النمسة ، متعاقدين متحالفين في سبيل الدفاع عن الوطن الالمانى ورد عادية فرنسة .

وكان يمتنى بسمرك ان يحقق رغبته من الوحدة الالمانية بدون قتال ، وان يغلب فرنسة في ميدان السياسة لا في ميدان الحرب ، تلك هي امنيته ومطمحه ، على حين ان طبيعته العنيفة كانت تقضي عليه بان ينظر الى الحرب كأنها في خلقه ، وان لم يكن يعتقد ان الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتكوين شعب وانشاء امة ، وقد اثرت فيه مناظر حرب النمسة ودماء القتلى تأثيراً عظيماً ، ولكنه كان يشعر من اعماق قلبه بما تستوجبُه صناعته ومهنته ، وبقدروا كانت تزداد شهرته في اوربة وخارج اوربة ، كان يقل اكترائه بقواد الجيوش ، وقد امتاز بسمرك عن سائر الالمان بانه كان يجمع بين اصالة الراى وقوة الجنان ، ولا يرى ان الحرب امر محتوم بل يرى انه لافائدة منها للغالب فضلاً عن المغلوب . وكان منافسه الجديد نابليون الثالث يعرف مثله ما في السلام والثقة من مصلحة لهذين الشعبين اللذين ماخلقا ليقتتلا ، ولكن ليسيرا جنباً الى جنب في علائق الجوار الحسنه ، وفي طريق التقدم والحضارة ، وكان بسمرك يخفى خطته ، ويعرض على الفرنسيين - كما قال نابليون - ما لا يملكه ، ومع انه كان يحرص على مسالة فرنسة ، فقد بدأ بعد ان اخذ الخلاف يشتد يحمل على جارة روسية المربة ، ويقول : انه يجب مراقبتها والسدس في الجيب والكف على الزناد ،

وكان يتنبأ بقرب وقوع الحرب ، ويرى ان المانية اذا استوت على الانزاس فعلها ان تبقى في الحصون ، وان تظل مستلزمة في السلاح ، فان الفرنسيين سيجدون من يحالفهم ، وهذا هو الخطر ، وقد صح ما تنبأ به .

٤ — حرب فرنسا وتأسيس الامبرطورية

بسمرك في جلائل اعماله

طارت شهرة بسمرك في العالم ، واصبح اسمه يعلأ الكتب والمذكرات التي تنبأ لها العواصم ، وكان يقال انه اذا حدث هذا الشيء اوذاك او لم يحدث ، فلان بسمرك اراد او انه لم يرد ، وكان ينظر اليه حينئذ كرجل تهجم الاعمال والنتائج ، والذين كانوا يرونه قليل الاكتراث بالمسائل الاخلاقية ، تستولى عليهم الدهشة بما يجدون عنده من مزيج الصراحة والحيلة ، وكان يقال انه خدع الفرنسيين اي خدعة في قضية الكسبرغ ، واذا كانت السياسة من اكثر الصناعات كذبا ، فان رجلاً مثل بسمرك يصنع ما يصنعه من الاساليب الخداعة الغرارة في سبيل بلاده ، لا يستطيع اي امرى ان يمتنع عن الاعجاب به ، وكان يتناقل معاصروه كلماته الماثورة ، وقد روى عنه قوله : انه لا يريد الحاق النمسة ، ولكنه يريد الحاق هولنده ، ثم روى عنه بعد اشهر انه لا يريد هولنده ولكن يريد النمسة . اما الحقيقة فان بسمرك لم يكن يريد هذه ولا تلك ، ولكنه كان يريد ان يجعل القريب والبعيد في قلق وخوف دائمين ، وليست الحياة — كما قال — الانضالاً بين جميع الكائنات ، اذهبوا من النبات الى الطيور ، ومروا بالحشرات فالنسور القشاعم ، انكم لا تجدون حياة بدون نضال .

هذا هو الرجل الذي وجده نابليون الثالث يعترض طريق سياسته ، ولم يكن الرجلان يريدان الحرب ، وقد ابتدأ علائقها بصفاء ، ولكن السياسة كانت تفعل بها افعالها ، فكان كل واحد يكيد لصاحبه ، واطمع بسمرك نابليون باحتلال البلجيك ليعوض عليه نمو بروسية وما حدث من اختلال في التوازن ، ولما جاءت قضية ميراث اسبانية وتعقدت الأمور ، اخذ الفريقان يمدان للحرب عدتهما ، وسار بسمرك سيراً حثيثاً في التأهب لها ، وارسل دعواته ومحرضيه في كل مكان يحتاج

اليه لتمهيد السبيل لما يريد ، وكان يقوم بجميع اعماله وهو هادى النفس رابط الجأش ، يدبر اموره بدقة ومهارة ، على حين ان رجال السياسة في فرنسا ، كانوا يجاهدون بالاستعداد للحرب ويناصبون المانية العداء ، وقد استطاع سفير نابليون الثالث ان يتصل بالملك غليوم وان ينال موافقته على انسحاب مرشح آل هوهنزولرن ، ثم عاد الى الملك كره اخرى ، فسأله ان يأخذ على نفسه عهداً بان لا يرضى في حال من الأحوال عن ترشيح امير من هذه الاسرة ، وان يعارض في ذلك وبأبى كل موافقة ، فاستفزع هذا الاسلوب الملك الابي ، وابلغ ما حدث الى بسمرك ، فتناول ما كتب اليه من وصف الحادثة واختصر ما اراد اختصاره ، وحذف ما اراد حذفه ، ونشر البرقية المشهورة في التاريخ ببرقية امس ، وذكر فيما نشر ان الملك لن يستقبل السفير ، وابلغه عن طريق الخاجب انه ليس لديه بعد الآن ما يقول له ، ولم يزد بسمرك كلمة ولم يخترع شيئاً ، ولكنه طوى ما طوى ، وابق ما ابقى ، بحيث ان القدر الذي اذيع يقضي على فرنسا قضاءً مبرماً بدخول الحرب ، حتى تغسل الهوان الذي يلحقها من هذه البرقية .

وقد تضاربت الآراء في عمل بسمرك ببرقية امس ، فان لم يكن نخت الاشتراكى يقول : انها جريمة لا يعرف التاريخ شيئاً لها ، ولكن الجريمة هي حقاً في اوضاع المجتمع البشري ، التي يستطيع فيها رجلان او ثلاثة ان يوقدا نار الحرب ، ويجهلوا لافر منها ، من غير ان يستشيروا الشعوب ، او يفكروا بما تجره عليها من العواقب الوخيمة ، اما البرنس دوبيلوف فقد بحث في مذكراته عن هذه البرقية وقال : انها اعظم عمل عبقرى قام به اكبر رجال الدولة الذين انجبتهم المانية ، وليس في مقدور احد ان يستعيد ذكراها ، بدون ان يشعر بنفحة عظيمة تمر نسائها به ... في ضربة واحدة ازال بسمرك اثر الضعف الذي ظهر على الملك الشيخ في مبالغته بالخفاوة بالسفير الفرنسي بندتى ، واعلا قضية الترشيح للعرش الاسباني عن الخلافات السياسية المألوفة ، واخرجها عن اشباها ونظائر ، واطهر للأمة ان الامر يتعلق بشرف المانية الذي عهد الى روسية بحراسته ، فانار عواصف الحماسة في اقصى البلاد وفي ادناها . وكان بسمرك يجب اجتذاب قتال الشعب الفرنسي ، ولو انه سلم للمانية بان يكون لها

من الحق ما نالته فرنسا منذ عصور ، ولم يكن ليقاتل في سبيل الالتزاماتي انزعمتها فرنسا من المانية في القرن السابع عشر ، ولكن الفرنسيين الذين كانوا يتمتعون بحسن الوحدة لا يتفكرون عن اثاره الفوضى في المانية باسم حرية الاعتقاد ، وغرورهم وشهوة السيطرة المتأصلة في نفوسهم ، جعلوا فرنسا والمانية بحاجة الى تحكيم السيف ، ولم يخض بسمرك الغمرات الا بعد ان مهد الأمور واعد العدة ، حتى لم نجد دولة من الدول سبيلاً الى التدخل ، وبذلك كانت في جانب المانية العوامل غير المقدرة التي هي اعظم من الوسائل المادية ، وكانت السياسة ابلغ اثرأ من الحرب ، وهي التي قادت المانية الى ما حرزته من نصر ، اما فرنسا فقد اعلنت الحرب على المانية وكانت هي البائدة ، حتى ان رئيس وزارتها قال : اننا نحمل هذه التبعة العظمى بقلوب طافحة بالمرح ، وقد اثقلت هذه الكلمة عاتق فرنسا ، كما اثقلت كلمة يتمن هولوغ عاتق المانية ، عندما وصف الحياد البلجيكي وضمان الدول ، بقصاصة ورق سنة ١٩١٤ .

ولم يقتصر بسمرك على القاء تبعة الحرب على فرنسا ، بل اراد ان يجبر عليها غضب بعض الدول ، فأذاع في جريدة التيمس مشروع معاهدة كانت تجري حولها المفاوضات ، وقد اقترح نصها السفير بندي باسم نابليون الثالث والحكومة الفرنسية ، وفي مادتها الثالثة تطلق فرنسا يد بروسية في المانية ماعدا النمسة ، كما ان مادتها الرابعة تدع بروسية فرنسا وشأنها اذا ارادت احتلال الباجيك او الخاقيا ، وهي تؤازرها بقواها البرية والبحرية اذا اعلنت عليها الحرب دولة اخرى .

وقد ارسل بسمرك بلاغاً عاماً الى جميع المندوبين السياسيين للتحالف الالماني في العواصم الأجنبية في تموز سنة ١٨٧٠ ، يذكر فيه القواعد الرئيسية لسياسة العامة وخطه وتدابيره التي تفيد كل رجل دولة فقال :

منذ سادوفا مارحت فرنسا تعرض على بروسية مقترحات شتية ، تساوم فيها على المانية وبلجيكة ، وقد ظهر لي دائماً انه من المستحيل على درس هذه المقترحات ، ولكني رأيت مما يرفع السلام ، ان ادع رجال الدولة في فرنسا ويعيشون في اوهامهم

المدى الذي اقدر عليه من الزمن ، وكنت ارى ان مصلحة اوروبا في المحافظة على السلم ، وان هذا السلم يصبح في عرض من الاخطار اذا قضيت دفعة واحدة على احلام فرنسا كلها ، وكان فريق من رجال السياسة يشير بانه لا يجوز ان يشتري السلم من فرنسا باي ثمن كان ، لان حربها امر لا بد منه ، غير اني لم اكن اشارك هذا الفريق في رأيه ، بل كنت اعتقد بضده ، لانه لا يستطيع احد ، بدون ان يشك او يرتاب ، معرفة ما تحمله المقادير ، ويلوح لي ان حرباً ظافرة هي في نفسها شر دائماً ، يجب على رجال الدولة ان يصونوا الشعوب من عواقبه ، وكذلك فانه من المحتمل ان يصيب السياسة والدستور في فرنسا من التبدل ، ما يحول دون وقوع الحرب ، ويعين على انقائها بين الشعبين المتجاورين .

وقد اصاب بسمرك باذاعة خطة فرنسا ومطامعها في بلجيكة بجريدة انكليزية كبرى ، وذلك ليكشف القناع عن اطماع نابليون في جارتها ، ولا سيما لأن حماية استقلال هذه الدولة من قواعد السياسة الكبرى عند رجال الدولة البريطانية ، ومن قضايا بلادهم الحيوية التي حاربت لأجلها نابليون مدة اثنتي عشر عاماً ، وهذا الطمع الذي كان يشتمل عليه قلب الفاتح الذي لم يبلغ مناه ، كان ينبغي ان يفكر في عواقبه الذين حاولوا مثل محاولته ، واثاروا الاضطراب في حرب سنة ١٩١٤ لاجل الحاق ساحل الفلندر .

ولكن كيف استطاع بسمرك ان يحرز هذه الوثيقة التي كتبها بندي؟ هنا كذلك احدى لعب الداهية الالماني ، لقد كان هذا السفير — يقول دوبيلوف في مذكراته — وزيراً مفوضاً لفرنسة في تورين ، وشهد ان ييمونت تنازلت لفرنسة جزاءً لموازرتها اياها عن سافوا ونيس ، فظن ان بروسية تذكر لفرنسة جميل صنعها بتركها اياها تضم شملها وتجمع وحدتها ، وتكافئها على ذلك ، فكان في اثناء محادثاته مع بسمرك يذكر البلجيكي تعويضاً موافقاً ، وانتهى الامر ببسمرك ان قال له : الموضوع يكون ايسر معالجة اذا تركتني افكر فيه ، وانا قش الملك الشيخ ، وذلك بان تبعث الى بصيفة مكتوبة ، واغري بندي بما اطري من كفاية في انشاء

الوثائق السياسية ، عندما كان سكرتير مؤتمر باريس ، فخدع بهذه المداينة ، وارسل الى الوزير البروسي مشروع المعاهدة المقصودة ، ولكن لم تنقضى ساعات حتى كتب الى بسمرك يطلب اليه ردها ، لان موظفي السفارة يعارضون في بقاء وثيقة خطيرة كهذه الوثيقة السرية ، في يد اجني ، فاعادها اليه بسمرك فوراً ، بعد ان كان قد صورها ، وقد اعلن صورتها عندما اذاعتها جريدة التيمس .

ولم يقصد بسمرك من نشر هذه الوثيقة التأثير على الانكليز والبلجيكي فحسب ، بل اراد ايضاً ان يؤثر على الالمان الذين كانوا يظنون انهم بآمن من فرنسة ، لأن في مشروع المعاهدة (الدفاعية - الهجومية) اجزاء تقتطع من بلادهم ، فمن الخيانة المشارة على هذه الدعوى في الحقيقة الراهنة ، واذا كان بسمرك يلام على خداعه نابليون وبندتي افلا يكون اجدر باللوم اذا تركها يخدعانه ؟ وفي سنة ١٨٧٠ كان التفوق السياسي والنظر البعيد والتصميم والحذر والصبر والعزيمة والمهارة في جانب المانية ، وذلك على نقيض سنة ١٩١٤ .

اما اوروبا فقد كانت تخشى صولة فرنسة واتساع نفوذها وعظم مطالبها ، ولذلك فانها صدقت مانشره بسمرك عن مقاصد نابليون في بلجيكة ، كما انها صدقت ايضاً مانشره سفير فرنسة ببندتي من ان بسمرك هو الذي اوحى بهذا المشروع والصقه به ، وكيف تستبعد اوروبا ذلك عن هذا الرجل ، الذي لا تحصر اساليب سياسته ولا مبتكرات دهائه ؟ ولكنه على كل حال اصاب الغرض الذي رمي اليه في نشر هذه الوثيقة .

وفي بدء الحرب بين بروسية وفرنسة كان يعلم بسمرك انه يريد سلماً لا فتح فيه ولا ارغام ، وانه لا يريد الا معاقبة نابليون والمؤتمرين معه ، وكان ينعت الشعب الفرنسي بانه الشعب الكبير الذي يجاور الالمان ، وان البلدين كليهما يريدان ان يعيشا برخاء وان يتمتعا بحيرات السلام ، ولكن نابليون هاجم بروسية في البر والبحر ، من غير ان يستشير الشعب الفرنسي في خوض غمرات حرب دامية ، ولذلك فليس هنالك اي حقد على هذا الشعب ، ولكن عندما جاء جول فافر مندوباً عن

الحكومة الجديدة ، ومملئاً أن فرنسة خلعت امبرطور الحرب ، وانها تجنح للسلم ، وانها عازمة على تمويض الخسائر ، كان بسمرك في الوقت نفسه يحادث المفاوض المندوب من قبل الامبرطورة اوجيني ، ويحيب جول فافر بقوله :

لا يهمننا وضع حكومتكم ، واذا كان نابليون يظهر انه اقرب لمصالحنا فسندهب به الى باريس ، ولو كنت واثقاً ان سياستكم ستكون سياسة فرنسة لدعوت الملك الى العودة من غير مطالبة بغرامة او ارض ، ولكنكم لا تعلمون الاقلية ذاهبة ، وايس لدينا اي ضمان منكم ، ولا من الذين يأتون من بعدكم ، ويجب علينا ان نفكر بأماننا وطمانينتنا ، ونحن نطالب بان تتخلوا عن الالزاس بأسرها وعن جزء من اللورين .

اما جول فافر فكان يقول : انهم لا يتنازلون عن حجر واحد ، ويصف بسمرك بأنه مهيب عنيف ، بسيط ، سهل الأخذ والرد ، لا تكلف عنده ولا ايذاء لمخاطبه ، وقد استقبله بادب ووقار وبأسطه في الحديث بمباشرة لم يخرج عنها الى النهاية .

وكان بالمستطاع الاتفاق على ان تبقى الالزاس واللورين في حالة حياد ، حتى لا تنشأ من الحاقها المضار التي لا بد منها بسبب وجود فريق من الفرنسيين لايسهل ادغامهم وازالة ما في نفوسهم من شعور وعاطفة وتقليد وذكرى ، ولكن حياد الالزاس واللورين يجعل فرنسة في امان على حدودها مع بما يقوم بينها وبين المانية من دول محايدة كالبلمجيك وسويسرة ، اللتين تضاف اليهما الالزاس واللورين ، على حين ان المانية اقل من فرنسة قوة في البحر ، وانها بحاجة لتكون في مثل هذه الحل من الامان ان تقوم الى جانبها دول محايدة في بحر البلطيك والبحر الاسود ، الا ان الجيش كان مصراً على الالزاس مع سترزبورغ واللورين مع ميتز ، وقد انحنى بسمرك لرغبة الملك ورغبة القواد حتى في بعض مالا يعتقد انه ضروري للدفاع والامان .

ولم يكن بسمرك في بادئ الامر شديد الرغبة في انشاء المانية الكبرى ، ولكنه كان يتقبل شيئاً فشيئاً هذه الفكرة حتى استولت عليه ، واخذ يهيئ لها اسبابها

بدقة وبراعة، ويستعد لذلك حتى برغم الملك نفسه، ولما جاء يوم النصر المبين في فرساي، أشاح الملك عنه بوجهه ولم يعد إليه يده، كأنه آثم بعمله أو جان عليه، أو أنه أراد أن يختار للحكم الرجل الذي لا يطيقه، فكان يحيط به الخصوص من الملك والأمراء والقادة والساسة وهو يتنقل في مراحل النصر.

وقد انقى بسمرق مرة أخرى بجول فافر فبادره بقوله : انيس الموقف الآن كما كان في ايلول، وإذا كانت الغاية من هذا الحديث أن تقول أنكم لا تتنازلون عن حجر لخصومكم، فمن العبث أن نتكلم، وكان مضى على حصار باريس ثلاثة أشهر، ثم قال له : لقد كثرت بياض شعرك يا حضرة الوزير منذ آخر اجتماع، على أن مجيئك لا فائدة منه، لأنه لدي وراء الباب مندوب من لدن نابليون للمفاوضة، وفضلاً عن ذلك فإنكم لا تمثلون الا طائفة من الثائرين، فلماذا امنح جمهوريتكم صبغة شرعية بمفاوضتي اياها، وما انتم في الحقيقة الا فئة ثائرة، وإذا عاد امبرطوركم فانه يحكم عليكم جميعاً بالاعدام.

وعندما اجابه جول فافر ان فرنسة ستكون اذن فريسة للفوضى والحرب الأهلية، قال له : واي ضرر يلحق بالمانية من جراء ذلك؟ ولما سأله جول فافر اذا كان لا يخشى أن يبعث في الشعب الفرنسي روح القنوط واليأس الذي يبعث الاستماتة في المقاومة، قال له : تبحث عن المقاومة، اسمع ما أقول لك : لا يجوز لكم امام الله والناس، أن تقودوا مدينة يقطنها مليونان من السكان المجاعة، ابتغاء مفخرة عسكرية ضئيلة، فقد قطعت السبل، وإذا لم نعد لها بعد ثمان واربعين ساعة فستخسرون في كل يوم مئة ألف، فلا تذكر المقاومة، انها جريمة كبيرة، ثم قام يريد الباب الذي زعم أن وراءه مندوب نابليون، فقال له جول فافر : لا تسوقوا فرنسة بعد هذه المصائب الى تحمل عار نابليون. وجاء بعد ذلك تيروتيم الاتفاق على التسليم والغرامة والتنازل.

وقد يكون اعظم مدح تلقاه بسمرق ما قاله جول فافر عنه : انني اقر بان هرقل سياسي يتجاوز تجاوزاً بعيداً كل ما قد يظن برجل سياسي، وهو يظهر كأنه

لا يكثرث إلا بالأُمور الواقعة ولا يبحث الا عن الحلول العملية ، وتغلب عليه في بعض الاحيان عصبية وشدة ، وقد شهدت من تسامحه كما شهدت من تشدده ما لا يستطيع ادراك سببه ، وهو لم يخدعني قط ، وقد آذاني في كثير من الاحيان بقسوته وجفائه ، على انه كان شديد التقيد في الامور الصغيرة والامور الكبيرة بدون تمييز .

وقد تنبأ بسمرك وغيره بعاقبة هذا النصر ، ولوانه ساد الاعتدال فيه ، واقتصر الالمان على ما يحتاجون اليه مما هو مفيد لهم عسكريا او ما هو مرتبط بهم تاريخيا ، لسكانوا اجتنبوا اثاره حفيظة عدوم حتى غسل عنه العار الذي لحقه ، على ان بسمرك كان يخشى تقلبات الأيام ، ولا يغفل عن مراقبة السياسة الفرنسية وسياسة سائر الدول ، شديد الحذر من تحالف الاعداء والخصوم ، حتى كتبت عنه جريدة فرنسية ان خوف المحالفات التي تعقدها الدول بينها لا يفارق خاطره ، فقال: ان هذا النوع من الحلم الخفيف ، يجب ان لا يفارق مدة طويلة ، بل اقول ابداً ، بخيلة وزير الماني .

وما زال الباحثون ينظرون الى عمل بسمرك العظيم نظر الاعجاب ، من غير ان يثبط همهم ما يجدون احيانا من مناقضاته ، وقد كان الرجل السياسي الذي يثير الاهتمام اكثر من كل رجل سواه ، وان كان يؤذي النفوس احيانا بما يرى من مخادعته الآخرين ، لأنه كان لا يبالي ما يفعل في سبيل الوصول الى غايته ، رجل فوق الرجال ... وهو على عنفه وشدته يضعف احيانا عن ايذاء بعوضة ، ويبعث في النفوس تقديرات غريبة ، ولا يستطيع احدا ان لا ينجب به ، وهذا سر عظامته .

٥ — سياسة بسمرك الأوربية

مؤتمر برلين وذرأته

كان بسمرك يرى سياسة الامور الخارجية غاية الغايات ، فهو يتطلع اليها في كل شيء ، وقبل كل شيء ، وقد حافظ على السلم مدة عشرين سنة ، من غير ان يكون مدفوعاً الى ذلك بسائق الشعور الانساني ، ولا بسائق الخشية على شهرته ، ولكن ثقة منه بأن اوروبا لا تقف متفرجة على ما يصدر منه وايديها مغולה الى عنقه ، وكان راسخ القدم في صناعته بحيث لا يفرط في شد قوسه حتى ينقطع وتره اذا بلغ نهايته مداه ،

ولم يكن في معالجة الأمور الخارجية يتجاوز الغرض في رميته او يرمي دونه ،
والشؤون الداخلية تأتي عنده في الدرجة الثانية ، لأن عناية بالأولى تجعلها في
في منزلة يقف دونها كل فكر وجهد .

وكان يقول ان مصلحتنا تقضي بالاحتفاظ بالسلم ، في الوقت الذي يريد جيراننا
اذكاء نار الحرب ، لان لديهم آمالاً وغائب خفية او علنية لا تحقق الا بها ، ونحن علينا
ان نجتهد في اطفاء الاحتاد التي اثرناها حولنا بعد ان اصبحتنا دولة عظيمة ، وذلك
بأن لانضع قوتنا في الميزان الا بالأسلوب الشريف الهادي ، والارطورية الألمانية
تستطيع بالسياسة التي تتبعها ان تحمل حقوق الدول الأخرى محترمة .. وهي لا
حاجة لها بالنمو والتوسع اكثر مما هي عليه ، وقصارى ما اتمناه بعد ان وحدث البلاد
في داخلها وامنت لها حدودها ، ان اجعل الدول العظمى تثق بالسياسة الألمانية
وتعتمد عليها ، فهي بعد ان ازالنا الجور الذي أصابها بتجزئة بلادها ، اصبحت
سامية عادلة ، والمسائل الدولية التي لا تسوى الا بالحرب بين الشعوب لا اراها اكثر من
مسائل الشرف التي يتبارز لاجلها الطلبة في المدارس .

وكان يردد على آذان المقربين منه بعد حرب السبعين ، انه اوربي قبل كل شيء ،
وان قلبه لا يشتمل على شعور الوطنية الجاهلية العمياء ، ولا على ان شعبه هو الشعب
الذي اختاره الله لحكم العالم ، وكان يستطيع ان يضرب فرنسا ضربة ثانية سنة ١٨٧٥ ،
بعد ان هاجت فيها عواصف الانتقام والتهديد والوعيد ، ولكنه كان يرى اثاره
حرب كهذه الحرب على فرنسا ، قبل ان تنهض من عثارها وتنفس مما أصابها ، يفسح
المجال لانكثرة حتى تبحث عن الانسانية ، وتشد عزائم روسية التي اصبحت تتسائل
اذا كان في وسعها ان تصبر اكثر من ذلك ، وكان يقول عند اشتداد الازمة في
البلقان انه لا يريد ان يتدخل في شأنها ، فكل دولة ينتصر لها تنتصر فرنسا لعدوتها ،
فهو يدفع الأمور بعضها ببعض ، ولا يشير على المانية ان تقوم بعمل من الاعمال في
البلقان ، اذ ليس لها فيها — كما قال في كلمته المشهورة — مصلحة تعادل عظام
جندي من بومرانية .

وكان لا يريد اشتباك روسية والنمسة ، لأن المانية لا تستطيع أن تبقى على الحياد ، اذ الحياد يذكي في قلب المغلوب نار الحقد والضغينة ، وكما انه لاوافق المانية ان يقضي على النمسة ، فانه اذا قضى عليها تضم اليها المانية الشعوب الجرمنية ، ولكن ماذا تصنع بالمجر والصقالية ؟ وكان يريد في مؤتمر برلين ان يكون وسيطاً شريفاً ، - وهل يستطيع الوسيط ان يكون شريفاً ؟ - وقد التقى في هذا المؤتمر بخصمه غورشاكوف الروسي ، ووزرائيلى السياسى الانكليزي القدير الذي كانت له المنزلة الأولى في نفس بسمرك ، وكان يقول عنه : لقد اجتمعت اليه مرات واطلعت على مكنون امره ، فالناقشة معه سهلة ، وفي ربع ساعة تعرف ماذا يريد والحد الذي لايتخطاه ، وكانت بين الرجلين صلة قديمة ، وقد تغيرت ملامح بسمرك ولكنه لم يزل على اسلوبه في البساطة والعمل والصراحة المدهشة ، والصوت الضعيف الذي يخرج من هذا الجسم الضخم ، فأطلع دزرائيلى على رأيه بالأسراع في اعمال المؤتمر ، والبدء بالمشكلات الخطيرة التي يخشى منها ان تبعث الحرب ، وسار المستشار الالماني في اعمال المؤتمر بما يشابه المفاجآت العسكرية .

وكانت قضية بسارايية التي منحت لروسية ودوبروجة الشمالية التي انتزعت من بلغارية ومنحت تعويضا لرومانية ، من القضايا الدقيقة التي عاجلها المؤتمر ، لانها تتعلق بدولة اوربية كبرى : هي روسية التي لا يريد بسمرك ان تهان كرامتها .

وقد ناشد برتيانو وزير رومانية المجلس الاوربي الكبير ، ولاسيما الاعلام الذين كانوا يمثلون امبرطور روسية ، ويقدرعون عند سنوح كل فرصة ان يظهروا ما اشتملوا عليه من نفس رفيعة وقلب كريم . ولكن خطبة برتيانو البليغة ومدائح الجيلة ، لم تجد مساعدا الى قلوب مندوبي روسية ، حتى ان بسمرك اصر على ابقاء بسارايية في حوزة روسية ، واعرب عن امله بان دولة الدانوب الناشئة ، لا تنسك صنيع روسية بمؤازرتها على نيل استقلالها ، ثم قال : ان عمل المؤتمر لا يكون في رأيي وطيداً اذا بقيت فيه كرامة جريحة تشعر بها سياسة امبرطورية عظيمة ، ومهما كنت احمى في جوانحي من العطف على رومانية ، التي يجلس على اريكته ملك من

الأسرة الامبرطورية الالمانية، لا يجوز ان أستوحى رأي الامن دواعي المصلحة العامة، التي تستلزم ضمانات جديدة للسلم في اوربة . وقد تأذت رومانية كثيراً بانتقاص بلادها وانتزاع بسارايية منها ، ولا سيما بعد الخدمات الجلى التي قام بها الجيش الروماني، بقيادة البرنس كارول العسكري الجريء البارع ، في شدأزر الروس ومساندتهم في البلقان ، فكان يرى اهلها في هذا العمل نكراًنا للجميل ، وبقيت رومانية بعد ذلك وثيقة العرى بدول التحالف الثلاثي وخاصة بالمانية ، ولكن اغلاطاً كبيرة ارتكبت سنة ١٩١٤، جعلت رومانية تنقلب على المانية وتقطع الصلات التي تربطها بها منذ سنين كثيرة .

واشتد الخلاف حول تقسيم بلغارية بين دزرائيلي وغور شاكوف الذي ركب متن العناد ، كما ان دزرائيلي اصر على رأيه ، وكتب الى الملكة فكتوريا انه لا يخشى العاقبة ، وقد اطلع من يجب اطلاعه انه عزم على مغادرة المؤتمر اذ لم تقبل آراء انكسرة ووجوه نظرها ، وقد نجح في انذاره الذي كان جاداً فيه ، ووافقت بطرسبرغ على خطة بريطانية التي رسمتها فيما يتعلق بحدود تركية في اوربة ، وقد رفعت هذه الحادثة قدر دزرائيلي في عين بسمرک وقال عنه : لله در هذا اليهودي الشيخ وياله من رجل ! واصبحا صديقين متوائمين بالودعة مرتبطين بالصناعة، يفضي احدهما لصاحبه بما يمكن في صدره من آراء في البرلمان والأمرء والوزراء، وكان بسمرک يرى انه اعلی مكانة ، لانه غير مقيد بشيء ولأنه اكثر صراحة وأقل مبالاة، على حين ان دزرائيلي فيه نواح ضعيفة ومغامر ظاهراً ، فتسهل مقاتلته بالوسائل التي تضعف فيها مقاومته ، وبسمرک يتأمل ما تشتمل عليه النفوس من عجب وخيال، ويسره ان تقاوم بعضها بعضاً وان يستثمر ما فيها من ضعف وعجز، اما دزرائيلي فانه يحزر المقاصد البعيدة ويدرك كنهها ، وكان ذات مرة يحدث بسمرک عن رأيه في المستعمرات ويرى من حسن السياسة ان يذكر له معارضته اياها وكانت امام الرجلين خارطة للعالم فوضع دزرائيلي اصبعه على البلقان قائلاً : لا تعتقد انه يوجد هنا مكان صالح للاستعمار ؟ فنظر اليه بسمرک من غير ان يحير جواباً ، وكان يلذ بسمرک ان يثير المشاكل وان يقوم بتسويتها .

وقد استقبل دزرائيلي عند عودته من مؤتمر برلين هو وسلسبورى استقبالا لانظير له ، فاطل على الجماهير المزدحمة وقال : لقد حملنا اليكم على ما اظن السلم مقرونا بالشرف . وعندما اعلنت انكلترة اتفاقها مع تركية على احتلال قبرص ، سكن الرأي العام الهائج بسبب ما حرزته روسية ، وظلت انتقايد حية في بريطانية . كما قالت يومئذ جريدة الديبا الفرنسية - في قلب امرأة ورجل دولة شيخ ، باحتلال هذا المكان المنيع .

اما مؤتمر برلين فقد وصف غايانه اميل لدويغ في كتاب بسمرك بقوله : انه كان يرمي ، علاوة على الكذبة المشهورة في حماية النصارى ، الى تحديد مناطق النفوذ للدول العظمى ، وكان القيصر يعتقد ان الوسيط الشريف قد تخلى عن روسية ، وان بسمرك خدع وكلاه ، وقاد اوروبا في برلين الى مقاومة روسية والاعتصاب عليها - هذا المؤتمر الذي بذر القلاقل في البلقان وزرع الخلاف بين الدول ، غير ان هم بسمرك كان في الحدود القائمة بينه وبين فرنسة ، لا في الامبرطورية التركية ، فهناك ثم هناك تعمل سياسته ، وهو يسمى بالمحافظة على العلاقات الحسنة بين المانية وبين عدوتها ومنافستها ، بل انه يرى اكثر من ذلك اذا اشتبكت حرب ثانية بين المانية وفرنسة وانتصرت الاولى ، فسيكون عدلا متسامحا ، يعاملها كما عامل النمسة سنة ١٨٦٦ ، اذ لاسبيل الى القضاء على اربعين مليون اوربي اولى مدنية وحضارة وثقة بانفسهم ، وقد عجزت ثلاث امبرطوريات عن القضاء على بولونية مدة ثلاثة عصور ، فكيف بفرنسة التي لا تقاس بها وهي تقاوم المانية وحدها .

٦ - بسمرك والمحالقات الدولية

المواثيق السياسية المختلفة

حاول بسمرك محاولات عديدة ان يتقرب من انكلترة وان يتحالف واياها ، وكان ذلك غاية ما يتمناه ، حتى انه قال : ان له هوى في انكلترة ، ولكن الانكليز لا يريدون ان يحبهم الالمان . ولم يكن بسمرك يعتقد ان مستقبل المانية في البحر ،

ولا يريد ان يخاصم الانكليز وينافسهم في السياسة الاستعمارية التي يقضي بها وضعهم الجغرافي ، وكانت قاعدة سياسته الاكتفاء بما لدى المانية من الاراضي ، والاستكثار مما يزيد في امانها وطما ئينتها ، ولكن التحالف الذي اراده واقام عليه البراهين لم يبلغ منه غايته ولم يوافق سلسبوري عليه ، وكان يحتج بانه لا يجوز لانكلترا ان تكون حائلاً دون احراز المانية بعض المستعمرات ، لاسيما وان الدولتين في تحالفهما وتعاونهما تستطيعان المحافظة على السلام وتدفعان الاخطار عنه .

واذا كانت مساعي بسمرك قد اخفقت في اجتذاب انكلترا الى المانية ، فانها كانت اسعد وانجح في العقود التي ابرمتها مع النمسة وروسية ، وكانت المانية تسير في سياستها بين الدولتين على منهاج يختلف باختلاف الحوادث ومقتضياتها ، وكانت روسية تشجع النمسة احيانا وتنشط بسمرك احيانا ، على ان وزيرها غورشاكوف لم يكن راضيا عن السياسة البريطانية ، التي كان محافظوها يرون رأيا في القضية الايطالية ثم يأتي احرارها فيرون رأيا آخر ، وكان يتساءل عن اي انكلترا من هاتين الاثنتين ، يجب ان تقبل مبادئها ، واذا كان الآن يوافق على سياسة اللورد رسل في ايطالية فماذا يصنع اذا خلقتها حكومة محافظة ؟ وكانت سلطة غورشاكوف توازن احيانا سلطة بسمرك ، وهو رجل دولة مذكور ، ولكن فيه نواحي ضعف تخفض من شأنه ، فقد كان يفرط بالاهتمام بنفسه . وكان غروره ذائعا مشهورا ، وقد استفاد من ذلك صديقه ومنافسه بسمرك ، ولكن أثار حفيظته في مؤتمر برلين بحرمان روسية من جميع المزايا التي نالتها في معاهدة سان استفانو ، فوضع أسس التقارب بين روسيه والدول الغربية ، برغم اهتمام بسمرك بان يجعل روسية محايدة لالمانية ، وبرغم المكانة التي ما برح يتمتع بها عند القيصر وحاشيته .

وقد سجلت معركة سادوفا اخراج دولة النمسة من المانية ، ووجهت سياستها نحو الشرق والجنوب ، فارتكبت بذلك اغلاطا شتى كانت قاضية عليها ، وفي مقدمة هذه الاغلاط العهد الذي وضع سنة ١٨٦٧ ، وجعل الشعبين الالماني والهنغاري يسودان النمسة ، مع معاملة متفاوتة لبعض العناصر الصقلبية الأخرى ، وكان تأثير

رجال الدولة الهنغارين عظيم في هذا الاتجاه، حتى يحتفظوا بالامتيازات التي انتزعوها من النمسة، ويحولوا دون عودتها الى صيغة المانية بحثة، كانوا يستثمرون الحقد الذي تحمله على روسية بعد انكسارها في سادوفا.

وكانت اسباب الافتراق بين روسية والنمسة كثيرة، فالاولى لاتطبق الثانية وخاصة بسبب بولونية والكثلكة والجامعة الصقلية وقضايا البلقان، ومع ذلك فلم تكن تحجم عن الاتفاق معها لتأمين التوازن، اما التحالف الذي كان مزجعا عقده بين الامبراطرة الثلاثة سنة ١٨٧٣، فقد كانت ترى روسية ان فائدة النمسة منه اكثر من الجميع، لان كيانها المهدد يكون مضمونا به، ولكن تفاقم المشاكل في الشرق كان عقبة في سبيل هذا التحالف، ولم يتردد بسمرك في اختيار النمسة برغم معارضة الامبرطور غليوم، وقد سار في خطة الاتفاق معها منقاداً لاسباب نفسية واخرى سياسية: اما الاسباب النفسية فخصوصته لغورشا كوف، ورغبة البلاد الالمانية الجنوبية التي هتفت لهذا الاتفاق وتقبلته بقبول حسن، واما الاسباب السياسية فقد كتب عنها في ذكرياته قائلاً: لقد انتصرنا في الحرب على دولتين عظيمتين في اوروبا، فينبغي ان نقصي على الاقل احدى الدولتين عن الالتحاق بسواها حتى تنتقم وتثأر، ولا نستطيع ان نتوجه برغبتنا نحو فرنسا، فكل من عرف الشعب العالي وصفاته لا يرى فائدة في ذلك. ثم ان الاتفاق مع النمسة التي هي اضعف من روسية يجعل المانية تسيطر عليها، وهذا ما تأباه روسية بل لا يمكن تنفيذه فيها. وقد كان بسمرك في هذا الاتفاق اكثر تسامحاً مع الفريق المعاهد، فادخل فيه للمرة الاولى شروطاً تتعلق بان تدافع المانية عن النمسة من غير ان تعاهد النمسة على مثل ذلك فيما يتعلق بالانزاس، فلم تكن اللعبة السياسية متساوية بين الفريقين.

وقد اثار بسمرك في هذه الحالفة غضب روسية وحرك النفوس في فرنسا واحيي آمال بنيتها في التماس الثأر، وبقي ثماني سنين يداوي الشر الذي بعثه من مرقدته، ويتقرب من روسية لانه يخشى حربها اذا كان لها احلاف، ويعتقد ان نتائج الحرب الخطيرة هي اعظم من النصر حتي اذا كانت المانية منتصرة، على ان

اجتذاب بسحرك للنمسة كان موقفاً حاسماً معها كانت التقلبات التي تجرت من بعده ، ولم يكن امام بسحرك مجال الاختيار بعد ان اقصى روسية وحاول عبثاً ان يتقرب من انكلترة ، على انه استفاد من هذا الاتفاق في بادى عهده ، فلم تتفق انكلترة مع فرنسا ولا تساهلت مع روسية .

وعندما كانت السياسة الفرنسية ترمى ببصرها نحو روسية كانت التحالف المعقود سنة ١٨٧٩ بين النمسة والمانية ، موجهاً في بادى الأمر الى روسية ثم الى فرنسا ، وكان من الناحية العسكرية ضماناً للدولتين ، ومن الناحية السياسية مثبتهاً لنتائج الانتصار الالماني سنة ١٨٧١ ، وكان بسحرك يريد ضم ايطالية الى التحالف ولكن بامتهان وازدراء ، ويدل على ذلك ما كتبه من ان الايطاليين كالغربان الذين يعمهون في ساحات الوغي ليقعوا على اشلاء القتلى . وبانضمام ايطالية سنة ١٨٨٢ اصبحت الامبرطورية الالمانية على رأس تحالف عظيم يمتد من بحر الشمال الى البحر الابيض ويسيطر في اوربة الوسطى ، وكانت ايطالية راعبة في التحالف لتأمن بذلك الخلاف مع النمسة ، وكانت ايضاً علائقها غير متينة مع فرنسا ، وقد ساعدت قضية تونس على توثيق العرى بينها وبين المانية ، وكانت ايطالية حريصة على دخول بريطانيا في التحالف كي تطعن على شواطئها في البحر المتوسط اذا وقعت حرب ، وكان بسحرك يطمع بالتقرب من انكلترة عن طريق ايطالية ، ولكن الخلاف بينها وبين النمسة لم يكن لينقطع ، ولم يكن يجبل انها ان تمدح حليفها باية معونة ، حتى ان رجالاً في النمسة كانوا يفضلون نقض هذا التحالف مع ايطالية ، وقد اشتد النزاع حينما ألحقت النمسة البوسنة والهرسك ، وعملت على تثبيت اقدامها في البلقان ، حيث وقفت العناصر الصقلبية ايضاً في وجهها وصدتها عن طريق سلاويك ، وكان بوسنها اجتذاب الاخطار التي يهددها بها الصقالبة لوانها انشأت سنة ١٨٦٧ دولة ثلاثية ، ولكن الذي كان ممكننا في هذا التاريخ اصبح مستحيلًا سنة ١٩١٤ ، وظلت ايطالية تتقارب في سياستها من انكلترة وفرنسا ، برغم وجودها في التحالف الثلاثي التي كان يساء اليها فيه .

ومع ان بسمرك كان يجد في توثيق عري هذا التحالف، فلم يكن يغفل امر روسية كما عمل باتفاق الامبراطرة الثلاثة وميثاق الضمانة المتبادلة ، وفي اناء هذه المحاولات وافق روسية على مهاجمة البسفور والزحف من بلغارية ، على ان تحافظ على حيادها اذا نشبت حرب بين المانية وبين فرنسة ، اما ما يتعلق بالنمسة ، فقد وعدت المانية بالمحافظة على التوازن في البلقان ، واذا كانت النمسة معتدية فالت المانية لا تحرك ساكناً ولا تبدي حراكاً. وهذا الاسلوب في وصف حرب الدفاع وحرب الهجوم الذي يسكاد يكون في جميع المعاهدات السرية لافائدة منه ابداً ، لأن تعيين المعتدي وتحديد الاعتداء من الامور التي لا يمكن ادراكها .

وقد تهياً بسمرك لدفع غضب النمسة بقوله : اظن ان الامبرطور يرضى بالشرط الذي وضعته ، واذا خدعت ولم يكن راضياً ، فان عدم ثقة امبرطور النمسة اقل خطراً من عدم ثقة القيصر الروسي ، وفضلاً عن ذلك فالعلائق بيننا وبين النمسة تبلغ من المكنة والقوة مالا يتزلزل برية ملك شك ، وما من ضرر يلحقنا اذا اشاعت روسية الامر ، على اني لا اكره ذلك ، ولا اظن في هذا ما يهيم امبرطور النمسة ، ونحن انما نريد ان نتخلص من الاتفاق الفرنسي الروسي لمدة ثلاث سنين .

وكان بسمرك استاذاً في هذه الطريقة المكيفية ، وقد اقصى في هذه المعاهدة اربعة اخطار : فشغل روسية بالقسطنطينية عن الحدود الالمانية ، وجنب النمسة المغامرات البلقانية ، وفصل فرنسة عن روسية ، وجعل انكاثرة قلقه تريد ان تتقرب من المانية ، اما الشعوب فكانت في هذه اللعبة كحجارة رقعة الشطرنج .

ولكن الوضع الاوربي الذي نشأ من انتصار المانية ، وسياسة مستشارها وخططه في عقد المحالفات ، حملت فرنسة على البحث عن حلفاء تستعين بهم ، كما كانت في الماضي تحالف تركية والسويد وبولونية وروسية لانقاء خطر الامبرطورية الجرمنية ، حتى ان بطرس الاكبر عندما زار فرنسة ، عرض على فليب دورلثان القائم باعباء الملك التحالف مع روسية ، وقال له اني اقوم لكم مقام بولونية وتركية والسويد . وبعد عصر ونصف من هذا التاريخ ، وعلى اثر حرب القرم قال بسمرك : ان التحالف بين

روسية وفرنسة ناشيء عن طبيعة الاشياء ، وحقاً ان تحالفها هو من عوامل التوازن في اوروبا ومن اسباب الطمأنينة للدولتين .

ولاجل عقد هذا التحالف تحتم على الروس والفرنسيين ان يأتوا من بعيد ويلتقي بعضهم ببعض ، وقد تبين لرجال السياسة المختلفين في فرنسا بعد سنة ١٨١٥ ما يجنونه من التحالف مع روسية ، حتى ان شارل العاشر الذي اعترضت انكلترة طريقه وعارضته في احتلال الجزائر ، استعان بروسية حتى تغلب على معارضة انكلترة وتهديدها ، وكان وللنفتان طلب من الحكومة الفرنسية ان لا تحتفظ بالاراضي الافريقية التي احتلتها ، فرفض بولونياك ان ياخذ على عاتقه اي عهد بذلك ، وفي ٢٠ تموز سنة ١٨٣٠ اعلنت فرنسا قرارها بجعل هذا الفتحة نهائياً ، ولم يكتثر شارل العاشر بذكر الحكومة البريطانية بل ردها اليها وكتب في حاشيتها : لم اعبأ عندما قمت بفتح الجزائر بشيء غير نفوذ فرنسا ، واني لاستشير غير مصلحتي في امر الاحتفاظ بهذا الفتحة ولما هدد سفير انكلترة اللورد ستوارت وزير البحرية في فرنسا ، اجابه بعنف : ان فرنسا لا تهتم بانكلترة ، وهي ستعمل ما يريد بدون ان تخشى معارضة او مراقبة ، وكانت شكوى انكلترة من ذلك العهد شديدة فقد سبب لها في سنة من المشكلات ما لم تسببه فرنسا الجمهورية ولا فرنسا الامبرطورية ، حتى قل وللنفتان عن بولونياك : قد يظن انه رجل صادق الطوية ولكي اراه من اخبث الرجال واكثرهم مكرراً .

أما روسية التي اتجهت اليها السياسة الفرنسية لمقاومة انكلترة فقد كان نابليون الثالث مخطئاً في اجتلابه عداها في حرب القرم وبولونية ، ولم تجد روسية بعد ذلك في انكسار فرنسا في حرب السبعين الا وسيلة لتعديل بعض شروط معاهدة باريس ، فاعلنت روسية في تشرين الأول سنة ١٨٧١ ، ان القيصر لا يري انه مفيد بالشروط التي املت عليه سنة ١٨٥٦ ، وحددت حقوق سيادته في البحر الاسود ، وهو لا يقبل ان تكون سلامة روسية مرتبطة بامر موهوم ، لم يثبت على امتحان الزمان ، فاجابت انكلترة انه لا يستطيع دولة ان تجعل نفسها بحمل وحدها من شروط

معاهدة، بدون ان تنال موافقة موقعيها ، وقد استشارت حكومة بريطانية بسمرك فاجاب بتسوية الخلاف في مؤتمر ، وقبلت روسية المبدأ القائل بأنه لا يجوز ان تنقض المعاهدة من جانبها فقط ، غير ان هذا التنازل لم يكن الا ظاهراً ، لأن مؤتمر لندرة الغى البنود التي كانت تقيد حرية روسية في البحر الأسود .

ولم يستطع تيمير ان يظفر من روسية بتحالف اوعهد ، وظل غورشاكوف واثقا ببروسية الى ان عقد مؤتمر راين . وميثاق الامبراطرة الثلاثة الذي كانوا يسعون له في المانية لم يكن الا ليزيد في عزلة فرنسة المغلوبة التي بقيت وحدها في اوربة ليس لها ما تعتمد عليه غير قوتها ، وقد كانت ظروف كثيرة تحول دون خروج فرنسة من هذه الأزمة ، وأن تؤمل الاتفاق مع روسية ، كاختلاف انظمة الحكم فيها والاتجاه الحرفي السياسة الفرنسية والمطف على احرار الروس ، على ان مصالح الفريقين كانت تدفعها بعضها لبعض ، وقد حال بسمرك دون اتفاق الدولتين بوضع عقود التضامن مع روسية ، ولكن الميسيو دو فلوران وزير خارجية فرنسة سنة ١٨٨٦ ؛ اخذ يستفيد من تطور الحوادث في الشرق للتقريب بين روسية وفرنسة وتعاونها ، وقد احتاجت روسية الى المال فوجدت عند الفرنسيين من اجابة طلبها ما جعلها تعترف لهم بالجميل ، واخذ التقرب يزداد حتى خرجت الدولتان عن عزلتهما واعانتا على حدوث التوازن في اوربة فاصبح هنالك التحالف الثلاثي يقابله التحالف الثنائي ، حتى أن الكونت ويت قال سنة ١٩٠٥ بعد حرب اليابان والروس ، عن ميثاق ١٨٩١ المعقود بين فرنسة وروسية : ان روح العلائق بين فرنسة وروسية لم تتغير ، وسيبقى التحالف منطبقا على مصلحة الشعبين ، فلا يتغير فيه شيء ولا يجوز ان يتغير شيء .

واذا كان التحالف بين فرنسة وروسية يعد من طبيعة الاشياء ، فانه لم يكن اتفاقا غير منتظر ، كالاتفاق الودي الذي تم سنة ١٩٠٤ ووضع حداً للنضال الموروث بين الدولتين ، ففي سنة ١٨٠١ جر الشعب الانكليزي عجلة الكولونل لورستون حاجب القنصل الأول الذي جاء لعقد السلم ، وبعد ذلك بقليل سارت انكلترة لحرب نابليون حتي قضت عليه في واترلو ، وعندما ذهب المرشال سولت الى انكلترة

سنة ١٨٣٨ للاحتفال بتويج الملكة فكتوريا استقبله الشعب الانكليزي بحماسة زائدة ، ولكن سنة ١٨٤٠ كانت الحرب على الابواب بين الدولتين ، وفي عهد نابليون الثالث كانت فكتوريا تعرض على فرنسا تحريضا شديدا . وقد كتب البرسورل في جريدة الطان سنة ١٩٠٣ ، انه يمكن ان توضع بين انكلترة وفرنسة - وقد وضعت - عهد ورا د منها المحافظة على النظام الكائن ، ولكن انكلترة ما كانت ابدأ ولن تكون ابدأ ، حليفة لفرنسة ما لم تعدل هذه عن سياسة التوسع وبسط السلطان . وذكر اللورد شتم مثل ذلك قبل عصر فقال : ان الشيء الوحيد الذي نخشاه انكلترة في هذا العالم هو ان تصبح فرنسا دولة بحرية استعمارية تجارية ، ومنذ سقوط آل ستوارت فان الحرب كانت القاعدة للعلائق الفرنسية الانكليزية ... وقد يتخلل هذه الحروب سلم قصير الاجل ، وهذا السلم القصير نفسه كان حادلا بالشك والريبة كما هي القاعدة المتبعة في الماضي ، لأن انكلترة كانت ترى فرنسا اشد اعدائها مراسا في اوربة وفي خارج اوربة ، فهي تدافع ما يحتمل من انتصارها ، وتقاتل دون سيادتها البحرية التي هي شرط بقاءها . وفي القرن الثامن عشر كذلك قال فافيه الذي هو من اشهر كتاب هذا العصر السياسيين : لقد اتخذت انكلترة لنفسها منهاج تتبع لخططنا واستطلاع لآعمالنا ، ووقوف على كل حركة من حركاتنا حتى لا تتأخر في دفعها ومقاومتها ، بمخادعات ممزوجة بالترفع والكبرياء ، ومظاهر ممزوجة بالتهديد والوعيد .

وهذا الشعور هو الذي جعل انكلترة تقرر المبدأ القاضي بان يكون اسطولها اكبر من اسطول دولتين مجتمعتين من اكبر دول اوربة البحرية ، ولكنها وجدت انه لا مناص لها من الاستعانة بفرنسة في القرن التاسع عشر ، من غير ان تمسك عن اقامة العقوبات في سبيل التوسع الفرنسي ، حتي ان قناصلها في مختلف البلدان الافريقية كانوا يحرضون المسلحين على فرنسا كما فعلت المانية في مراکش سنة ١٩٠٥ ، وقد نشطت انكلترة فرنسا في مؤتمر برلين على احتلال تونس لتحمليها على التسليم باحتلال قبرص ، واخذت السياسة الانكليزية تضاعف جهودها لتقيم العقوبات

في سبيل فرنسا ، فاكدت للسلطان عدم رضاها ، ورفضت ماطلبه الباقي من معونتها ، ولكن اعلنت اسفها لان فرنسا اثارت المسألة الشرقية وبعثتها من مرقدتها لخدمة مصالحها ، وما اصبح النصر معقوداً للجيش الفرنسي حتى استولى السخط على الصحافة الانكليزية ، واحتج سفير انكلترا في ١٤ مايس سنة ١٨٨١ على احتمال جعل بزرته قلعة محصنة ، وبلغ الخلاف اشده في قضية مصر ، فمذ فتح قناة السويس تضاعفت مكانة طريق الهند في نظر انكلترا ، واشترى دزرائيلي سنة ١٨٧٩ اسهم الخديوى في القناة واركتبت فرنسا — على قول المسيو تارديو — الخطأ السياسي في جعل انكلترا ، وحدها في وادي النيل .

فما هي اذن على الرغم من كل ذلك بواعث الاتفاق الودي ؟ انه ليس في انكلترا ولا في فرنسا يبحث عن اسباب هذا الاتفاق واسراره ، بل في المانية التي حملت انكلترا ، ملكها وحكومتها وشعبها ، على التقرب من فرنسا ، لان العشرين سنة التي مرت على الامبرطورية ، ابقت للعلائق بينها وبين انكلترا مظاهر العناية والحاملة ، وكان بسمرك يحاذر في سياسته ان يثير مخاوف وزارة الخارجية البريطانية في حال من الاحوال ، وقد عقدت بين الدولتين موثيق عديدة ، ولكن عندما همت المانية ان تدير السفن في البحار ، وادركت في سنين قلائل غاية بعيدة ، بدأت المخاوف في انكلترا واتجه الرأى الى الاتفاق مع فرنسا لمقاومة السياسة الالمانية والتجارة الالمانية ودفع الاخطار التي يحتمل وقوعها .

وبعد مفاوضات في لندرة وفي باريس ، عقد الاتفاق بين انكلترا وفرنسا في نيسان سنة ١٩٠٤ ، وكان لتوقيعه اثر بعيد في اوروبا ، وقد عد نجاحا لا يقدر للسياسة البريطانية التي اطأنت الى ان فرنسا لاتعرقل سياستها في مصر ، كما ان انكلترا تطلق يدها في مراكش بعد ان كانت منافسة لها ، وتعاهد الفريقان على تبادل المعونة السياسية لانجاح ما اتفقا عليه .

وبانتهاء التنافس الاستعماري بين الدولتين ادخلت لندرة وباريس عنصراً جديداً في السياسة الاوربية ، فتحررتا بصورة متقابلة من مخاوفها التي دامت امداً

طويلاً ووجهتها قواهما شطراً آخر؛ وقد تبادلنا ضمان حرية العمل الثمينة لهذا الفريق اوداك، وخاصة لاجل فرنسا التي لم تستطع ان تحول دون مغامرة روسية في منشورية، وكانت عاقبتها انتصار اليابان عليها، وقد سبق الاتفاق الودي اتفاق بين ايطالية وفرنسة، وتلاه اتفاق بين اسبانية وفرنسة فاصبحت الجمهورية الفرنسية قبلة انظار رجال السياسة، ونالت سلطة اديبة كبرى، اذا كانت تسبب لها بعض المشاكل فقد كانت تعينها على حلها.

فالخوف من المانية هو الذي قاد الى الاتفاق المثني، واغلاط المانية هي التي عززته وقوته، ودلت التجارب على الاصابة فيه يومئذ من وجهة الدفع الاخطار ومن وجهة البراعة السياسية، ولم تكن الغاية منه عند عقده الاسلبيه غير أنه بسرعة خارقة اصبحت نتائجها ايجابية، وكانت انكلترة ترغب دائماً ان تكون لها حليفة في اوزبة تؤازرها في الشدائد، واستمرت على ذلك في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، حتى قيل انها تدع الآخرين يقتتلون، ولا تدخل في الصف الا في الساعة الاخيرة، فالجيش الفرنسي ذو قيمة عظيمة اذا دخلت انكلترة في حرب، وما ابطأ الزمان أن اثبت ذلك سنة ١٩١٦.

اما المانية فقد كانت تلجأ — كما قال البرنس دويلوف — الى سياسة الضغط في انواعه المختلفة اعرقة كل عمل بحري بدونها — وهي كالأعبين الذين لعبوا كثيراً وبرعوا كثيراً كانت تضع في اللعب جميع وسائلها، فتهدد عندما يكون الزمن مساعفاً لها وتلزم جانب الحذر اذا كانت الامور غير مساعفة، وكانت تتكلم عن الحرب من غير ان تعلمها، وعن البارود الناشف والسيف المشحوذ طالما كانت تؤمل ان تبليغ غايتها بالطرق السلمية.

وفي اثناء الحرب الروسية اليابانية وتضاؤل الروس، كانت المانية تجد موطئها يوماً اثر يوم، فبعد استسلام بور آرثر سنة ١٩٠٥، احتج القائم باعمال المانية في مراكش على الاتفاق الانكليزي الفرنسي، على حين ان البرنس دي ييلوف سبق له ان اعلن انه ليس لديه ما يعترض عليه من وجهة المصلحة الالمانية، وبعد ان فشلت الجيوش

الروسية في مكدن اعلن غليوم الثاني سفره الى طنجة ، واشتد الخلاف حول مراكش ، وانتهى الأمر باستقالة دلكاسه على اثر تهديد المانية ، ثم كان مؤتمر الجزيرة الذي ارادت المانية ان تثبت فيه ان الاتفاق الانكليزي الفرنسي عقيم لاشأن له ، وحي ارادت المانية ان تعترض عليه ، وفي سنة ١٩١١ أثارت المانية قضية مراكش مرة اخرى ففاوضتها فرنسا وتنازلات لها عن جزء من الكونقو .

وبرغم هذا الضغط المستمر ، وبرغم النتائج اليسيرة التي احرزها ، فقد بقي الاتفاق بين فرنسا وروسية وبين فرنسا وانكلترة بعد الجزيرة وبمد ازمة ١٩١١ ، بل ان الضغط الالماني كان يجعل تطور الحوادث مغايراً لما تريده المانية في هذين الاتفاقين السابقين ، وقد سهلت العلاقات الحسنة بين فرنسا وانكلترة التقارب الروسي الانكليزي سنة ١٩٠٧ الذي كان من شأنه تأسيس التوازن على قواعد ثابتة في اوروبا ، وعقد الاتفاق في الشرق الاقصى بين انكلترة واليابان وروسية وفرنسا على صيانة الاراضي الصينية وسلامتها وحفاظة استقلالها .

وكان التنافس الانكليزي الفرنسي احدى الوسائل التي اعتمد عليها بسمرك في سياسته الحارقة التي كان يقاوم بها فرنسا ، فاحبط مساعي تيير في سبيل حمل اوروبا على الاهتمام بمصير بلاده ، ولكن الخشية العظمى التي اثارها المانية بنموها وعظمتها جعلت المتنافسين يتقاربان ، ولم يكن الاتفاق الودي في بدء امره معادياً لأحد ولكن الحلقات التي اتصل بعضها ببعض منذ ذلك التاريخ للوقوف في وجه المانية وتأييد الحرية الاوربية ، انقلبت الى ضربة شديدة للنظام الذي أقامه بسمرك ، والسيادة التي حاول غليوم ان يبسطها ، ودلت معاهدة الجزيرة والاحداث التي تلتها على ضعفها .

٦ — استقالة بسمرك وسياسته التقليدية

في سنة ١٨٨٩ تلك السنة الصعبة كان بسمرك يتنازعه عاملان : روسية والنمسة ، فلا يبرح حريصاً على محافظة التوازن الذي هو مبدأه القديم ، وكان يقول في خطبة له : ينبغي ان نكون اقوياء فان لدينا من الوسائل ما يجعل قوتنا فوق كل قوة ، ولا

يوجد شعب مثل شعبنا معرضاً لخطر التحالف عليه ، ويمكن ان نهاجم من جهات ثلاث ، فعلينا نحن الالمان جميعاً ان نتعاون وان لا يقبل بعضنا الافتراق عن بعض ، والجرأة هي من خصائص جميع الشعوب المتعدنة ، فالروس وانفرنسيون يقاتلون الالمان ، ونحن مهددون من قبل الفريقين ، فيجب ان تبلغ وسائلنا العسكرية الغاية التي يصبح بها خصمنا مدافعاً . ومع ذلك فان بسمرك كان يظهر ميله للروس ، لأن المعاهدة تنتهي في السنة القادمة ، وعند البحث في تجديدها فستثار امور كثيرة . اما الامبرطور غليوم الثاني الذي تسنم غارب العرش حديثاً ، فانه كان يفضل على خطط بسمرك المعقدة واساليبه المتعارضة خطة ثابتة سهلة ، وكانت مظاهره تبعث على الظن بانه يريد الحرب ويرغب في محاصرة الروس ، وقد اثر ذلك في العلائق بينه وبين القيصر .

ولما اشتد الجفاء بين الامبرطور والمستشار وآن تجديد المعاهدة ، ارسل القيصر رسولاً الى ألمانيا يحمل نبأ رغبته في التجديد ، ويؤكده بيمينه بسمرك واعتماده عليه ، ولا سيما انه لم يجزاي عقديته وبين فرنسة ، وكان هذا ما يسعى له بسمرك منذ سنة ، واكن الخسومة كانت قد بلغت حدها بينه وبين الامبرطور ، وبمد ان رفض الاستقالة اراد بسمرك ان يحمل الامبرطور تبعه ما يعمل ، فأرسل اليه اخيراً كتاب استقائه الرائع الذي قال فيه :

لما كان اخلاصي في خدمة بيتكم المالك وفي خدمة جلالتم ، ولما كانت الطريقة التي سرت عليها وتعودت ممارسة الاعمال فيها ، قد ظننت حتى الآن من الممكن المثابرة عليها ، فانه عزى علي ان اتجنب الامور التي الفت مشاركة جلالتم بتهداها ، وكذلك ان اتنحى عن السياسة العامة التي تخص الامبرطورية وبروسية ، ولكني بعد ان تبينت مقاصد جلالتم التي كان يتحتم على ان اتبعها اذا بقيت في عملي ، لم استطع الا ان اتقدم بخضوع لجلالتم ، حتى ترغب منفصلة بقبول استقالاتي ، من منصب مستشار الامبرطورية ورئيس مجلس الوزراء في بروسية ووزير الخارجية ... واطن اني استطيع طلب السماح لي بان افرض بانني احقق بذلك رغبات جلالتم وبانكم ترثاحون الى تقديمها ، وقد كنت اسوغ لنفسني ان اقوم بذلك منذ زمن بعيد ، لولا

انني كنت اقدر ان جلالته لم لا تريد الاستغناء عن تجربة خادم امين لآبائكم من قبل وعمالديهم من خيرة ، ولما تأكدت انه ليس لكم بذلك حاجة ، اقدمت على اعتزال الحياة السياسية بدون ان اخشى انتقاد الرأي العام لهذه العزيمة ، وعده اياها عملاً قبل اوانه .

ولم تنقضى ايام ثلاثة حتى هدم خلفاء بسمرك وحسادهم ، الاتفاق الروسي الذي كان ناحية كبرى من بنيانه الضخم ، وقد بقيت روسية الى سنة ١٨٩٠ محافظة على حياد موافق ، ولكن لم تأت سنة ١٨٩٦ حتى كانت فرنسا تحتفل في عاصمتها بالقيصر الروسي ، واخذ الرجال الرسميون يتهمون سياسة بسمرك بانها هي التي قادت الى هذه النتيجة ، فاذاع بياناً قال فيه : ان روسية كانت متأهبة لعقد الاتفاق وان كان قد ساء لها بعد بسمرك عن ميدان السياسة ، وقد حال «كابرني» دون تحقيق ذلك ، فكان اتفاقها مع فرنسا .

وبعد اعتزال بسمرك واقصائه ، سأله احد اخصائه عن رأيه في غليوم الثاني ، فصمت هنيئاً كأنه كان في نزاع مع نفسه ، ثم نهض قليلاً ولم يقل الا هذه الكلمات ولكن بجلال وجهارة : لنشرب على ذكر الامبرطور الشيخ ، فهو الذي كان سيداً كريماً ، وما كان لي شعرمطلقاً او عمر في خاطره ، بان احداً يريد ان يحط من سلطته تاجه ، فقد كنا جميعاً عماله ، وهو في الذروة الرفيعة ، محلقافوق الجميع ، ولولم يكن كذلك في اعماله وشؤونه ، لأضاع من حوله من اولى الشرف ، كان ينظر اليها من عل ، فيغتبط ويبتهج اذا وجد خادماً له مثلي قد اصبح عظيم الخطر .

ولم يكن بسمرك ليخفي وقفات غيظه عند سنوح كل فرصة فيقول : يجب ان اتكلم ، ان هذا الصمت لخيانة ، والوطن سائر بهذه السياسة الى الدمار المحتوم ، ويقول : قد يريد الله مرة اخرى ان تسقط المانية وان يصيبها الضعف والوهن ، ولكنها قد تنهض بعد ذلك من عثارها وتسير في مذاهب المجد ، وستكون الجمهورية اساس العهد الجديد . وقد اضاف الى ذلك احد الناقدين قوله : نعم لقد عاشت المانية بعد ان تخلى عنها الملوك والامراء في ساعة الخطر ، وقد صان الشعب

الذي لم يقدره بسمرك حق قدره الا في الساعة الاخيرة ، عمله العظيم و وحدته الكبرى ، وكان يقول : لقد اتبعت منذ سنة ١٨٤٧ المبدأ الملكي و رفعتة عاليا كما يرفع اللواء غير اني رأيت ملوكا ثلاثة في حقائقهم العارية ، ولم تكن رؤيتي لهم كما رأيتهم اني في تقديري لهؤلاء الرجال العظام ، و اذا قلت ذلك الى الناس كلهم اكون قد خالفت المبدأ ، و اذا سكت خوفا و جبنا او قلت ضده ، اكون قد عدلت عن الحق الى الباطل . ويقول : لقد كانت جهودي كلها منصرفة لتعزيز الشعور الملكي في الشعب ، و قد احتفل بي في القصور و في الجامعات الرسمية و بولغ في تقدير صلمي ، و كان الشعب يريد ان يعزقني ، اما الآن فالشعب هو الذي يهتف لي ، و الآخرون يتحامونني و يحذرونني ، فهل اعتقد ان هذا ما يدعى بهزوء القدر ؟ و يقول : عندما دنو من مكان ، القطار من المحطة على مهل ، اسمع الجماهير التي تنتظرني صارخة منشدة ، فيكاد قلبي يخرج من صدري اذا رى ان المانية لم تنسي .

اما غليوم الثاني الذي حمل بسمرك على الاستقالة ، فقد كتب عنه في الفصل الأول من مذكراته التي نشرها بعد الحرب قائلاً : ان عظمة البرنس بسمرك السياسية و الخدمات الباقية ذكرها التي اداها لبروسية و المانية ، هي من الاحداث التاريخية العظيمة بحيث لا يوجد رجل من اي فئة كان يستطيع ان يجادل فيها ، و هذا السبب وحده يجعل الادعاء بانكارى عبقرية بسمرك اسطورة سخيفة ، فاني بضد ذلك كنت اجهل و اقدس ، و يكفي ان يذكر ان الجيل الذي نشأت فيه كان مولعاً ببسمرك هذا الرجل الذي اسس الامبرطورية ، و كان امين جدي و مقدم رجاله ، لقد كنا جميعاً نعتقد انه اعظم رجال الدولة في عصره و نفاخر بانه الماني ، فكان بسمرك الوطن المقدس في معبدي ، ولكن الملوك هم ايضاً من لحم و عظم ، و هم يتأثرون بالطريقة التي يتبعها الآخرون ، فمن السهل ان يدرك من وجهة انسانية ، ان البرنس بسمرك ، بسائق العداوة لي كسر بضربات شديدة الوثن الذي اتحدث عنه ، ولكن اجلالاً لبسمرك ، رجل الدولة العظيم ، لم يصب باي نقص .

و ذكر غليوم كيف ان جده ، كان ذات مرة يتلظى غضباً من بعض اعمال بسمرك المناقضة لرأيه ، فقال له رئيس دائرته العسكرية : اذا كان الأمر كذلك فعلى

الامبرطور ان يصرفه عن خدمته فاجابه الامبرطور : 'انه رغم اذجا به وشكر انه المستشار العظيم، قد فكر بالافتراق عنه لأن افتئات البرنس هو في الغالب لا يطاق ، غير ان الامبرطور والبلاد هما بحاجة اليه . و اضاف الى ذلك قائلاً : ان البرنس هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يلعب بنخمس اكر ، اثنتين منها في الجو ، اما ان الامبرطور فلا اقوى على مثل ذلك .

وقال غليوم الثاني في هذا الفصل ايضاً ، انه عندما كان امير بروسية كان كثيراً ما يقول في نفسه : ارجوان يعيش المستشار العظيم امداً طويلاً ، فاني اشعر بالطمأنينة اذا ملكت وهومعني على رأس الحكم ، ولكن اجلاى لم يكن ليحملني عندما اصبحت امبرطوراً على استحسان اعمال البرنس وخططه السياسية ، التي كنت اعدّها من الاغلاط .

غير ان الاجيان التي تلت استقالة المستشار، وشهدت عواقب المناهج التي سار عليها غليوم الثاني وسددها اغلاط الداهية المبقرى، حكمت عليه حكمها الشديد، وبقي بسمرك في ذروة المجد ياتم به سياسة الالمان ويتمسكون بتقاليده التي خلفها لهم، ويتعلمون من اساليبه كيف تكون المداورة عند عدم القدرة ، وكيف تكون الضربات المتوالية المتقطعة عند القدرة ، وكيف سائر التمسك بعد ان تقهر امامها سنة ١٨٥٠ ، واجل موعد قتالها متفق الرأي مع وزير الحرية، الى ان اخذت بروسية اهميتها واعدت قوتها وسلاحها ، وخاضت غمرات القتال عندما آن الاوان ، وكيف قارب نابليون الثالث وجاره الى ان ضربه الضربة الشديدة ، بعد ان كان يقول وهو يدافع احياناً عن خططه السلمية البعيدة المدى : ان الاساس الوحيد والمنهج الصحيح الذي تمناز به الدولة الكبرى على الدولة الصغرى هو الانانية السياسية ، وليس الذوق التخيلي ، ولا يليق بدولة كبرى ان تحارب اذا لم تكن مصلحتها الخاصة تقضي عليها بالحرب ، وبالسوء حظ رجل الدولة الذي لا يجد سبباً لدخول الحرب ، يبقى مسوفاً ومبرراً لها بعد انقضائها .

وقد ادعى ترسم تقاليد بسمرك وخطته سياسة الاشتراكية الوطنية ، فتجاوزوها واربوا عليها ، وكان المستشار دوييلوف قبل حرب ١٩١٤ يشيد بسياسة البرنس بسمرك ، ولا يدع في المذكرات التي نشرها فرصة لا ينسج فيها برود الثناء عليه ، وكان المستشار شترزن من الذي لم يمهله القدر طويلاً ، من اشياح تلك التقاليد ، وقد سار في سياسة بلاده في اثناء الازمات الشداد بمدالحرب سيرة ، عادت عليه بمجمل الذكر وعظيم الفخر ، فتغلب بحنكته ودهائه على ما كانت عليه من ضعف اورثها اياه الانكسار الذي ألم بها ، حتى ان رجال الدولة القدماء الذين عرفوا شترزن من ناشئاً في السياسة وشهدوا في اول امره مواهبه العظيمة وحماسته لوطنه ، ونشاطه ورقته وطموحه هناؤه على المنزلة التي احرزها في محافل السياسة الدولية وفي الوزارات الاجنبية المختلفة . على انه كان في اثناء الحرب من انصار اليد القوية والفتوحات العظيمة ، ولكن بعد ان تنكر لبلاده وجه الزمان وغلبت على امرها في الحرب ، وقف موقف الانتظار ، واستأنف عمله في الفرصة المناسبة لتسئم غارب الحكم ومعالجة سياسة الدولة الخارجية ، حتى قال عنه بيلوف مقرظاً اياه : انه بدون ان يتنازل عن كرامة الشعب الالماني عرف ان يتبذ مكاناً قصياً ليقف في موقف آخر اقرب الى السداد واقوم في الخطة المثلى . وقد تمكنت من نفسه كلمة رائعة عميقة قالها رجل دولة كبير في فرنسا : ليون غمبتا ، وهي تقضي بتصنيف القضايا الكبرى ، والاعمال الكبرى ، اذ لا يمكن معالجتها جميعها دفعة واحدة ، ولكن ينبغي ان تعالج واحدة بعد اخرى ، وهو في قيامه بهذا العمل ، الذي لم يكن يدرك الرأي العام مصاعبه ، كان قد اعين بمواهب نادرة في صناعة المفاوضة وفي رئاسة المؤتمرات ، ورجل دولة جامع لهذه المناقب جدير بالمانية ان تحرص عليه . . . وان عدد المشكلات التي سويتها بعد سنة ١٨٧٠ ضئيل في جنب ما تنتظر الآن تسويته .

وقد احتفلت المانية بمرور خمسين سنة على ميلاد شترزن وهذه الاحتفالات تجري في الغالب عندما يطعن رجال السياسة في السن ، ولكن قومه اسرعوا بالحفاوة به تقديرًا لجلال الاعمال التي قام بها ، وكانت المنية العجلى تحوم بومئذ حوله . فالتقى

خطبة اطرى فيها المستشار العظيم الذي كان يقبض على السياسة الالمانية بيد من حديد، وقال : بسمرك هو اول من لجأ الى سياسة القوة ، معتمداً عليها في دعوة الشعوب الى حياة مشتركة وتنشيط العلاقات الحسنة بينها ، وكان كلما تغلب عنوة على دولة كان يحدد الاحتمالات التي تهبطها مقدرة الدولة ، ويصرف الأمور على حالة تجعل تقدير التعاون ممكناً مع العدو ، وكان يرمي الى تسوية امور الاقليات بحجراً عظيمة وبعد نظر ... ولم يتبدل رأيه حتى في اثناء اعظم انتصار احرزه امام باريس ، وليس من المبالغة الادعاء بان بسمرك ، لو كان يجد من الدول العظمى بعد تأسيس الامبرطورية الالمانية قبولاً حسناً لمثل هذه الآراء ، لكان في المستطاع منذ ذلك العهد ، الوصول الى تعاون سلمي بين الشعوب .

وقد عنيت روسية السوفيتية بنشر ترجمة ما كتبه بسمرك في آرائه وذكرياته ، وقرظها صحفها مستشهدة بآراء هذا السياسي العظيم ، في وجوب اقلع الدولتين عما كان بينهما من تنابد ، ومشيدة بالمنافع التي تجنيانها من حسن التفاهم ، وعلقت على المقطعين الاتيين وذكرتهما خاصة :

قال بسمرك في صدد استشارة غايوم الأول له في الموقف الذي ينبغي ان تقفه روسية في حرب القرم : اوضحت للأمير انه ليس لدي روسية سبب يدعوها الى محاربة روسية ، وليس لها مصلحة في المسألة الشرقية تسوغ مثل هذا الحرب وتضحي بما بيننا وبين روسية من علائق ترجع الى عهد بعيد ، بل اني اخفت الى ذلك ، ان كل نصر يدرك في قتال روسية بمعاونتنا نحن جيرانها ، لا يبيث فقط شعور انتقام دائم في قلوب الكثيرين من الروس الذين نهجمهم بدون مسوغ لنا في قتالهم ، بل يحملنا على القيام بمهمة دقيقة في البحث عن تسوية نرضاها لقضية بولونية ، فمصلحتنا اذن لا تجبرنا على القطع مع روسية بل تضطرننا بعكس ذلك الى اجتنابه . وقال : انه ليس من مصلحتنا ، ولم يكن ابداً . منع روسية من استعمال ما يفيض من قواها في الشرق ، وعلمنا ان نغبط باننا نتابع تطوراً تاريخياً في اوربة لا يجعلنا

نجد الى جانباً دولاً تختلف واياها حتى الآن ، وهذه هي الحال بيننا وبين روسية ،
فلن يكون بيننا وبين فرنسا سلم ابداً ، وليس ثمة من حرب لا بد منها مع روسية ،
الا اذا قادتنا الى ذلك سخافات الفكرة الحرة اوسوء تدبير الاسرة المالكة .
ولم تنقل الصحف الالمانية اطراء الروس لهذه المذكرات ، الذي جاء في ايام
الاتفاق بين الدولتين سنة ١٩٤٠ .

الفصل الثامن

الرئيس ولسن والسياسة الأخلاقية

١ - الرؤساء الثلاثة

يتجلى ذلك العقد النظيم من رؤساء الولايات المتحدة بثلاثة رجال تفخر بهم الإنسانية كلها لا الولايات المتحدة وحدها : واشنطن الذي يقرن اسمه بتحرير الولايات المتحدة وإنشاء هذه الأمة الكبيرة . ولنكلن الذي صان بلاده من خطر الانحلال والنفك ، ومحاسن جبينها وصمة الأمار التي ألصقتها بها استعباد الإنسان لأخيه الإنسان . وولسن الذي سعى جاهداً لتكون سياسة الأمم والشعوب قائمة على أساس اسمي من سلطان القوة والجبرية ، وأقدس من مصلحة الدولة ، وارفغ من اتخاذ الشعوب بعضها لبعض خولاً وعبيداً . هؤلاء الثلاثة الذين نشأوا في العالم الجديد ، بعيدين عن مزلق السياسة الأوروبية ومنافسات الدول القديعة ، كانوا يريدون أن يعملوا شأن البشرية ويحبلوا كرامة الإنسان .

وشنطن

كان واشنطن قائد الجيش الجمهوري في حرب التحرير ، وقد أجمع قومه على توليته هذه المهمة لأنهم وجدوا فيه الصفات التي يحتاجون إليها في قيادة حربهم ، فقد كان جندياً بأسلاً يفوق نظرائه في الولايات المتحدة بكفائته العسكرية ، وهو موضع إعجاب القوم بأخلاقه ومميزاته ، وبعده أنطفئت نار الحرب التي أليه بنو قومه

مقاليد الرئاسة ، فقام أحسن قيام بأعباء العمل السامي الخطير . وإذا لم يكن يعد من قادة التاريخ العظام ، ولا في الرعي الأول من رجال الدولة واقطاب السياسة ، ولا من كبار الخطباء الذين يستهوون النفوس بسحرياتهم ، أو يسترعون الأبصار بهاء طلعتهم ، فإن لعظمته سرّاً يستقر في أشرف عاطفة ينطوي عليها قاب الانسان ، وهي احترام السما والأخلاق . وقد كان أول مجده وآخره انه وطني كبير ، جعلته الحرب والسياسة مؤسس دولة عظيمة ، فكان يزداد عظمة كلما ازدادت عظمة الأمة التي ترعرع فيها وشاطر في اقامة بنيانها ، وبذل في سبيل ذلك كل ما عرف به من صبر وصدق ووطنية وإخلاص . وقد ظل كتاب التاريخ من مواطنيه نحو مائة سنة يصفون مواقف بطولته ، ويغالون فيها ، غير ان القرن العشرين وما نشر فيه من فصول تاريخية نقادة ، عرى هيكل وشنطن من تلك الأساطير التي أحيط بها اسمه ، ونزع عنه ما خلع عليه عباد البطولة من الصفات التي تفوت ذرع الرجال . ولكنه لم يخسر شيئاً بالعودة الى الطبقة الانسانية ، بل زاد الإعجاب به : رجلاً قلما يتأثر بموامل الضعف التي تعيب الناس عامة ، ووطنياً تنقد في جوانحه جذوة الحماسة القومية والايان القدسي بمستقبل بلاده ، ورئيساً بلغ ذروة المعالي وأسس لأمته تقاليد الدولة الناشئة ، وخلف لعاصريه ومن جاء بعده مثلاً أعلى للمروءة ، وعنواناً للديمقراطية ومثالاً للشخصية الحرة . وإذا لم تكن صفات وشنطن من تلك الصفات التي تضيء حيناً حتى يخطف بريقها الأبصار ، ولا يدع اصحابها وراءهم في الغالب الا معالم دراسة وأطلالاً بالية ، فإن البنيان الذي أسسه لا يبرح ثابت الأركان قوي الدعائم .

وقد لبث ثماني سنين في اثناء الحرب مسيطراً على السلطة المدنية ، دون ان يجعل لنفسه من المزايا والحقوق ما لا تقبله الشرائع والقوانين ، فله الفضل كله في ان اميركم لم تحكم حكماً استبدادياً . وله الفضل كله في انه قاتل بأيسر ما يكون من رفد مادي وعون ادبي خصماً قوي الشكيمة كثير العدة حتى نهكه وأعياه ، وقد أصبحت بلاده مدينة له بوجودها ولكنه لم يكن يمن عليها ، ولم يركب متين الغرور

بما احرزه من النصر المؤزر في حروبها ، ولم يشأ ان يجعل بالوقت الذي يتولى فيه التبعات العظمى ، حتى انقادت له الامور وأجمع مواطنوه على ان يكلاوا اليه قيادة الجمهورية في خطواتها الاولى ، فأجاب الى تحمل هذه المهمة في السلم كما تحمل مهمات الحرب ، وحقق بعمله ما كان يظن الفلاسفة المجددون انه يتعذر في بلاد عظيمة ، وهو انشاء الحكم الجمهوري ، فاصبح الشعب يحكم نفسه بما يسمونه ساطان الائمة ، ولكن الصفوة الخائرة هي التي تحكمه بحزم وقوة . وقد استولى وشنطن على أعنة الحكم والسيادة واستعان على تدبير سائر الامور بأولي المقدرة والكفاية ، وابق للحكومات الشعبية القادمة تقاليد السيد الرئيس الذي يطبق في حكم الجمهورية قول منتسكيو : « ان الفضيلة هي قوة الحكم الجمهوري » .

وكان وشنطن في جميع أعماله شريف الغاية ، بعيد النظر ، عظيم الجراءة ، نافذ الكلمة ، ظاهر الوقار ، صادق الحس ، كأنه ينظر بلحظ الغيب ، شديد النضال في سبيل ما يعتقد انه حق ، متجافياً عن كل بواعث الاثرة ، لم يعرف انه ارتكب خطأ كبيراً في ادارة الحرب او في سياسة الدولة . وكان في رئاسته ، لا ترقى اليه مطاعم الاحزاب ومطامح الزعماء ، كالصخرة العظيمة التي تزل عنها الالهواء . وكان أميل الى مناهج المحافظين ، ولكن بأسمى ما في هذه الكلمة من معنى ، لاجل المحافظة على الجمهورية الجديدة وحمايتها ، وكأنه خلق كما اريد ان يكون للعمل الذي قدر له القيام به ، فلو كان اكثر عبقرية لأمكن ان يسرف في سلطته ، ولو كان اكثر ضعفاً لما استطاع النجاح في مهمته ، ولو كانت له براعة نابليون وأطاعه لانشأ حكماً عسكرياً او سلطة مستبدة ، ولو كانت مواهبه ضئيلة لكان يشك في ان تنال الولايات المتحدة استقلالها لقد كان الرجل الذي يتطلبه الزمن ، وقد أدى للانسانية أجل الخدمات فقدرت له صنيعه جميع العصور وجميع الشعوب ، حتى قال فيه المؤرخ الانكليزي غرين : لا يوجد رجل أكثر منه نبلا بين الذين كان لهم مثل مواقفه في حياة وطنية ، واذا كان مظهره الخارجي لا يدل على ما تنطوي عليه جوانحه من عظمة نفس ، فان وراء قناعه ناصية من نواصي التاريخ القديم ذات العظمة السمجة

التي هي فوق الأهواء الثائرة وانعواطف المتأججة . وكان الرجال يتوجهون اليه بقلوبهم ويمجدونه تمجيذاً لم تذهب ذكراه ، وسيدبق عزيراً في عيون الذين يحبون حقوق الانسان ويقصدون حرياته .

وقد عقد النية على التخلي عن الرئاسة لما انتهت مدته الثانية ، ولم يكن ذلك رغبة منه في احداث تقليد متبوع (أي ان لا يجدد للرئيس مرة ثالثة) ، ولكنه أصابه السأم من الحياة السياسية ومعالجة الشؤون العامة ، وهو يريد ان يقضي مراحل حياته الاخيرة في الرياض والجمائل والغابات ، غير ان هنالك على ما يظهر سبباً آخر ، وهو حملات الصحف المعارضة التي ضاق بها ذرعه ، وكان يشكو من الشكوى من قلة الاخلاص للخير العام ، ومن تخلف المواطنين عن الطاعة ورقبة النظام ، ومن استشرء المطامع وتنادي الآلام التي قاساها رجال في سبيل الوطن ، من الذين لم يكونوا يجدون قوتاً يكفيهم ولا كساء يستريح . ولو أراد ان ينتخب مرة ثالثة لكان له ذلك ولكن ليس باجماع المرتين السالفتين .

وقد ادر كته المنية بعد ثلاث سنوات من تخليه عن الرئاسة ، وكان في مرضه الذي مات به كما كان في حياته كلها ، جلدأ صبوراً لا يتماهل ولا يتشكى ، برغم ما يعانيه من البرحاء ، وانقضت مائة واربعون سنة ونيف على وفاته ، ولم ينل أميركي ما ناله من حب الامة وتقديرها واجلالها ، على ان منزلته العظمى في بلاده قد أصابها ما يصيب عادة جميع رجال السياسة الاكابر من الانصراف عنهم قليلا او كثيراً ، ولكنه مازال يجري لمستقر له في ضوء باهر لمعانه ، لا تستطيع الايام أن تضعفه او تخفف منه ، وقد كان فيه جفاء وترفع وحدة تغلب احياناً على اناته حتى لا يملك نفسه ، ولم يعرف عنه انه ضحك ضحكا عالياً او اظهر سروراً وجدلاً الا مرات معدودات ، واذا لم يكن يدعي حب الجماهير ، فانه على ما فيه من حشمة وانقباض ، كان رقيق القلب كريم المهزة حقيقاً بالناس روفاهم ، وما سودته أمته ولا أحبه لركة جانبه ولطف حديثه ، ولكن لما تميز به من الاخلاص لواجبه وغايته النبيلة المحررة ، التي جعلته فوق الاشباه والنظراء ، وقد تمثلت في نفسه حقوق الانسان التي سبقت

الولايات المتحدة الثورة الفرنسية الى اعلامها وأضافها الى قواعد استقلالها، فقررت ان الرجال مستقلون بطبيعتهم ، متمتعون بحقوق لا يستطيعون التنازل عنها ، والحكومات مؤسسة لضمان هذه الحقوق ، وسلطتها مستمدة من الحكوميين .

ولم يقتصر عمل واشنطن على تحرير بلاده ، بل ان القواعد التي دعا اليها تجاوزت حدود الولايات المتحدة وتجاوزت بها أرجاء أميركة اللاتينية ، فنهضت تحمل من عقابها وتنزع ربة الأسر من رقابها ، وفي خطبة الوداع التي القاها الرئيس أكد حياد بلاده وحماية نصف الكرة الأرضية من العدوان والاستعمار ، وقد نشأ الرؤساء من بعده على تقايده في استنكار المحالفات الخطرة ، والدفاع عن استقلال الدول الاميركية ، الى ان وضعت نظرية مونرو الشهيرة التي كانت بياناً خاطبت به الولايات المتحدة اوروبا الحريصة على الاستعمار حتى لا تطمع في غير ما هي فيه من الأرجاء ، وحتى تعلم ان القارة الاميركية ليست أرض استعمار ، وكل محاولة من اوروبا البسط سلطانها فيها ، او لقمع الدول اللاتينية التي اعلنت استقلالها ، تمده الولايات المتحدة خطراً على سلامتها وأمانها وعدوانا عليها ، وكما ان الولايات المتحدة قررت عدم تدخل اوروبا في شؤون أميركة ماعدا المناطق التي كانت اوروبا يومئذ مسيطرة عليها ، كذلك لا تتدخل أميركة في شؤون اوروبا . ولكن موقف أميركة — كما قال المستر هيوز سكرتير الدولة السابق ورئيس المجلس الأعلى — كان موقف استقلال لا موقف اعتزال ، وهي لا تريد الاشتراك في الممازعات السياسية الأوروبية ، ولكنها لا تأبى أن تجيب كل نداء الى الواجب الذي تعتقده ، من غير أن تكون مجبرة على ذلك او داخله في تحالف ، وهي لا تقف الا في صف الشعوب التي تضاهيها في مثلها العليا ، وفي غاياتها العامة التي ترمي الى تعزيز الروابط الاقتصادية والعلاقات التجارية وحماية المصالح المشتركة العادلة والحفاظة على السلام في العالم .

النتائج

بعد ثمانين سنة ونيف مضت على نشأة هذه الامة الأميركية ، أصابها أزمة شديدة تعرض بها الاتحاد لخطر التفكك والانحلال ، وذلك بسبب الخلاف الذي

نشأ بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، فكان الرئيس لنكولن الرجل الذي أرسلته العناية لحماية الاتحاد والغاء الرقيق ، وهو من اغرب شخصيات العالم ، نشأ في بيئة فقيرة ، وقضى سنهه الأولى في البؤس والحاجة . وكان من اول عمره شديد الاقبال على التعلم ، فقرأ بعناية وشغف بعض الكتب التي وقعت له ، وكان لا ينفك عن مطاوعة التوراة وشكسبير ، ويتطلع منذ صغره الى مايكون له من عظم الخطر في هذا العالم الفسيح ، الذي لم يكن يعرف شيئاً عنه ، ولم يكن يفارقه الغم والتردد حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره من غير أن يتخذ لنفسه طريقة في الحياة ، وكان الناس يحبونه حباً جماً ولا سيما رفاقه ، اذ كان حلو الحديث سافح المورد لطيف المعاشرة كريم السجاياء ، دون أن يخرج عن وقاره ورزاقته ، ولعل الجد الذي في وجهه كان عنوان حياته الاولى وأثر الغابات العابسة والسهول المفقرة ، اما بشاشته فهي من تعلمه الى النور والتعلم وبروق الآمال ، وقلماعرف الرجال حتى اقربهم اليه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وعزيمة وقدرة ، وقد وصفه دغلاس احد اعضاء مجلس الشيوخ ومعارض هذا الرجل المجهول بقوله : « ما اشد الجهد الذي يبذني علي ان أبذله في لقائه ومنافسته ، هذا هو رجل حزبه الذي لا تالين له فتاة ، ولا يفارقه ذهنه الحديد ، ولا يضاهي في معرفة التواريخ والوقائع ، افضل من يرتجل الكلام في هذا الغرب ، وهو شريف لا يتخذ واريب لا يتخذ » .

وكان اكبر هم لنكولن ان يصون الاتحاد ، والاتحاد عنده قبل الدستور ، لأن الدستور وضع ليجمع الاتحاد اكثر انسجاما ، فلا تستطيع دولة ان تخرج من الاتحاد وفقاً لمشيئتها ، وكل قرار تصدره في هذا الشأن لا عبرة له من الوجهة الشرعية ، فالاتحاد لا يمكن ان يتطرق اليه الوهن او ان يتعرض لخطر الحل ، ولما افتتح رئاسته الاولى سنة ١٨٦٠ ، خاطب مواطنيه الغضاب بقوله : « ان المكارة التي تحاذرونها هي في الحقيقة غير كاذبة ، وتبعة الحرب الأهلية الخفيفة لا تقع علي ، وانما تبعها بين ايديكم ، انكم تحلفون الايمان على تقويض بنيان الحكومة ، وانا ارفع الصوت جهره وانا ري مهلنا مشهداً ، اني سأحميها وادافع عنها واحافظ عليها . » وأكديته تطبيق اقوانين

في جميع انحاء الدولة ، وابدي كثيراً من روح التساهل في هذه الخطبة حتى عد ذلك موطن ضعف ، ولكن يده الحديدية كانت — كما يقول الفرنجة — في قفاز من « القטיפه » ، وقد انقاد الى بعض الدواعي السياسية ، فارجأ قضية تحرير العبيد ، وصرف همه الى صيانة الاتحاد ، سواء أكان قد حرر العبيد أم لم يحرروا في اثناء هذا النضال .

ولما استعرت نار الحرب عقد مجلس الأمة مؤتمراً استثنائياً فبعث اليه الرئيس برسالة لم يكن فيها لبس ولا غموض ، فوصف حالة البلاد وذكر ما لسلامة الاتحاد من شأن في نظر العالم ، وقال : على هذا النضال الذي تحمل اعباءه يتوقف امر هو اكثر من مصير الولايات المتحدة ، اذ ان الاسرة الانسانية الكبرى تشهد : أجمهورية دستورية ديمقراطية تمثل حكومة الشعب قادرة على صيانة حدودها وقمع الفتن الالهائية ؟ وهل يجب ان تكون الحكومة قوية جداً حتى تستطيع ان تدفع عن حريات مواطنيها ، او ان تبلغ درجة من الضعف بحيث تعجز عن حماية نفسها ؟ وكان لتمكن قدوقف قانون الحرية الشخصية وتجاوز سلطته ، ودعاً من ذات نفسه الى زيادة عدد الجيش في البر والبحر ، وفي ذلك خروج ظاهر على القانون ، غير ان الرئيس كان يرد على منتقديه بأن السلامة العامة تتطلب تلك الوسائل الاستثنائية ، وقد اصدر مجلس الامة قراراً تجرد فيه من كل عاطفة غضب وحقد ، ولم يهتم الا بواجبه نحو البلاد كلها ، وهو عالم بان هذه الحرب ليس فيها روح اضطهاد او رغبة في فتح ، وما اوقدت نارها الا لحماية الاتحاد والمحافظة عليه والتساوي في الحقوق بين جميع دوله . ومتى ادركت هذه الغاية فان الحرب واعدة اوزارها .

اما تحرير الرقيق فلم يعلن الا في سنة ١٨٦٣ ، فكان لاعلانه اثر كبير في مختلف اقطار الارض ، وكانت الشعوب قليلة الاهتمام ببقاء الاتحاد الأميركي او زواله ، ولكن اعلان لتمكن لتحرير العبيد اثار في العالم هزة اعجاب واكبار ، ولم يخل من ذلك حتى بعض الذين كانوا يتوقعون انتصار الجنوبيين . وقامت على الاثر دعوة تحرير العبيد ولاسيما في بريطانيا العظمى .

ولم يكن الرئيس يقبل تسوية او هوادة في الامر الذي يقره. وقد لجأ الى وسائل العنف لقمع الفتن والنواثر التي كان يثيرها. مارضو خطه ، فامس موضع الداء بإشارته الى عقاب الموت الذي يصيب الجندي عند فراره من الجيش ، وتساءل هل ينبغي اطلاق النار على جندي مسكين جاهل لاذ بالفرار ، ولا يجوز ان تنزع شعرة من راس المبيح المحتال الذي حرّضه ؟ وقد حاول مندوبو الجنوب في حديث طويل ان يقنموه بمقد صلح مع الولايات الجنوبية ، واستشهدوا على ذلك بما فعله شارل ملك انكلترة بمفاوضة العاصين من رعاياه ، فأجابهم : ان بضاتي مزجة في علم التاريخ ، وانا ارجع في هذا الأمر الى امين سر الدولة ، وكل ما ذكره من هذه القصة ان شارل الاول قطع رأسه .

لقد تقلد كثير من الاميركيين السلاح لأنهم كانوا يحبون الاتحاد ويحرمون عليه ، ولا يجمعون عن بذل دماهم في سبيل البلاد وصيانتها من التجزئة ، ولكن لنكن قاده الى ذلك سبب اسمي وغاية ابعد ، فقد رأى ان مبدأ الديمقراطية وحكم البلاد نفسها بنفسها كان معرضاً للخطر ، وان سعادة الاسرة الانسانية بأسرها ذات علاقة بهذا الامر ، ولم يكن يطبق لنكن ادراك هاتين الغايتين العظيمتين دون مؤازرة الشعب القادر الخالص ، وحق لا يثبته ان يشاطروه الفخر بهذا النصر . غير انه احق بالنصيب الاوفى لانه كان ربان السفينة الذي يتودها في ساعة شديدة الحرج . ولا يشك أحد في ان لنكن كان الرجل كل الرجل ، ولكن ليس من الهين تحديد الصفات التي تكون اسباب عظمته ، فدهاؤه لم يكن يهر الاقربين اليه ، حتى ان وزارته أتت عليها بعض الزمن قبلما كشفت القناع عن أسراره وبعد ان سبقها الشعب ، ولم يعرف حق المعرفة الا بعد موته ، سمو آرائه التي دبر بها الامور في ذلك العهد الدقيق الخطر ، وكما زاد تأمل الناس كلماته زاد شعور الاعجاب به ، وقد تكون اكبر فضائله القدرة على تبين الرأي العام ، وقما تمتع رجل دولة بما تمتع به من الثقة ، اما تأثير صدقه فلم يكن يقتصر على الجماهير .

ولم يحاول احد ان يستخرج كنه هذه العبقرية . ولم يذكر التاريخ خلقاً

عظيماً فاجأ العالم بمثل هذه المفاجأة ، وقد وصفه غولدين سمث المؤرخ الانكليزي بقوله : ولد في آخر طبقات المجتمع ، وتكون في بيئة النضال والشفاء ، وسما في الحياة العامة حتى اصبح الأميركي الأول ، وتقلد اعباء مهنته في الوقت الذي كانت قوى الحرية وقوى العبودية توشك ان تشتبك في قتال ميمت ، فقبض على ازمة الحكم بيد قوية ، ولولا عبقرية الفذة لما سلم الاتحاد في رأي الكثيرين . وقد اودت رصاصة قاتل بهذا الرجل العظيم الذي هو من افضل نجار عرفته الانسانية الحرة ، وكان الرزء به اعظم الأرزاء التي ألأت بالولايات المتحدة ، ومنذ غيب اثرى وجهه مابرخ يعلو نجمه ويتأق كوكبه ، وهو لا يعد رئيساً علي الصيت لولايات المتحدة بل يعد من اعظم رجال التاريخ ، وحسبه العمالان العظيمان اللذان قام بها لتخليد ذكره : الغاء الرق ، وصيانة الاتحاد .

وفي سيرة لنكلن الحافلة بالاعمال الجليلة ، نجد كثيراً من المتناقضات التي هي عنوان عظمته ، فقد كان مظهره مظهر واثق بأصحابه مطامئن اليهم ، ولكن نفسه العجيبة كانت بعيدة الغور بحيث لا يدرك مكنونها ، وكانت تلوح عليه تخايل الرجل المتبلبلج الملكي . المضطرب ، ولكن وجهه لم تفارقه قط روعته ، وكان حاضر الذهن فلا تقوته الكلمة النادرة او رواية بعض الحوادث الفكهة ، غير انه كان في قرارة النفس التي انطوت عليها جوانحه مجرى حزن واسى يملأ حياته ويظهر في جميع مواقفه ، وهو لم يكن راسخ القدم في فن الخطابة ، ولا طويل الباع في علوم الادب ، ولكن كلامه في شؤون الرق من ابلغ ما تفجرت به عيون الفصاحة في ذلك الزمن ، ايجازاً ومتانة وقوة حجة ، وكانت خطبته في جتسبرغ على أثر الوقمة الكبرى المسماة بهذا المكان ، وخطبته في افتتاح عهده الثماني ، من درر الادب الرفيع .

فمن اقوال لنكلن التي كان ينطق بها عن فطرة ملهمة وملكمة متأصلة كما هو شأن سائر قادة الشعوب : « ان من الامتهان لسكان بعض الولايات الانزام جديرين بحكم انفسهم ، ولا جدال في ان مبدأ حكم الشعب لنفسه بنفسه صحيح ، وسيظل صحيحاً الى الابد ، ولكن اذا كان الزنجي رجلاً الا نرى — بقدر ما في المبدأ من

صحة - اننا اذا حرمانه - حكم نفسه انما نخرق بذلك مبدأ سيادة الشعب ، واذا حكم الرجل الابيض نفسه كان ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه اذا كان يحكم نفسه ويحكم رجلا غيره ، فذلك اكثر من سيادة الشعب : انه الاستبداد ، وليس في الناس من يتوافر لديه الخير ليحكم غيره بدون رضاه ، وما حياة امة نصفها حر ونصفها الآخر عبد . » وكان يقول في الرق : انه يمقته لما ينطوي عليه في ذاته من جور قبيح ، ويمقته لانه يسلب النظام الجمهوري الذي نحمله الى العالم مثالا من اثر الحق في ايدينا ، ويمقته لانه يدفع رجلا كثيرين من الاختيار الى محاربة المبادئ الاساسية للحرية المدنية ، فيصرون على دعواهم انه ليس ثمة من حق نستند اليه في اعمالنا ، وما هنالك الا المصلحة الشخصية .

اما خطبته بعد يوم جتسبرغ في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٦٣ فلما قد سارت كل مسير ، وتوارث الامير كيون ما فيها من كلمات بليغة ، حتى ان الرئيس ولسن الذي كان معجباً بسلفه البعيد ان كان اوردها بتامها في كتابه تاريخ الشعب الاميركي وطبع على غرارها احدى جلائل خطبه ، وهي التي افتتح بها رئاسته الثانية ، وكان قد اجتمع الناس في ساحة الوقفة او على مقربة منها ، غداة ذلك اليوم الذي كان من أشد ايام الحرب الاهلية هولاً ليمجدوا ذكرى ضحاياها . وسألو الرئيس ان يخطبهم في هذا الحفل المشهود ، فتكلم بكلام رقت له القلوب وذرفت العيون ، وكان مما قاله :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت ، انجب آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة وضعت لبان الحرية ، ونذرت نفسها للدعوة بان جميع الناس ولدوا على سواء .

« ونحن الآن في حرب اهلية ضرورس تمتحن فيها هذه الامة ، لتعرف هل تستطيع الحياة والبقاء هي أو اية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها . في هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مشوى خالداً لأوائك الذين جادوا بحياتهم لنحييا هذه الامة ، وحق علينا كل مانقوم به في سبيل ذلك .

«غير اننا ايس في وسعنا ان ننذر أو نقس او نبارك هذه الارض ، اذ ليس في متناول طاقتنا ان نزيد في مكاتها او ان ننقصها بعد ان افاض عليها الابطال الذين ناضلوا احياء فيها او أمواتاً ما فاضوا من حبل التقديس . والعالم ان ينظر الا قليلا وان يذكر الا قليلاً ما تنطق به افواهنا في هذا المكان ، ولكنه لا يستطيع ان ينسى ابدًا ما صنع فيه اولئك الابطال ، وجدير بنا ان ننذر نفوسنا ههنا للعمل الذي لم ينته والذي خطا به المقاتلون ههنا خطوات كريمة . وانه ايجدر بنا ان ننذر انفسنا في هذا الميدان المهمة العظمى التي يجب علينا ان نتمها ، وان نستمد من هؤلاء الموتي الاجداد ولائاً متزايداً لهذه القضية التي جادوا في سبيلها بأقصى غاية الاخلاص ، وان نعقد العزيمة الصادقة على ان لا يكون موت هؤلاء قد ذهب ضياعاً ، وعلى ان تبعث هذه الامة التي تستظل بظل الله بعثا جديداً ، وان لاتضمحل على وجه هذه الارض حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب » .

وقد تمتع الرئيس لنكن بسلطة عظيمة في مدة أربع سنين لم ينلها احد من قبله ولم يطلبها احد من بعده ، فلم يستبد ولم يستأثر ، ولم يغير شيئاً من اوضاع الدولة ومنهجها ما عدا علاقة السيد بعبده وتعزيز بنيان الاتحاد وتوثيق عراه ، فما تبدل شيء من الحريات العامة ، ولا تحوات طبيعة الامة الجوهرية من انها محبة للسلام . ولما انفضت الجيوش بعد ان اسدل قنصاع هذه الحرب الضروس ، عاد الجنود الى شؤونهم السالمة بان دفاع كانه السحر ، وآخر عمل قام به الجيش هو عرضه الاخير الذي مشته فيه الصفوف تجري في اعطافها هزة النصر لتحيي قادتها ورؤساءها التحية الأخيرة ، ولكن غاب في هذا اليوم احق الرجال بفخر الظفر وزهدهم فيه ، الذي رمقه العالم بأسره واملاء قلبه بحب بلاده . طوته المتون قبل عشرة ايام في سجل العطاء الخالدين .

واذا كانت الحرب قد انتهت فانها قد جرت وراءها جراراً ، وكان ينبغي مواجهة مشكلات الانشاء والتممير ومعاملة اهل الجنوب بعد ان اعادهم السيف الى حظيرة الوطن ، فكان يري فريق ، في طليعتهم الرئيس لنكن وامين سر الدولة سوارد

والقائد غرات، وهم الذين ابلوا احسن البلاء في اطفاء الفتنة وازالة التفرقة ، انه ينبغي العفو والصفح حتى تنقضي الحرب ولا احقاد ولا ضغائن . وقد قلم في وجه الرئيس من يعارضه ، ويرى ان يصلى بنار الحرب جناتها ومثيرو نفعها ، وكانوا لا يشاركون القائلين بالاكتفاء بعودة اهل الجنوب الى الوطن ومنحهم الحقوق والمزايا التي تتمتع بها سكان الشمال ، بل يرون معاملتهم بقوانين البلاد المفتوحة ، جزاء لما كسبت ايديهم . ولا ينظر اصحاب هذا الرأي لما يظهر هؤلاء من صدق واخلاص ، فلو لا انكسارهم لاصرهم على نعيمهم وتعنتهم ، ولكن الرئيس كان على عادته متمسكاً بالخطة التي عملها عليه عقله لاهواه ، فقد خاض غمرات الحرب بقلب لا يكاد يطيعه ، ولكن عزيمته لا تنثني ، فحارب مكرهاً اشد حرب لانه لم يجد عن الحرب مندوحة ، حتى اذا وضعت اوزارها اقبل على مداواة ما خلفته من الشرور اتي اخلت الديار وخربت الربوع وأوحشت المغاني ، فهل أدرك الذي فتكت يدهم بالرئيس تعصباً لأهل الجنوب ، ما ينطوي عليه ذلك القلب الكبير من رقة ورحمة ؟ .

٣ - ولسن

اذا كان مصرع لنكسن قد اشجى الولايات المتحدة وأمضاها ، فان عاقبة ولسن كذلك لا تقل عنها في ما أبقتة من شجوة وحزن ، ولئن اغتال الاول متمعص اعمى نقد اغتالت الثاني المنازعات الحزبية والمنافسات السياسية ، وشيء آخر اراده ان يكون في العالم وهو رفعه الى مستوى اعلى ، ولكنه كان فوق حقيقته وفوق ما يستطيعه . وقد انتهت حياة الرئيس السياسية وطويت اخرى صحائفها سنة ١٩٢٠ ، لاسفة ١٩٢٤ حين وقع احد الاطباء وثيقة تحمل اسم وودرو ولسن وثبتت وفاته . فأية علامة تهكم مخيفة تقترن بسيرة هذا الرجل الذي ظهر في حين من الاحيان كانه باقة أمل الانسانية بأسرها ، وانه اقوى شخصية في تاريخ الولايات المتحدة وجمهوريتها ، ولكن سرعان ما اخفق وراء الافق وسجل اسمه ذكرى اعظم اخفاق في تاريخ السياسة وما هذا الاخفاق الا نتيجة اجتماع عناصر مختلفة ادت الى تضائل حب شعب الولايات المتحدة له ، فقد اغضب الارانديين لانه لم يؤيد قضيتهم التأييد الذي كانوا

يتوقعونه ، وأثار الالمان لانه لم يرفع عهده لوطنهم ولم يصبر الاصرار كله على تنفيذ قواعده الشهيرة ، واحفظ الايطاليين لانه لم يدع بلادهم تحقق كل ما تصبوا اليه من توسع ، ولم يطعن كذلك رغبات منافسيه السياسيين في بلاده فجعلهم يترصدون به الدوائر . وقد سألت جريدة نيويورك افنغ بوست الامير كية الجنرال سمطس ، الذي اجتمع له من صفات القيادة العسكرية والبراعة السياسية ما لم يجتمع لسواه ، رأيه في عمل الرئيس ولسن وما صار اليه امره ، فأجابها بقوله : « لقد اضطر الرئيس ان يتسامح في كثير مما قرره من قواعده الاربعة عشرة ، وليس هو الذي اخفق بل الانسانية هي التي اخفقت ، وسيمبق للمباديء التي وضعها من الخلود ما يحسد عليه ... ولن يفوت الامير كيين في مستقبل ايامهم ان يضعوا ولسن الى جانب وشنطن ولنكلن ، وستفوقها شهرته بشمولها وأثرها في جميع العالم . »

حقاً لقد غلب الرئيس على امره في اثناء مفاوضات الصلح ونزل عن عدة نواح من مبادئه العليا ، ولكن المعاهدة مسع ذلك كانت مطبوعة بطابع الرغبة في الصلح والسلام ، وقد اصر ولسن على ان يكون السلم معقوداً في وضع النهار ومؤسساً على العدل المجرد عن الهوى ، وكان يريد من عصبة الامم ان تكون ضماناً لصيانة السلم وان تستعين لا ذراك غاياتها بقوى العالم المتحدن المتحدة ، غير ان اوروبا كانت اميل لسياسة التوازن ومنافسات التحالف ، ومع ذلك استطاع الرئيس بما دعا اليه من المبادئ القويمة المؤسسة على الايثار ، ان يغير كثيراً من اساليب السياسة الاوربية القديمة التي تستمد من قواعد الفتح وخطط مكيفلى ، وكانت عصبة الامم الوسيلة الوحيدة لحماية الحضارة والدفاع عنها ، وهي فكرة عظيمة وطريقة محدثة في التاريخ العام ، لو استطاعت ان تسيطر على الدول بجملتها ، لا ان تخسر ثقة العالم بعجزها عن تحقيق مثلها العليا .

وقد اراد الرئيس في دعوته الى انشاء عصبة الأمم ان يجعل من قاعدة مونرو الامير كية قاعدة عالمية ، فقال في رسالته سنة ١٩١٧ : « اقترح ان تطبق هذه القاعدة في العالم كله ، بحيث لا تعمل دولة على اجبار امة اخرى او شعب آخر على الخضوع لسياستها الخاصة ، ولكن كل شعب تترك له الحرية في تحديد السياسة التي يريدتها

والطريقة التي يختارها دون ان توضع العقبات في سبيله او يعرض للتهديد والارهاب .
والشعوب الصغيرة في ذلك كالشعوب الكبيرة او الشعوب العظيمة . . وقد انتقد
الشيخ لودج الذي كان رأس معارضة ولسن هذا الرأي ، وقال ان معنى اعلان تطبيق
قاعدة مونرو في العالم بأسره أنه لم يبق لها مجال تطبيق ابقاء ، اذ هي في الحقيقة
لم توضع الا لحماية نصف الكرة الاميركية . على حين ان هذا الشيخ نفسه كان
يخطب في اثناء الحرب خطباً لاتخرج عن مبادئ الرئيس ولسن وما يدعو الناس اليه .

ولم يكن الرئيس ولسن يمد نفسه محارباً في جملة المتحاربين ولكن حكماً
بينهم ، وقد حاول في بادئ الامر ان يحتفظ بحياد بلاده ، فلا نكلين يعرقلون سير
التجارة الاميركية والايمان ينسفون سفنها ، ولكن الاميركيين كانوا يخشون عاقبة
انتصار المانية وبسط سيادتها على العالم ، وما يجر اليه ذلك من تهديد بلادهم وفساد
المبادئ التي تحيا لاجلها وتحيا فيها ، وخسر ان ماله من مصالح خاصة وعامة ، وهي
لم تكن تخشى ان تستعبد المانية اذا كتب لها النصر ، ولكنها لم تكن تشك
ان سحق المانية للدول المتحالفة يعرض اميركة لاخطار عظيمة ، ويحملها على ان
تتبع في بلادها خططاً ومناهج عسكرية ، وان تكون دائماً مضطرة للتأهب
والاستعداد ، فكان رأى جمهور هؤلاء الاميركيين انه يجب التدخل حتى يدفع
هذا الخطر الداهم قبل ان يفوت الاوان ، وكانت حرب الغواصات التي اعلنت المانية
عزمها على القيام بها دون هوادة سبباً في دخول اميركة الحرب ، وقد ارتكبت المانية
اخطاء كثيرة في الحرب الماضية ، فقد ظنت ان انكلترة لاتحارب في سبيل قصاصة
ورق (حياد البلجيك) ، وحسبت ان باريس ستسقط قبل ان تكون روسية قدأمت
تعبئتها ، وان ايطالية ستكون في صفها او انها تبقى على الحياد . ولكن لم يرتكب
شعب خطيئة سياسية تحمل بسببها اعباء كثيرة كخطيئة الشعب الالماني ، عندما
دفع الولايات المتحدة ورئيسها الذي يجب السلم الى خوض غمرات القتال ، فلم يقدر
عواطف الامة الاميركية حق قدرها ولا حسب حساب وسائلها العظيمة وقدرتها
بذلك على ان تنقلب دولة عسكرية قوية .

وقد كان الرئيس واسن — كما وصفه هنري وليم استاذ التاريخ في جامعة نيويورك — على خلق عظيم وشرف رفيع ، ممتعاً بأرقى مواهب الفكر ، واثقاً بنفسه مستقلاً برأيه ، لا يخلو من الحذر والحيطه ، ولا ترى فيه صفات الاناس والتعجب او الجاذبية الشخصية التي تعد سبباً جوهرياً من اسباب النجاح في صناعة السياسة ، وقد تلقى مبادئه وتعاليمه عن الاسس الديمقراطية الايميركية وتقاليدها ، ووجدتها في النصوص التاريخية والقواعد الحرة ، حتى كانه حاول ان يطبق اساليب بلاده في العالم كله . حقاً انه كان ينتقد بشدة مناهج بعض الاميركيين في الاغراء والافساد والرشوة ، وكان رجوا يشفي عالماً عليلاً مضطرباً ويجعله صالحاً شريفاً بتنفيذ الخطط التي تغلغل في فؤاده . وكان في بعض كتبه ومؤلفاته يشرح الحرية الانكليزية ويتخذها مثلاً يحتذيه ، ويستحسن ما يصنعه المصلحون من الانكليز الذين يعملون على انقاذ الامبرطورية دون ان يغيروا الدستور او يبطلوا قواعده او يغيروا جوهر الأمور وطبيعتها .

وكان الرئيس في مؤتمر فرساي يرسل نظراته الى العالم والى ما يجري فيه من احداث خطيرة ، ويريد تعبيره واصلاحه دون ان يزلزل بنيانه ويقوض اركانه ، بل يعتمد الى تطبيق قواعده الحرة السائدة في اميركة وفي بريطانيا العظمى بضمان عصبة الامم وتعهدها ، ولكن تقاليد الفتوح وضغائن الحروب التي احيها النصر في النفوس ، وبث المبادئ الوطنية المفرطة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى جعل ممثلي جميع هذه الشعوب يتهافون على احراز ثمرات الانتصار ، فاصبح هذا الوضع منذراً منذ افتتاح المؤتمر ، واخذ الرئيس يحذر عواقب الطمع والحرص وما تجره من النكبات والكوارث ، وانكر الاعتماد على السلاح للاستيلاء على بعض البلدان ، ففي ذلك ما فيه من نقص قيمة المطالب المنشودة واضعاف شأنها ، لأن تحكيم القوة يؤدي الى الاعتقاد بأن الذي يلجأ اليها يشك في عدل قضيته وصحة حجته ، ويريد ان يستحوذ على الربوع التي لا يجد لديه من الحق ما يكفي لتأييد دعواه فيها ، فيحل العنف والشدة محل الحق الذي يستمد الى الجنس والتاريخ والشعب ،

وبشر الشبهات بعمله حول المستندات التي يعتمد عليها ، كما انه يؤكد عدم ثقته بمؤتمر السلم .

وفي الحق ان قوى عظيمة كانت تنهياً لنضاله وهي قوى خفيفة منأمة . وكان ولسن يعني نفسه بالانتصار على النظام القديم ، لأن العالم كله كان يؤيده ويهتف له في ساعة من ساعات الحماسة وسمو النفوس ، ولكن هذا العالم كله كان يرتاب في نجاحه ويتجهمله ويحمل عليه ، وكان يعتقد باصلاح النوع الانساني ويقدر عظم التبعة وخطر المسؤولية . وقد قام بعمل من اعمال الدعاة والحكام ، والفلاسفة ، وخطاب الشعوب وقرر المباديء وحث على تطبيقها ، ولكنه لم يقارب بينها وبين حقائق الحياة كما هي ، وحقائق الشعوب كما هي . لا كما يريد ان تكون هذه وتلك ، فلم يلبث ان وجد المباديء التي قررها يدال منها حتى انها حولت في المعاهدة الى نصوص اصبح الرئيس نفسه يجهل كثيراً منها . وقد خاض غمار مفاوضات سياسية عسيرة في باريس كانت أهبطه لها اقل من اهبة مخاطبيه ومناظريه المجهزين بالاسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، حتى ان بلاده تخلت عنه ، كما عارضه حلفاؤه وتكروا له ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ويعالج المصاعب الجسام ، وباح الرئيس بما يحامره من أسى في خطبة القاها بلهجة مؤثرة في جمعية الشرائع الدولية في باريس على اثر تقديم المعاهدة الى مندوبي الالمان قائلاً : لقد خيبت تجارب الحياة ما تطلعت اليه الشعوب من آمال حسان ، وخيل اليها ان الشمس لا تشرق بضياءها دفعة واحدة ، ولكن تسير على مهل فتشوق اشعتها الدياسي وويدأرويداً حتى تملأ الكون بنورها الوضاء .

ان هذا الرئيس الذي شعر بحرارة الخيبة كان يعتقد بكونه سعيد الطالع ، وكأنه رأى بعينه فجر الحرية قد انشق جانبه وزغ تاريخه ، فحاول ان يجعل من اماني الأمل حقائق الغد ، فيا لها من ساعة عظيمة في التاريخ ، ويا بؤس الذين اعترضوا مناهجه وقطعت بهم السبل دونه ! فقد كان في مصلحة الدول الاوربية بل في مصلحة العالم كله تنفيذ شروط الرئيس ولسن والقيود بها ، فهذه الشروط اعانت الحلفاء عوناً كبيراً في سنة الحرب الاخيرة بما بعثته في النفوس من العقيدة التي اخذت

عجاس مع القلوب ، بعد ان اصبح كثير من المحاربين يتعاملون من القتال في سبيل غايات موهومة ، وقد انكر على ولسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن هل ينكر ان قواعده هي الوثيقة الاولى التي احتسب اليها الفريقان المتقاتلان ، وان كلماته كان فيها من بمد الغور وعظمة الحقيقة مالا ينسى ابد الدهر ؟ وقد حسب الرئيس الاميركي عندما اعلن آراءه وقواعده انه اقتربت ساعة التقايد السياسية القديمة وازيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، فاقبل الناس بعضهم على بعض يستبشرون بان رجلاً في هذه المنزلة ، وهذا المقام والسلطة من أمة عظيمة رفع صوته بذلك النداء الذي خرج من كل قلب ، ولكنه كان كباسط كفيه الى السماء ليملغ فاه وما هو ببالغه ، وطوبت الفكرة الجديدة في اعلام الطفر المبين ، الذي ينشئ في النفوس سكرة غرور واقتدار هي أشد خطراً من السم .

اما الولايات المتحدة فقد نفذ دبرها يومئذ من الرجل الذي لا يعرف الا قليلا عن حقيقة العالم ، والذي تكهن بوقوع الكارثة مرة اخرى اذا لم تعي امته قواها الحربية والاقتصادية لمقاومة معسكري صفو السلام ومهدي بنيان الحضارة . وقد ضحك الناس من اقواله سنة ١٩١٩ ، ولكن لم تأت سنة ١٩٤١ حتى اصبح هذا الضحك أشبه بالبكاء ... واخذ الاميركيون يحيون ذكرى الرئيس الحكيم في البلد الذي ولد فيه وفي كل فرصة سانحة ، وقد بعثت نفخة الحرب عدداً لا يحصى من الموتى ، وبينهم وودرو ولسن الذي أشرق مجدداً في اذهان الأميركيين ، واخذت آراؤه وكلماته تتردد على الافواه والاقلام مستعيدة بهجتها ورونقها ، ورأى حتى الذين انكروه ما كان من بعد النظر في قوله : لا ينبغي ان يسود العالم توازن قوى بل مجموعة قوى موحدة ، ولا منافسات منظمة بل سلام عام منظم .

لقد نشأ ولسن في الولايات الجنوبية ، وكان عمره تسع سنوات لما وضعت الحرب الاهلية اوزارها . فشب في مناطق تبدو فيها الحياة اكثر مشقة وصعوبة ، ولا سيما بسبب الفقر الذي ضرب فيها بجرانه في السنوات الاولى بعد الحرب ، وما يعترض العمل من عقبات سياسية واجتماعية ، وبقيت آثار هذه النشأة مرتسمة على حياته ،

وزاول واسن صناعة التعليم حيناً ، وكان استاذاً للتاريخ في جامعة برنستن ، وارتقى بعد ذلك منصب رئاسة الجامعة ، ثم انتخب حاكماً لولاية نيو جيرسي ، فكان شعاره في المهمتين اللتين تقلدهما الحزم والنضال ، وتوجهت الانظار الى شخصية هذا الرجل القوية ، حتى فاز بانتخاب الرئاسة سنة ١٩١٢ .

فلا جدال في ان الرئيس واسن كان فيلسوفاً اجتماعياً ، ولا جدال في انه لم تكن تخفى عليه خافية من اوضاع الدولة في الولايات المتحدة ، واتم برهان على ذلك ما حواه برنامج التشريعي الذي اعده في النصف الاول من مدة رئاسته ، واول شيء اقره هو ان الرعامة الحزبية من المهام الاولى التابعة للرئاسة ، وهي حقيقة أخذ بها وطبقها كل رئيس قوي ، لكنها لم تعلن صراحة من لدن احد قبله ، وخلال السنتين الاوليين أحدث تغييرات في نظم الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي في الحقيقة اصلاحات عميقة ... وكان عندما يجمع رأيه على شيء يتقد فيه اصلاح يتشبث به ولا يتحول عنه قيد شعرة ، وكان ينفذ ببصره الى دقائق الأمور الادارية ويدهش بمعرفته أسرارها ، والمصلحة العامة هي رائده الوحيد ، ولا يبالي ما صنع في مقاومة خصومها ، وفي هذه الكلمة ما يترجم عما تنطوي عليه نفسه : يجب علينا ان نرتاب بكل رجل يريد ان يتخذ جهود البلاد وحاجتها وسيلة لما آربه وزيادة ثرائه ، وان نسهر حتى لا تكون فتنة ولا تبث مكيدة تفسد نظامنا وتضير شعبنا ، وان لاندع سبيلاً للحيلة ولا للرشوة تنفذان منه الى حكمنا وادارتنا . وكذلك قوله : المصلحة لا تؤلف بين الرجال بل انها تفرقهم ، فتى حدثت ثغرة في المصالح التي كانت متفقة ، فان عواطف الحسد تمب على الاثر وتجبر من وراءها الجرائر ، اما الذي يجمع بين الناس ويؤلفهم فهو اخلاص مشترك لمبادئ الحق الكبرى ، وقد أخذ الرجال يبحثون منذ لاح فجر الحرية عن حقوقهم ، ومضت مئات السنين حتى اصبح الواجب العنصر الاول للحق ، والشرط الذي يدرك به الانسان حقه هو ان يقوم قبل كل شيء بواجبه .

لقد حلت حرب سنة ١٩١٤ دون تحقيق ما كان يريد له بلاده ، ولكن انقياده

لخوض غمراتها جملة يفكر في تطبيق قواعد الحق والواجب في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفي حماية السلم واجتناب كوارث الحرب ، ومن الخطأ ان يظن ان المنازعات الحزبية هي التي كانت السبب في معارضة امته لمناهجه ، فان الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب وهي اكثر مالا ، واعز جانباً ، واختباراتهما تدلها في مدى مئة سنة على انها ليست معرضة لخطر ، ولا تدفعها حاجة لاتخاذ التدابير لحماية السلام والطمأنينة في جميع اقطار الأرض ، وهي تعتقد ان قوتها كافية لسد حاجتها ، وان اورية ستظل مفتقرة اليها ، وقد اكتفت من الحرب بالفقر ، وخرجت تمرح في جلايب الغبطة والتفاؤل ، لم تستقر في نفوسها تلك الحسك البالغة التي انشأتها مصائب الحرب وخواف المستقبل ، وكانت عصبية الانهم في نظرها مثلاً اعلى لا يستطيع تحقيقه وحل مشكلات العالم المقبلة بوسائله ؛ فأميركة تشد النصر وهزيمة المانية الجبارة ولا تبالي ما يجري بعد ذلك ، والرئيس ينشد النصر ويريد ان يربطه باقامة النظام الجديد . وكانت عصبية الأمم يمكن ان تصبح اداة اصلاح لو انها امتد بالقوة الكافية ، وهذه القوة ما كانت لتجد تأييدها المعنوي عند قاض غير مكترث ، بل عند امة كالولايات المتحدة التي رفضت ان تشترك في العصبية ، ففقدت منذ تلك اللحظة ، نصيبها من النجاح . لقد اخفق ولسن في خطته لا لأنه كانت تنقصه الحكمة — كما ادعى بعضهم — ؛ لا لأنه لم يستطع ان يغير نفسه ، بل لآن بلاده كانت في حال لا يمكن تغييرها ، ولم تكن فيها الكفاية للاضطلاع بالعبء العظيم الذي القاه على عاتقها ، وهو لم يكن يستطيع ان يعمل اكثر مما عمل ، كالرجل القوي الذي ذكر في اساطير اليونان وقدر له ان يغالب القدر الذي لا يغلب ، ولو كانت لديه من المقدرة في علم النفس بقدر ما كان عند الرئيسين تيودور روزفولت وفرنكلن روزفولت ، لبق كذلك من المحتمل ان يكون معرضاً للخطأ والاختفاق ، لأن عجز الولايات المتحدة عن فهم ضرورة انشاء عصبية الامم كان شيئاً متأصلاً فيها ، ولا يمكن ازالته مهما يبذل الداعي الى ذلك من ضروب المهارة والحدق ، واذا كانت حجة ولسن اقل قوة وصلابة ، فان نفوذه المعنوي كان اعظم اثرأ وابعد غاية ، واذا كان قد اخطأ فذلك لأنه كان يعرف الكتب

أكثر مما يعرف الرجال ، وكان كثير الاعتماد على حرية الفكر ، حتى انه اراد ان يجرد العقل من العاطفة ، وفي الحق ان كثيراً من العلماء يخطئون .

على ان كل ما يقال في اغلاط الرئيس ولسن قد طوي معه في الحدة ، ولا تستطيع ان تبعته الصرخات المدوية المنبعثة من ارجاء العالم ، وليست الشخصية القلقة احياناً هي التي تخلد الآن في النفوس ، ولكن الرجل السياسي الذي كان يسمي ، كما قال ، لمواجهة الحقائق وحدها ويجنب مظاهر المجاملة المزخرفة ، والذي اراد ان يخرج السياسة الدولية من اساليب التسلط والارهاب والديسيسة والخداع والاستتار ، ويدخل في خططها وتقاليدها شيئاً امنع من القوة واجل من المنفعة واثبت من سياسة التوازن وعقودها المزمة ، شيئاً يفصل في الخصومات ويحمي حمى السلام ويصون حقوق الشعوب ويساوي بين الاقوياء والضعفاء : ذلك هو الحق العام الجديد الذي مازالت تحن اليه الانسانية كما تحن الى الخيالات والاحلام والأمانى والذي لا تطلع شمسه فجأة — كما قال ولسن — ولكن تسير على مهل فتبدد الظلمات حتى تملأ السكون بضياءها .

٢ — حرب سنة ١٩١٤ ومسؤوليتها

عاشت اوروبا قبل حرب ١٩١٤ في صالح مسلح ، ونشأ رجال سياسيون حديثون وتضاءل شأن الملوك في السياسة ، واستفحل امر الاحزاب ولاسيما الاشتراكية المثارة على النظام والمعادية للحروب التي تشنها الحكومات ، وتحول الفن العسكري تحولاً عظيماً انتجته الثورة الصناعية فخافت الدول عواقب الحرب وتنادت الى عقد المؤتمرات الساعية وازام المحالفات العديدة ، ثم كانت سياسة ادورد السابع التي دعيت بسياسة التطويق للامانية وجاءت على اثر سياسة التردد بين صداقة المانية ومعاداتها ، وبعد ان كان بعض وزراء بريطانيا مثل شبرلن الكبير يدعو الى عقد معاهدة بين الشعوب التي تنحدر من اصول جرمنية : انكلترا والمانية والولايات المتحدة ، جاءت محاولة غليوم الثاني في تشييد سياسة عالمية ، اساسها التحريض على انكلترا وعلى اسطولها البحري ، حتى ان الاميرال تربز

الذي وصفوه بالرجل العجيب كان يدعو الله ان تمتد به الحياة حتى يرى خاتمة تسلط انكلترة على البحار ، وكان الاسطول الالماني الناشئ يريد ان يكتب في سجلات مفاخره معارك الانتصار على الاسطول البريطاني ، واصبح مستقبل المانية على سطح البحر ، وتغلبت سياسة الاسطول على كل سياسة ، حتى ان دوبيلوف كان يتعامل في كتابه من تربتز الذي كان يمنع الامبرطور من الاصفاء الى السياسة التي ينبغي اتباعها نحو بريطانيا ، فقد كان الامبرطور غلبوم يعير سمعه الى كل شيء الا الى ما يقال في شأن الاسطول وما يتصل به ، حتى ان حبه لسفنه ودوارعه دفعه عن الاستفادة منها في اثناء الحرب ، فاشجى بذلك قلب منشئه (تربتز) الذي وقف عليه مضاء وجهده وحياته ، وكان الاساتذة الالمان ينتقدون الامبرطورية الانكليزية التي لم تؤسس على قواعد المنطق ولكن على فرص التاريخ ، ومع ان التوازن الدولي كان سائداً فقد كانت الخشية من التوسع الالماني عظيمة ، حتى ان رجلاً مثل بلفور كان يتحدث بمبادأة المانية القتال قبل تمادي خطرهما ونمو اسطولهما وازدياد تجارتها ، وهو يرى خوض غمرات الحرب ايسر على الشعب البريطاني ، من ان يقاوم المانية بالاكثر من العمل والحط من مستوى المعيشة والرغد .

وكانت فرنسا تعيش في ظلال الانتقام منذ سنة ١٨٧٠ ، وقد اعرب بول بورجه في ما كتبه سنة ١٩١٣ عن الآراء السائدة عند فريق من المفكرين لا عند العسكريين وحدثهم فقال : ان جيلا مارس الحروب وخاض الغمرات يورث خلفاءه فضائل الذكاء العظيمة التي تنمي عادة الحزم والنظام في معالجة الامور الخطيرة والوقوف في وجه الموت ، والفن والادب يأخذان من النظام ومن رقابة الطاعة هذا الجذ ، وهذا الاندفاع ، وهذا التصميم ، وهذا الشعور بالحقائق - تلك الصفات العسكرية الممتازة التي اذا نقلت الى مجال الفكر كونت المنشئين الحقيقيين والمنشآت الصحيحة ... ويا بؤس الشعوب التي ليس لها تاريخ ، والتي تتمثل باقوال الجناء ، فهي لاتعرف هزة البطولة في ساعة الخطر ، ولادنت منها منذ عهد طويل ... وصغار الاحلام الخيفون الذين يدعون الى السلم - هؤلاء الخياليون الذين لا يشك بدعوتهم

الى انحطاط النفس وافساد الروح - هذه الرذيلة البرنطية التي رجف عندما نظن انها ستنتشر في فرنسا ، وما اكثر ماترتاح نفوسنا وتطمئن صدورنا عندما نرى انه لن يكون شيء من ذلك ... فالحرب هي في الحقيقة ناشرة مقدسة ، وفكرتها وحدها كافية لائن تبعث في الشعوب النفس القومية بعثاً صحيحاً .

هكذا كانت اورية عندما فاجأتها حادثة ولى عهد النمسة ، فلو قدت نار الحرب التي بقيت الوسيلة الوحيدة لحل القضايا الدولية ، وكان حرق حياد البلجيكي هو السبب المباشر لاشتراكها في الحرب ، والمذكورة التي ارسلتها يومئذ المانية لبلجيكية من الوثائق التاريخية فقد ورد فيها ان الحكومة الالمانية تلقت انباءاً وثيقة عن استعداد فرنسا لاختراق البلجيكي ومهاجمة المانية من هذه الانحاء ، ولا تشك الحكومة الالمانية بانه اذا لم تنلق البلجيكي المؤازرة في حينها ، فانها لا تستطيع معها حسن نيتها ان تنجح بمقاومة الفرنسيين ولا ان تدفع عن المانية الخطر الذي يستهدفها ، والواجب الحتم على المانية هو ان تدافع عن كيائها وعن بقائها ، وان تدفع ما يهددها من خطر هجوم العدو ... والحكومة الالمانية تأسف كل الاسف اذا كانت البلجيكي ترى من العدوان عليها ان تتخذ المانية الوسائل التي اجبرها عليها اعداؤها الذين يريدون اجتياز حدود البلجيكي ... ورغبة في ازالة كل وهم فالحكومة الالمانية تعلن انها لا تريد ان تقوم باي عمل عدائي في بلجيكية ، واذا وقفت هذه الدولة موقف الحياد الودي فانها تضمن لها سلامة اراضيها واستقلال بلادها وتنزع عنها عند عودة السلم ... واذا وقفت موقف العداء واراقت ان تحول دون تقدم جنودها وان تقاومهم بحصونها ، فهي آسفة لانها تضطر ان تتخذها عدوة ... وهي بهذه الحال لا تستطيع ان تتمهد لها بشيء وتدع تنظيم العلائق بين الدولتين الى ما يكون عليه حكم السلاح ، والحكومة الالمانية تؤمل كل الأمل ان لا يقع شيء من ذلك وان تبقى صلات المودة التي تربط الدولتين الجارتين على حالها .

وقد اجابت حكومة البلجيكي ان هذه المذكرة قد اثارته لديها عجباً الى عميقاً ، وازافت قائلة : ان ما يعزى الى فرنسا يخالف تأكيدها ، وهي اذا فعلت

غير ما ينتظر فان بلجيكية ستقوم بجميع واجباتها الدولية ، وسيقاوم جيشها المغيرين اشد مقاومة ... وان بلجيكية التي ضمنت الدول استقلالها وحيادها ، مقيمة على الوفاء بما عاهدت عليه من عقودها وحسن الاداء لواجباتها ، وهي لا تقصر في عمل يصون استقلالها ويحمله محترما ... والتعرض لاستقلال بلجيكية وتهديد المانية اياه انتهاك صريح لحقوق الدول ، ولا يوجد سبب عسكري يسوغ هذا الانتهاك واذا قبلت الحكومة البلجيكية المقترحات التي عرضت عليها فهي تضحي بشرف الامة وتقدر بواجباتها نحو اوروبا ... وبلجيكية المطامئنة الى ما بذلت في سبيل الحضارة منذ ثمانين سنة تاتي ان تعتقد ان استقلالها لا يحافظ عليه الا بانتهاك حرمة حيادها ... واذا خاب ما تؤمله فان حكومة البلجيكيك مصممة كل التصميم على المقاومة بجميع مالهيا من الوسائل لكل اعتداء على حقوقها .

اما ما ذكر من احتمال اجتياز الجيوش الفرنسية حدود البلجيكيك فقد ثبت في بعض الوثائق التي نشرت بعد الحرب ، ان المسيو بوانكاره عندما كان في رئاسة الوزارة سنة ١٩١٢ كتب الى سفير فرنسا في لندرة بولكميون ، يذكر احتمال مهاجمة فرنسا لبلجيكية اذا نشبت حرب بينها وبين المانية واضطرت لمقاتلة جيوشها ... ويقول بوانكاره انه من المهم ان لا تبقى انكلترة محايدة بين فرنسا والمانية وان كنا البادئين ، ولاجل ان لا نذكر الامثلا واحدا ، هل يمكن ان نعد من وجهة شرعية مسؤولين عن اعتداء ما ، اذا غبأت المانية جيشها في انحاء اكس لاشايل ، وحملتنا على حماية حدودنا الشمالية باخترق ارض البلجيكيك ... ومثل هذا الموضوع الخطير ما كان ينبغي ان يسجل في وثيقة سياسية بل ان حديثا بين الرئيس والسفير كان يقوم مقامها بدون ان يبق له اثر .

وكانت ايطالية في اثناء محالقتها لالمانية لا ترغب بان تغلب فرنسا مرة اخرى ، وتعد ذلك مضراً بالمصالح الايطالية وخطراً عليها ، واذا استطاعت المانية ان تسحق فرنسا في حرب جديدة فان ذلك يؤدي الى اوضاع مصطنعة مفرطة ، وهي تكون بسبب ذلك موقته وزائلة ، كما كان يجري في عهد نابليون ، واذا تم مثل ذلك اختل

التوازن الذي كانت تحرص عليه ايطالية ، ولذلك لم تكن تقطع علاقتها مع لندرة وباريس ، وهذا ما لم يكن يرضي المانية التي كانت تريد من الحرية لخطتها واساليبها ماتسكبه على حليفها ، حتى ان دلکاسه اعلن في مجالس النواب الفرنسي ان ايطالية مسالمة لا تشترك في اي اعتداء على فرنسا ، وكان موقف المندوبين الايطاليين في مؤتمر الجزيرة اقرب الى انكلترة وفرنسة ، وخلاصة ما يقال في سياسة ايطالية قبل الحرب انها كانت تستعين بالتحالف المثلث لتحقيق خططها وتعزيز قواها ، وتعمل على مقاومة النمسة التي كانت تتصاعد بسبب نمو الفكرة القومية وتعاظم شأنها ، وقد كانت ايطالية كما قال شاتوبريان في زمانه - رغم سلاسلها فاضحة للحرية . وكاد هذا التنازع بينها وبين النمسة يحمل هذه على قتالها في اثناء الحرب التركية بعد ان ذهبت فرصة الزلازل ، وقد عارض في ذلك الامبرطور فرنسوا جوزيف معارضة سلبية اكثر منها ايجابية ، كانه وحده بين طبقته كان يرى المبادئ الاخلاقية ليست امراً لا قيمة له ، والايطاليون ينتحلون اعتذاراً كثيرة لانقلابهم على حلفائهم ومحاربتهم في صفوف اعدائهم سنة ١٩١٥ ، ويقولون ان التحالف الثلاثي كانت غايته دفاعية وان المادة السابعة تنص على وجوب اتفاق النمسة وايطالية في شؤون البلقان ، على ان النمسة منذ سنة ١٩١٣ كانت تنوي الاعتداء على الصرب ، وقد عارضت بذلك رومة معارضة شديدة ، فلما اعلنت النمسة الحرب على صربية ابلغت ايطالية انكلترة وفرنسة حيادها كما ابلغت ذلك الى حليفاتها ، وهم يقولون ايضاً ان بسمرك كان عقد مع روسية ميثاق التضامن المتبادل في وقت كانت فيه الحرب محتملة الوقوع بين روسية والنمسة ، وقد زاد في خطر هذا الميثاق انه ابقى سرّاً مكتوماً ، على حين ان التحالف الثلاثي كان يقضي باطلاع رومة وفينة على كل اتفاق من هذا القبيل - ولكن ايطالية وحدها مكيفلية ! .

اما مسؤولية الحرب ، فقد تضاربت الآراء فيها واراد الحلفاء ان يلقوا على المانية تبعها وجعلوها تسلم بذلك كرها في معاهدة فرساي وقد اصرت بعد ذلك على التوصل منها ، وفي الحقيقة انه كان لسكل دولة سبب في الحرب وكان الرؤساء

جميعهم مسؤولون في ايقاد نارها : وقد كان الجنرال شليفن يحدث البرنس دو بيلوف منذ سنة ١٩٠٤ ويقول له : ان الحل الوحيد من الواجهة العسكرية هو حرب عاجلة مع فرنسا ، فان انكسرة لاتزال ضعيفة بعد حرب البوير ، وروسية تقاتل في اليابان وفرنسة في عزلة ، وقد ثبت بعد ذلك ان الرجل السري العجيب هولشتاين هو الذي اوحى بهذه الفكرة للجنرال شليفن رئيس اركان الحرب في الجيش الالماني ، فاعترف بانه عندما زال الخطر من مشاطرة انكسرة للتحالف الروسي تغلبت عليه خطة كسر الدائرة قبل ان يتم اغلاقها ، وانه ينبغي كسرها باشد حزم واوى ارادة لاتراجعان امام اعظم الاخطار ، وهذا ما حمل القيصر على السفر الى طنجة ، وفي هذا الزمن ارتأى شليفن رأى الحرب — حرب الوقاية ، ولكن هولشتاين نفسه قال بعد ذلك انه قد ظنر له ان مثل هذه السياسة امر مستحيل ، لان الامبرطور لا يستقر على حال .

وقد اجمع الرأي في المانية على ان تأثير هولشتاين كان مضرآ في عهده الطويل المكتنف بالأسرار ، وكان له في فرنسا رجل غامض ينافسه ولكن بدون ان يكون مثله محفوفاً بالأساليب العجيبة ، وهو دلوكاسه الذي كانت الآراء منقسمة في شأنه ، ولكن مبها كان من أمره فاي فرنسي لا يستحسن سياسته التي ادت الى توثيق العرى بين فرنسا وايطالية ، والى ابرام الاتفاق الودي مع انكسره ، واذا كان قاب المخافات وتغييرها مفخرة عظمي في عهد فردريك فلماذا لا يكون ما قام به دلوكاسه جديراً بالاعجاب ؟ نعم ان رجلين : بارر في رومة وبول كميون في لندرة هما اللذان بلغا من هذه السياسة غايتها ، غير ان دلوكاسه حقق باعظم الفخر لانه شد ازر معاونه في افهام باريس ان الاتفاقات الخطيرة لاتتم بدون تضحية ، وهذا هو سر السياسيين المسلكيين الذين الفوا الصمت والذين لا يهتمهم من النجاح ما يترك الدوي وراءه ، وقد الفوا العمل اغايات لا يجهلون ان حكوماتهم هي التي تحمي ممراتها على حين ان اللوم والاستنكار انما يقع عليهم ، ومع ذلك فلا ينكر ان دلوكاسه كان يبالغ في تقدير نفسه ، وبماهي بما يذكّر من اسمه الكبير في اثناء تأليف الوزارات ، وقد اراد في ايامه الاولى ان يكون معاونآ في بعض القنصليات فاحفقي ، ولكن كتب

له شأن كبير في مزاوله السياسة ، وقد مرت به مصاعب كثيرة وازمات عديدة فلم ينجح في ازمة فاشودا ، وبينما كاد يقود الى الحرب ببعض بياناته ، لم يحسن اغتنام الفرصة التي كان يريد فيها سلسبوري ان يخرج نهر الغزال من الخلاف الانكليزي الفرنسي ، ولم يستفد من هذا الاستعداد للتساهل ، وقد اخطأ كذلك خطأ آخر وهو عدم حمله روسية على اجتناب حرب اليابان ، فان كثيراً من كبار الروس يومئذ مثل الكونت ويت كانوا يمتقدون بان معارضة الحكومة الفرنسية كانت تحول دون الحرب ، ولكن نقولا قيصر روسية انقاد لتحريض غليوم الثاني على العرق الاصفر وتحذيره من خطره ، ولعل ذلكسه كان يتوقع انتصار الروس الذي من شأنه ان يعزز التحالف الروسي الفرنسي ويعلى كلمته .

وقد يكون ذلكسه مثل هواشتاين لم يخش من التخويف بالحرب لاجل دعم سياسته ، حتى انه خدع بمعارضه الانكليز في كتاب « لنسدن » الذي كان يرمي الى تسوية المشكلات المتعلقة واجتناب الامور المعقدة ، فعذلك عرضاً للتحالف ، ولما هدت المانية واشتد الخلاف بين ذلكسه وبين رئيسه روفيه ، كان بطن ان المانية غير جادة في تهديدها بصد روفيه الذي كان يرى فيه الجد ، وبعد ان اضطر الى الانسحاب كان يتهم ذات اليمين وذات الشمال حتى انه اتهم روفيه وكنس و بالخيانة ، ولكن المانية لم تحسن اغتنام الفرصة ولم تسهل مهمة خلف ذلكسه في وزارة الخارجية ، بل انها اخرجته ولم تستفد من انتصارها السياسي الاستفادة المقرونة بالكرم والنبل ، واخذت تعلن وتباهي به ، حتى قيل ان هولشتاين ذهب الى باريس ليقتطف ثمار انتصاره هو ويولوف .

وكان بوانسكاره قد قام برحلة الى روسية وعاد الى بلاده معجباً بما شهده من قوة الجيش الروسي ، وانكر على ماني وزير الداخلية ما يخامرهم من ريبة بهذه المظاهر على ان روسية الفت ان تبهر الانظار بما تظهر به في بطرسبرغ ، حيث توجد على الدوام الفياق المنتخبة ، ولوانه بحث في دخيلة الجيش الروسي وبما تستطيع روسية ان تقدمه ، ربما كانت النتيجة شبيهة بالبحث الذي قام به ملحق بريطاني ذات مرة

في دور صناعة البحر الاسود فوجدها خالية خاوية ... فمن الخطأ ان يعتقد بما يراه في تلك البلاد ، وقد نسوا في باريس انه قلما تكون القوة حيث يكون الظلم ، وقد كان ارتهال وزير النمسة ابعده نظراً فانه عندما رجع من سفارته في روسية كان واثقاً من ان قوة آل رومانوف موهومة ، وهذا سر نجاح سياسته الجريئة في البلقان .

وعلى كل حال فان فرنسا كانت تشعر بانها مهددة ، فلما اعلنت الحرب وسحب الجيش الفرنسي مدى عشرة كيلو مترات ابتسم الالمان لهذا العمل الذي لا يقدم ولا يؤخر في الحرب ، ولكن الشعب الفرنسي ايقن انه مهاجم في عقور داره : اما المانية فكانت تخشى سياسة التطويق ، وكان يتمن هولوغ يقول في وصف السياسة الانكليزية المعادية لالمانية : ان انكلترة تتبع سياستها التقليدية في مقاومة كل دولة يتعاضم خطرها في اوروبا ، على حين ان سياسة المانية البحرية كانت تجعل العالم يشعر بان المانية تريد ان تبسط سيادتها في اقطار الارض ، اذ هي اقوى دولة عسكرية وتريد في الوقت نفسه ان تصبح اقوى دولة بحرية .

اما التبعة الملقاة على عاتق النمسة في الحرب فهي تبعة قصر النظر والعجز عن ادراك الآراء الجديدة ومسايرتها ، ولكنها على كل حال تبعة داخلية . وحرب سنة ١٩١٤ هي حرب ميراث النمسة ، وقد شاركتها المانية في هذه التبعة لانها كانت تخشى ضياع النمسة ، على انه كان ينبغي ان تعلم ان النمسة قد قضى عليها ، وقد خسرت ما خسرت بسبب هذا الخطأ ، واذا اعتبرت سياسة بسمرك انها لم تخل من مسؤولية بسبب الرغبة في المحافظة على النمسة ، فان هذه السياسة كان لديها من الموارد والمصادر ما يذلل لها الصعاب ويجنبها الاخطار ، فقد كان بسمرك يعلم ان المانية قانعة بما احرزته ، وانها تأبى مشاركة النمسة في اى سياسة اعتدائية في البلقان ، وتحاذر ان تجعل روسية تعتقد بان المانية تصدها عن طريق القسطنطينية ، ولكن الذين خلفو بسمرك ماعدا هو هملوه ساروا بضد رأيه ، في كل أمر من هذه الأمور .

وقد نشرت بعد الحرب وثائق كثيرة لا يمكن الاستدلال بها على مسؤولية

دولة معينة ، حتى ان المستر لويد جورج قال في مذكراته ان الحرب لم يرددها احد كما ثبت الآن ، واستثنى برختولد مستشار النمسة ووصفه بالاحق الذي يحمل التبعة الكبرى فيما حدث ، وكان رجال الدولة في النمسة يريدون حرباً صغيرة تشن على شعب صغير فتعيد للنمسة نفوذها وكرامتها ، وذكر انه لو كان بسمرك في المانية وبلهرستن في انكلترة وتيودور روزفلت في امريكا وكلمنسو في فرنسا لا يمكن اجتناب الحرب ، ام الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور مثل بتعن هولوغ وبوانكاره وفيفياني وبرختولد وسازونوف وغراي ، فقد كانوا رابين بارعين لهم تجربة وصدق وحرمة ، ولكن لم يكن لديهم من القوة والمقدرة وبعد النظر وسعة الرأي ما يعين على انقاذ الموقف ، وقد زاد في اشتداد الازمة وخرجها وجود رجل في المانية ، عظيم ، ضعيف ، مغرور ، اناني ، فشلت المساعي التي كان يبذلها غراي لعقد مؤتمر اوللاستعانة على النمسة بألمانية ، وعلى روسية بفرنسة وعلى الصرب بروسية... واذ لم يكن احد يريد الحرب ، فان شعور العناصر العسكرية وخاصة في المانية كان له تأثير كبير ، ولم يكن في انكلترة حزب عسكري ، ولكن المخاوف من الحرب هي التي كانت تؤثر في نفس الشعب الذي كان مع ذلك يستنكر الكاتبة استنكاراً عاماً .

ولما بحث لويدجورج في مذكراته تلك عن دخول الحرب ، قال : يقبل الشعب بحماسة على كل حرب في بدءها ويهتف لها ، وقد قال والبول عندما اضطر الى زج بلاده في احدى الحروب : انهم يقرعون الاجراس الآن ولكنهم عمال قليل سيقلبون الاكف . وكنا نتساءل بمد الانذار الذي وجهته بريطانيا الى المانية اذا كانت تقدر ما يجره عليها من البلاء وقوف الامبرطورية البريطانية في جانب خصومها ، وما قدرناه حينئذ عرفناه اليوم حقيقة ، فكثير منا لم يكونوا يستطيعون ان يعتدوا ان المسؤولين عن مصير المانية بقوهم الغرور حتى يثيروا هذه الامبرطورية وقواها التي لا تفقد ، وعنادها الذي لاحد له متى اخذت عدتها وخاضت غمرات القتال .

٣ - تطور الآراء في اثناء الحرب

مقترحات الكنيسة والبلشفيك والولايات المتحدة

كانت احوال الحرب ونكباتها داعية الى انتشار الآراء السامية والمباديء

الانسانية ، فاتجه الكثيرون الى المساعي التي تجعل الشعوب تؤمل ان تكون حرب سنة ١٩١٤ آخر الحروب ، وان تقوم في الناس قواعد سلم عادل دائم يعطى فيه كل شعب حقه في تقرير مصيره ، وكانت دعوة الكنيسة وثورة روسية ومقترحات الرئيس ولسن التي خطف بريقها الابصار في رهج الحرب ، وهذه المظاهر الثلاثة هي التي نبحث عنها في هذا التطور الفكري .

اما الكنيسة فقد كان يزعم انها تميل في اثناء الحرب الى انتصار دول اوربة الوسطى ، والحقيقة في ذلك انه اذا كانت الكنيسة قد ماتت بعض الميل في بادىء الامر لانتصار هذه الدول ، فانه لم يكن ذلك بغضاً بانكلترة البروتستانتية وفرنسة الالمانية وايطالية الحرة ، ولكن خشية من التوسع الروسي الذي لم تكن تطيقه ، وهي لا ترضى عن وصوله المحتمل الى القسطنطينية ونفخه روحاً جديدة في البطيرر كية المسكونية والمذهب الارثوذكسي الذي لم يزل منافساً للكاتوليكية منذ القرن الثالث عشر ، فانتصار القيصرية الروسية الارثوذكسية اشد خطراً في نظر الكنيسة من انتصار البروتستان والاييك والاحرار .

نعم ان البابا بنوا الخامس عشر اقترح سنة ١٩١٧ ان يعقد السلم على ان تقوم القوى المعنوية مقام القوى المادية في الصلات بين الدول ، وتحديد السلاح ، وحرية البحار ، والتحكيم ، والتنازل عن دفع كل غرامة ، الا احياء البلاد المحتلة ، وضمان استقلال بلجيكة واعادة المستعمرات الالمانية ، وتسوية المشكلات المعلقة بين النمسة وايطالية وبين المانية وفرنسة طبقاً لرغائب الاهلين ومصالحة السلام ، وتسوية القضايا الارمنية والبلغانية والبولونية طبقاً للقواعد السالفة ايضاً ، وفي ذلك انقاذ لشرف الجميع : ولكن خيبة هذا الداعي كانت عظيمة ، فانكرته المانية ، وانتقدته فرنسة ، ورد عليه الرئيس ولسن بمذكرة قال فيها : انه يبقى كل شيء على ما كان عليه ولا يعين على تشييد صرح السلم على اسس قويمة عادلة . وكان يظن ان البابا على وفاق مع المانية فيما دعا اليه ، ولكن ظهر بعد ذلك ان النمسة لم تكن غريبة عنه ، وكان يراد التعويض على آل هيسبورغ بعرش بولونية ، اما اذا تخلت المانية

عن الانزاس فان بولونية تكون تعويضاً لها ... ولما كان يقال للبابا في اثناء الحرب انه يراد الاستفادة من نفوذه كان يهزأ بقوله : عجيب ان يبحث عن نفوذنا الذين يحاربون كل نفوذ لنا .

وكانت معاهدة برست لتوفسك بين المانية وحلفائها وروسية السوفيتية التجربة الاولى للنزاع بين الاسلوب القديم والحديث ، فقد اصرلن على الاسراع بالمفاوضات السلمية بمد ان انتصرت الثورة الشيوعية ، ولكن تروتسكي كان يريد التأجيل والتسوية لاكتساب الوقت ، وقد ارسل في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بياناً الى جميع المتحاربين يدعوهم فيه الى عقد السلم على اساس ديمقراطي بدون الحاق ولا غرامة ، ولكن على اساس الاعتراف للشعوب بحقوقها في تقرير المصير ، ولم يكن لحكام روسية الحديثين اقل اهتمام بحلفائهم ولم يضعوا امام اعينهم الا البقاء في الحكم والاحتفاظ بسلطتهم المطلقة ، وكان يأمل تروتسكي عقد هدنة تكون وسيلة لاعلان الثورة في جميع الميادين ، ولما لم يجد عند الحلفاء ما يريد كسر خزائن وزارة الخارجية التي لم تسلم له مفاتيحها واخذ بنشر المعاهدات السرية والوثائق الخبئة ، واعان هو ولنين بياناً الى العمال والجنود والفلاحين ذكروا فيه ان البلشفية اخذت على عاتقها ان تحمل لواء السلم وتدعو اليه امام طبقات العمال في العالم كله .

وفي ٢٢ تشرين الثاني عطلت جميع الاعمال العسكرية من البلطيك الى البحر الأسود ، وبعد ان انتظر البلشفيك طويلاً موافقة المانية على المبادئ الاساسية التي وضعوها للسلم ، واملوا ان تساعد في الحالة الداخلية في المانية على ادراك ما يريدونه قال تروتسكي بعد ان كشف له القناع عن نيات هذه الدولة : ان فون كها من قانع بان المبادئ التي ننادي بها ليست الا خدعاً للجهاير ، واننا في حقيقة امرنا نسلم لالمانية بما تريد السيطرة عليه من بلاد وشعوب ... وعندما كان تروتسكي يجتاز الرسوم الدارسة لخطوط الجيش القديمة كان الجنود الذي ثملت نفوسهم بالثورة والفوضى ينادونه : اننا نريد السلم على كل حال ... ومهما كلف الامر : وكانت ساعة مؤثرة للزعيم السوفيتي ، فبحث في قرارة نفسه عن كلمة تؤثر عنه ، وقال : ان العمال

والفلاحين والجنود لم يفكوا رقابهم من سلاسل القيصرية ، اضعوا فيها سلاسل اخرى — هي سلاسل الجبروت الالمانى .

ولما التقى الفريقان جماعة الثورة الروسية ودعاة السياسة العنيفة في الدول المركزية بقيادة الجنرال هوفن وكهاين وكزرنين وطلعت باشا ، ابتداء الروس كلامهم كانهم الغالبون فاحتج هوفن على هذه اللهجة التي تجاهل اصحابها وجود الجيوش الالمانية في البقاع الروسية وضرب بيده على المنضدة ، فوقف وكيل الشعب في وزارة الخارجية وعلى شفثيه ابتسامة المهزوء والسخرية وقال : نحن لانريد ان نشترك في الحروب الاستعمارية ومعارك الفتوح التي تسفك فيها الدماء في سبيل مطامع الطبقات المالكة ، وانا نستقبل بنفس العناد دعاة الجبروت في المعسكرين ، منتظرين الساعة القريبة — وقلوبنا ملؤها الامل — التي تقبض فيها الطبقات العاملة الدائبة المضطهدة على ازمة الحكم في جميع البلاد ، كما فعل الشعب العامل في روسيا ، ونعلن الآن ان الشروط التي تقترحها علينا الحكومات الالمانية والنمسية والمجرية هي على طرفي نقيض مع منافع جميع الاعمم ، ونرفض هذه الشروط الاستعمارية التي تكتب باطراف السيوف على اجسام الشعوب .

لقد دهش مندوبو الدول الوسطى لدى سماع هذا الكلام ، وقد عبث تروتسكي بدهشة مخاطبيه ، واحسن انتقاء التهم الذي لم يسبق له مثال ولم يعرض في خاطر ، وكان اعجابه بما قاله بالغاً حده حتى انه كان ليعيده كلمة كلمة امام سوفيت بتروغراد ولكن لنين لم يكن من رأى تروتسكي في امر السلم ولا موافقاً على هذه الاَساليب الكلامية ، وقال : ان سياسة رفض السلم التي تقترح علينا قد تكون مفيدة للرجل الذي يريد ان يسطم نجمه من غير ان يهتم بنسبة القوى بعضها الى بعض بين الطبقات . اما الالمانية فقد استأنفت حملتها بعد ذلك واخذت تحتل ماتريده بدون ان تجدم مقاومة ، وهذا مالم يكن يعتقد به تروتسكي . ولما رأى لنين تردد السوفيت بقبول تلك الشروط المهمة الخيرية الثقيلة هدد بالانسحاب ، وقال : نعم ان شروط الالمان لا نطاق ، ولكن على من نستطيع ان نعتد ؟ وقد يقال ان هذا السلم مرذل لنا ، فاجيب نعم انه مرذلنا

اضافا ، ولكن لا نستطيع الا قبوله . فنزل السوفيت حينئذ على ارادة زعيمهم ولكن تروتسكي ظل مستنكفا وبرر موقفه بقوله : الآن تقف المانية في جبروتها وسلطانها امام العسكرية الانكليزية والفرنسية والامريكية ، وهذا وحده يبرر السلم بين روسيا والمانية ، ومن الواجب ان نستفيد من هذا الموقف ، فمصلحة الثورة هي القانون الاعلى الذي تدعئ له ، ولما كنا لا نستطيع ان نرفض هذا السلم فعلينا ان نتقبله وان نرتاح قليلا منصرفين بجميع قوانا الى العمل في داخل البلاد ، ولا سيما انشاء الجيش ، ومتى اصبحتنا اقوياء فانه يجب علينا ان نحارب المانية ، متفقين مع عامتها الناهضة .

وكان تروتسكي كتب في اثناء المفاوضات رسالة الى انين قال فيها : انما نقرر ان الحرب انتهت ، ولكن لا نعتقد سلمي ، اذ من الحال ان نوقع السلم الذي يعرضونه ، فقد اتفق الالمان مع الحكومات الموهومة القائمة في بولونية ولتوانية ولتونية فيما يتعلق بالتنازل عن بعض الاراضي ويتعلق بالاتفاقات العسكرية والبحرية وغيرها ، واذا نظرنا الى هذه المناطق من حيث مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ومن حيث التكوين الالمانى نفسه ، فاننا نراها قد اصبحت منذ الآن بلاداً مستقلة ، وقد وقعت بهذه الصفة اتفاقات جغرافية مع المانية والنمسة ، ولما فاجأهم اليوم بهذه الحجج ، جاءت اجوبتهم واضحة لا تدع مجالاً للشك ..

هذا وان رعى الحرب لا تزال دائرة في الميدان الغربي ، فماعلينا الا ان نقرر انتهاء الحرب ولكن بدون توقع صلح .

وفي اثناء النضال في مؤتمر برست ليتوفسك ، اطرى الرئيس واسن موقف الروس بالشفيعك واثى على صدق نياتهم في رفض صلح لا يقوم الا على الفتح والاستيلاء ، وذكر ان مندوبهم كانوا على حق وصواب واتفاق مع روح الديمقراطية الحديثة ، باصرارهم على ان تكون مفاوضات المؤتمر علنية يشهد بها من يريد ، لا ان تغلق دونها الابواب وتعقد في سلكامن الاسرار ، وقال :

لقد غلب الشعب الروسي وهو الآن بدون عون امام القوى الالمانية التي لم تظهر

بعد تسامحاً ولا رحمة ، واذا كانت قد كسرت قوة ذلك الشعب فان روحه لا تزال
بعميدة عن الوقوف في مواقف الهوان ، وهو لا يريد ان يستسلم لامن حيث المبدأ
ولا من حيث العمل ، وقد اعرب بصراحة واخلص وبعد نظرو علورأي وتضامن
عام ، يستحق اعجاب كل صديق للانسانية ، عن قناعة فيما هو عدل وحق وفيما هو
انساني وشريف ، وابى ان يتنازل عن مثله الاعلى وان يستسلم لغيره حتى ينقذ نفسه ،
وهو اليوم يناشدنا ان نعلن ما نريد ، وان نصرح فيما اذا كانت خططنا ونياتنا
تختلف بامر عما لديه .

فامنيتنا ورغبتنا هي ان نقود المفاوضات السلمية متى بدى بها على وضوح من النهار ،
بحيث لا يكون فيها سر تخفيه ولا اتفاق نطوي القلوب عليه ، فزمان الفتوح
والتوسع قد انقضى عهده ، كما انقضى عهد المعاهدات السرية التي تعقد لمصلحة هذه
الحكومة او تلك ، والتي تكون في الغالب سبباً لتعكير السلم في العالم وافساد امره .
والبرنامج الوحيد الذي قد يضمن السلام في العالم يكون في تحقيق المبادئ الآتية :

- ١ — اتفاقات سلم علنية .
- ٢ — حرية البحار .
- ٣ — إلغاء الحواجز الاقتصادية .
- ٤ — تحديد التسليح .
- ٥ — تسوية الأمور الاستعمارية بكرم وسخاء .
- ٦ — الجلاء عن البلاد الروسية .
- ٧ — الجلاء عن الباليك والتعويض عليها .
- ٨ — الجلاء عن الاراضي الفرنسية المحتلة واعادة الأتراس والورين .
- ٩ — تعديل الحدود الايطالية .
- ١٠ — تمتع الشعوب التابعة للنمسة والمجر بسيادتها .
- ١١ — الجلاء عن رومانية وصربية والجبل الأسود .
- ١٢ — استقلال الشعوب الخاضعة لتركية استقلاً ذاتياً .
- ١٣ — انشاء دولة بولونية ذات منفذ الى البحر .
- ١٤ — تأليف عصبة دول عامة على قاعدة المساواة بين الدول الصغيرة والكبيرة .

والمبدأ الذي ينبغي ان يسود هذا البرنامج هو العدل الموزع على جميع الأمم وجميع الشعوب قوية كانت ام ضعيفة ، واذا لم يتحقق هذا المبدأ فان بنيان المدل الدولى يتداعى من اساسه .

وكتب كزرنين وزير خارجية النمسة السابق عن مؤتمر برست ليتوفسك ، فقال : تم عقد الصلح في ٣ آذار سنة ١٩١٨ بين السوفيت وبين الدول المركزية التي انتهت حالة الحرب بينها وبين روسية ، على ان الاتفاق الذي كان وقع في لندرة ، في ٤ ايلول سنة ١٩١٤ بين فرنسا وبريطانية العظمى وروسية ، يقضى على هذه الاخيرة ان لاتعقد صلحاً منفرداً ، ولكن ثورة روسية واستيلاء السوفيت على مقاليد الحكم قلب الاوضاع في هذه البلاد رأساً على عقب ، وجعل المانية في حالة تستطيع ان تعقد سلم مع روسية ، وقد تبعها معاهدات اخرى بين المانية وفنلندة ورومانية واكرانية . وبحسب هذه المعاهدة تنازلت روسية عن نحو مليون كيلو متر مربع و ٦٣ مليوناً من النفوس ، وتخلت عن القرص والباطوم وجزر آلاند . واضيفت معاهدة ملحقة في ٢٧ آب من السنة نفسها ، خففت من شروط الأولى وتمهدت فيها المانية بان لاتدخل في شؤون روسية ، ولا في تقسيم دول البلطيك وتنظيمها ، ولا في جورجية وباكوة ، مع شروط اخرى تتعلق في بولونية ولتوانية وفنلندة . وكانت دول اوربة الوسطى قد اتصل بها منذ صيف ١٩١٧ انه من الممكن مصالحة روسية على انفراد ، وتلقت تقريراً في هذا الشأن من بعض البلاد المحايدة ، غير ان هذا الصلح لم يطل امره وقضى على شروطه في فرساي .

٤ — طائفة من اقوال الرئيس ولسن

السلام والشرف : المبادئ العزيزة التي اسست عليها حياتنا السياسية اعظم من السلام في عين الشعب الاميركي ، وهو في كل حين متأهب للدفاع عنها وصيانتها من كل اعتداء ومن كل اذى ، واني فيما يتعلق بي لايسعني ان ارضى مطلقاً ان تنتهك حقوق المواطنين الاميركيين ، ففي ذلك مايمس شرف بلادنا وكرامتها ، ونحن

ونحن نريد السلام ونحافظ عليه ، ولا نضن بشيء في سبيله ماعدا الشرف الذي هو اعز علينا منه .

الاساليب السياسية الجديدة : ان العبرة التي نستخرجها من هذه الأحداث المفاجئة والاحوال الخطيرة التي تمر بها الانسانية تتضح بجلاء يهر الميوت ، وذلك انه بعد الآن ينبغي ان يقوم السلم في العالم على اساس قومية جديدة ، فنشعر بان الحضارة قد اخذت تسوغ وجودها وتدافع عن حقها بالنصر النهائي . وجدير بالشعوب ان تحكم في مستقبل الايام بقانون الشرف الرفيع الذي ينقاد لمثله الافراد .

المستقبل : المستقبل القريب يجعلنا بدون اي تحول مستطاع نواجه امورا ملحة متعددة ، تمنحنا فيها قدرتنا على القيام في هذا العالم المقام الذي نطمح اليه... هذا المستقبل لا ينبغي ان يخيفنا ولكن ينبغي ان يسوقنا ويدفعنا الى بذل افضل ما لدينا من جهود ومرايا لملاقاته بصدق وعزيمة ، وليس في مقدور شعب ان يحیی في عزلة وانفصال اذا كانت حياة سائر الشعوب ومصالحها مهددة بالخطر ، وانا لنغتبط بمقدم اليوم الذي لا ينظر فيه الناس الينا مزاحمين باردين باعجاب يتجدد ، ولكن ينظرون الينا نفوساً كريمة تهتم بالانسانية لا بالمنفعة ولا الساطة المسائفة .

السلام الذي لا كراه فيه : السلام يجب ان يكون بدون انتصار ، وهذا امر لا يرغب فيه ، ولكي احب ان افق من الحقائق وجها لوجه ، بدون ضعف ولا مؤاربة ، فمعنى الانتصار هو السلم الذي تملى فيه على المنكسر شروط غالب المغلوب ، وهو يقبل في صفار ويتال باكره ، وتبذل في سبيله ضحايا مؤلمة ، وتبقى منه في النفوس حزازات وضغائن وذكريات مريرة ، وسلم كهذا السلم يقوم على مثل هذه الاسس هو سلم يبنى على شفا جرف هار ، اما السلم الذي يدوم ، فهو الذي يعقد بين جماعات اكفاء ، ويؤسس على قاعدة المساواة والاشترك في تبادل المنافع ، وكما انه من اللازم اتأسيس سلم عادل ، ان تقوم في الشعوب حالة نفسية عادلة وشعور بالانصاف ومحبة له ، فكذلك من اللازم ان يكون هنالك تنظيم حق لمشكلات البلدان ومشكلات الاجناس والشعوب ، وقدمضى الزمن الذي لا يرا فيه العدل الا في توزيع الحقوق ، فالذي يهم الانسانية هو حق الحياة لاسياسة الدول في التوازن .

السلم والحق : الحق هو اعظم من السلم ، ونحن نقا تل في سبيل الغايات التي ما برحت اعز شيء الى قلوبنا ، في سبيل الديمقراطية ، في سبيل اوائك الذين يطأطئون رؤوسهم للسلطان حتي تفتح في وجوههم المذاهب والمسالك ، في سبيل حقوق الشعوب وحررياتهم . في سبيل الحق الذي يدعي ان يسود العالم ، وان يؤسس على اتفاق الشعوب الحرة ، فيضمن السلم والطمأنينة لجميع الشعوب ، ويجعل العالم مجتمعاً بالحرية الهنيئة ... وفي سبيل مثل هذه الغاية نستطيع ان نبذل كرائم نفوسنا ونفائس اموالنا وكل مالدينا ، مفاخرين بأنه اقرب اليوم الذي تضحي فيه امريكة بدمها وقوتها ، دفاعا عن مبادئ اسس عليها بنيانها ، وعن الرخاء والسلام اللذين هما آمن ماتحرص عليه ، امددها الله بعونه فهي لاتستطيع ان تصنع الا الذي صنعتته .

الوسائل : ليس لنا ان نبحث عن الوسائل التي ليست هي الا صيغاً محبوبة رنانة ، فالوسائل العمالية لاتحل الا بوسائل عملية ، والعبارات قليلة الجدوى . الحرية : مامن شعب يمكن ان يكره على ان يعيش في ظل سلطان لا يريده ، وما من ارض يجوز ان تتداولها الايدي بدون ان يضمن لها نصيب عادل في الرغد والحرية ... وحينئذ فالشعوب الحرة تجتمع في عصابة ، وتتعاون بصدق وجد ، حتي تدشي قوة مجتمعة قادرة على صيانة السلم والعدل وضمانها في العلائق الدولية ، وحينئذ تصبح الاخوة الانسانية شيئاً غير انكلام المنمق الخاوي ، وتصنع منه حقيقة حية قوية ، وتشعر الشعوب بما بينها من صلة وتضامن . ويشد بعضها ازر بعض باخلاص ، حتي تجعل المصالح الحرة المشتركة بأمان من اعتداء الظلم والطغيان .

العلم : هذا الجمع الذي يضمنا هو للاحتفال في يوم العلم ، وهذا العلم الذي نجله ونكرمه ونعمل في ظلاله وافيائه ، هو رمز اتحادنا وسلطاننا وضميرنا الوطني ، وآمالنا القومية ... هو يخفق صامتاً في جلال فوق الجماهير ... في السلم وفي الحرب ، وهو في صمته يفصح عن بيان ، يحدثنا عن الماضي ، عن الرجال والنساء الذين سبقونا ، وعن التاريخ الذي كتبوه لنا في طياته ، وما اكثر ما شهد من الحوادث

الجسيمة منذ يومه الأول الى هذه الساعة ، وما كان عنوان فخاره من المخطط الموضوع لشعب كبير . . . وسنرفعه في معركة الغد عالياً فوق نيران الاعداء .

اليمن : اسأل الله ان يمدني بالحكمة وبالحذر ، حتى اكون قادراً على اتمام مهمتي وحسن القيام بواجبي ، كما يريد هذا الشعب وينطبق على نفسه ، وما انا الا خادم له ، ولست ببائع نجحاً اذا لم يؤيدني بثقته ويرشدني برأيه ونصيحته ، وكل ما اعتمد عليه واعتقد ان بدونه لافائدة من كل رأى وكل جهد ، هو اجماع اميركة واتحادها في عواطفها وفي تعيين واجباتها وتجديد الوسائل التي يجب القيام بها لخدمة الانسانية . . . ونحن جميعاً متحدون في القيام بواجبنا ، صادقون في عزمنا وعزائنا . . . نمد انفسنا للعمل العظيم الذي هو عملنا بعد الآن . اما انا فاسألكم ان تسامحوني وان تؤازروني ، وسينجلي عما قريب هذا الظلام الخيم فوق رؤوسنا ، ونسير في طرق واضحة نيرة اذا تمسكنا باخلافتنا وحرصنا على ما اعلنناه واشدنا به على رؤوس الأشرار ، ودعونا اليه كل من يحب الحرية والعدل والحق .

الحق يبق حقا : اذا اسىء استعمال الحق فهذا لا يمنعنا من حسن استعماله ، واصداقؤه الصادقون هم الذين ينبغي ان يرعوه ويحرسوه ، وعلينا يتوقف تشييد اركان السلم على اساس العدل والكرم ، وان نرد كل مطلب وامتياز تملها الانانية وان كانا لأجل الغالب .

النظام الجديد وحقوق الشعوب : نحن واثقون ان رغبتنا في انشاء نظام دولي جديديسود فيه المنطق والعدل والحرص على مصالح الانسانية هي رغبة جميع الرجال الرشيدين في جميع البلاد ، ويجب ان تنال الرغائب القومية الصحيحة كل ما يرضيها وبطمئنها ، فالشعوب والولايات لايجوز ان تكون بعد الآن في ايدي الحكومات كقطيع من الغنم او حجارة في رقعة الشطرنج ، وكل تسوية ارضية يجب ان تتم خيرا للشعوب المتعلقة بها ولما فيه مصلحتها ، لا ان تكون وسيلة للتسوية والتعاقد تراضى فيها الدول المتنافسة وتحقق اطامها ، ولايجوز ان تدار الشعوب وان تحكم الا برضاها ومشيتها ، وكل رجل دولة يتجاهل في المستقبل هذا المبدأ ، فان ذلك يعود عليه بالخسران .

الحق والقوة : ايكفى ان تكون السلطة العسكرية لدولة من الدول او لمجموعة من الدول ، حتى تسوي قضايا الشعوب التي ليس لها من حق عليها الا حق القوة ؟ وهل تبقى للشعوب القوية حريتها في العبث بالشعوب الضعيفة واتخاذها وسيلة لتحقيق ما تضعه من خطط وادراك ما تريده من منافع ؟ وهل تحكم الشعوب وتدار حتى في شؤونها الداخلية بسلطة عرقية غير مسؤولة ، وانهما تحكم وتدار بحسب رغبتها واختيارها ؟ وهل تكون هناك قاعدة عامة تحدد فيها حقوق جميع الشعوب وجميع الدول ، او ان الاقوياء يعملون ما يريدون ، والضعفاء يتألمون ولا يجدون من يستعينون به ويرجعون اليه ؟ وهل يترك الدفاع عن الحق للصدفة والمخالفات المبرمة ، ام يكون هنالك عقد عام يجبر على احترام حقوق الجميع ؟ .

العدل والمخالفات : - ينبغي ان يوزع العدل المجرد عن الهوى من غير تفريق ولا تمييز بين الذين يريد ان يعدل فيهم ، ويجب ان يكون هذا العدل لا تفضيل فيه لأحد على سواه ، ولكنه شامل لجميع الشعوب ، مساو بينها بدون استثناء .

٢ - لاقيمة لكل مصلحة خاصة لأي شعب على حدة او لمجموعة من الشعوب عند التسوية النهائية اذا لم تتفق مع مصلحة الجميع .

٣ - لا يجوز ان تكون عصب ومخالفات وعقود خاصة ضمن الاسرة العارسة لعصبة الأمم .

٤ - لا يجوز ان تبرم عقود اقتصادية تقوم على الانانية والمصالح الخاصة ، ولا يجوز ان يلجأ الى اي طريقة من طرائق المقاطعة والاتصاء الاقتصادي الا اذا كان بسبب عقوبة دولية .

٥ - ينبغي اعلان جميع العقود والمعاهدات الدولية مهما كان نوعها ... فالمخالفات الخاصة كانت معينة لا يندب من الدسائس والضغائن التي تقود الى الحرب .

٥ - بين النظام القديم والنظام الجديد

تنبأ بلفور قبل شهرين من اجتماع مؤتمر فرساي ان النضال سيكون شديداً ، وقد تحقق ذلك من بعد ، فان الممثلين السياسيين للعالم القديم والنظام القديم اموا

باريس ليضعوا السلم الذي يريدونه ، وكانت وسائلهم الفنية قوية مكيمة ، وفي جانبها التقاليد والتجارب والاساليب السياسية البارة ، وفوق كل شيء التنظيم الراجح والاوضاع الراسخة التي بلغت اقصى حدود الكمال والتمام ، في الحكومات الاوربية المتمسكة بامانها وسلامتها . اما الذين كانوا يمثلون العهد الجديد والعالم الجديد ، فقد كانوا كذلك غير محرومين من التنظيم والتدبير والوضع ، ولكن تنقصهم التقاليد والاساليب ، ومع ذلك فان آمالهم كانت تبعث الحماسة ، وكانوا عارفين انه اذا لم تؤيدهم رؤساء الحكومات في اوروبا فالعالم بأسره معهم .

فالتقى المعسكران واشتبك بينهما النزاع منذ البدء ، وكان ذلك بسبب النظام والاصول والمراقبة ، وزاد في تعقيد الامور وجود القادة والرؤساء العسكريين الذين كانوا يسيطرون في اوروبا منذ اربع سنين ويحكمونها كما يريدون ، فلا يسمعون التضائل امام السلطات المدنية ، ولا بد لهم من النضال حتى النهاية في كل مكان وبكل جد ودأب الى ان تنتصر آراؤهم وتفوز خططهم التي يؤيدهم فيها بعض السياسيين ، وقد حاولوا في بداية اعمالهم ان يعدلوا شروط الهدنة نفسها تعديلاً ينطبق على ما يريدون بحجة اصلاح بعض الاغلاط ، فاعترض الرئيس ولسن قائلاً : انه لا يوافق على اضافة شيء الى شروط الهدنة ، وانه كان على المجلس ان يفكر من قبل عندما وضع هذه الشروط ، اما الآن فليس من الحق ولا من الاخلاص والصدق ان يحاول تصحيح ما ارتكب حينئذ من الاغلاط .

وكان من النتائج الاولى التي لا بد منها بعد انتصار الحلفاء الكبير الساحق وبث الآراء الوطنية المفرطة ، ان انتشرت الحماسة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى وملاأت قلوب ممثليها ، ولم تكن الشعوب الصغرى لتثقل عن الكبرى حرصاً وتهاكلاً وتهاوناً على احراز ثمرات الانتصار ، وقد سببت الحرب خسائر كبرى في الرجال والأموال ، والجميع يريدون تعويضها بنيل الجزر والمعادن والمدن والسفائن ، وكان مثلهم جميعاً كمثل الفلاح الذي اضاع بقرة فاخذ يطالب فوراً بواحدة او باثنتين ، فاصبح هذا الوضع منذ افتتاح المؤتمر مهدداً ومنذراً ، فوقف

الرئيس ولسن ودعا الى نشر بيان ينبه الجميع الى عواقب الحرص والطمع والتهافت وقد جاء فيه :

ان الحكومات التي اجتمعت اليوم في هذا المؤتمر اتمشيء في العالم عهد سلم مستقر الأساس ثابت الدعائم ، أثرت بها الاخبار التي تصل اليها اشد تأثير ، ففي كثير من الاحيان وكثير من البلدان في الغرب والشرق تلجأ الشعوب الى السلاح تستولى على بعض الاراضي وتضع يدها عليها . . . فليمتنع اولئك الذين ينتظرون العدل من اللجوء الى القوة ، وليدعوا مطمئنين واثقين الى المؤتمر ما يريدون صيانه من حقوق ومصالح .

غير ان هذا النداء لم يكن الا كلاما تذرؤه الرياح ، وخرجت منتصرة من النضال الشهوات والاحقاد والاطماع التي كانت سائدة في اوربة ، وقام البرهان مرة اخرى على ان خطب رجال السياسة ومبادئهم العامة لا تؤثر على سير الانسانية ، ولكن العبرة للروح التي تملأ قلوب رجال السياسة وتقودهم في اعمالهم وترشدهم في خططهم ومناهجهم ، والسياسيون الذين اجتمعوا في فرساي لم يكونوا متفاوتين في المناهج السياسية والمطالب القومية ، وكان التشابه عظيماً ، حتى بين ممثلي الدول الكبرى وممثلي الدول البلقانية ، سوى ان رجال السياسة في الدول الكبرى اكثر تصميماً والبلقانيين مترددون ، ماعدا فنزولوس الذي هو من البحر المتوسط . . . واكثر مايغيب رجال السياسة في اوربة حرصهم على المنافع الآنية الزائلة واهتمامهم في الغالب بان لا يعملوا عملاً يسبب نجاحاً لمن سبقهم او لمن يخلفهم ، اما الرئيس ولسن فما كان ينظر الى الاشياء نظراً اولئك السياسيين الذين اعماهم ما يدعون من حق وسلامة ومصالحة ، وقد كان يرى الواجبات والمسؤوليات ، ويرى ما يترتب على الدول العظمى ولا سيما اميركة لغيرها ، ويقدم على وضع المبادئ الاخلاقية لمقاومة الشدة والانانية والاطماع التي تميزت بها السياسة القديمة ، والتي لاتسوغ اقامة سلم عادل باعتمادها على قاعدة المصلحة التقليدية ، وكان على العالم ان يقف موقفاً جديداً في معالجة هذه المشكلات التي هي سبيل حياة وموت ، وقد قال الرئيس ولسن من خطبة له

في منشستر : انكم تعملون علم اليقين ان العالم قد حكم الى هذا اليوم ، اوانه على الاقل اريد حكمه ، كما تحكم الجماعات المشتركة في المنافع ، ولكن هذه الطريقة كانت عاقبتها الخيبة .

غير ان هذه الفكرة السامية التي دعا اليها قوتلت في باريس قتالاً شديداً ، ولكنها برغم ماصابها من اخفاق فقد ظلت سائرة في طريقها لانها عنوان الحقيقة ومظهرها ، حتى انها بعد عشرين سنة لم يحجم الذين يدعون الى آراء ومذاهب تناقضها كل المناقضة من توجيه الملام الى الذين خرجوا عليها ولم يتمسكوا بقواعدها . وقد يكون ذلك اعظم تكريمة للفكرة التي مات صاحبها بعد ان واراها لحدتها بيده والاسى يفعم قلبه ، فقد كان الرئيس ولسن نصيراً للانسانية باسرها ، لا للشعب واحد ، وكان في كلماته من بعد الغور وعظمة الحقيقة ما جعلها تنفذ الى الضمائر ، ولكن النفع العاجل والسلامة الآنية للذين تفضلها الشعوب ، يجعلانها بغلة عن المستقبل ، على ان انماء روابط الثقة ، وتوطيد عناصر المودة ، والعمل على تأمين الرخاء ، هو افضل عاقبة وارجى في توثيق عرى الدول ، وتمكين ما بينها من صلات وعلائق .

وفي اثناء هذا النضال بين مباديء النظام القديم ومباديء النظام الحديث ، كان الرئيس ولسن يتلقى من مندوبيه السياسيين والعسكريين تقارير سرية وعلنية تنبئه بالدسائس التي تحاك في الشرق والغرب لتحقيق الاطماع المختلفة ، ويذكرون له ما قد شاهدوه في كل مكان في اوروبا الوسطى من البرزات العسكرية الفرنسية التي يحملها الجنود والضباط ، ويقولون خاصة ان فكرة السيطرة الامبرطورية الجمعاء قد استتوت على عقول الفرنسيين ، وهم يريدون ان يخلقوا ساسلة من الدول في نطاق عسكري محكم ، تنظمها فرنسا بقدر ما تستطيع ليكونوا لها حلفاء ، وقد كتب الجنرال بلس رئيس اركان حرب الجيش الاميركي يشكو مما رآه في هنغارية ودنيزغ في كل واحدة منها وفي كتابها ، من اعمال تؤدي الى نقض عقد الهدنة ، وتؤكد تجر الى استئناف الحرب ، لأن المفاوضات والمحدثات مع العدو كلها في يد الفرنسيين

... وفي كل مكان معارك حامية وقادة فرنسيون يتدخلون في كل شيء ، فلا تنقطع مساعيهم ، وهم متصلون دائماً بوزير الحرية ، ومامن قانون يمكن ان يحول دون هذه المساعي واشباهاها .

٦ — المعاهدات السرية

كان كلمنسو رئيس الوزارة الفرنسية وارلندو وسونينو الوزيران الايطاليان يمثلون العهد القديم ، وكان الوفد البريطاني في موقفه بين هؤلاء الرجال وبين انصار العهد الجديد ، وجاءت الدول الكبرى والدول الصغرى تحمل احقادها واطاعها ، وتطالب بتنفيذ المعاهدات السرية التي قال الرئيس ولسن عنها ان الولايات المتحدة غير مقيدة بواحدة منها ، وهي لا تؤيد الا الاوضاع القائمة على الحقائق ، على ان المطالبين لم يكتفوا بحدود المعاهدات بل انهم في الغالب يتجاوزون في مطالبهم ما سبق وعدم به ، وظل الرئيس ولسن خصماً عنيداً للمعاهدات السرية والمطامع الكثيرة ، وقد كان في حين من الدهر حاملاً لواء الآمال للذين عادوا من الخنادق والحصون ، يرجون ان تشيد اركان السلم على اسس من الحرية ، حتى لا تعود الحرب سيرتها او تكون هي آخر الحروب ، ولكن قوة ولسن لم تذهب وتضمحل الا عندما اخذ يتنازل عن مثله الأعلى ليصبح في صف السياسيين ، وهو في هذه الحالة اشد خطراً لأن اصحاب هذه الصناعة ليسوا مغلوبين عليها ولا منكرين لخطوطها واساليبها ، وقد قال المسيو كلمنسو في كلام عنه : قدم الرئيس ولسن الى اوروبا حاملاً برنامج سلم للعالم كله ، وهو سام في مثله الاعلى ، ولكن يعترض تنفيذه وتطبيقه مصاعب كبيرة ، تسببها الاحقاد المتوارثة التي تفرق بين مختلف الأعراق .

وكانت قضية النمسة قد اثرت في مواقف كثيرة واقترحت لها حلول عديدة ، فكان يرى بعض رجال السياسة الأبقاء عليها ، وكان شارل آخر امبراطرة آل هابسبورغ خائفاً وجلاً من العواقب ، وقد حاول عقد سلم منفرد فلم ينجح ، كما انه حاول اقناع غليوم بالتنازل عن الانزاس واللورين فلم يجد منه اذناً صاغية ، وكان

يرى غليوم اسيراً في امبرطوريته، محكوما عليه بقواده واركان حربه ، وهو في ظنه الرجل الوحيد الذي يعقل بينهم ، وكان شارل يفكر باقامة نوع من الاتحاد في بلاده ، ولكن بعد فوات الوقت ، وكذلك فكر ولي عهد بافاريا بتحويل الريخ ايضاً الى دولة متحدة تشترك فيها النمسة ، كما كان الأمر في التحالف الجرمني بين سنة ١٨١٥ و ١٨٦٦

وقد تمسك الايطاليون خاصة بما وعدوا به في معاهدة لندرة التي اداعها السوفيت قبل انتهاء الحرب ، واصر سوينو على تنفيذ شروطها ، ولم يكن سديداً موقفاً في اخفاء الاطماع الإيطالية ، كما كانت تخفي في فرساي اطماع كثيرة تحت ستار الاقوال الطيبة ، ولم يصغ الى نصائح الذين نهوه الى وجوب مسيطرة المبادئ الحديثة المواسنية . على حين انه يوم وضمت معاهدة لوندرة ، كان ينتظر بقاء النمسة وتأسيس دولة من الكروات تضم اليها فيومي التي كانت سبب الخلاف بين ايطالية و بوجوسلافية وبين ولسن والوفد الايطالي . وبقيت ايطالية تطالب بالتعويضات الاستعمارية وبتسوية نظام الايطاليين في تونس ، وقد قامت انكلترا بما تعاهدت عليه وتنازلت لايطالية عن ارض واسعة في افريقية الشمالية ، وظل الخلاف مع فرنسا ، وطالت المفاوضات بدون طائل ، حتى ان الاتفاقات لم تنفذ ، وكما كان يتوقع بسمرك فان وجود الطليان في تونس ، مازال سبب خلاف دائم بين الدولتين : فرنسا وايطالية .

اما تركية فقد كان يراد اعادة تنظيمها والتدخل في شؤونها ، ولا سيما ان نظام الامبرطورية العثمانية قد استمر في جرائره واسرف في سوء عمله ، وكان موضعاً للأخذ والرد بين الدول ولم يبق فيها سلطة تتكلم باسمها ، فاستفاد فنزيلوس من لباقتة وحسن تقبل الرئيس ولسن له وتأيد الانكليز ومسيرة الفرنسيين . وقد هز فنزيلوس اعظام الرئيس الاميركي بمجيدته فكبرته الكبرى ، وخرج من اجتماعه به وهو يقول لاصحابه : سننال ازميز . ولما ذهب ارأفده وسوينو مغاضبين بسبب فيومي ، اقترح ولسن على فنزيلوس ازال جنود في الانضول ، فادرك أن هذا الاقتراح من نتائج الخلاف مع ايطالية واجاب اليه بدون تردد ، وقد يكون هذه هي المرة

الوحيدة التي انقاد فيها ولسن الى تأثره ، ولكن لا يجوز ان يعد ولسن مسؤولاً عن عمل اليونان ، فقد كان لهم محام اكثر نشاطاً وحماسة وهو لويد جورج ، الذي حاول ان يسير في القضية اليونانية وفي مقاومة الترك الى النهاية ، ولكنه سقط من الحكم بدون ان يدرك غايته ، كما سقط فزيولس واضاعت اليونان ما استويات عليه واخرجت جواليها الغنية من الانضول ، وبدأت بذلك النهضة التركية التي كانت بخطأ اعداء الترك اكثر من ان تكون بصنعهم ، وعززت من شأنهم واضعفت نفوذ الاوربيين عندهم . وما يستغرب ان فزيولس تباً بعد سقوطه بانكسار اليونان ، ولكن هذه هي العادة المألوفة - كما قال الكونت سفورزا - من بعد النظر الذي يأتي في الزمن الاخير عند بعض رجال السياسة ، فهم لا يتحلون بهذه الصفة الا بعد سقوطهم من الحكم الذي تمالكوا عليه ، ولم يدلوا على شيء من اصاله الرأي وهم فيه .

وكانت البلاد العربية عرضة لتلك الاطماع ومن مواضيع تلك المعاهدات ، حتى ان الوفد الاميركي اصر على ارسال لجنة الى البلاد السورية واستفتاء سكانها ، برغم معارضة الفرنسيين واستنكاف البريطانيين ، ولكن لم يجد ذلك نفعا فقد نفذت بنود المعاهدات السرية في شأنها تنفيذاً تجاوز ما وضعت له .

٧ - العهد الدقيق في مؤتمر السلم

نضال الرئيس ولسن واخفاق المباديء الجديدة

غادر الرئيس ولسن مؤتمر السلم وقام برحلة الى اميركة ، وكان يتوقع بعد عودته الى المؤتمر ان يكون النضال حاسماً بين الماضي وبين الحاضر ، وكان مادركه من النجاح في بادىء الامر يجعل عصبه الأمم اساساً للاتفاق على قواعد السلم وجزءاً من المعاهدة نذيراً للحلفاء ، ولا سيما الافرنسيون الذين لم يرضوا بالتسليم والاذعان . وكان غياب الرئيس خطراً على عمله فاضعف مركزه وشد من قوى خصومه ، ولم يعرف ان النجاح الذي ناله قبل سفره اصبحت مهدداً ، فقد تألبت القوى العسكرية والسياسية ، واستعدت في معاقبتها وحصونها ، ولما رجع وجد الموقف على غير ما تركه ،

وقد زاد في ضعفه انه اراد ان يدخل بعض التعديل على ميثاق العصبة ليكون الاميركيون جميعهم ورايه . وقد يسوغ القول بان الرئيس لولم يسافر لما كان اضع ما اضعه ، ولو انه بقى لاحتفظ ببعض المزايا التي نالها ، ولكن الحقيقة ان هذه المزايا لن تكون الاقلية لأن قوى عظيمة كانت تتهاى انضاله ، وهي قوى منكرة خفية ، وكان ولسن يستطيع ان يمني نفسه بالانتصار على النظام القديم لأن العالم كله يؤيده ويهتف له ، ولكن العالم كله ايضاً كان يرتاب بنجاحه وينتقده ويحمل عليه حتى ان بلاده نفسها تخلت عنه ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ، ويعالج المصاعب الجسام ويعاني الشدائد التي لا تطاق .

وبينما كان موقف الرئيس ولسن قد اصابه الضعف في مواجهة الامور الدقيقة ، تعزز موقف خصومه واشتدت قواهم ، فكروا عليه بعد ان اعدوا الرأي العام لمقاومة برنامجهم ، وكان جوباريس المتهب في اثناء المؤتمر معيناً على مثل هذه المؤامرات حتى ان خصومه تأهبوا ليلقوا عليه تبعة التأجيل في عقد السلم ، وفي الحقيقة انه كان يعوق السلم الذي يراى منه ، كما ان خصومه كانوا يعوقون السلم الذي يريده ، وكانت سياسة كل منسو مسددة في هذا النضال ، حتى قيل انها لم تكن دون اساليب فوش العسكرية ، وكان الفرنسيون بارعين دائماً في هذا الفن السياسي ، وقد سبق لتلير ان انه ادرك نجاحاً عظيماً في فينة على انه كان يمثل في المؤتمر دولة مغلوبة ، فليس يبدع ان يطبق رجال الدولة الفرنسيين ، ببراعة متناهية ، خطط الاسلوب السياسي القديم .

وكان الرئيس ولسن يتعامل من موقف الفرنسيين واعتراضهم على كل شيء ، حتى عزم على مغادرة باريس اذا ظلت الامور سائرة على هذا المنوال ، وقال انه يجب وضع شروط السلم على حسب القواعد التي سبق قبولها ، وقد تبادل المذكرات لويد جورج وكل منسو عن شروط الصلح ؛ وكان الاول يخشى ان لا يوافق الامان على الشروط الثقيلة التي تملى عليهم وان يفتح الباب بذلك للفوضى والشيوعية في بلادهم ، وقد اصر كل منسو على مطالبه فيما يتعلق بفرنسة وفيما يريد انشاءه من الدول الاوربية ،

واشتبك الخلاف مرة بين الرجلين السياسيين ، فكان لويديجورج يطلب ان تعامل المانية بتسامح ، فيجيبه كلمنسو على لويديجورج ان يبدأ بالتسامح ، وان يتنازل عن السفن وعن المستعمرات الالمانية الغنية ، وقد كتب اليه رجل الدولة الانكليزي مذكرة اورد فيها المحاسن والمنافع التي نالتها فرنسا في الاتراس والمستحركات وبلاد الشام ، وفي السفائن والتعويضات والضائفة البريطانية ، وعند ذكر الشام اشار الى المفاوضات التي استمرت في شأنها مدة اشهر ، ثم قل : أكل ذلك لايهم فرنسا وانما يهمها ان تخضع المان دنترغ لبولونية ؟ والمذكرة شديدة في صيغة تمكها .

ولكن موقف لويديجورج كان شديد التبدل ، وهو يتأثر جداً بحالة بلاده السياسية وحاجاتها البرلمانية ومناقضه صحفها ، كما انه كان يتأثر بما ينشره الفرنسيون في صحفهم في باريس من حملات عليه وعلى ولسن يتردد صداها في بلاده ، وفي أثناء النضال بين ولسن وبين كلمنسو ونف موقف الرجل الذي لايهمه الامر ، ثم اشتبك بدوره مع كلمنسو ، ولو انه آزر ولسن مؤازرة حقيقية منذ البدء ، امكان السلم في الغالب افضل من الوضع الذي آل اليه ، وقد خابت آمال ولسن بلويديجورج بعد ان رأى قلبه وتناقضه ، واسرعه في الدفاع عن الآراء المتعارضة ، بما يدل على انه رجل برلماني سياسي أكثر مما هو رجل دولة ، لأن سحر البيان وجمال الأسلوب وطلاوة الحديث وفصاحة اللسان من حاجات الأول ومميزاته ، اما الثاني فتظهر فضائله في الوقوف عند الرأي الصحيح ووضع الخطط للمستقبل ، وارشاد العاملين وقيادتهم حتى يسيروا في الطريق القويم ، الذي رفعت لهم اعلامه واوضحته مناهجه .

وبعد ان اشتد الأمر على الرئيس ولسن واستدعى الدارعة وشنطن لتحملة الى اميركة ، دخل مؤتمر السلم في طور من التفاهم كان الخسران فيه نصيب النظام الجديد والمبادئ الحديثة ، وكان الرئيس مسؤولاً عن بلاد عظيمة ، فاذا غابت اميركة عن هذه المهمة الدولية الخطيرة ولم تأخذ بنصيبها منها كان كل شيء معرضاً للزوال ، فهل يحق له ان يدع كل شيء وراءه وان يعود الى بلاده في ساعة من ساعات

الأم واليأس ؟ ام ينبغي له ان يستمر على معالجة الموقف في مصاعبه ، ولا يبرح مكانه كجندي يذود عن حماه ، وان يصبر ويصبر حتى يصل الى بعض ما يريد من مبادئه . ولو كان الرئيس رادكالياً لاختار الخطوة الأولى ، ولكنه لم يكن رادكالياً بالمعنى الذي اشتقت من اصله هذه الكلمة ، ولم يكن من دعاة الثورة وقلب النظم . كما يصنع الفرنسيون عادة في تعاقب ثوراتهم على النظام القائم وشكواهم من الاسراف والاساءة ، فلا يجدون سبيلاً غير نقض البنيان من اساسه وتبديل قواعده واركانه .

وبعد الفراغ من المعاهدة شعر البريطانيون بعظم ما جرى ، فاخذت جرائدهم الحرة تنعت هذه المعاهدة بانها جائرة كالمعاهدات السابقة ، وكتب بعض مندوبي الممتلكات البريطانية المستقلة مثل هيوز وسمطس كتابات شديدة الى لويد جورج والرئيس ولسن في انتقاد شر وطها ، وحاول لويد جورج نفسه ان يشن عليها الغارة وان يطالب بتعديلها قبل تنفيذها ، وان يستعين على ذلك بالرئيس ولسن الذي لم يكن ينكر شدة وطأها ، ولكنه كان يعتقد ان الانتقاد والتعديل كان يجب ان يكونا عند وضعها بندها ابداً لاعتدائها لانتهاء منها ، فعقبت اشد الحروب هو لا معاهدة لم تكن معاهدة سلم ولكن تماد في الحرب ، معاهدة غرست بشور الاضطراب والفتن والاقلاق والاحقاد والشدائد ، وكانت سبباً لحرب جديدة ، وقد تنبأ بذلك المستر لنسنگ سكرتير الدولة في الولايات المتحدة في ايام الرئيس ولسن نفسه ، وقال : ان هذا الأمر محقق ، بقدر ماهو محقق ان يعقب الليل النهار . وما اكثر ما صدقت الايام ظنه .

٨ -- محذورات صلح فرساي وآراء رجال السياسة فيه

ما كادت تنشر معاهدة فرساي حتى وجهت اليها اشد الانتقادات في كل مكان بل ان فريقاً من واضعيها والمسؤولين عنها لم يجدوا بداً من ان ينكروها ويحذروا من عواقبها ، وقد كان في مصلحة اولادة بل في مصلحة العالم كله تنفيذ شروط الرئيس ولسن والتقيد بها . . فهذه الشروط انقذت الحلفاء في سنة الحرب الأخيرة بمآثراته

من العتيدة والرجاء ، بعد ان اصبح الانكليز يتسائلون اذا كانوا يستمرون في بذل الضحايا في سبيل الانزاس ، وبعد ان اصبح الفرنسيون انفسهم يتعاملون من القتال في سبيل غايات موهومة .

وقد انكر على واسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن لا يجوز ان يتسنى ان قواعد هي الوثيقة الأولى التي كان يخاطب بها الفريقين المتقاتلين وتدعى اليها الحكومات والشعوب ، وهل تنسى الآمال التي احيهاها في جميع النفوس ولا سيما عند الجنود ، وعند الشعوب المستضعفة في الشرق والغرب ، وقد ظن الرئيس الاميركي عندما اعلن اراءه ونقايلده ان السياسة الدولية القديمة قد قضت نحبا ، وانه ازيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، وهنأ الناس انفسهم بان رجلا في هذه المنزلة وفي هذا المقام والسلطة من امة عظيمة ، رفع صوته بذلك النداء الذي يشتمل عليه كل قاب وكل شعور ، ولكن هذا الرجل الذي اصبح قبلة الانسانية وموضع رجائها ، لم يكديصل الى فرنسا ، حتى انقاد الى اساليب الزمان وسلطانها ،

غير ان الفكرة الجديدة التي تتغلب عليها العناصر القديمة لا يكون ذلك سبباً للحكم عليها ، وقد افسد العمل العظيم الذي جاء به ولسن ، الرجال الذين اراد ان ينشئ معهم الدنيا انشاءً جديداً ، فقد كان في مقدمتهم كلمنسو الذي لقب بالنعمر ، والذي هو صحفي قديم ، وقد شهر بالعنف والشدة وقلب الوزارات وكان الرجل الذي وضعته الحرب في مقدمة الصفوف ، وهو في وطنيته المرفقة يكاد يعد من محترفي الوطنية اكثر من ان يعد رجل دولة وصاحب فكرة ، وكان يقول عن ولسن متهمكاً : انه يتكلم كالسميح ، وقد وافق على رأيه في عصبة الأمم لانها تعين على الاحتفاظ بنتائج النصر .

ومن اقوال كلمنسو ، التي تدل على ما ينطوي عليه من الآراء القديمة واستمرار الفكرة الحديثة ، كلمة له من خطبة عليها كذلك طابع السخرية : يقولون انكم ستضعون سلماً عادلاً ، واذا وضعتموه فكل شيء يصبح سهلاً ، وقد سمعتم كلمات كثيرة من هذا القبيل ... على ان الرئيس واسن رجل يوحى الثقة ببساطة فكره

ونيله ، ومع ذلك فقد قال كلمنسو ذات مرة كلمة صواب : ان بيدنا مقاليد الامور فادنا اردنا ان ننجح نجاحا ينعم به ابناؤنا في المستقبل ، فانه يجب علينا ان ننتفع من هذه السيادة ، وذلك بان نجعل خططنا على جانب من الاعتدال الذي هو ضروري لضمان بقائها ... ولكن فرنسا لم تكن مطلقاً هذه الشجرة ، ولم تحم نفسها من خطر وقعت فيه بعد الحرب ، وذلك مالا يمكن شرحه الا بالسبب الخالد ، وهوان النصر ينشئ في النفوس سكرة اقتدار هي اشد خطراً من السم . وكان ارلندو رئيس وزراء ايطالية مشابها كلمنسو في نزاعاته ومطالبه ، اما لويد جورج فقد عمل في المؤتمر بما طبع عليه من سياسة ومرونة ومن فكرة اوربية ملتبسة ، وكان يقيم البراهين الدامغة التي تسوغ الانانية الوطنية ، عند المسيطرين البريطانيين ، دعاة الامبرطورية واصحاب رؤوس الاموال الذين حملوه الى الحكم وسلموه مقاليد ، وقد نال من الرئيس ولسن الغاء شرط حرية البحار ، على حين انه لاشيء بعين على تثبيت السيادة الانكليزية في البحار مثل ضمان حريتها ، الذي يجعل رجال الأمن في الدول يدافعون عن المملكة المتحدة واجزاء امبرطورتها .

وقد شعر السياسيون الانكليز بخطأ السياسة التي قادتهم الى ان قبول في فرساي بمباديء لاتمين على الاستقرار في العالم ، وناقش لويد جورج احد وزراء الامبرطورية فكتب مذكرة في انتقاد هذه المعاهدة قبل وضع صيغتها النهائية ، في ٢٥ آذار سنة ١٩١٩ ، قال فيها : عندما تخرج الشعوب من حرب مهلكة قد استنفدت اموالها وانهكت قواها ، لا يعسر عليها ان تعقد صلحاً يدوم بقدر ما يدوم الجيل الذي عانى احوال الحرب ، اما خيال البطولة والانتصار فهو لا يستميل الا اولئك الذين لم يخوضوا غمرات الحروب ولم يذوقوا احوالها ومرعباتها ، وقد سهل تشييد بنيان سلم دائم يدوم ثلاثين سنة ، غير ان الصعوبة هي في اقامة سلم لاتنشأ عنه حرب جديدة عندما يكون الذين تجشموا بانفسهم اخطار القتال قد فارقوا هذا العالم ، والتاريخ شاهد عدل على ان السلم الذي يتلقاه الشعب المنتصر كانه ظفر للسياسة والبراعة والدهاء لا يبرح قريب الزوال ، حافلاً بالاخطار التي تهدد المنتصر ، وقد عقدت المانية سنة ١٨٧١

سليماً ظنت انه يضمن لهامع الامان والسلامة دوام التفوق في اوربة ، غير ان الحوادث اقامت البرهان على نقيض ذلك ، وفرنسة نفسها تقيم الدليل على ان الذين يؤكدون بانه يمكن ابقاء المانية بحالة من الضعف بحيث لا تستطيع ان تثار لنفسها ذات يوم هم مخدوعون كل الانخداع ، فبرغم ان فرنسة كانت في كل سنة اضعف بمواليدها من الغالبين كانت تزداد قوة على قوة ، وقد اسهرت طرفها في اوربة وثارت على الدأب وعقدت المحادثات مع الدول التي كانت المانية تضطهدا او تهددها ، وما انفكت تنذر العالم بالخطر الداهم حتى استطاعت في آخر الأمر ، ان تغلب على الدولة التي هي اقوى منها بما لا يقاس والتي اغارت عليها بقسوة وعنف .

ففي وسعكم ان تسلبوا المانية مستعمراتها وان تجردوها من سلاحها ، حتى لا يبقى لديها من القوى الا مايكفي لحفظ الأمن وتجعلوا بحريتها في الدرجة الخامسة ، كل ذلك لا شأن له ، وهي اذا كانت قانعة انها ظالمت في معاهدة فرساي فستجد ذات يوم الوسيلة للانتقام ، وسيزول الاثر الخفيف الذي بقي في النفوس بعد اربع سنين استعجزها القتل وسفك الدماء بزوال هؤلاء الرجال انفسهم ، ولذلك فن السلم لا يكون ثابتاً مستقراً دائماً الا اذا لم تبق بحق اسباب تدفع على الاستماتة ، وتهيج الفكرة الوطنية ، وتثير عاطفة العدل ، وقد تكون شروطنا في السلم عنيفة قاسية ولكنها يجب ان تكون عادلة بحيث ان الذين يعاملون بها يشعرون في قرارة نفوسهم ، انه ليس لديهم اى شكوي يرفعون الصوت بها ، ولكن الظلم والخيلاء والزهو في ساعة النصر لن تكون من الامور التي تنسى او التي يعفى عنها .

ولذلك اعارض اشد المعارضة ، بالاستمرار على اخضاع الالمان الى سيادة اجنبية بدون ضرورة مطلقة ، وارى من جملة اسباب الحرب في المستقبل ان يصبح الشعب الالمانى الذي اقام الدليل على انه من اعظم شعوب العالم قوة واشدها مراساً محاطاً بدول صغيرة ، جعلها لم يستطع في الماضي ان ينشيء في بلاده حكومات حية ، ولكن كل واحدة منها ستعج بالجماهير من الالمان الذين يصرون باراداتهم ان يعودوا الى الوطن الام ، اما اقتراح اللجنة البولونية بان تضم الى بولونية ١٠٠ ، ٠٠٠ ، ٢ خاضعين لقوانين

شعب لا يدين بدينهم ولا يدل تاريخه على انه قادر على حكم نفسه، هو في رأيي مما يسبب في اجل قريب او بعيد حرباً في اوروبا الشرقية، وما ذكرته في شأن المان بولونية ينطبق كذلك على هنغارية، اذ لا يمكن تشييد السلم في اوروبا الشرقية الجنوبية اذا كانت كل دولة من هذه الدول الصغيرة الناشئة تحكم عناصر مجرية ناقمة، وعندى ان اكبر مبدأ من مبادئ السلم هو ان تضاف بقدر ما يستطاع من وجهة انسانية، الجماعات العرقية بعضها الى بعض في وطنها الاصلي، وهذا الاعتبار يجب ان يتغلب على كل ماسوا من الاعتبارات العسكرية والاقتصادية ووسائل المواصلات وغير ذلك.

ومضى بعد ذلك لويدي جورج ذا كراً الفرق بين العالم بعد معاهدة فينة حيث نصب معين الثورة الفرنسية، وبعد معاهدة فرساي والثورة متأصلة في القلوب، والعالم ناظم في اقصاد وفي ادناه، وجميع الطبقات تشكو من سوء حالها، والثورة الروسية منتصرة على خصومها، وذكر ان الخطر الاكبر الذي ينبغي اجتنابه هو ان تتحد المانية وروسية في قضية مشتركة، ثم قال :

وجملة ما اراه : انه ينبغي علينا ان نعرض على الحكومة الالمانية شروطاً تستطيع القيام بتنفيذها، اما اذا قدمنا شروطاً جائرة فانه لا توجد حكومة في المانية تستطيع النهوض بها، والحكومة الحاضرة التي هي ضعيفة جداً فانها سترفض، واذا قبلت فانها ستسقط في اربع وعشرين ساعة، ولكن اذا لم نجد في المانية من يوافق على شروطنا ويقبل بصلحنا فماذا نصنع؟ لاشك انه لا مجال للبحث في امر احتلال عسكري طويل الأمد واقامة جيش كبير في المانية، على ان هذا ليس من شأنه ان يهم الالمان، فقد يرحب كثير منهم بهذا الجيش الذي يكون الوسيلة الوحيدة لاقامة النظام في بلادهم واعادته الى نصابه، ولكن الما رضة ستأتي من بلادنا نفسها، فلا الامبرطورية البريطانية ولا الولايات المتحدة ترضيان بذلك، وفرنسة وحدها لا تستطيع ان تتحمل اعباء الاحتلال ونفقاته، وحينئذ لا مناص لها من العودة للحصار، وهذا ما يؤدي الى انتصار الثورة من جبال الاورال الى نهر الرين، على ان الرأي العام لا يرضى بتجويع المانية لملها على قبول شروط ثقيلة لا تطيقها...

ومن جميع وجوه النظر، فاني ارى انه يجب ان نؤسس بنيان السلم كأننا محكمون منصفون ، قد نسينا العواطف التي اثارها الحرب الأخيرة . والنظام الجدير في رأيي ينبغي ان يستلهم من ثلاثة شروط : ١ ينبغي ان يكون عادلاً بحق الحلفاء فلا يغفل التبعة الملقاة على عاتق المانية في اثاره الحرب وفيما اتخذته من اساليب القتال ، ٢ ينبغي ان يكون بحالة تستطيع المانية ان توافق عليه وتقوم بتنفيذه ، ٣ لا يجوز ان يحتوي اقل سبب من اسباب اثاره الحرب في المستقبل ، ويجب ان يحول دون انتشار الشيوعية ، بحيث لا يتقبلها الرجال العفلاء كأنها حل عادل للقضية لا وريية . ثم عرض بعد ذلك لويديجورج الى عصبة الامم واقامه السلم الدائم واطار الشيوعية . وكان الجنرال سمطس مندوب افريقية الجنوبية نافذ الرأي في دوائر مؤتمر الصلح فارسل كتابا بتاريخ ٢٢ مايس سنة ١٩١٩ الى المستر لويديجورج يطلب فيه تعديل بعض شروط المعاهدة وينتقد اساليب النكاية التي لافائدة منها ، وقد قل خاصة في شأن الحدود الشرقية : اني لارتاب مطلقاً بان توسيع بولونية بهذا المقدار ، هو تمزيق للتاريخ ، وخطأ سياسى كبير سيكون التاريخ مكلفاً بدوره في اصلاحه فان بولونية الجديدة ستحتوى ملايين من الروس ومن الالمان ، او مناطق بقيت عهدا طويلاً المانية وروسية وستعود الدولان الى ما كانتا عليه من العظمة ، بحيث لا تستطيع بولونية ان يكون لها شأن اذا لم تسامح هاتان الدولتان معها ، فانشاء الدولة الجديدة اذن يؤدي الى اخفاق لاشك فيه ، حتى اذا كان البولونيون قادرين على حكم انفسهم ، والتاريخ يسجل عليهم انهم كانوا دائماً عاجزين عن ذلك ، على ان البولونيين ، منذ الآن والمؤتمر لا يزال منمقداً يتحدثون الدول العظمى ... فماذا يقع في المستقبل عندما تتخالف هذه الدول وتعارض ؟ فلاشك اننا نقيم هذا البنيان على اساس واه ... واني قانع ان الخطأ الاكبر في المعاهدة هو في مدي احتلال الرين وفي توسيع بولونية الى ما وراء الحدود التي كان يفكر فيها في اثناء الحرب ... وهاتان الخطيئتان هما اللتان تهددان السلم في اوروبا فيجب ان يبذل كل مايسطاع بذله لازاتها قبل مضي الزمن .

وارسل الجنرال سمطس ايضاً الى الرئيس ولسن كتاباً بتاريخ ٣٠ مايس سنة ١٩١٩ قال فيه : ان جواب الالمان على شروط السلم التي عرضناها عليهم تبين الناحية الخطرة التي لانستطيع اجتناب البحث فيها بكل عناية ، فهم يصرحون باننا ملزمون بعهود معلنة سابقة جاءت في قواعد الاربعة عشرة ، وهذا كذلك رأيي مع التقيد بالتحفظين اللذين وضعهما الحلفاء قبل الهدنة (حرية البحار والتعويضات) ، وكل اخلال باي شرط من الشروط هو انتهاك لحرمة التعاقد واخلال به .

وقد ابتدأت الحرب باعتبار المانية العهد المقطوع قصاصة ورق ، وكان من جملة غايات الذين حاربوا فيها تقديس العهود ، فهل ينتمي الحلفاء الى امر كلذي لاموا المانية عليه ؟ واني لائميد فرقاً من تذكر ذلك ، ومن التفكير بالواقع الذي يكون لعمالنا في الرأي العام ... فلذا قيل ان الرئيس ولسن قد وافق او القيت عليه تبعة ماجري ، فلا بد لنا من سؤالك هل المعاهدة تنطبق على القواعد التي دعوت اليها في خطبك ؟ اني اقول بصراحة لا ، واعتقد ان الالمان محقون باحتجاجهم ، فالمعاهدة مناقضة بنصها وروحها لما وضعته من قواعد ، واني لا ارى في هذه القواعد ما يسوغ كثيراً من شروط المعاهدة ، وما اشد خوف الشعوب التي ترى انه لم يعقد السلم بحسب قواعد الرئيس ولسن ، واننا تناسينا ما وعدنا به ، وعاهدنا العالم عليه ، واذا رأى الناس اننا نقضنا عهودنا بانفسنا ، فاي عار يا حقنا وسيكون هذا السلم نكبة اشد من الحرب .

ولم تقتصر هذه الانتقادات على رجال الامبرطورية البريطانية فقد شاركهم فيها سواهم من ساسة الدول المتحالفة ، فقال المسيو فندرفلد وزير خارجية بلجيكة باحثاً عن مراقبة المانية العسكرية التي قررتها معاهدة فرساي : من اكبر الحماقات واشد الاوهام خطراً الاعتقاد بان المراقبة العسكرية في المانية تسوى قضية الامان والسلامة ... وطالما يوجد في اوروبا شعب مؤلف من اربعين مليوناً مدجج بالاسلح ومعمز بالخلفات ، يريد ان يحمل شعباً آخر مؤلفاً من ستين مليوناً ، على ان يبقى اعزل من السلاح ، مجرداً من الجيش ، مقتصرأ على قوى الأمن ، متحلاً بدون

اجابة قانون الغالب ... فبوسعكم ان تتخذوا جميع وسائل المراقبة في العالم ، فانها لاتمنع المغلوبين ان يلجأوا الى جميع الحيل للاستعداد والمقاومة ، والتاريخ يعيد نفسه كما جرى بعد تلسيت ... ولا يمكن الوصول الى اي غاية باكره بعض الشعوب على التجرد من السلاح ، ولكن يمكن الوصول الى كل غاية بالالتجاء الى تسويات دولية عامة عادلة ، وذلك بتكوين ارادة دولية مشتركة عند جمع الشعوب لنزع السلاح . وخطب فندرفلد ايضا الذين يريدون الحاق بلاد المانية عنوة فقال: ان الاستعانة بالقوة بغية الحاق اجزاء المانية وارغامها يخلق تطرفاً جديداً في اوروبا ، ويحول حرب المقاومة للجبروت الالماني الى حرب الشعب الالماني لفتح بلاده ، وهذا مايحرم قضيتنا من كل مايسوغها ويعلى شأنها .

وكان لوزاتي مقرر المعاهدة في ايطالية الذي يطلق عليه اسم صديق فرنسة - وان كان رجال الدول لايصح نعتهم بمثل هذه النعوت لانهم لا يكونون الاصدقاء بالادهم - قد ادخل في تقريره انتقادات مرة للمعاهدة ، وقال انه يصنع ذلك لانه لا يريد ان يخون فرنسة في اشد اوقات محنتها ، غير انه حذف الانتقادات العنيفة بعد ان قيل له ان عرضها في مجلس نواب دولة اجنبية يثير الغضب والحفيظة ، اذ ينبغي ان يترك لكل بلاد ان تكشف بنفسها القناع عن اغلاطها .

اما تريبو احد واضعي معاهدة فرساي فلم يبرح يقرظها وقد قل يصفها : كان ٢٨ حزيران ١٩١٩ في قصر فرساي يوم وقع ممثلو المانية المعاهدة .ثيراً في نفوس الفرنسيين ذكرى ٨ كانون الثاني سنة ١٨٧١ ، فما اعظم التناقض بين التاريخين ! وهذه المعاهدة لم تنقض فقط معاهدة فرنكفورت ، بل عصراً ونصفاً من التقهر والتقلب . فبينما كانت الفكرة تظهر متراجعة اذابها تثب بقوة عظيمة ، ولكن تقهر السياسة الفرنسية كان مستمراً ، فقد تقهرت السياسة الاستعمارية في القرن الثامن عشر وانتزعت المستعمرات شيئاً فشيئاً ، وتمادى التراجع في القرن التاسع عشر وضاعت الاتراس واللورين ... ثم كان ان طأنت فرنسة هواها وشعورها وعدل قضيتها باستعادة الاتراس واللورين ونحير فرنسبي السار . واحتفظت بشمرات

النصر ، ونالت من الضمانات ما اذا لم يكن قاطعاً مطلقاً ، فهو اكثر ما نالته من الضمانات في جميع تاريخها .

غير أن تردى نفسه ، المعروف بقوة عارضته ودفاعه عن هذه المعاهدة ، قال في خطبة القاها في مؤتمر نزع السلاح في جنيف في ٨ شباط سنة ١٩٣٢ ، وهو يومئذ رئيس الحكومة الفرنسية ، وكأنه يلتمس العذر لوضع المعاهدة : الآن بعد ان اصبحت ذرى هذه المعاهدة تضاء بانوار المثل الاعلى للتعاون ... فان تلك الشروط الموضوعية لم يكن بالمستطاع ان لا تستوحى من ضرورات الساعة التي كانت تجري المفاوضات فيها ... وقد قضت بها طبيعة الاشياء التي نشأت من ماض قريب ، كما هو شأن كل معاهدة مثاثا تقع على اثر حرب ... هذا امر واقع وانكار الامر الواقع لا يفيد شيئاً والعقود الدولية كالعقود الخاصة تعتبر الظروف التي وضعت فيها بعض شروطها .

ولكن اي سلطة اخلاقية تبقى لمعاهدة انكرها واضعوها كما انكرها المغلوبون الذين املت عليهم ، وكيف يستغرب اذا شاع في المانية ان كلمات رجال الدولة من الحلفاء قبل وضع المعاهدة لم تكن الا صنعة نفيسة من الرياء ، وقد تمسكوا كثيراً في هذه المعاهدة التي لم تكن في حقيقةها الا ميثاق هدنة ، وقد وصفها الرئيس هو فر بقوله في خطبة القاها في واشنطن سنة ١٩٣٢ : انها ينبوع عظيم للقلق والاضطراب السياسي . وقضى واسن بحبه وهو يضلم غيظاً من الذين حملوه على قبول هذه واضطروه الى التخلي عن المبادئ التي وضعها وعقدت عليها الشعوب آمالها .

واذا كانت معاهدة فينة قد ولدت بدون حياة لانها انكرت الحقيقة الناشئة وهي حقوق الشعوب ، فان معاهدات سنة ١٩١٩ ولدت كذلك بدون حياة لانها لم تنظر الى القانون الجديد الذي ينبغي ان يخضع العالم له ، وهو نمو قوميات في نظام من القانون المشترك الذي يربط بينها وينظمها ويمنع قيام بعضها على بعض ، ولو تم ذلك لكانت دفعت كثيراً من المشاكل والضغائن التي اثارت الدول وباعدت بين الشعوب ، وقد وقفت اوروبا مستخفة باحتجاج المانية على معاهدة فرساي ، كما استخفت من قبل باحتجاج دول مغلوبة على معاهدة ظالمة لم يقض عليها الا بالنار

والدم ، وقد انذر الجنرال فيغان فرنسة بقوله في كتابه المشهور عن « تورن » : يقع في الغالب المنتصر بعد الفوز في الحرب ان يرقد مطمئناً الى ثقة غرارة برجحانه ، على حين ان خصمه يجد ويدأب في البحث عن اسباب انكساره ويعمل جاهداً للاستقالة من عثاره ، فمغلوب الامس يصبح غالب الغد ، فان تورخيم تلتها روسباخ وينا تلتها سدان ، وبعد سدان وتوند ، فعسى ان لا ينسى ذلك .

اما بولونية فقد ايدتها فرنسة تأييداً عظيماً وعقدت عليها آمالاً كبيرة ، حتى انها لم تحف حزنها في الماضي عندما احتل الروس فرسوفية ، وقد اطلق على ابنائها اسم فرنسيي الشمال ، على انها لم تأت الا متأخرة الى صف الحلفاء ، فقد كان بلسودسكي مشايحاً للامان في بادىء الامر ، وارادت فرنسة ان تقيم منها دولة كبيرة حليفة على حدود المانية ، ولكن اتساعها وحكمها للعناصر الروسية والعناصر الالمانية ، جعلها عرضة للخطر الذي وقعت به ، اما نظامها فقد قام على رغائب العسكريين وخطط بلسودسكي وعبقريته المريضة ، وبدأ الخلاف بين البولونيين والامان بعد الاستفتاء الذي جرى في سلزمية العليا والفت لجنة لتسوية ، فبذرت معاهدة فرساي بذور الخلاف بين الفريقين ، وكان كل الماني ينظر الى بلاده المنفصلة بعضها عن بعض يأخذ منه الغضب مأخذه ، فالرواق البولوني ودنتريغ من نتائج تلك المعاهدة السيئة ، وقد خدع العسكريون البولونيون بانفسهم واعتدوا كثيراً بقوائم سيوفهم ، وانشأوا في بلادهم حكماً لا يحد في اوربة من مدحه الا الذين كانوا يمدحون من قبل القيصرية الروسية ، وكان من آثار هذا الحكم ان عم البلاد البؤس والشقاء والاستبداد ، حتى ان رئيس الحكومة البولونية التي تألفت في فرنسة بعد ان اجتاحت الامان والروس بولونية ، الجنرال سيمكورسكي ، قال في خطبة له : ان عاملين جوهرين يعثاننا على مواصلة الجهد في سبيل انبل الغايات نعي الغاية الوطنية ، فالعامل الاول هو انكار انظمة الحكومات السابقة انكاراً باتاً والتنصل منها ، فقد كانت تهمل شؤون البلاد الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الوقت الذي كان يأخذ فيه العدو عدته ، وتعمل ما تشاء بدون ان تكثر بمراقبة الرأي العام ، فكانت هذه الاساليب والانظمة

من اسباب الاهمال ، فعلياً ان نستفيد من اشد الحوادث ايلاً في تاريخنا حتى نجتنب تجديد مثل هذه الاغلاط في المستقبل، والعامل الثاني الذي يرشدنا في مساعيها هو ان يكون كل رجل في المكان الذي يجدر به، على حسب ماعنده من غناء وكفاية ... حتى نعيد احياء مدارس من مهاد الوطن . ونكون في شدة حبنا له عاملين على بعثه كرة اخرى ، فتكون بولونية مجيدة ، عامرة ، كبيرة ، سعيدة اكثر مما كانت عليه في ماض قريب .

وقد وضع الكونت سفورزا كتباً عديدة ، وصف فيها حالة اوروبا وما خلفته معاهدة فرساي من مشاكل وعقبات ، فبحث عن المواد الاربعة عشرة الولسنية ، وعن سياسة فرنسة والمانية التي ادت الى القضاء على كل ما رجى من اساليب التقارب وعلى كل ما يعول عليه من خطط الرئيس ولسن ونواياه ، فطويت بذلك الأسس الاخلاقية التي اسدات الستار على الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، على حين ان المانية القت سلاحها في الحقيقة بعد ان وعدت بتطبيق هذه القواعد ونزت على شروط الهدنة ، ولكن لم يبق منها الا رسم ضئيل ، واتخذ الالمان سبب الاخلال بها وسيلة لمحاربة صالح فرساي الذي املت عليهم شروطه ، فجردت المانية من سلاحها ولم تسو المسائل الاستعمارية تسوية عادلة تراعى فيها مصالح السكان ، واكتفى باقصاء المانية اقصاء تاماً عن المستعمرات ، ونفذت كل التنفيذ المسائل المتعلقة بانشاء الدول الجديدة ، وتعمير البلاد الخربة ، ومنح ايطالية الحدود التي تريدها في اوروبا ، واعادة الازراس واللورين الى فرنسة ... وتكليف المانية باعباء ثميلة من التعويضات لم تنته الا في مؤتمر لوزان .

وبحث هذا السياسي الايطالي عن سياسة التقاليد، فقال : انذكروا النسيان؟ ايها اكثر فائدة في السياسة ؟ قد تكون الحياة غير ممكنة اذا لم يكن هناك نسيان ، او على الاقل ابعاد الذكريات التي تبقىنا عائلشين تحت تأثير الماضي وساطفانه عن خواطرناء، على ان السياسة الخارجية هي في ذاتها تقليدية ، فذكريات التاريخ توحى الحكمة والسداد ، ولكنها تخفى في ثناياها بذور الاحقاد والشكوك ، وقد كان يقول جول

كـمـبـون : ان سياسة لويس الرابع عشر لم تضمحل آثارها في المانية ، وقد عززت المعاهدات بروسية ومكنت لها في اوروبا وجعلتها مركزاً للتنظيم الجرمني ، وكان يظن ان هذا العالم يبقى بدون نظام ولا وضع ، واذا كانت معاهدة وستفالية بقيت منذ توقيعها في سنة ١٦٤٨ الى ايام انثورة اثرأ من آثار السياسة الفرنسية وصنعها النفيسة ، فان معاهدة فينة كانت نظيرألها صنعة مترنيخ النفيسة في تقسيم ايطالية .

وقال : عندما كنت سفيراً في فرنسة كنت افكر كثيراً بان كل درج في السكي دورسي يحتوي على نسخة من معاهدة وستفالية التي كانت قد استأهت قواعدھا وخططها من حالة اوروبا بعد حرب اثلاثين سنة ، والتي بقيت كالكتاب المقدس في بعض المحافل والدوائر التي استولى عليها مرض الحنين للماضي ... وقد الممت الى ذلك في حديث مع الميوسوريان ، فاجابني نعم ! نعم ! معاهدة وستفالية ... وقد شعرت انه لم يكن كثير الثقة بالتوارخ والتقاليد ، ثم تبسم بعد ذلك وهو يقول : ان هؤلاء السادة في السكي دورسي اقوياء في التاريخ ولكنهم قلما يعرفون الحياة .

وقد كانت تجزئة الشعب الالماني هي الفكرة الكبرى التي ورثها الفرنسيون من معاهدة وستفالية ، واتخاذ دولة النمسة وسيله لتجزئة المانية الى دولتين على الاقل ، وهذه الفكرة هي التي سادت بعد الحرب عند الفرنسيين الذين يستخرجون من القرن السادس عشر اسباب السياسة وعللها في القرن العشرين ، واذا نظرنا الى خطة فرنسة نحو المانية وخطة انكلترة نحو نابليون وجدنا تفاوتا عظيماً ، فقد كانت انكلترة اشد الدول حقدأ على الكورسيكي المتغلب وعلى البلاد التي سلمت له مقاليدھا ، ولكن ما عاد السلم الى نصابه حتى ردت انكلترة الى فرنسة ما كانت انتزعته من مستعمراتها (الجزر والسنغال) ، بل ان اللورد كاستلرغ كان يقول في خطبة يرد بها على انصار الالحاق : اني اعتقد اعتقادأ لاشك فيه : ان سمعة بلادنا وقوتنا وعظمتنا وصدقنا اھم لدينا في اوروبا من هذه الالحاقات ... والغريب ان نابليون كتب في سانت هيلين يزدرى حماقة اللورد وجهله ، ويستغرب كيف ان الانكليز لم يستبقوا لانفسهم همبورغ وجلاوة وسمطرة والمرتينيك .

وبحث ايضا الكونت سفورزا عن نزع السلاح فقال : كان المراد من نزع سلاح المانية ان يكون مقدمة لنزع سلاح عام ، على هذا قام مبدأ ولسن ، وارسل كلمنسو مذكرة الى الالمان ، واتفق الحلفاء والالمان على ذلك ، وقد كان في قضية نزع السلاح عامل خوف وخشية فاهتمت بعض الدول وخاصة فرنسا اهتماما شديدا بأمانها وسلامتها ، واذا سوغ لهذه الدول ان تهتم بمصائر امورها وصيانة بلادها ، فلا عجب اذا اهتم الالمان ايضا في امانهم وسلامتهم ، وقد كان يعتقد كثير من الفرنسيين انه من الاخلاص في الوطنية الماطلة في شروط نزع السلاح فيما يتعلق بهم والاكتفاء بنزع سلاح المانية ، على ان نزع سلاح امة او تحديد صلاحياتها في البر والبحر ، قلما يؤدي الى فائدة ، فقد اشترط على روسية ان لا تكون لها بواخر حربية في البحر الاسود سنة ١٨٥٦ ، ولكنها الغته بعد ذلك سنة ١٨٧٠ وابلغت الدول ماعملته ، فلم تحر جواباً ، وقد تعهدت بروسية ل نابليون الأول في نلسيت ان تبقى عشرة اعوام محددة السلاح ، ثم تدخل في النظام العام ومع ان فرنسا كانت يومئذ قوية وروسية ضعيفة فان نابليون لم يطلب نزع سلاح دائم كطلب في القرن العشرين ، وكان يظن نابليون انه يراقب بروسية ولكن مراقبته كانت عقيمة كما كانت مراقبة الحلفاء المانية بعد فرساي ، ولم يحجم يومئذ رجال بروسية مثل شتاين من مخاطبة ملكهم فردريك غايوم الثالث بقولهم ، ان المعاهدة لا تمنعهم من العمل على حماية انفسهم بالخديعة دفعاً للهناء والعنف ، ويضيفون على ذلك قائلين : هل اذن الامبرطور نابليون وحده ان يقيم التسليط مقام الحق والباطل مقام الصدق ، وهذه تجربة الفرنسيين الأولى التي لم يطل امدها والتي كانت عاقبتها مريرة خائبة .

على انه اذا كانت المانية قد تسلمت بعد الحرب العظمى فهذا دليل على ان قيود فرساي لم تجدد نفعا ، كما ان حذر نابليون ما كان مجدياً له ، واعظم ما اصابه هو من سوء تقديره لبروسية الغزلاء ، وبعد ان انتهت سكرة النصر الأولى عم الفرنسيين شعور اشتركت فيه جميع الاحزاب وجميع الطبقات ، وهو عدم الرضى ولا سيما عدم الرضى عن انفسهم ، فقد كانوا يعارضون في الحوادث التي كانت مقدره ومنتظرة ، وكانوا يسامعون بها بعد ذلك عندما تحمل لواء الامر الواقع ، وكان

قليل من الاجانب الذين كانوا قادرين على معرفة فرنسة وتفضيلها على سياستها وعلى عامة صحفها . وكان الانكليز كلما وجه اليهم ملام قالوا ماذا نصنع ؟ هذا خطأ فرنسة . ولا ريب في ان هنالك ما أخطأت به فرنسة بعد الحرب ، فقد اضاءت قناعتها بقوتها الحقيقية ، و ارادت الاكتفاء بالاستعدادات العسكرية واقامة سور على طول حدودها .

وقد جاء في كتاب وضع باللغة الانكليزية والفرنسية عن الرئيس واسن وتنظيم العلاقات بين فرنسة والمانية استناداً لأوراق الرئيس ووثائقه ، ان فرنسة قد نالت ماتريد من نزع السلاح في شاطئ الرين ، ومن احتمال بعض المناطق القائمة على الحدود وتجريد المانية من السلاح ، ولكنها لم تكتث بقواعد النظام الذي كان يراد تأسيسه بدلاً من الاساليب القديمة ، وحققت اكثر ماترمي اليه في حرمان المانية من مستعمراتها وفي الانزاس والاورين وفي حدود بلجيكية وفي الشمال والشرق من اوربة ، وسلبت المانية ما كان لها من نفوذ في الكمبرج ، واقامت المعربات في سبيل اتحادها مع النمسة ، واحرزت من الناحية الاقتصادية مراقبة شاطئ الرين الايسر ، وحملت المانية اعباء تعويضات عظيمة ونفقات احتلال ورواتب جنود ، ونشأ من ذلك اضطراب المانية الاقتصادي وان كان دون الغاية التي ارادتها فرنسة ... ومع ذلك فهل ادركت فرنسة بهذه الوسائل ماتبعيه من امان وسلامة ؟ لو سئل اي فرنسي عن ذلك لأجاب سلباً ، وان كانت الحجة تخلف ، وقد يعد الحلفاء السبب في ذلك ، ولكن هناك وسيلة تبقى الشعب الالماني بوضع دون الشعب الفرنسي والاول يزداد نمواً ويفيض قدرة ونشاطاً ، واثاني مستغرق في محافظته ونقص لداته ؟ ومع ذلك فلا بد من الاكراه والتوسل بغير ذلك من الوسائل التي لا يمكن ان تضمن سلامة فرنسة وسلامة العالم ، والامل الوحيد الذي يبقى لها هو العمل على تحقيق النظام الجديد والاخذ فيه بعزم وتصميم واخلاص . ولكن تقديم رجل في النظام الجديد وابقاء اخرى في النظام القديم لا يفيد ابداً ، والسلامة التي تبحث عنها فرنسة ، حتى التي ادركتها ، لا تكون الا مصدراً للأحقاد والمشكلات فتقود العالم الى كارثة جديدة ... وذلك ما حدث بعد عشرين سنة .

خاتمة

من ولسن الى روزفلت

في خريف سنة ١٩١١ والمعمعة الانتخابية على اشدها زار المستر فرنكلن روزفلت الدكتور وودرو ولسن حاكم ولاية نيويورك وسي واحد مرشحي الديمقراطيين لرياسة الولايات المتحدة ، فتبادلا مقدمات الكلام وصيغ المجاملة في فترة من الزمن ، فكان اثر هذه المحادثة ضئيلاً بادىء الرأي في نفس روزفلت ، حتى تردد في خاطره الشك بقدره هذا الفيلسوف الهاديء المطمئن على السير بالولايات المتحدة قدماً ، وقيادة عناصر التقدم فيها ، التي تبحث عن قائد حازم مقدم ، واحس بان مزاجيهما على طرفي نقيض ، غير انها مالبثا ان تغلغلا في شجون الحديث ، فانطلق ولسن يكشف القناع عن دخيلة امره وشدة مراسه ومستقبل سياسته ، وهنا اخذ روزفلت يشعر رويداً رويداً بزوال الوحشة الأولى ، ووجد انه بين يدي رجل هو ضالته المنشودة ، وان كان منقبضاً في حياه ، قد اربى على الكفاء وتميز عن النظراء ، شريف المباديء ، جرىء الخطوات ، بعيد المدارك ، جدير ان يحمل لواء الديمقراطيين ويقودهم الى مواطن الظفر .

وظل كذلك روزفلت بعد ان جلس ولسن على اريكة الرياسة ، وهو بين جماعة مريديه واكابر انصاره ، وكان في الوفد الذي سافر الى اوروبا امعد مؤتمر السلم ، بعد الحرب العالمية الأولى التي قيل بومئذ انها ستكون آخر الحروب ، واطلع على ميثاق عصبة الأمم الذي عقد عليه الرئيس رجاءه واناط به آماله ، في انشاء عالم جديد ونظام سديد وسلم دائم وعدل شامل وحق سائد ، حتى اذا انتهت اليه الرئاسة سنة ١٩٢٣ وقد اشرف عهد الجمهوريين على الانقضاء ، تحدث الى سكرتير الدولة شيمسن ، وهو يمثل المائدة التي كان يراجع عليها سلفه الكبير ولسن

صحائف الميثاق في سفينة جورج وشنطن في طريقها الى اوربة ، ويستعيد في خاطره ذكرى ذلك الرجل المثالي بين رجال السياسة ، وما في قلبه من عقيدة وحماسة ، وفي رنة صوته من صدق واخلاص ، وفي سمو دعوته الى قواعد اخلاقية تدير للمها الدول والامم ، فبرقت عينا روزفلت ، والنفت فجأة الى سكرتير الدولة ، الذي استغرب استغراباً شديداً هذه المفاجأة ، وهو يقول اني ساصنع ذلك .

وفي الحق ان روزفلت سلك هذه السبيل ، واقتفى آثار ولسن ، وفاقه في خطاطه العملية ، وكان يعتقد ان اعظم مهمة لرجال الدولة تربية الامة وارشادها ، والتوصل بوسائل الاقتناع وضرب المثل في انتضحية لنيل المؤازرة العامة في السياسة التي يراد اتباعها ، واتخاذ المناهج الفنية لبلوغ اغراضها ، وقد جرب ذلك حينما اراد ان يحمل بلاده على خوض غمرات الحرب ، عندما اوشكت المانية ان تملك قياد العالم ، فسار ببلاده سيراً ليناً حتى اخرحها من الحيادة ، وحملها على قبول مبدأ الاعارة والتأجير ، وتغلب على دعاة العزلة ، وانشأ قواعد الحريات الاربع كما انشأ ولسن قواعده الاربعة عشرة ، ووقع الميثاق الاطلسي الذي مهد فيه الامم المتحدة هو وتشرشل ، كما وضع ولسن الميثاق الذي قامت عليه عصبة الامم .

وقد اغرق مقرظو الرئيس روزفلت بالاشادة في مديحه ، حتى كادت المبالغة تطمس محاسنه ، ووجد ناقدوه مغامر كثير في سياسته الدبلوماسية ، ولم يكن احد يعلم اكثر منه ان سبب اخفاق الرئيس ولسن في تنفيذ خططه انه لم يعد لها العدة والزمان موات له ، ولم يشترط على حلفائه ، وبهم حاجة شديدة اليه ، شروطاً واضحة بيينة ، اقوى من المبادئ العامة والقواعد المبهمة ، ولذلك فانهم عندما ظفروا بعدوهم لم يعودوا يأبهون لآرائه بل انهم كوه في مفاوضات طويلة مضنية . وكذلك كان شأن روزفلت فلم يأخذ العمود والمواثيق لما بعد الحرب ، وكان يصد عن تحذير المحذرين ويقول ليس لي غاية الآن غير الظفر ، املاستالين الحول القلب الذي وجدته في طريقه فكان يلقى نظراته الى ما بعد الظفر ، ويأخذ لكل شيء اهميته وبعد عدته ، وقد حمل روزفلت نفسه مشاق كثيرة ، اودت في النهاية به ، ليخلفه من غلواء ستالين

في مؤتمر طهران وبالطاقة وغيرهما ، على انه قبل ان يقضي بحبه افغنى بذات صوره الى بعض المقربين له ، وشكا من اساليب ستالين وساسة الروس الذين كانوا قد اذكروا خططهم ، واستفادوا من غفلة حلفائهم عن الاخذ باسباب الحيلة والحذر ، حتى تمكنوا في المؤتمرات المتوالية من بسط سلطانتهم على نحو ثلث العالم وهم جادون في السيطرة عليه كله ، يبدئون الدعوة في جميع ارجائه ، ويمدون ماستطاعوا من قوة .

وكان روزفلت يقول في سنة ١٩٤٠ ، ان الاتحاد السوفيتي ، كما يعلم كل امريي يريدان ان يواجه الحقائق ، يحكم حكما دكتاتوريا مطلقا كمثل حكم دكتاتوريات في العالم ، ولكنه قال قبل انتهاء سنة ١٩٤١ ، ان الدفاع عن الجمهوريات الاشتراكية التي تؤلف الاتحاد السوفيتي ، دفاع عن الولايات المتحدة نفسها ، وقد واصل الحرب بشدة وعنف لاهوادة فيها ، واصر على تسليم الاعداء في الشرق والغرب تسليما لا قيد فيه ولا شرط ، حتى خلا الجو لخلفاء اقياصرة ، واصبح الناس يتحدثون بانه لامناص من حرب ضروس ثالثة وشيكة الوقوع ، لتسوية المشكلات بين العالمين الرأسمالي والشيوعي حتى تكون الغلبة لاحدهما ، وان كان يقال بين حين وآخر ، انه دئنة النفوس القلقة والقلوب الواجبة المضطربة ، انها يستطيعان ان يعيشا كلاهما الى جانب الآخر .



في اول نشأتي السياسية الا دمية تأثرت كثيرا بدعوة الرئيس ولين ومبادئه الخلقية ، وكنت في تتبعاتي ودراساتي بعد الحرب العالمية الاولى اميل كثيرا الى مطالعة الكتب والمذكرات السياسية التي لها صلة بذلك ، وزاد في ذلك الاثر عندي ان الرئيس ولسن ابدى عناية كبرى في تأييد مطالب السوريين ، وان اللجنة الاميركية التي بعث بها الى هذه البلاد وضعت تقريرا في مصلحتها بل في مصلحة عرب فلسطين ايضا ، واستنكرت ان يعود اليهود بعد اني سنة الى البلاد التي عمرها غيرهم من بدمهم وطبعوها بطابع حضارتهم ، وكانت فيها مساكنهم واوطانهم ، ولكن الرئيس ولسن كما قال لي سفير الولايات المتحدة وبنانت في لندن سنة ١٩٤٥ ، قد

تضائل نفوذه ، فذهب هذا التقرير نسبياً منسياً ، الا ان بعض الدوائر العلمية التي مازالت تستشهد بمحتوياته .

وقد اتاح لي انقدرا ان احملي في يوم شديد القيل من سنة ١٩٤٤ جواب الحكومة السورية لممثل الولايات المتحدة في سورية ولبنان المستر وودسورث ، وكان يومئذ في بيروت وهو اليوم سفير بلاده في تركيا ، وذلك في شأن الاعتراف باستقلال سورية ، وكنت سعيداً بهذه المهمة كما انني شهدت مناقشات مجلس الامن في اثناء الدعوى التي اقامتها سورية ولبنان على فرنسا وانكلترا ومطالبتهما بالجلاء ، وكانت مؤازرة مندوبي الولايات المتحدة ظاهرة بيئة ، ولانس حسن الصلات التي كانت في لندن بيني وبين سفارة الولايات المتحدة وموظفيها المختصين بشئون الشرق . وكنت احادث السفير هريمان ذات مرة في المشكلة الفلسطينية وقد حملت اليه مقالاً كتبته جريدة السبكتير في شأن العلائق العلمية التي كانت في الماضي بين الدول العربية وبين الولايات المتحدة ، وما قامت به الجامعات الاميركية من بث افكرة الوطنية والدعوة الحرة والنهضة العلمية والاجتماعية ، وكيف ان موقف الولايات المتحدة في تأييد الصهيونية قد صرف عنها قلوب الكثيرين من اصدقائها العرب الذين نشأوا على حبها ، دولة ديمقراطية حرة ، وأثر فيهم تأثيراً شديداً .

ولعل آخر مسمى قمت به وانا في لندن كان في سفارة الولايات المتحدة ، في ختام مأدبة اقامها السفير دوغلاس المستر بفن قبل سفره في آذار السنة الماضية الى واشنطن ، فتحدثنا ملياً في امر فلسطين ، وقد ارسلت بذلك تقريراً للحكومة في حينه ، وسانشر مايسوغ لي نشره من هذه المحادثات والتقارير في الكتاب الذي اعده بعنوان : « رسائل من لندن » .

المفرد

ص

تمهيد :

- الفصل الأول : مكيفلي مؤسس السياسة الحديثة
- ١ — السياسة التقليدية
- ٧ ٢ — الاخلاق والسياسة
- ٩ ٣ — التآمر والنكت والغدر
- ١٢ ٤ — اصول الحكم
- ١٤ ٥ — مكيفلي بين انتصاره وخصومه
- ٢٣ ٦ — طائفة من آراء مكيفلي
- ٣١ الفصل الثاني : رشليو وتقاليد فرنسة السياسية
- ٣١ ١ — سياسة فرنسة الخارجية
- ٣٥ ٢ — رشليو في طريقته وأسماليه
- ٣٨ ٣ — رشليو ومزran
- ٤٣ ٤ — نضال فرنسة للامبراطورية المقدسة
- ٤٦ ٥ — تبدل السياسة الفرنسية واضطرابها
- ٥٥ الفصل الثالث : نليران داهية السياسة
- ٥٥ ١ — اوروبا والثورة الفرنسية
- ٥٨ ٢ — السياسة الخارجية الجديدة
- ٦٢ ٣ — مشكلة الحدود والسياسة في ايام الثورة

٧٠	٤ — الحدود الطبيعية وتقاليد الفتوح
٧٦	٥ — صفات تلميران واخلاقه السياسية
٨٠	٦ — تلميران ونابليون
٨٥	٧ — تلميران في خدمة فرنسا
٩١	٨ — تلميران في اواخر ايامه
٩٤	الفصل الرابع : مترنيخ في سحره واساطير سياسته
٩٤	١ — سياسة النمسة وامثورة الفرنسية
٩٨	٢ — مترنيخ والسياسة الاوربية
١٠١	٣ — احباط خطط نابليون
١٠٧	٤ — اوربة في عهد اسكندر ومترنيخ
١١١	٥ — الحاكم بأمره في النمسة
١١٣	٦ — اوصاف مترنيخ والآراء فيه
١٢٠	الفصل الخامس : كافور قطب الوحدة الإيطالية
١٢٠	١ — القواعد الاساسية لانشاء الامم والشعوب
١٢٤	٢ — مبشرات النهضة الإيطالية
١٢٨	٣ — مزني وكافور
١٣٠	٤ — الحرب والسياسة في تكوين الدولة
١٣٧	الفصل السادس : بلمرستن وآساليب السياسة البريطانية
١٣٧	١ — المصالح والسياسة في القرن الثامن عشر
١٤٢	٢ — وليم بيت والثورة
١٤٦	٣ — منشأ بلمرستن ومميزاته
١٥٣	٤ — النزاع بين انكلترا وفرنسا
١٦٠	٥ — السياسة الانكليزية ونابليون الثالث
١٦٧	٦ — شكوك فرنسا بالسياسة الانكليزية

الفصل السابع : بسمرك رجل الدولة العظيم ١٧٥

- ١ — المانية قبل الوحدة ١٧٥
- ٢ — بوادر المستشار الحديدي ١٨٣
- ٣ — شانزويغ — هولشتاين وحرب النمسة ١٩٠
- ٤ — حرب فرانسة وتأسيس الامبرطورية ٩٦١
- ٥ — سيااسة بسمرك الاوربية ٢٠٣
- ٦ — بسمرك والمحالفات الدولية ٣٠٧
- ٧ — استقالة بسمرك وسياساته التقليدية ٢١٧

الفصل الثامن : الرئيس ولسن والسياسة الاخلاقية ٢٢٥

- ١ — الرؤساء الثلاثة ٢٢٥
- وشنطن ٢٢٥
- لنكلن ٢٢٩
- ولسن ٢٣٦
- ٢ — حرب سنة ١٩١٤ ومسؤوليتها ٢٤٤
- ٣ — تطور الآراء في اثناء الحرب ٢٥٢
- ٤ — طائفة من اقوال الرئيس ولسن ٢٥٨
- ٥ — بين النظام القديم والنظام الجديد ٢٦٢
- ٦ — المعاهدات السرية ٢٦٦
- ٧ — العهد الدقيق في مؤتمر السلم ٢٦٨
- ٨ — مخدورات صالح فرساي وآراء رجال السياسة ٢٧١

خاتمة : من ولسن الى روزفلت ٢٨٥

الخطأ والصواب

خطأ	صواب	ص	س
عالماً فيلسوفاً واستاذاً مفكراً	العالم الفيلسوف والاستاذ المفكر	٣	٦
بما هي مذهبا	بما هي مذهب	٥	٢
الاشياء	الاشياء	٦	٨
توفر	وفر	٦	١٥
يحكم لا بما	يحكم الا بما	١١	١٤
الجمهوريين	الجمهوريين	١٥	٢٠
بسوءها	بسوءها	١٧	٣
ملكة	ملكه	١٧	١٣
مؤاربه	مواربه	٢٠	١٤
الانصاف	الاتصاف	٢٦	٢١
الجمهوريات	الجمهوريات	٢٩	١٣
خمسائة	خمس مئة	٣٥	٦
ولذين	والذين	٤٣	٢٢
الذينهم	الذين هم	٥٧	٤
اثنتي وعشرين	اثنتين وعشرين	٥٧	٨
دوستايل	دوستال	٨١	٦
ص	موص	٩١	١٨
لاستيلاء	الاستيلاء	٩٥	١٣
اميرامها	اميراتها	٩٧	٨
وقعا	واقعا	١١٠	٦

الخطأ	الصواب	ص	س
واهواه	واهواه	٨٣	٩
المسمي	المسمى	٨٤	١١
التهالك	التهالك	٨٩	٤
الصفة	الصفات	٩٢	٢
لنستفيد	لنستفيد	٩٧	٧
تهرب	تهرب	٩٩	١٥
لاريد	لايزيد	١٠٠	١٦
القضية نظروا	القضية ونظروا	١٠١	٤
افريق	الفريق	١٠٧	٤
مجاورها	مجاورها	١٠٨	١٨
ذة	ذمة	١٠٨	٢١
خصا في لد	خصيباً في بلد	١٠٩	٩
الحياذ وعند	الحياذ عند	١١٠	٢٤
ينتبع	يتبع	١١٨	١
اراهما	اراءهما	١١٩	٥
قارة	قادرة	١٢١	١٥
بالمستطاع	بالمستطاع	١٢١	١٧
تستطيع ان تصون	تستطيع معها ان تصون	١٢٩	٦
او دروز	او دروزاً	١٣٢	٢٢
عليهم	عليهم	١٣٣	٢
لايستطيع	لايستطيع	١٣٣	١٨
الاجتماعية	الاجتماعية	١٣٦	١١
الغرنه	الغربية	١٤١	٦
عيين	عيين	١٤٢	١١
انزعت	انزعت	١٤٢	٢٤
كولاندر	كولوندر	١٦٤	١١

خطأ	صواب	ص	س
حتى	ان	١٧٠	٢
مجمعون	مجمعين	١١٣	٥
نفثكر	نفكر	١١٤	١٨
خطه	خطة	١١٥	١٩
نريدون	تريدون	١٣١	١٥
المنابعة	المتابعة	١٤٢	١٤
حتى ان فرنسة	حتى ان فرنسة	١٥٣	١٨
ن الملكة	ان الملكة	١٦٩	١٨
الارطورية	الامبرطورية	٢٠٤	٧
نقاس	تقاس	٢٠٧	١٨
اجبى	احيا	٢٠٩	٢٢
ترثاحون	ترتاحون	٢١٨	٢٤
٦ - استقالة الخ	٧ - استقالة الخ	٢١٧	٢٠
هزوء	هزء	٢٢٠	٩
دراسة	دارسة	٢٢٦	١٨
ادرة	ادارة	٢٢٧	١٣
يتقد	يعتقد	٢٤٢	١١
مارعين	بارعين	٢٥٢	٧
السكائة	السكارثة	٢٥٢	١٤
مرذلانا	مردلنا	٢٥٥	٢٤
نعزز	تعزز	٢٦٩	١٠

تقديمه

نشرنا في القسم الاول من هذا الكتاب ، في آخر البحث عن الاتحاد العربي وما يقال فيه ، من السطر ٦ صفحة ١٣٤ الى آخر البحث ، كلمة كنا نشرناها في مجلة الرابطة العربية ، جوابا عن سؤال في هذا الموضوع ، في العدد الصادر في ٢٣ ايلول سنة ١٩٣٦ ، حسبها بعض الكتاب الافاضل انها تعالج شؤون الجامعة العربية اليوم ، وجامعة الدول العربية ، على انها كتبت قبل نحو عشر سنين من انشاء هذه الجامعة . ونذكر بهذه المناسبة ، انه وقع في الكلمة المذكورة اغلاط مطبعية ، مثل ١٩٢٤ بدل ١٩٣٦ في سطر ٦ صفحة ١٣٤ ، وسدت طلالها بدل ومدت ظلالها في سطر ١٠ من الصفحة المذكورة ، وصلات متشابكة بدل صلات متشابهة في سطر ٤ صفحة ١٣٥ .

وقد ورد ايضا من الاغلاط المطبعية في السطر الرابع من صفحة ج من مقدمة الكتاب في القسم الاول : وان يلتمسوا وجود التأويل بدل من : وان يلتمسوا وجوه التأويل .

مراجع الكتاب : القسم الاول والقسم الثاني

١- اللغة الانكليزية

The foreign affairs reader	Armstrong
The great globe itself	Bullitt William C.
Speaking frankly	Byrnes James
The second world war	Churchil W.
England, the unknown isle	Cohen - Porthein Paul
Crusade in Europe	General Eisenhower
The life of Neville Chamberlain	Feiling Keith
Studies in diplomacy and statecraft	Goock. G. P.
Diplomacy by conference	Lord Hankey
Citizen of the world : Franklin d. Roosevelt .	Hatch Alden P.
The memoirs of Cordell Hull	Cordell Hull
Diplomat in peace and war	Hugessen - Knatchbull
Two memoirs	Keynes John Maynard
Diplomacy in fetters	Ley Victor welles
The british year book of international Law 1947	Lauterpacht H.
Diplomatic prelude	Namier L. B.
Lincoln the president	Randall J. G.
The Habsburg monarchy	Taylor A. J. P.
David Lloyd George	Thomson
Stalin	Trotsky L.
The Rome - Berlin Axis	Wiskemann Elizabeth
A Letter from Grosvenor Square	Winant John G.
Britannica book of the Year 1947	
The history of the Times	The Office of the Times
International affairs review	The Royal Institute of International Affairs

L'Empire Britannique	Magnon de Bornier J.
La vie de Disraeli	Maurois Andre
Les origines du droit international	Nys
La reconstruction de l'Europe politique	Pinon Rene
Les nouvelles tendances du droit international	Poltis Nicolas
Romantisme et Diplomatie :	Paleologue Maurice
Talleyrand Metternich Chateaubriand	
Discours et conferences	Renan
Histoire des grands principes du droit des gens	Redslob Robert
Histoire politique de l'Europe contemporaine	Seignobos Ch.
L'Angleterre dans le monde	Stoye Johannes
L'Europe et la revolution francaise	Sorel Albert
Cinq ans de turquie	Sanders Liman Von
Les freres ennemis	Le Comte Sforza
Les batisseurs de l'Europe moderne	: : :
Synthese de L'Europe	: : :
Traite pratique de diplomatie moderne	Baron de Szilassy
Memoires de guerre	Lloyd George
La paix	Tardieu Andre
Les mandats internationaux	Van Rées
L'Ambassade d'Angleterre a Paris	Wilson Beckles
Messages et discours	Wilson W.
L'histoire des Etats - Unis	
Correspondance secrete de wilow et de Guillaume II	
Le Probleme des Changements Pacifiques dans les relations Internationales	Institut International de Cooperation Intellectuelle
Dictionnaire diplomatique	

Le Politique	Barthou L.
Bismarck	Bainville Jacques
Manuel historique de politique étrangère	Bourgeois Emile
Le président Wilson et le règlement franco-allemand	Baker Ray
Metternich	Fibl Victor
Richelieu	Bailly Auguste
Le Machiavelisme après Machiavel	Benoist Charles
Psychologie politique du peuple anglais	Boutny Emile
Talleyrand homme d'Etat	Blü Franz
Mémoires du chancelier prince de Bülow	Bloch Henri
Le Diplomate	Cambon Jules
La crise mondiale	Churchil W.
Les relations des chrétiens avec les Arabes au moyen-âge	De Mas Latrie
Les consuls de France	Donnadieu James
Mission à Moscou	Davies Joseph E.
Races - Nationalités - Etats	L. Fur
Traité de droit international public	Fauchille Paul
Mémoires de Edward Grey	Vicomte de Fallodon
Souvenirs de guerre de M. Erzberger	
Machiavel	Gautier Vignal L.
Traité de diplomatie	Genet R.
Retour de L'U. R. S. S.	Gide Andre
Ce qui se passa réellement à Paris en 1918 - 1919	Col. House & Ch. Seymon
L'Ecole des ambassadeurs	Jusserand J.
Bismarck	Ludwig Emil
Napoleon	: :
Staline Essai biographique	: :

المؤلف

١ - الحملة المصرية

مترجم من التركية سنة ١٩٢١

او

من باريس الى صحراء التيه

سنة ١٩٢٦

٢ - مفاوضات ووثائق سياسية

سنة ١٩٢٩

بالفرنسية

٣ - الشرع الدولي في الاسلام

سنة ١٩٣٠

بالعربية

٤ - الشرع الدولي في الاسلام

٥ - السياسة الدولية واشهر رجالها

سنة ١٩٥٠

القسم الاول : الاعمال والاخلاق والتقاليد

سنة ١٩٥١

٦ - القسم الثاني : قطاب المناهج السياسية

معد للطبع :

١٩٢٠ - ١٩١٨

١ - الدولة العربية في بلاد الشام

وذكرى الحكومة الفيصلية

شباط ١٩٤٥ - حزيران ١٩٤٩

٢ - رسائل من لندن

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975

May 1975



